رواية

2020
4.1.2020

الجريمة والعقاب

دوستويفسكي

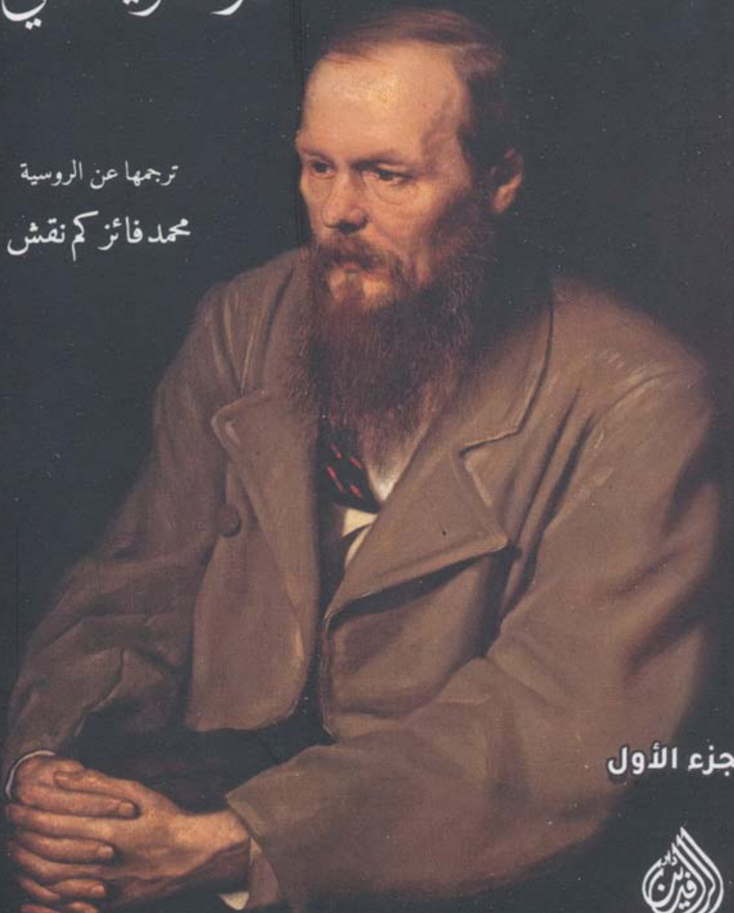

ترجمها عن الروسية

محمد فائز كم نقش

الجزء الأول

رواية

دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

الجزء الأول

ترجمها عن الروسية:

محمد فائز كم نقش

www.daralrafidain.com

الجريمة والعقاب

Crime and Punishment

فيودور دوستويفسكي

ترجمها عن الروسية: محمد فائز كم نقش

مراجعة لغوية: هناء أبو عليوي

الطبعة الثانية: بيروت ـ لبنان، 2019

Second Edition: Beirut - Lebanon, 2019

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com — dar alrafidain

info@daralrafidain.com — Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com — @daralrafidain_l دار الرافدين

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 184 - 7

فيودور دوستويفسكي

«الجريمة والعقاب» أشهر مؤلفات الكاتب الروائي الكبير «فيودور دوستويفسكي» وقد لمع اسمها كقطعة رائعة من الإنتاج العالمي الراقي ونالت من الشهرة ما جعلها تنقل إلى اللغات العالمية الحية، وكان لدار اليقظة العربية بسورية شرف نقلها إلى اللغة العربية فسدت بذلك فراغاً كبيراً في المكتبة العربية.

بين يدي الكتاب

إن من أشق ما عاناه الفكر، منذ أن جنح إلى نقل آثار الأمم الأخرى إلى لغة أمته، أن يستعير القلم الأصيل من صاحبه ثم يلبس عمامته وجبته ـ إن كان له عمامة وجبة ـ ثم يقبع في مكانه يتلو الأوردة والرقى ويتمتم التعاويذ حتى ينضح جبينه عرقاً وتتقلص شفتاه شيئاً فشيئاً إذا هو واقع في غيبوبة عميقة ما يلبث بعدها أن يستفيق عنها إنساناً آخر لعله صاحب الأثر الأصيل.

ومن هنا كان على الناقل أن يتقمص شخصية المنقول عنه وينصهر في بوتقتها انصهاراً كلياً ويفكر بغير عقله وينقل بغير قلمه ليأتي الأثر صورة حية أو «نسخة ثانية» عن النص الأصيل ولكن بلغة أخرى.

ولو اقتصر الأمر على هذا لكان هيناً على صعوبته يسيراً على مشقته، إذ إن على الناقل أن يعيش فكر المنقول عنه، حتى إذا اطمأن إلى أنه استطاع المضي في الطريق واستطاع بالتالي أن يعيش في أجواء ذاك الأثر كان عليه أن يتعرى من الثياب التي استعارها وينطلق من الأجواء التي أوجد نفسه فيها ليتمثل شيئاً فشيئاً ما عاشه ويعود إلى سيرته الأولى رويداً رويداً ويعمل بكل أمانة وإخلاص على كتابة أفكار غيره بأسلوبه هو، ويقرّب ما وسعه الأمر، بين واقعين أو بيئتين هما واقع أصيل وواقع دخيل... فإذا فرغ من ذلك سلخ على اللفظ حياة وأدرج فيه روحاً ونفخ فيه

من وحيه لتأتي التعبيرات حية متحركة لا جمود فيها ولا انقطاع ولا تبعثر فيها ولا تفكك.

ولا مندوحة من الاعتراف بأن الذين يقوون على أن يعيشوا حياة المؤلفين أنفسهم قلة، وهم ـ مع كونهم قلة ـ موجودون فعلاً إلّا أن الجمع بين أن يعيش الناقل حياة المؤلف ثم العمد إلى الإبداع في التعبير في اللغة المنقول إليها ونفخ الروح في ثني كلّ سطر وخلال كلّ فكرة أمر لم يقو عليه إلا قلة القلة وبضعة أنفار حباهم اللّه قدرة على أن يكونوا بقلبين اثنين واحد شرقي والآخر غربي.

على أن نقل الأثر من لغة إلى لغة ومن جوّ إلى جوّ يخضع لكثير من الشرائط المعقدة المقيدة كما يخضع لأساليب مختلفة كل الاختلاف بحسب الغاية والوسيلة.

ولا يمكن لنا بوجه من الوجوه الادعاء بأن أثراً من الآثار المنقولة قد سلم من بعض الزيغ ومن بعض الزيف، ذلك أن الناقد الحصيف هو من ينظر إلى الأثر كأثر أدنى ما يكون اقتراباً من الأصل وأصدق ما يكون تعبيراً عن الجوهر دون أن يعنى بتتبع السقطات التافهة وتحري الهفوات التي تند عن كل قلم وتصدر عن كل من تصدى للكتابة، وقصارانا ـ ونحن على ما نحن عليه من ضعف في الأداة والوسيلة ـ أن نقنع بالأمانة والصدق في النقل، وأن يقوى الناقل على نقلنا من جوّنا الخاص إلى جو المؤلف الذي أراده من وضع أثره.

وما نظرت في أثر من الآثار المنقولة ـ منذ مطلع النهضة إلى الآن ـ إلا وجدت القدح فيه أكثر من المدح، وكل من تحرى العيوب وجدها، فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا ـ كما يقول الشاعر ـ.

وإلى هنا أستطيع أن أقول بكل تجرد ووضوح: لقد استطاعت هذه الفئة المباركة من الناقلين والمترجمين السوريين أن تحافظ على الأمانة في النقل وأن تنقل إلينا الأثر كما وعته وعاشته. وليس لنا أن نعتب على الناقل كونه عاش على هذه الشاكلة ولم يعش على شاكلة سواها إذ إن العصمة للّه وحده ولكن علينا أن نحاول، جاهدين مخلصين، أن نعيش حياة الأثر بصورة أكثر صدقاً إذا استطعنا إلى ذلك سبيلاً. فما زال المترجمون مغرزمين ـ كما يقولون في الشعر ـ وما زال أمامنا من الفسحة ما يسمح لنا أن نصل يوماً إلى مرتبة نقول فيها بحق وصدق: لقد ملكنا أعنة النقل واستطعنا أن نعيش فكر المؤلف وأن نريق في كل لفظة حياة وفي كل خاطرة روحاً.

وإنه لمن باب الاعتزاز الاعتراف بأن دار اليقظة العربية كانت وما تزال السباقة في مضمار تشجيع النقل، فهي بذلك رائدة من روّاد الترجمة، فلم تدخر وسعاً ولا مالاً لتكوّن نواة مكتبة ناضجة فكرها غربي ولفظها عربي، وهي بذلك ولا فخر تقدم للقارئ العربي خير زاد يلقح به فكره ويغير به جوّه.

وقد استعانت الدار لهذا الهدف الأسمى بلفيف من الشباب المثقف الناضج جعلت منه أسرة دار اليقظة العربية، تمتنح ثقافته وتستغلها أشرف استغلال فتوعز إليه أن ينقل أمهات الكتب العالمية المعروفة إلى اللغة العربية ليتمكن القارئ العربي من السير في ركاب الحضارة الفكرية التي ازدهرت في العالم.

وإنه لمن المخزي حقاً أن يظل القارئ العربي متخلفاً من جهة ومحدوداً من جهة ثانية، وقد أدركت الدار هذا العثار الذي يصاب به القارئ العربي فأقامت من نفسها وسيطاً بين الشرق والغرب، تنقل الآثار

الأجنبية الراقية إلى اللغة العربية، وليس ببعيد ذاك الوقت الذي ستنتقل فيه مرحلة النهضة من منفعلة إلى فاعلة، إذ تعمد الدار إلى تكليف خيرة الشباب المثقف الناضج من أسرة الدار إلى نقل آثار اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية فتحقق بذلك هدفاً من أسمى الأهداف ويكون لها شرف فضل تعريف القارئ العالمي على الكاتب السوري خاصة والعربي عامة.

فإذا كانت مقتضيات النهضة توجب علينا في هذه الفترة أن نعمد إلى ترجمة الآثار الأجنبية إلى العربية فتلك مرحلة لا يمكن إلا أن يمر بها كل من يحاول الوصول إلى الشاطئ الآخر من العالم.

عام 1953

المقدّمة

فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي

كانت أسرة دوستويفسكي لتوانية الأصل كاثوليكية المذهب وإن يكن جدها الأول كاهناً أورثوذكسياً يونانياً. درجت الأسرة في أحضان الفقر، فهم أبداً جياع إلى كلمة الله كما هم جياع إلى ما يقيم الأود ويسد الرمق، واستبدت بهم الحال حتى هاجروا عن لتوانيا إلى أوكرانيا ليستبدلوا حياة غير حياتهم ومذهباً غير مذهبهم، فعادوا إلى الأورثوذكسية يعتنقونها كما عادوا إلى الأرض ينقبون فيها عن اللقمة الخالدة. وكانوا أشبه بقبيلة من الرحالة المثقفين الذين تؤهلهم إمكانياتهم لأن يرتادوا المكان الذي تطيب إليه نفوسهم، لا فرق في ذلك بين النعيم والجحيم، شريطة ألا يكون ذلك المرتاد ظلمات بعضها.

* * *

في الثلاثين من تشرين الأول سنة 1821م، وفي هذا الوسط الذي ذكرته لك ولد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي يوم كان أبوه رئيساً للأطباء في مستشفى من مستشفيات موسكو للفقراء، وكان البيت يقع إلى جانب المستشفى الذي يغص بالمرض في كل فصل من فصول السنة، والذي ألحقت به حديقة غناء كانت ملعباً للأطفال ومرتاداً للشيوخ ومنتجعاً لكل

فانٍ يمشي إلى قبره بخطى واسعة.. تلك هي حديقة المرض التي تشكل إحدى ذكريات فيودور المبكرة الأولى. وإن وجدانه ليعي تناقض الحياة الغريب في هذا المكان الذي استوعب البؤس والفقر والمرض جميعاً. كما كان من دواعي استغرابه أن يتألم الإنسان في جوٍّ مفعم برائحة الطبيعة ومتشرع بجمالها وحيويتها، وكلما أغرق في التفكير كلما ازداد إيماناً بتناقض الحياة في كل مظهر من مظاهرها مما هز مشاعره هزاً ولمس أعماقه منذ الوهلة الأولى فرجها رجّاً وخلّف هناك دوياً مستديماً ستبقى أصداؤه تتجاوب في حنايا صدره طوال حياته الطويلة الشاقة.

* * *

يفصل بين الدار وحديقة المرضى جدار ضعيف، وما كاد فيودور ينفض عن قدميه غبار الحبو على أربع ويستقيم ماشياً على قدميه في ضجيج وصخب وسقطات تلو سقطات حتى اجتاز ذاك الجدار الواهي المنخفض ليصل إلى الحديقة الغناء.. غير أن أباه اكتشف هذا التطفل منه فعنفه بشدة وزجره بقسوة ومنع عليه دخول الحديقة أبداً مهدداً بقصاصه إن فعل ذلك. ولكن الصبي الغريب لم يحفل بما صدر عن أبيه من تهديد ووعيد وإنما جعل سبيله إلى الحديقة ثلاث مرات يومياً يريد من ذلك أن يكون إلى جانب المرض رغبة منه في أن يقاسي مثلما يقاسون ويتعذب شبيه ما يتعذبون، لأنه كان على يقينٍ أن أباه سيجلده إذا ما عرف باجتيازه الجدار إلى الحديقة، وهو في هذا الجلد سيتعذب، ولا بدّ لمن يسير في الحديقة أن يتعذب وبذلك يحقق ما جاش في نفسه المتطفلة من أنه سيكون معذباً بين المعذبين في أحضان الطبيعة الجميلة...

تلك كانت أولى الذكريات العميقة التي استوطنت أعماقه ووضعت أولى لبنات إنسانيته التي لا تجاريها إنسانية.

وما كاد يلقي قدمه إلى السادسة عشرة من عمره حتى انتسب إلى مدرسة المهندسين في «بطرسبورغ» نافضاً عن كاهله حياة سجن رهيبة قضاها في دار أبيه، إلا أن المدرسة لم تكن أرحم من تلك الدار التي ضمته، ذلك أن الأساتذة والطلاب جميعاً طفقوا يعتبرونه أبله فانقطع عنهم جميعاً وشعر بلون من ألوان الوحدة التي غرزت بنفسه الشعور بأنه لا رفيق له في الحياة إلا أحلامه «إني لأحلم بما هو عظيم وجميل، وإني لأعيش في عالم من الأحلام وأكتب مأساة وجدانية عميقة» فكان عليه بالتالي أن يعيش في «المحسوس»، ومن أين له أن يعرف شيئاً عن المأساة الوجدانية العميقة بعد أن أمر الوالد ذريته بألا تأتي على ذكر النساء أصلاً إلا إذا ورد ذلك في رثاء أو بكاء.

غير أن شياطين مدرسة المهندسين كانوا يعرفون في السادسة عشرة كل شيء عن النساء فيتخذون من ذلك الشويعر الصغير الأبيض البشرة أضحوكة لهم وأهزوءة يهزؤون فيها حيناً بعد حين فلا يكون من ذلك بالنسبة إليه إلا مجال جديد للانطواء على الذات والتنفيس عما به بالمطالعة، فتراه يلتهم كتب الكتّاب الروس والأجانب على حدٍّ سواء، فهو يطالع لـ«جو جول» و«بلزاك» و«هوفمان» و«شيللر» وأضرابهم دون أن يفضل كاتباً على كاتب...

وما يكاد ينقضي وقت قصير حتى يتعرّف إلى نفر ممن حباهم اللّه صفات تنسجم مع صفاته، فهم فتية حالمون، يقرأون ما دبجته يراع «بوشكين» ويقرظون بين الفينة والفينة أبياتاً من الشعر تعبّر عن أحلامهم المحدودة وأهوائهم الممدودة، لا همّ لهم إلا الجري في أعقاب النساء يسرقون من هذه نظرة ويلصون منها بسمة ترضي أفئدتهم الساذجة البريئة.

وتعلق الفتى بأذيال هذا اللفيف من الفتية وأغرم بهم غراماً شديداً فلبس لبوسهم وجرى في حلبة مجونهم إذا هو بعد حين مطبوع بطابعهم وموسوم بوسمهم، غير أن أباه ما ينفك بين الحين والحين يكتب إليه زاجراً ومؤنباً وناصحاً: «أقم جداراً حول نفسك ونزّهها عن أن تندسّ فيما عليه زملاؤك..».

ويبعث الفتى بالرسائل تلو الرسائل لأبيه طالباً منه عوناً مالياً علّه يشتري ثوباً جديداً أو يرّفه عن نفسه ترفيهاً جميلاً أو «يخطئ» في مجالات الحياة قليلاً...

غير أن الأب لم يعد في ذاك المستشفى الذي عهدناه فيه وإنما يكون قد تركه ليبتاع أرضاً صغيرة في مقاطعة «تولا» تمتص منه جملة ثروته وجملة تفكيره أيضاً، لذا نراه لا يقوى على تزويد فتاه بما يبغيه من مال لمتعة أو ثوب، ويغدق عليه بديل ذلك ألواناً من التعنيف والتوبيخ برسائل صادرة عن نفس قلقة وفكر حائر ويد مرتجفة.. وكان ذلك صنيع «الفودكا» في الأب دوستويفسكي...

إلاّ أن الرسالة الأخيرة التي وردته لم تكن مضطربة الخط ولا قلقة الخاطر والفكرة وإنما كان فيها وضوح واختصار، والتي يطالعها ليقرأ فيها أن أباه انطلق في رحلة إلى ملكية مجاورة ولم يعد منها... إذ وجدوه ميتاً، مدهوساً بعجلات العربة التي سافر فيها والتي اختفت مع سائقها اختفاءً مريباً.. وأكبر الظن ـ فيما يتداوله الناس همساً ـ أن فلاّحي دوستويفسكي الأرقاء قد أراقوا دمه ثأراً، لأن أحداً منهم لم يعد يقوى على تحمّل ما يلقاه من عنته وتعسّفه وقسوته، فأجمعوا أمرهم مع عدد من أهل القرية ونفّذوا فيه قضاء اللّه وأوسعوه قتلاً انتقاماً وتشفّياً...

ومنذ ذاك الحين لم يرد اسم أبيه على شفتيه، وبقي مصرعه جرحاً عميقاً في أعماقه يغرقه بين الحين والحين في ظلمات ليل بهيم مرهق...

* * *

كان الليل يعجّ بالرؤى التي تكيد له وتبعث الهلع في قلبه فلا يقوى إلاَّ على تسجيل تلك الرؤى والخلجات على القرطاس حيث تستحيل حديثاً عن مغامرات نفسية عميقة مترعة بالأسى والعذاب، أو بالأصح الأدق تستحيل حديثاً عن مآسٍ تجري أحداثها ليس «خارج» أبطالها وشخوصها وإنما في «داخلهم» في صميمهم لتتجمّع أخيراً على شكل مجرّد في صورة شيطان لا يحيد بأنظاره عنه أنه الشعب الروسي، هذا الشعب الكبير... وسيحاول الفتى أن يفصح عن خلجات هذا الشعب وأهوائه وسيعمل جاهداً لعلائه ورفعته وسيصبح له عبداً ورقاً.. ولسوف يعبّر عن خفايا هذا الجبل الوطيد من قمته إلى سفحه.

ولقد سبق له أن شاهد القمة في بطرسبورغ يوم اتصل برجال الفكر فيها، أما السفح، ومن يعيش عليه، فإنه لما يتعرَّف عليه بعد، فليتوجه إليه ولينطلق منقباً عن ملايين المخلوقات التي تعمره، معذبة، متفسخة، موزعة في حانات قذرة لا همّ لها إلاّ احتساء «الفودكا» ـ شرابها الأصيل ـ وليستمع هناك وهنا إلى أحاديث: «أبناء أمنا الأرض» وليشرب معهم ما شربوا وليطرب ما طربوا وليلعب القمار كما لعبوا وليحن رأسه فوق أوراق لعبه حتى لا يلصّ أحد بريق عينيه الوقادتين وهما تتلألآن في وجه كئيب تعس بينا يرهف أذنيه ليحيط بكل شيء علماً ويلتقط كلّ لفظة تصاعدت كلما...

أما وقد ارتضى أن ينخرط في المجتمع وفي جماهير السفح،

وارتضى بالتالي أن يلعب الورق فقد توجب عليه أن يتوقع حظاً سيئاً، وقد أصابه هذا الحظ السيّئ فخسر ماله ولكنه أفاد حكمة وعقلاً، وقد كان سعيداً غاية السعادة فيما وصل إليه فلا تثريب عليه أن يفقد المال ليصيب الحكمة ولا أن ينفق القرش ليستفيد المعرفة...

وتدرج الأيام ويدرج الطفل في ضميرها مغرزماً وكويتياً.. حتى يقع مخطوط له بين يدي الناقد الأدبي الكبير «بيبلنسكي» الذي عقّب على ذلك بكتاب أرسله إليه يقول فيه: أيها الفتى أو مدرك أنت ما كتبت في هذا المخطوط؟ كلا... إنك أبعد ما تكون عن معرفة ذلك بل إنك لا تستطيع أن تفهم بعد...

ولم يكن ذلك المخطوط الذي سوّد صفحات دوستويفسكي إلاّ قصة أولئك البشر الذين ولدوا قبل أن يتم خلقهم ويصبح سوياً إذا هم أكوام بائسة تعسة من الطين جبلتها أصابع ملائكة كلهم أخرق أحمق، فجاءت المخلوقات هزيلة في نفوسها مشلولة في أعضائها، عرجاء شوهاء في حركاتها وسكناتها، يهيمن عليها لون من ألوان الجنون ويؤطرها ضرب من الخرق... لها العيون جميلة «فاتنة» ولها الأطراف ملتوية عاجزة... تلك هي صور أبطال مخطوطة «المساكين» وقد نظر دوستويفسكي إلى حياة هؤلاء المساكين نظراً طويلاً ممعناً ولكنه لم يستطع أن يجد منطقاً أو يعثر على تناسق واتفاق.

وتلقى رسالة الناقد الكبير بكثير من الصبر والجلد وتلفّت من جديد ينقّب عن المفكرين، حتى إذا وجدهم استدار إليهم يسألهم، فهم القادرون على مدّ يد المساعدة إليه ليجد نظاماً يسلك الخليقة في سلكه وليعثر على معنى يسلك الحياة في إطاره.

هؤلاء المفكرون هم القادة الذين سيبدلون وجه المجتمع ويجعلون عالي القيصرية سافلها ويبدعون جمهورية «الإنسان الحر» وعلى هذا فالمنقذ، أي منقذ الإنسان، لن يكون الإله وإنما سيكون الإنسان نفسه والعقل وحده، أي عقل الإنسان، هو الذي سيعمل جاهداً ليضرم قلب الإنسان ويؤرث فيه لهيب الإشراق ليحل محلّ ظلمات العذاب والألم المتراكم بعضها فوق بعض...

ومن خلال هذه النظرة، وخلال هذه الفكرة، كتب دوستويفسكي قصته الثانية «الثاني» التي ما كادت ترى النور حتى طمستها الظلمة ففشلت فشلاً ذريعاً بعد أن نفض يده منها ذاك الناقد الأدبي الكبير «بيبلنسكي» وكانت حماسته لها دون حماسته للقصة الأولى.

والناظر في موضوع قصة «الثاني» يجدها على نقيض القصة الأولى «المساكين» فهي لا تميل إلى «المعذبين والمهانين» وإنما تتمركز على وصف مشاعر غير واعية ولكنها ثائرة متمردة.

ويخرج دوستويفسكي من هذه الهزيعة ليشرع بكتابة قصته الجديدة «نيتوتشكا» بعد أن انضم إلى صفوف أولئك المثقفين المفكرين الذين يريدون أن يقلبوا الأوضاع الاجتماعية رأساً على عقب ويحلّوا الإنسان محلّه اللائق تحت الشمس. وجمع صوته إلى صوتهم ضد ظلم الظالمين من السلطات والحكام وانطلق يجتمع إلى الاشتراكيين تحت راية الاشتراكي الفرنسي «فوريه» ويقضي عليه أن يعتقل في أحد الاجتماعات ويساق إلى قلعة «بطرس وبولس» بعد محاكمة وهمية، ويقبع في معتقله ينتظر حكم القضاء فيه.

وفي ذاك المعتقل كتب قصة قصيرة بعنوان «بطل صغير» يصف فيها يقظة عاطفة الحب عند صبي صغير.

لقد حبسوا جسده وما قدروا على حبس فكره إلا إذا قدروا على حبس «اللانهاية» بين جدران الزنزانة الأربعة...

وجاء حكم القضاء عاجلاً خاطفاً، ولم يكن سوى نقلة في مثل لمح البصر من معتقله في «بطرس وبولس» إلى ساحة الإعدام، حيث تتوافد عربات المجرمين السياسيين من كل حدب وصوب.

وكان الجو بارداً رطباً والميدان، ميدان الإعدام، يعج بكتائب الجنود الموكول إليهم أمر تنفيذ حكم الإعدام، ويرافق هذه الكتائب كاهن صامت يحمل بين يديه صليباً صغيراً، وكانت مهمته هي سوق المحكومين بثيابهم البيضاء الناصعة إلى منصة الإعدام المجللة بالسواد الفاحم..

وتلامح وجه فيودور دوستويفسكي وهو ينتظر الموت في القافلة الثانية تبرق عيناه ويتوثب فكره مشرقاً نيراً، فما هي إلا دقائق معدودات ثم يساق كما يساق رفاقه ليقضوا نحبهم على تلك الشاكلة البشعة.

وما تكاد تلك اللحظة الحاسمة تدنو حتى يتراءى على البعد فارس شاكي السلاح يعدو بأقصى سرعته متجهاً إلى منصة الإعدام وحاملاً بيده رسالة... إنها من القيصر، ذاك «الأب» الصغير الذي أخذته الشفقة على أولئك المحكومين والرأفة بهم فبدل حكم الموت بالنفي إلى سيبريا...

وما أن تلي كتاب القيصر حتى جنّ أحد المحكومين وطفق آخر يبكي بكاءً مراً ذلك أن أحداً لم يكن ليرتقي هذه الرحمة وتلك الرأفة، وأنه لمن الخير لكل محكوم أن ترهق روحه وتخمد أنفاسه هنا على منصة الإعدام من أن يعيش في سيبريا وله في كل يوم ميتة وفي كل ساعة احتضار.

وفي عشية الميلاد شرع دوستويفسكي يسير على الدرب المؤدية

إلى سيبريا... وتتالت عليه المحطات بطيئة ثقيلة، وما كاد يصل المحطة الأولى حتى اقتربت منه امرأة ودفعت إليه كتاباً، إنه الكتاب المقدس، الدليل العملي الوحيد لكل مسافر إلى تلك الأصقاع النائية... وأخذ فيودور يقلب صفحات الإنجيل فوجد في ثني أوراقه ورقة من فئة الخمسة والعشرين روبلاً... وأيقن بالتالي أنه قد أصبح لديه ما يكفيه لشراء التبغ والثياب والصابون والخبز الأبيض أيضاً، إلا أن ذلك لن يكفيه لشراء بعض راحة فكره واطمئنان قلبه إذ كانت تعتاده خاطرات رهيبة تأخذ بخناقه وتسد عليه منافذ الأمل... كيف سيقوى على الحياة ويداه وقدماه مشدودة جميعاً إلى السلاسل الثقيلة؟

كيف يقوى على الحياة ويداه اللتان لم تحملا سوى الريشة إلى الآن مشغولتان بالأشغال الشاقة؟

ومن هم رفاقه اليوم؟ إنهم أبرز لصوص روسيا ومجرميها وقتلتها وسفاحيها فهم قساة برابرة، لن تعرف التوبة سبيلاً إلى قلوبهم الغليظة.

إذن فالجريمة ليست في سوقه إلى أصقاع سيبريا النائية ولكنها في التآمر على فكرة الحي المتوقد يرقد بين هؤلاء اللصوص والقتلة وسفاكي الدماء...

ولكن فكره يأبى أن يذبح، فهو في عمل دائب مجد، تشغله مشكلة المصير الإنساني مرة أخرى، فتراه يكمل في سيبريا وفي معسكر الاعتقال ما بدأه في حانات بطرسبورغ منذ سنوات قريبة.

«إن التأمل الأبدي المديد والهرب إلى نفسي من الواقع المرير قد أعطيا ثمرتهما المرجوة، وإن لي اليوم من الحاجات والآمال ما لم أحلم به قط في الأيام الخالية...».

وما انفك فيودور يعمل فكره دون هوادة أو لين حتى أشرق عليه

نور جديد وانطلقت أمام باصرتيه إشعاعات جديدة تومئ إلى أن «افتداء ما لا يفتدى لن يتم بوساطة الإنسان وحده بل بوساطة قوة خارجة عن الإنسان»، وإنه ليلتفت متطلعاً نهماً إلى الكتاب المقدس ليرى من خلال الخمسة والعشرين روبلاً التي وجدها في ثني أوراقه شيئاً آخر غير هذه الروبلات المحدودة التي قدر أنها تدفع عنه غائلة الجوع وتمكنه من تناول الخبز الأبيض... لقد أدرك الآن أن في رسائله إلى العالم نوعاً جديداً من الخبز، يراه أكثر ضرورة من ذاك الذي حسب أنه سيجوع إليه... لقد اكتشف خبر النفس الأبيض... وعلى هذا فلا مندوحة عن أن ينقذ الإنسان، وسيكون إنقاذه على يدي اللّه الذي سيخلص هذا المخلوق الخاطئ والقديس معاً.

على أنه إذا كان اللّه هو الذي سينقذ الإنسان الخاطئ و«يخلصه» فأي خطر يكمن وراء الخطيئة إذن؟

والناظر في الخطيئة يجدها تجربة موضوعية يستدينها الإنسان على حساب رحمة اللّه، وهي بالتالي اختبار ضمني لصلاحه وفضيلته واستكناه لقلبه الطيب الكبير.

ترى هل يعلم أولئك المثقفون القابعون في «بطرسبورغ» المنقبون عن عالم أفضل خلقاً وأكمل خلقاً أن صلب يسوع كان يفقد كل معنى من معانيه السامية لو لم يسمر قاتل إلى جانبه على الصليب؟... «ذلك أن اللّه قد خلق الخاطئ وأن الخاطئ قد خلق اللّه»؟..

إن عالم الكمال المنطقي الذي ينشده مثقفو بطرسبورغ سوف يقضي على غاية اللّه المبدعة الخلاقة بل «سوف يقضي على اللّه نفسه» كما يرى دوستويفسكي وإن من واجبنا الحتمي أن نفتش تحت سطح الأشياء لنجد منطق الأشياء الحقيقي.

وينتفض دوستويفسكي هذه الانتفاضات التي تخرجه إلى حدٍّ بعيد من ذاك الجو المنكود المحدود الذي أراد له القيصر أن ينفق فيه شبابه وينحر فيه أيامه..

على أن كل شدة إلى رخاء وكل عسر إلى يسر فما تكاد تنصرم أربع سنوات على انطلاقه إلى سيبريا ليعمل في الأشغال الشاقة هناك حتى يأتيه الفرج على شاكلة إعفائه من الأشغال الشاقة شريطة أن يكون جندياً في سيبريا وحدها ويظل يتنقل في المرتبات العسكرية حتى يصل إلى رتبة ضابط وعندها وحدها يحق له أن يسترد حريته المسلوبة كاملة غير منقوصة...

ومن هنا أطل عليه أمل الخلاص مما كان يعانيه من بؤس وعذاب ليس لوصفهما حدّ... فمهما امتد أجل الجندية فهو سائر في الخاتمة إلى ضابط... أما لو أنه استمر معتقلاً، منفياً، يعمل في سيبريا، محكوماً بالأشغال الشاقة، فهذا وحده معناه أنه لا خلاص مما هو فيه إلا بما لا بدّ منه من انتحار إرادي أو موت غير إرادي.

وتنصرم خمس سنوات وفيودور في كتيبة عسكرية متمركزة في قرية «سيميبالايتسنك» الصغيرة، وهناك ارتعش فؤاده الرعشة الأولى ليخفق بحب ماريا ديمترييفنا زوجة رئيس كتيبته...

كانت «شقراء تسمو إلى مرتبة الجمال، ربعة في الطول، أمضها الهزال فهي نضرة، ملتهبة العواطف حتى لتحسبها عاطفة متأججة» في حين كان زوجها يعاني سكرات الموت، فشتان ما هما من شباب وعاطفة ومن مخلوق يتلقفه شدق الموت فيلوكه دون أن يتمكن من ابتلاعه أو بصقه...

وكانت تعتاد فيودور أفكار يرى خلالها أن عليه ألا يتزوج أبداً، ذلك

أن مرض الصرع الخطير كان قد تظاهر عنده أثناء سجنه، وكان يعاوده في فواصل منتظمة. وقد حدثه الأطباء أن المصابين بمثل هذا المرض الخطير يقضون غالباً بصورة غير طبيعية، وها هو ذا الآن، وما يزال في الثلاثين ربيعاً من عمره، يسقط في شباك الحب فتلتهب عاطفته التهاباً مخيفاً ويجتاحه الحب اجتياحاً جارفاً.

ويقضي رئيس الكتيبة، زوج حبيبته ماريا ديمترييفنا، فيتزوجها فيودور ضارباً بنصيحة أطبائه عرض الحائط بعد أن استقر في يقينه أنه بريء من مرضه وعاد سليماً معافى.

وما كاد يضمها إلى ذراعيه حتى تناثرت الشائعات هنا وهناك تومئ إلى أن الأرملة اتفقت عشية عرسها مع عاشق آخر دون زوجها الجديد في السن، وسنرى أن هذا العاشق الجديد سيلحق بحبيبته ماريا عندما ينال دوستويفسكي إجازته بالعودة إلى روسيا نهائياً.

وأخيراً هبط الشتاء يحمل الرطوبة من جانب والحمرة القرمزية إلى وجنتي ماريا من جانب آخر... وتراءى في الأفق ما يشير إلى أنها لن تلبث أن تلحق بزوجها الأول الراحل بين حين وحين، فنفقت سوقها عند حبيبها الصغير وانصرم من شبابها الغض وصباها الناضر ما كان يغري بالخيانة ويدفع إلى الإثم...

* * *

في هذه الأيام كان فيودور ينضح فكره في مشكلة الشر، فهي شاغله الذي ما فتئ يأخذ عليه كل جانب من جوانب حياته.

وأنشأ خلال هذه الفترة من عمره قصتين لا تتصلان بإقامته الطويلة في سيبريا بسبب من قريب أو بعيد، أما أولى القصتين فهي «القرية

ستيبانشيكوفو» وأما القصة الثانية فهي «حلم العم» وقد أنتجها سنة 1859 ومن ثم كتب «ذكريات بيت الموتى» سنة 1861، ويمكن اعتبارها وثيقة نفسانية رائعة أبدع فيها وصف حياته طوال الفترة التي قضاها في المنفى، ويغلب عليها طابع الهدوء والرزانة وينتشر في ثنيها ذاك الرثاء العميق لأولئك الرفاق المحكومين ولا تبخل بكلمات لطيفة على فريق من السجانين إذ إنه تكشف لديه أن في هؤلاء المجرمين «نفسيات عميقة» تحمل القوة والجمال، وقد ضلت نفوسهم بجريرة لم يكونوا بمسؤولين عنها أبداً...

وقد حفلت هذه السنة (1861) بإنتاج ضخم بالنسبة إليه، إذ أصدر في بطرسبورغ مجلة دورية «فريميا» ـ الزمان ـ وذلك بالاشتراك مع أخيه ميخائيل وقد ضمت تلك المجلة كتابه «المعذبون والمهانون».

* * *

ما من مرة عاد بذكرياته القهقرى إلا تبدت أمام ناظريه حديقة المرضى التي طالما ألهبت عواطفها وأججتها، وأنه ما يزال يذكر أن المريض يظل أبداً بجانب من الجدار والسليم بجانب آخر، وقد علقت بذهنه نظرة إلى ذلك ترى أن المريض لا بد أن يموت، أما السليم فيجب أن يعيش حقاً وصدقاً.

ونشطت أهواؤه من عقالها بعد أن طال أسارها حتى وجدت لها مادة في شخص «أبوليناريا بانكراتيينا سوسلوف» وهي طالبة في ريعان الصبا وميعة الشباب، كانت تسير في المظاهرات الاشتراكية حاملة راية حمراء وفي فمها الأناشيد الحماسية و«المارسيليز» بصورة خاصة، وقد استمعت الطالبة النجيبة إلى فيودور يوماً وهو يحاضر فكتبت إليه في الغداة تخبره أنها تحبه...

«كانت شهوانية في غير عنف، جلدة حتى في الحب، وكانت تقوى على ارتكاب جريمة بكثير من عدم المبالاة.. فهي باردة كجليد الشتاء، تنظر إلى الجميع دون اكتراث كأنها راهبة من راهبات القرون الوسطى، على أنها رغم ذلك لم يكن في الوجود امرأة تعدلها في شهوانيتها...».

أما عاشقها فيودور فقد كان يتنازعه إنسانان فإنسان منهما يعمل جاهداً ليجد حلاً لمشكلة الجريمة والعقاب، ذلك أن دوستويفسكي كان قد اقتنع أيام وجوده في سيبريا أنه لا يمكن أن يقوم هناك تعادل بين الجريمة التي يرتكبها الإنسان والشر الذي تقترفه يداه وبالتالي بين العقاب الذي يناله. وكان هذا التفكير مدعاة لأن يسوّد دوستويفسكي بضع صفحات يجمع فيها ملاحظاته ويرسم أشخاصه ويناضل لينحت في كلمات معدودات قصة «راسكولنيكوف».

ألم يعاهد فيودور نفسه أن يسير دائماً أغوار العالم الباطني وأن يعيش ويموت في صومعة فنه؟

وإنسان من ذينك الإنسانين يطير أبداً على أجنحة حلمه، عابراً أوروبا بأسرها مع «أبوليناريا» التي تصده وتعذبه وترهقه صدوداً وعذاباً وتحمله على أن يحبها ويبغضها في آن واحد وأن يجثو على ركبتيه أمامها والعبرات ملء عينيه متوسلاً إليها ليلة بعد ليلة ألا تغلق باب مخدعها دونه... إذ وجد في ذلك وسيلة جديدة يذلّ بها نفسه وينمّي حبه وحسّه.

ولا تلبث أن تصل إلى مسامعه أخبار امرأته، فهي وشيكة الانطفاء، فتراه يسارع إليها يرعاها أبداً ويرقبها وهي تذوي جذوة جذوة وتنطفئ ومضة ومضة وتبصق في كل قطعة دم من رئتيها جزءاً من حياتها وقبساً من ضيائها حتى خبا المصباح وانطفأ نور السراج وعادت الظلمات فوق بعضها تتراكب.

يطلّ عليه خلال هذه الفترة أمران فأما الأول فهو أنه حين رجع إلى بطرسبورغ من رحلته في أوروبا، نشرت مجلته ـ الزمان ـ «ملاحظات الشتاء عن انطباعات الصيف» (1863)، وهي وثائق عما شاهده في الغرب من مراءاة لا علاج لها تسم الغرب بميسمة سيئة، إذ كان يرى في الغرب جثة لا حياة فيها! وقد تعلم عن الغرب أن يقامر بذاك الهوى العاتي الذي وضعه في قصته «المقامر» وأما الأمر الثاني فهو هجره «أبوليناريا» بعد أن اكتشف أن لها علاقة بعشيق آخر في باريس، ومن ثم ساءت العلاقات بينهما باستمرار حتى انتهت إلى درجة الحقد والكراهية.

وبينما كان فيودور دوستويفسكي يعيش هذا الواقع المضطرب أرسل له أحد أصدقائه «آنا غريغورييفنا سنيتكينا» ليملي عليها كتابه الأخير!

وتنظر «آنّا» في خشية وذهول في محيا هذا الرجل الذي يكتب «الجريمة والعقاب» إلى جانب سرير زوجته التي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ولما شارف الكتاب على نهايته ودبّ الاضطراب في كيان دوستويفسكي قالت له «آنا»: «فيودور! إنه من المتعذر أن يجتمع جبلان» أمّا كائنان بشريان فيستطيعان ذلك...»، وكان هذا الحديث الخاطف سبيلاً لزواجها منه..

ونجده خلال هذه الفترة تتوالى عليه الأحداث، إذ كان في حالة يرثى لها مادياً بعد أن خسر آخر فلس معه على مائدة القمار في أوروبا، واضطر أن يستدين من «أبوليناريا» ثمن بطاقة العودة إلى وطنه، ومن جانب آخر فقد منعت السلطات مجلته من الصدور فاضطر إلى إصدار مجلة جديدة باسم «أبوخا» ـ العصر ـ ولكن سرعان ما مني بالفشل الذريع بُعيد صدور الأعداد الأولى، فتكدست عليه الديون من كل حدب وصوب وأخذت بخناقه فعاش حياة كلها قلق واضطراب؛ ولعله لم يتزوج

من «آنا» بدافع الحب، إذ نجده على صلة مستمرة مع «أبوليناريا» فهو يراسلها حتى بعد زواجه الجديد؛ ولكنّ «آنا» كانت روحاً طيباً حقاً، إذ أحبته بملء قواها واستطاعت بإخلاصها أن تكسبه أخيراً فكانت له زوجاً ورفيقاً وسكرتيرة وممرضة.

وعندما انتهى من كتابة قصته تساءل بينه وبين نفسه: «حدثني، هل اللّه موجود؟...»... وما يكاد يطرح هذا السؤال الرهيب حتى يصل إلى مسامعه صوت رهيب أيضاً، يخترق الحجب والأستار ويأخذ بيده ليقوده (مثل دانتي) إلى مستقرّ الملعونين: «إن الإنسان إنما يخلص لأن الشيطان موجود فحسب، ولأنه بالتالي لا يكتسب الوعي إلاّ بوساطة هذا الشيطان!!!».

وبعد أن صدرت روايته الكبيرة «الجريمة والعقاب» أصبح من المتعارف عليه أنّ فتياناً وفتيات يقصدونه في داره متحدثين عن مصير الإنسان الاجتماعي فإذا ذكروا أمامه أحلامهم عن إسقاط القيصر وتأسيس جمهورية على غرار الجمهوريتين الفرنسية والأمريكية، رجعت به الذكرى إلى أيام منفاه، يوم كان يعيش بين القتلة والسفاكين، وتراه بين الفينة والفينة يهز رأسه يمنة ويسرة في حزن عميق هاتفاً: «لا.. إن ما نحتاج إليه لنجدد العالم لم يكن العنف مطلقاً، بل كان فعلاً عظيماً... إنه ثورة عظيمة منبثقة من الداخل»...

غير أنّ هؤلاء الذين كان يخاطبهم دوستويفسكي بهذا الكلام كانوا يعترضون عليه وبريق النار يكاد يتحدّر من محاجرهم قطعاً من نار: «ولكن... كيف تقوى على حمل هذه الفئات من البشر على أن تنبثق هذه الثورة العظيمة، بل هذا العمل الجبار، من الداخل كما تقول؟..» ولكنه لا يلبث أن يردّ عليهم قائلاً: «وما الحاجة إلى دعوة

«هذه الفئات من البشر»... أفلستم تدركون القوة الجبارة التي يمكن أن يبدعها إنسان صالح واحد؟ ألا فليظهر رجلٌ صالح واحد، ولسوف يتبعه الناس أجمعين!!!».

وما أسرع ما جرت ريشته ليمثّل إنساناً نبيلاً وكاملاً حقاً، ليمثل صورة عن الجمال المطلق، فجاءت الصورة لابسةً «الأمير ميشكين» في روايته «العبيط»؛ ولكنه سرعان ما كتب بالمقابل «الأبالسة» ليرفض بعنف عاتٍ تلك المدنية الغريبة المزيفة والتقدم الغربي الزائف: ولم يكن ذاك الرفض نتيجة كراهيته المدنية ـ كما فعل تولستوي ـ وإنما لأنه على النقيض من ذلك يحبها أشدّ الحب؛ ولأنه يحبها فهو يرفض بعنف أسسها المادية التي تؤذي النفس وتقضي على الروح!

ولقد سبق له أن شاهد في الغرب تلك الرأسمالية الفقيدة الروح، ورأى إلى جانب ذلك تلك التفاهة الصرخة التي ترين عليه والتي تدعو للسأم والضجر، ولذا فهو لن يستطيع أن يتصور مستقبل الإنسانية إلاّ عن طريق تنظيم جديدٍ شامل يبدل كلّ شيء ويقلبه رأساً على عقب!!...

* * *

وتنقلب صفحة من صفحات الزمن، إذا بنا نجد دوستويفسكي وقد أصبح مظهرُه غريباً في سنوات حياته الأخيرة، ونراه من جانب آخر وهو يخترق الحجب الواحد تلو الآخر شاقاً دربه إلى أغوار نفسه العميقة؛ وإنه لينطلق في حديقته، مطرق الرأس تحت وطأة أفكاره المرهقة! فأي إنسان هو هذا المخلوق المركب من سقط المتاع كما هو مركب من اللهيب، هذا الملك الشيطان العظيم؟.. الحكمة في جنونه، وجنون العظمة في حكمته؟.. وإنك لتراه يخلق أبطال قصصه مجانين

وحكماء، قديسين ومجرمين، وتراه بالتالي يستنطق كلاً منهم الجواب على لغز الحياة!...[1]»

وإنه ليسير في الطرقات يرهف السمع إلى ما يقوله أولئك الناس الذي يمرّ بهم، فتراه يصغي لكل كلمة، ويلتقط كل شاردة وواردة، ويتصيّد كل ابتسامة أو لفتة، منتظراً أن يكون في إحدى هذه المظاهر ذاك الجواب الذي يترقبه!

ونراه من جانب آخر يرتفع بأفكاره إلى مستوى يسمو على وجدان الناس قاطبة، ويخفق بأجنحته الجبارة عبر الزمان والمكان ليرى شمساً جديدة وأرضاً جديدة أيضاً: «إن البحر الزمرّدي الضاحك وهو يلعن الشطران يُقبلها في محبة بيّنة تكاد تنطق عن تلك العاطفة الواعية؛ وإن الأشجار الطويلة الرائعة المنتصبة بعظمة وقوة تحييني أوراقها التي لا تحصى بصدّى عذب الجرس ناعم الإيقاع...».

«... وكان الغسق ملتهباً بألوانٍ براقة، كما كانت تدوّم في الجو شراذم من الطير وتحط دون خوف على كتفي ويدي، تداعبني في كثير من المرح بأجنحتها الصغيرة المرتعشة... لقد كانت الأرض كأنها لم يدنسها العدوان بعد، يعيش عليها بشر لم يعرفوا الخطيئة حتى الآن... لقد أروني أشجارهم، ولكنني لم أستطع فهم الحب العميق الذي يتطلعون به إليها... وإني لمقتنع أن هؤلاء البشر كانوا على اتصال بكواكب السماء بطريقة ما... ولم يك لهم دين، ولكني على اليقين من أن لهم المعرفة الأكيدة بأنهم إذا ما استنفدوا مرحهم الأرضي فلسوف يبدأ بالنسبة إليهم آنذاك اتساع عظيم

(1) كتب في هذه الأثناء روايتيه الكبيرتين (المراهق 1875) و (الإخوة كرامازوف 1880) كما أصدر (مذكرات كاتب 1880).

ليحتكوا بالكون جميعاً... لقد كانوا مغرمين ببعضهم غراماً شاملاً عميقاً... ونظروا إلي بأعينهم الغالية، المفعمة حباً... ولكنني أفسدتهم جميعاً!.. أما كيف أمكن أن يتم ذاك الإفساد فهذا ما لست أدريه... وكل ما أعرفه هو أنني المسبب لذاك السقوط! ولقد تعلموا أن يكذبوا، وأن يحبوا الكذب، وعرفوا بالتالي جمال الأكذوبة!!!...

وشرعوا يتكلمون لغاتٍ مختلفة، وتوصلوا إلى معرفة «الحزن»، وبالتالي إلى محبته، وأصبحوا وبهم حنين إلى العذاب، وأضحوا يقولون: إن الحقيقة لا يمكن أن تنبثق إلا من الألم!!! وعندما كانوا يغضبون كان يأخذ بزمامهم الحديثُ عن الأخوة والإنسانية..! وكذلك عندما ارتكبوا الجريمة وجدوا لها العدالة وكتبوا لأنفسهم هذه المدونات من القوانين ليحافظوا على تلك العدالة، ثم أقاموا المقصلة ليحفظوا تلك المدونات من القوانين..

وسرعان ما ظهر رجال يتساءلون كيف يمكنهم أن يتحدوا بحيث لا يعترض أحد منهم سبيل الآخر، في الوقت الذي يحب فيه نفسه كأكثر ما يحب أي شيء في الوجود... ومن هنا اندلعت نيران حربٍ عظيمة في سبيل هذه الفكرة... ولقد بكيت من أجلهم كثيراً، وأشفقت عليهم إشفاقاً بعيداً، ومددت ذراعي إليهم، متهماً نفسي، وأخبرتهم أن ذلك جميعاً لم يكن من صنعي وحدي... ورجوتهم أن يسمروني على الصليب، وعلمتهم بالتالي كيف يصنعون صليباً، ولكنهم لم يفعلوا، وقابلوا ذلك جميعاً بالضحك مني، وطفقوا يحسبونني مجنوناً... حتى إذا أدركت ذلك أيقنت أنه لا بدّ من الاستيقاظ من هذه الغفوة، فاستيقظت، ورفعت يدي إلى العلاء وناديت الحقيقة الأبدية!!».

وأخيراً، وبعد طول عناء، ترامى إلى مسامعي الجواب، عبر ظلمات الضلال الإنساني الممتزج بالعذاب والجنون معاً: «لسوف يأتي... أجل

سيأتي إليه الإنسان الذي سخر العالم منه وسماه مجنوناً عبيطاً... ولسوف يتعلمون كيف يتأثرون خطاه عندما يلقنهم المعنى الحقيقي العميق للخير والشر! وإن الذي يوقع الألم، وبالتالي الذي يقع عبء الألم عليه ليسا مخلوقين مختلفين بل هما الجسد الواحد نفسه، والروح الواحدة نفسها..! وإن كل إنسان مسؤول عن أفعال الجنس البشري بأسره مسؤول عن أفعال كل إنسان!.. ولسوف يأتي هذا الذي يسمونه «مجنوناً عبيطاً» ويحل في هذه الأرض حيث يلوح الإنسان حقيقياً، وهو ليس إلا مجرد شبح، كما يتراءى إليه أيضاً على أنه نور وهو في واقع الأمر حقيقة خالدة؛ وعندما يحل هذا المخلوق السامي ويعلمنا الحقيقة الواحدة وهي أن سائر البشر، من أرفع قديس إلى أوضع قاتل، إنما يتلمسون طريقهم بدروب مختلفة نحو ينبوع النور الوحيد، نور الذاتية الشاملة، نور المحبة العميقة العامة».

* * *

وإنه يفكر، ويغرق في التفكير عندما يحس شيئاً غريباً على يديه، فينظر، ويحدق، ويلحف في التحديق ليجد دم رئتيه قد انصب فيهما... والحياة غير جديرة بأن يلعنها اللاعنون، كما أن الموت غير جدير بأن يرهب جانبه...».

وتبكي امرأته وأبناؤه حول الجثمان الذي أحاطوه بالدموع...

ويرسل حكماء روسيا قاطبةً رسائل التعزية الحارة، بينما تتصاعد من جوف الليل أصوات الرهبان وطلابهم وهي ترتل الصلوات الأخيرة...

«يا أبنائي..! لا نحنَّ إلى حياة أبدية مقبلة، يا أبنائي..! ما لم نتوصل للخلود على هذه الأرض فإننا لن نبلغ إليه إذن أبداً..! إن الخلود ههنا، وفي هذا الوقت بالذات... وإن هناك لحظات يجب أن نصل إليها،

إنها لحظات من الوجود الأكثر رفعة والأبعد سمواً، وذلك عندما يقف الزمن جامداً لا حراك به، وتذوب كل حياة بشرية في حياتكم الخاصة، فتلك هي لحظات الخلود...».

«إن الجنس البشري بكامله لم يتحرك بعدُ نحو هذه اللحظات الكاملة، هذه اللحظات الخارجة عن نطاق الزمان»، ذلك أن معنى الحياة ليس في «استمرار» الإنسان من جيل إلى جيل بل استحالة الإنسان من وحش إلى ملك سامٍ، من خاطئ إلى قديس!

إن الحياة هي صعود مستمر من المستويات المنخفضة إلى المستويات العالية في الوعي، حتى تصبح لحظة القديس الأسمى، حقيقة الخاطئ الأبدية، «وعندها تنتقل الخليقة بأسرها من الدياجير إلى الأنوار»..

* * *

وحملوه، بين الألحان التي لا تنتهي، وبين الدموع التي ما تنفكُّ سجاماً ليواروا رمسه الخالد الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة 1881:

الجناح الثقافي

القسم الأول

الفَصلُ الأوّل

في مساء يوم من أيام تموز، والحرارة فيه على أشدها، خرج شاب من غرفته المؤثثة المتواضعة، الكائنة في الطابق الخامس من البناء القائم في شارع «س» وهبط السلالم ثم اتجه ببطء نحو جسر «ك» بعد أن نجح في تجنب لقاء صاحبة البيت التي كانت تقيم في جناح خاص في الطابق الأدنى وترقب من يهبط من الأعلى خلال باب المطبخ الذي يطل على السلم والذي كانت تتركه مفتوحاً أبداً. وكان يخشى لقاءها لأنه كان مديناً لها بمبلغ كبير لقاء سكناه في تلك الغرفة التي تشبه الزنزانة ولقاء الطعام الذي كانت تقدمه إليه؛ فكان يهاب ذلك اللقاء ويشعر بارتباك واضطراب كلما أراد التسلل من الدار.

وليس مرد ذلك خوفه وانكساره، إنما كان بسبب الانقباض والتطير اللذين لازماه منذ حين. فقد عاش منطوياً على نفسه في عزلة تامة يوقره العوز وتسحقه الفاقة حتى بات يتهيب المقابلات على اختلاف ألوانها...

وبلغ به الحال أن ارتضى بما أحاطه من شظف وجوع بعد أن كان يشعر أنه بمرارة وألم. فأهمل الموارد التي كانت تكسبه خبزه اليومي وعزف عن البحث عن سواها...

لم تكن صاحبة الدار لتخيفه حقاً مهما بلغت نواياها المبيتة ضده؛ لكنه ما كان يطيق الوقوف معها على «بسطة» السلم والإصغاء إلى ذلك

السيل المتدفق من الكلمات التي تنطلق من فمها حول موضوعات لا تهمه في قليل أو كثير، والتي يعقبها دائماً إلحاح متكرر بلزوم دفع ما عليه من ديون، إلحاح توشيه التهديدات والشكايات وتضطره من جانبه إلى اختلاق الحجج والأعذار والأكاذيب... فكان يفضل أن يتسلل على السلم كالقط الحذر وأن يختفي دون أن يراه أحد؛ حتى إذا ما بلغ الطريق، تخلى عن مخاوفه أو تخلت عنه لتعود إليه في محاولته التالية عندما تدعوه الحاجة إلى الخروج من جديد!

ولم يكد يبلغ الشارع في تلك الليلة حتى تبخر الخوف الذي يلازمه من دائنيه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة وراح يحدث نفسه قائلاً:

«كيف يثير هذا الأمر التافه في نفسي كل هذا القلق وأنا أتدبر موضوعاً خطيراً كالذي أنا بصدده؟... صحيح أن كل شيء في متناول يد الإنسان، ولكنه يفلت كل شيء بنذالته وجبنه. إنني متلهف لمناقشة هذا الأمر كمبدأ لأعرف ما يخيف الرجال أكثر من سواه... لا شك أن ما يخيفهم لا يتعدى مجرد اجتيازهم خطوة في سبيل تنفيذ فكرتهم، أو تلفظهم بكلمة دون تدبر... بَيْدَ أنني أثرثر كثيراً... ولأنني أكثر الكلام لا أعمل شيئاً. أو على الأصح أنني أثرثر لافتقاري إلى العمل... ولقد تعلمت ذلك خلال هذا الشهر بسبب بقائي أياماً كثيرة منطوياً في ذلك الجحر أفكر في كل شيء وفي لا شيء...

ولكن لم أذهب الآن إلى هناك؟ هل أستطيع تنفيذ ما اعتزمته؟ هل يعقل أن أكون جاداً في ذلك؟ لا أعتقد أنني جاد في عزمي... إنني أخدع نفسي بوهم يداعب مخيلتي. ولكنه لا يتجاوز حدَّ الدعابة. نعم الدعابة».

كان الجو خانقاً والحرارة لا تحتمل، والشارع مزدحماً بالناس

وقد تناثرت على جنباته «السقالات» المنصوبة وقطع القرميد وأحجار الكلس، وعبق الجو بالغبار والعفن التي يتفرد بها الصيف والتي ألفها فقراء بطرسبورغ الذين أقعدهم سوء حالهم عن ارتياد أمكنة الاصطياف. لم تكن أعصاب الشاب المتعبة لتحتمل مثل تلك المناظر المجبولة بالأحاسيس المؤلمة التي ترهق الأعصاب. أضف إلى ذلك روائح المشارب المتوافرة في ذلك الجزء من المدينة والسكارى الذين يلاقيهم السائر أينما اتجه... كل ذلك كان يضفي على هذا الخليط من المشاهد لوناً قاتماً تتقزز منه النفس.

بدا الامتعاض واضحاً على قسمات وجه الشاب الدقيقة... ولكنه كان انطباعاً خاطفاً سرعان ما تلاشى. ولم يلبث أن استغرق في تفكير عميق واستولى عليه نوع من الذهول، فراح يتقدم في طريقه دون أن يرى شيئاً مما حوله أو أن يحاول رؤية ما يحيط به.

لم يكن قبيح المنظر هزيل التكوين، بل كان مليحاً يلفت النظر، ذا شعر أشقر فاتح وعينين داكنتين وقامة فوق الوسط، رشيقاً متين البنيان. كان يسترسل أحياناً في مخاطبة نفسه على جري عادته التي ألفها في أيامه الأخيرة واعترف بها، ثم لا يلبث أن يضبط نفسه ليعترف بأن أفكاره مضطربة متوترة وأنه كان خائر القوى منذ أن أمضى اليومين السابقين دون أن يتناول طعاماً يذكر.

كان يرتدي ثياباً بالية لم يكن ليخرج بمثلها إلى الشارع لولا اعتياده عليها وإن سكان ذلك الحي لا يلقون بالاً إلى مثل هذه الأمور.

اقترب من «سوق العلف» حيث تقوم متاجر من طراز خاص، ويقطن عدد من الصناع والعمال تزدحم بهم شوارع هذه المنطقة من بطرسبورغ

وأزقتها، وبدت لعينيه صورة نشيطة حافلة بالحركة، لا تدع مجالاً للخوف من التعرض لنقد المارة إذا ما وقعت أبصارهم على مظهره الشاد الزري، لكن نفسه كانت طافحة بشعور من الاحتقار الأهوج حتى أنه رغم سرعة التأثر المعروفة فيه والتي كانت تبلغ لديه أحياناً مبلغ السذاجة، كان يعرف أن خجله من عرض أطماره في الشارع لن يكون أكثر منه في عرضها في أي مكان آخر. بَيْدَ أنه كان يخشى أن يقابل بعض معارفه وأصدقائه القدماء الذين كان عازفاً عن لقياهم والاحتكاك بهم.

وحدث أن مرَّ سكير كان محمولاً لغير ما سبب على عربة كبيرة فارغة. فلما حاذاه هتف به قائلاً: «اسمع يا هذا... يا صانع «البرانيط» الألماني!» فتوقف الشاب فجأة وامتدت يده بحركة عصبية إلى قبعته المائلة على جانب رأسه على أبشع شكل! لقد كانت قبعة مستديرة عالية كان اشتراها من محلات «زيمرمن» لكنها خلقت لكثرة الاستعمال وحال لونها وامتلأت بالثقوب واللطخات وتمزقت حوافيها، وخامره شعور لا يمت بصلة إلى الارتباك بل بالفزع...

تمتم قائلاً: ـ لقد كنت أتوقع ذلك. وإنها لهفوة عظيمة هذه التي أكاد أتورط فيها. إن أتفه الأشياء تكفي لتعريض القضية كلها للخطر... نعم إن هذه القبعة تلفت إلي الأنظار. لأنها مضحكة وهذا هو السبب الذي يجعلها محط الأنظار؛ فلو استبدلتها بقبعة من ذات الطرف الواحد «كاسكيت» لانسجمت تماماً مع أسمالي. إن أي كساء للرأس مهما كان قديماً أفضل من هذه التي لم يعد يمكن تسميتها والتي لا يقبل أحد أن يضع مثلها على رأسه فهي ترى عن بعد ويبقى شكلها عالقاً في الأذهان. نعم... لسوف يذكرونها... وستصبح عندئذٍ دليلاً على إدانتي.. بينما ينبغي أن أمر في هذا الظرف دون أن ألفت إلي الأنظار. نعم.. شيء تافه بل

شديد التفاهة ولكنه يكفي لإفساد كل التدابير. وعلى الغالب تفسد أتفه الأشياء جلائل الأمور!

لم يكن يقصد مكاناً قصياً، بل كان يعرف عدد الخطى اللازمة لبلوغ هدفه ابتداءً من باب مسكنه.. نعم.. لقد كان عليه أن يقطع سبعمائة وثلاثين خطوة تماماً. فلقد عدها لما كان مشروعه كامناً في نطاق التصور.. ولم يكن ليؤمن في ذلك الحين بمثل تلك الأحلام وبإمكانية تحقيقها، بل كان يكنها في أعماقه ليدخل البهجة والرضا على نفسه متأثراً بجرأة تلك الأحلام المخيفة الحافلة بالمغريات. ولكن ها قد مضى على ذلك شهر كامل. وبدأ ينظر إلى الأمور ويتخيلها من زاوية مختلفة. وعلى الرغم من أنه كان يعيب على نفسه خلال مناجاته لها قلة نشاطه وتردده وعدم ثقته، إلا أنه اعتاد برغمه على اعتبار «ذلك الحلم الكريه» أمراً جديراً بالعناية وها هو الآن في طريقه للقيام «بتجربة» لمشروعه، فلا عجب إذا تعاظم اضطرابه مع كل خطوة.

اقترب من بناء كبير يشرف أحد جانبيه على القناة والآخر على شارع «ع» وقد اجتاحته هزة عصبية عنيفة، كان هذا البناء المقسم إلى مساكن صغيرة، مأهولاً بعدد من الصناع من مهن مختلفة بين صانعي إقفال وخياطين وطاهيات وكان فيه ألمانيون من فئات مختلفة، وفتيات من بائعات الجسد وموظفون صغار مما جعل حركة الدخول والخروج دائمة خلال البوابتين الكبيرتين والناس يخترقون الساحتين الملحقتين بذلك البناء الضخم في طريقهم إلى السلالم. وكان أمر العناية بالبناء موكولاً إلى ثلاثة أو أربعة من الخدم. فكان سروره عظيماً حينما لم يصادف منهم أحداً وهو يجتاز البوابة ويتسلل إلى الداخل صاعداً سلماً إلى اليمين. كان الظلام شديداً في ذلك السلم الضيق المعد للخدم.

ولكنه كان قد اعتاد صعوده حتى أصبح ملماً بكل دقائقه؛ وشعر أنه في تلك الظلمة بمنجاة عن كل عين باحثة.

ولما بلغ الدور الرابع، راح يناجي نفسه قائلاً: «ماذا يكون حالي من الخوف إذا حدث وجئت لتنفيذ «الخطة» وأنا الذي أرتعد فرقاً من مجرد التجربة؟

التقى هناك بجنود قدماء أصبحوا حمالين بعد تركهم الخدمة ـ كانوا يسدون عليه الطريق وهم ينقلون أثاث مسكن أخلاه مؤخراً موظف ألماني كان يشغله مع أسرته. وكان يعرف هذا سلفاً، فراح يحدث نفسه على عادته قائلاً: «إن هذا الألماني يرتحل إذن، ولن يبقى في هذا الجزء من البناء إلا تلك العجوز، لا بأس.. إنها معلومات مفيدة على أية حال..»، ثم قرع باب العجوز.

ند عن الجرس صوت صدئ وكأنه لم يصنع من النحاس بل من الحديد (التنك) الأبيض شأن كل الأجراس التي في المساكن الصغيرة المشابهة لهذا المسكن، ولقد ذكره صوت الجرس الذي كان قد نسيه، بواقعة لم يلبث أن تمثلها في خاطره.. فارتجف فجأة وشعر بأن أعصابه لن تستطيع الاحتمال أكثر مما احتملت.

انفرج الباب قليلاً، ومن خلال الفتحة الضيقة، راحت صاحبة المسكن تعاين هذا الدخيل بحذر واضح. كانت عيناها تلتمعان في الظلام، فلما شاهدت الحمالين يعج بهم الممشى، اطمأنت بعض الشيء وفتحت الباب على مصراعيه، فاجتاز الشاب العتبة ليدخل إلى حجرة أمامية صغيرة غارقة في الظلام تؤدي إلى مطبخ يفصله عنها حاجز من الخشب، ووقفت العجوز أمامه تتفحصه بنظرها بسكون.

راح بدوره ينظر إليها: لقد كانت عجوزاً عجفاء قصيرة القامة تحمل على كاهلها عبء أعوامها الستين، ذات عينين مستديرتين ثاقبتين وأنف صغير مدبب ووجه أقرب إلى الشراسة. كانت عارية الرأس يلتمع شعرها الأشهب من الزيت الذي ضمخ به، وكانت تحيط عنقها الطويل الدقيق الشبيه بساق الدجاجة، بخرقة من النسيج القطني وقد ألقت على كتفيها فراءً رثاً متآكلاً، وهي لا تنفك تسعل سعالاً عميقاً. ولعلها لمست في نظرته شيئاً غريباً إذ سرعان ما ارتد إليها حذرها وعادت إلى عينيها نظرات الشك التي استقبلته بها.

تذكر الفتى أنه يجب أن يتقرب إليها وأن يكون لطيفاً مستملحاً، لذلك انحنى أمامها باحترام وهو يتمتم قائلاً:

ـ اسمي راسكو لنيكوف، وأنا طالب علم. ولقد جئت إليك منذ شهر تقريباً...

فأجابت العجوز وهي تضغط على كل كلمة من كلماتها دون أن تزايلها النظرة المتشككة:

ـ أذكر يا صديقي أنك زرتني من قبل.. نعم إنني أذكر ذلك تماماً.

فأردف راسكو لنيكوف وقد أقلقه حذر العجوز كما أدهشه:

ـ حسناً.. لقد عدت في سبيل أمر من نوع ذلك الذي سبق أن عرفته..

ثم سكت وراح يحدث نفسه قائلاً: «لعلها حذرة هكذا دائماً.. غير أنني لم ألاحظ ذلك في المرة السابقة..» وتملكه شعور كريه.

صمتت العجوز كأنما تفكر فيما قاله الشاب، ثم أشارت إليه بيدها نحو باب الغرفة وقالت وهي تفسح له الطريق:

ـ فلتدخل يا صديقي..

كانت الغرفة صغيرة يكسو جدرانها ورق أصفر وتزين النوافذ ستائر من «الموسلين» تضفي عليها الشمس الغاربة في تلك الساعة ضياءً قوياً. وبنظرة سريعة، شملت الغرفة ومحتوياتها، حاول راسكو لنيكوف أن يطبع في مخيلته معالمها. اتضح لديه من نظرته الأولى أنه ليس فيها ما يلفت النظر، كان أثاثها القديم البالي يتألف من أريكة ذات مسند عريض من الخشب المليء بالعقد، وطاولة بيضاوية الشكل موضوعة بالقرب منها، يضاف إلى ذلك منضدة زينة ذات مرآة في حاجزها وعدد من الكراسي المرصوفة بحذاء الجدران، وكانت لوجات غير ذات قيمة تحيط بها إطارات متداعية مهشمة، تمثل فتيات ألمانيات يحملن في أيديهن العصافير، معلقة على الجدران، وفي أحد الأركان أضيء قنديل أمام تميمة دينية «أيقونة» صغيرة.

لكن جو الغرفة كان يوحي بنظافة دقيقة. فقد كانت قطع الأثاث ملمعة مصقولة والأرضية الخشبية مطلية بالشمع ولامعة حتى ليتعذر اكتشاف ذرة من الغبار في المسكن كله.

لم يمر الشاب بهذه البادرة دون إبداء ملاحظته لنفسه على عادته إذ قال:

ـ «لا يمكن لغير هؤلاء العجائز المترملات الخبيثات أن يحطن أنفسهن بمثل هذه النظافة».

وراح يتطلع بزاوية عينه بفضول إلى ستار من قماش هندي يخفي وراءه باباً يؤدي إلى غرفة ثانية ـ لم يدخل إليها قط من قبل ـ تحوي على سرير العجوز وخزانتها.

تبعته العجوز إلى الغرفة وانتصبت واقفة أمامه لتعود إلى تفحصه والتدقيق في قسماته عن قرب، ثم سألته بلهجة جافة:

ـ ماذا تريد؟

فأخرج الشاب من جيبه ساعة دقيقة قديمة من الفضة وقد نقشت على غلافها الكرة الأرضية وتدلت منها سلسلة من الفولاذ وقال:

ـ لقد جئتك بشيء ترهنينه!

ـ ولكن الرهن السابق قد حل أجله منذ ثلاثة أيام..

ـ لا تبتئسي.. سوف أدفع لك فائدة شهر آخر، فصبراً..

ـ سأصبر إذا شئت يا بني وأنا في حل من بيع المرهون منذ الآن!

ـ وهل تعطيني كثيراً لقاء هذه الساعة يا آليونا إيفانوفنا؟

ـ آه.. إنك تأتيني بأشياء تافهة عديمة القيمة. أنت تدري يا صديقي أنني في المرة السابقة رهنت لك ذلك الخاتم لقاء روبلين رغم أنه يمكن شراء مثله من أي صائغ بروبل ونصف!

ـ حسناً، اقرضيني أربع روبلات ولسوف أعيدها إليك وأسترجع ساعتي لأنني ورثتها عن أبي، إنني سأحصل على مال في فرصة قريبة.

ـ روبل ونصف إذا أردت. وعلي أن أحسم منها الفوائد سلفاً.

فصاح الشاب مستنكراً: ـ روبل ونصف؟..

ـ لك الخيار في أخذها أو رفضها.

وأرفقت قولها بإشارة من يدها التي تحمل الساعة فقدمتها إليه... أطبقت أصابع الشاب عليها، لقد بلغ من ثورة غضبه أن كاد أن ينسحب.. بَيْدَ أنه تمالك نفسه بسرعة حينما فكر في أنه لا يملك شروى نقير، وطمأن نفسه بأنه ما جاء لهذا الغرض وحده، لذلك فقد قال لها بصوت خشن قاس:

ـ حسناً.. هات المبلغ..

نبشت العجوز في جيبها بحثاً عن مفاتيحها، ثم مضت إلى الغرفة التي يحجب بابها الستار. ولما انفرد بنفسه، راح يرهف السمع بفضول وقد استغرق في الحدس والتخمين. تناهى إلى أدنه صوت الخزانة وهو يفتح فناجى نفسه قائلاً: «لعل المال في الدرج الأعلى». حسناً.. إنها إذن تحمل مفاتيحها في جيبها الأيمن وهي جميعها في حزمة واحدة تجمعها حلقة من الفولاذ وبينها مفتاح أكبر من الآخرين بثلاث مرات لا شك أنه ليس لباب الخزانة. وعلى هذا فإن لديها ولا شك صندوقاً حديدياً وهذا مما يثير الفضول.. فالصناديق الحديدية كلما تفتح بمفاتيح من هذا الطراز.. ولكن كم أمقت هذا..

رجعت العجوز بعد برهة وابتدرته قائلة:

ـ باعتبار فائدة الروبل الواحد عشرة «كوبيكات» في الشهر، فإن مجموع الفائدة التي يجب أن أتقاضاها سلفاً عن روبل ونصف هي خمسة عشر كوبيكاً، يضاف إليها فائدة الروبلين اللذين أقرضتهما لك في الشهر الفائت ولم تردهما، وهي على هذا الأساس عشرون كوبيكاً، فيصبح مجموع الفائدة خمسة وثلاثين كوبيكاً، ويبقى لك على ساعتك هذه روبل واحد وخمسة عشر كوبيكاً هاكها..

ـ كيف ذلك؟ ألن يبقى لي إذن إلا روبل واحد وخمسة عشر كوبيكاً؟

ـ تماماً..

لم يعقب الشاب بكلمة، ومد يده فأخذ المال وراح ينظر إلى العجوز كما لو كان لديه ما يفعله أو ما يقوله لها دون أن يستطيع تحديد ذلك القول وذلك الفعل على وجه الدقة، وأخيراً قال:

ـ علني آتيك في الأيام القريبة المقبلة بشيء آخر، قطعة فضية على شكل علبة سجاير فاخرة أنتظر أن يردها إلي قريباً أحد الأصدقاء.

ثم صمت مرتبكاً، فقالت آليونا إيفانوفنا:

ـ سنتحدث عن ذلك في حينه يا عزيزي.

اتجه نحو الردهة وهو يقول بلهجة اجتهد أن تكون بريئة بسيطة:

ـ الوداع.. وعلى فكرة، هل أنت دائماً وحيدة في البيت؟ هل لا تمكث حاجتك لديك أحياناً؟

ـ ماذا يهمك من شأن أختي؟

لا شيء البتة.. لا تتصوري شيئاً.. الوداع يا آليونا إيفانوفنا.

خرج «راسكولينكوف» وهو فريسة اضطراب متزايد، وراح وهو يهبط السلم، يتوقف أحياناً وكأنه اقتنع بأمر ما فجأة. ولما بلغ الشارع هتف:

ـ آه يا ربي! كم هو مقيت كل هذا.. هل من المعقول.. هل من المعقول.. إن أ... ثم أضاف مؤكداً: «لا، إنها حماقة، إنه محال.. هل حقيقة مرت برأسي فكرة مريعة كهذه! يا للحماأة التي يستطيع قلبي أن يضمها في أعماقه.. إنه شر الضرر، بل القذارة، الخزي الملطخ بكل ذلك.. كلما أفكر أنني هدهدت هذا الأمل..».

كان يفتقر إلى التعابير والكلمات القادرة على التعبير عن الشعور الذي كان يهزه. فالاشمئزاز العميق الذي كان يعذبه ويقلقه حينما كان في طريقه إلى مسكن هذه العجوز، بلغ من شدته وامتداده في نفسه درجة جعلته عاجزاً عن الإفلات من ضيقه وتبرمه الحاليين. مضى في سبيله يذرع الرصيف مترنحاً كالرجل الثمل دون أن يلقي بالاً إلى المارة الذين كان يصطدم بهم. ولم يتجلد ويتماسك إلا عندما ابتعد عن الدار المشؤومة بشارع كامل. أجال بصره فيما حوله. فإذا به أمام حانة تطل على الطريق يهبط النازل إليها على سلم يقوده إلى طبقة سفلى، وإذا باثنين من

السكارى يخرجان منها وهما يتساندان ويتشاتمان. ودون أن يفكر في الأمر هبط «راسكولنيكوف» الدرجات إلى الحانة.

لم يكن قد دخل حانة من قبل ولكنه كان يشعر بدوار في رأسه وبعطش حاد في جوفه، كان يشتهي أن يشرب كأساً من «البيرة» المنعشة وكان يعزو ضعفه إلى الجوع. انتحى ركناً معتماً قذراً وطلب لنفسه الشراب، وعب كأسه الأولى بشراهة؛ فشعر براحة وعادت أفكاره أكثر وضوحاً وتركيزاً؛ راح يخاطب نفسه يحفزه أمل جديد:

ـ حماقات هي كل هذه الأفكار.. ليس في الأمر ما يزعج. إن هذا التشوش مرجعه مادي؛ ولسوف أستعيد قوة التفكير بعد أن أعب قدحاً آخر وأتناول قطعة من (البسكويت)؛ سيعود إلي صفاء أفكاري ورباطة جاشي.. نعم لا شك أن هذا كان عديم الأهمية...

شع في عينيه بريق خلفته الوداعة التي أعقبت الراحة النفسية التي شعر بها، وبدا كأنه قد تخلص منذ حين من حمل كان يبهظ كاهله وراح يلقي على الموجودين نظرات مفعمة بالود والصداقة. غير أن شعوراً غامضاً كان يؤكد له أن هذا التفاؤل الذي غمر نفسه يرجع كذلك إلى حالة مرضية.

لم يكن في الحانة إلا نفر قليل من الرواد في مثل تلك الساعة.. فقد غادرها في أعقاب الثملين ـ اللذين رآهما يخرجان منها عند دخوله ـ خمسة أشخاص يجذبون معهم فتاة ترقص على أنغام (أكورديون). فلما خرجوا، عمّ السكون في المكان وران الهدوء. ولم يبق في الحانة إلا رجل ـ يبدو أنه من الباعة ـ يعاقر كأساً أمامه وقد سيطر عليه الشراب.. بينما كان زميله ـ وهو رجل طويل القامة ضخم الجثة ـ يرزح تحت وطأة المسكر. كان يترنح على مقعده يميناً وشمالاً؛ ومن حين إلى آخر، كان يستفيق من

غفوته فيباعد بين ذراعيه مقلداً الراقصات؛ فيتلوى جسمه الممتلئ الضخم بفعل تلك الحركات الوتيرة التي كان يزاولها وهو جالس في مقعده. كان يدمدم بصوت نشاز (لازمة) ويحاول تذكر الأبيات التابعة لها فتخرج من فمه متفككة متعثرة:

خلال عام داعبت زوجتي.

خلا.. ل عام دا.. عب ـ ..ت زوجتي..

ثم يصمت ويغفو حتى إذا استفاق من جديد راح يغني:

كنت أمر بالباديا تشيسكايا

عندما وجدت صديقتي الطيبة.....

وغنيٌّ عن القول أنه كان وحده يطرب لغنائه بينما كان صديقه يقابله بمظاهر التقزز والاستنكار كلما انفجر في غنائه بعد إغفاء طويل! كان هناك أيضاً رجل آخر يلوح عليه أنه موظف متقاعد... كان يجلس منفرداً وهو يتناول من كأسه جرعات صغيرة بين الحين والآخر ويسرح طرفه حوله... كان يبدو أنه فريسة اضطراب معين...

الفَصلُ الثّاني

لم يكن «راسكولنيكوف» ميالاً إلى المجتمعات بل كان كما أسلفنا، يتحاشى كل احتكاك مع الناس وخصوصاً في الآونة الأخيرة. غير أنه في تلك اللحظة، كان يشعر بدافع يجتذبه إلى أقرانه من الناس وكأن ثورة قامت في كيانه جعلته يتنكر لعزلته ويندفع ساعياً وراء إقامة علاقات مع الآخرين! كان ذلك الشهر المؤلم الحافل بالعزلة والأحاسيس المختلفة قد نال منه لدرجة راح بعدها يحس برغبة قوية في التعرف إلى جوٍّ جديد وعالم جديد حتى ولو كان مرذولاً موبوءاً. وهكذا شعر بسرور دفعه إلى المكوث في مكانه أطول مدة ممكنة.

كان صاحب الحانة منزوياً في حجرة مجاورة للبهو العام لكنه كان لا يفتأ يتردد على «الصالة» الرئيسية حيث زبائنه يشربون ويسمرون فيهبط إليهم درجات كثيرة تظهر منه بادئ ذي بدء حذاءه اللامع الأنيق ذا الساقين الحمراوين.. ولم يكن يضع حول عنقه رباطاً بل كان يرتدي تحت «الرودنكوت» المنسجم مع قامته، صدارة من الساتان الأسود شديدة القذارة وكان وجهه يلمع من الشحم أشبه بقفل غمس في الزيت حديثاً. ووراء الخوان، كان ينتصب غلام يكاد يبلغ الرابعة عشرة من عمره، بينما يقوم غلام آخر أصغر سناً على خدمة الزبائن. وكانت حلقات من القثاء معروضة على شكل ساعة، إلى جانب قطع من «بسكويت» حائل اللون

وشرائح من لحم السمك تفوح منها رائحة كريهة.. وكانت الحرارة شديدة خانقة لا تحتمل والجو مشبعاً برائحة الكحول حتى أنه يكفي أن يتنفس المرء خمس دقائق فيه حتى يثمل.

يحدث أحياناً أن نلتقي بأشخاص نجهلهم تمام الجهل ومع ذلك نشعر باهتمام بهم وبدافع يقربنا منهم قبل أن نبادلهم كلمة واحدة.. كذلك كان شعور «رانسكولنيكوف» حيال ذلك الرجل الجالس في معزل عن الآخرين.. ذلك الذي يلوح عليه أنه موظف متقاعد.. فلم ينقطع عن النظر إليه خصوصاً وأن الموظف بدوره كان يرقبه بإلحاح، والرغبة في التقرب منه واضحة على وجهه. بينما كان ينظر إلى الآخرين بما فيهم صاحب الحانة، نظرة عادية، نظرة خبير، طافحة بنوع من الترفع المقرون بالاشمئزاز وكأنهم يأتون بعده في رفعة المقام والمكانة الاجتماعية أو درجة الثقافة، حتى ليعز عليه أن يبادلهم الحديث والكلام. كان رجلاً متجاوزاً العقد الخامس من عمره، متوسط القامة متين البنيان تبعثرت على فروة رأسه السوداء شعرات بلون أشهب تشي بسنه. وكان وجهه متورماً بتأثير الإدمان، أصفر، أو على الأصح ميالاً إلى الخضرة. وكانت عيناه تلتمعان تحت جفنيهما المنتفخين تشوبهما حمرة لا تخفي الحيوية العنيفة الماثلة في نظراتهما. وكانت فيه ظاهرة خاصة تجتذب الانتباه: ذلك أن نظرته كانت تستعر بنوع من الحماس... لم يكن ينقصه الذكاء ولا الاتزان ولكن كانت تصدر عنه أحياناً حركات فجائية غير مقصودة يمكن أن تعزى إلى الجنون. كان مرتدياً لباساً أسود رسمياً «فراك» قديماً ممزقاً وقد انتزعت أزراره إلا واحداً كان لا يزال صامداً في مكانه على شكلٍ ما، وكأنه أراد بإدخاله في العروة المقابلة له، أن يحتفظ بالمظهر اللائق بدافع من احترام الرسميات؛ وقد برز من الصدارة المحدبة قميصه المغطى بالبقع والأوساخ.. كان حليق اللحية

ككل الموظفين ولكن لحيته ما كانت مزالة منذ أيام بدليل تلك الحزمة من الشعر القاسي التي كانت نابتة على خديه، أما حركاته وهيئته فكانت مطبوعة «بالبوروقراطية» المهيبة.. كان يبدو عليه برغم ذلك شيء من القلق: فكان لا يفتأ يسوي شعره ويضغط رأسه بين راحتيه حيناً تلو الآخر بيأس وقنوط، جاعلاً مرفقيه على المائدة القذرة المبتلة بالجعة. وأخيراً نظر إلى راسكو لنيكوف بنبات وخاطبه بصوت مرتفع حازم قائلاً:

ـ هل تعتبرني متجاسراً يا سيدي إذا اتصلت بك بهذا الشكل المباشر؟ إنه على الرغم من أن مظهرك لا يدل على مكانة رفيعة، غير أن خبرتي تدلني على أنك رجل ذو تربية حسنة لم تعتد الشراب. لقد كنت أبداً أحترم التربية خصوصاً إذا تماشت مع الشعور القلبي. إنني أحمل لقب مستشار واسمي مارميلادوف المستشار القانوني. هل أنت موظف بالمثل؟

فأجابه الشاب وقد بوغت قليلاً من لهجة التفخيم التي اتسم بها حديث الرجل ومن مفاجأته بهذا الحديث المباشر الذي لم تسبقه مقدمات:

ـ كلا.. أنا طالب علم..

لم يستطع ـ رغم الرغبة التي أحس بها مؤخراً في إقامة علاقات مع كائن من كان ـ التحرر من ذلك الشعور بالنفور الذي ما انفك يلازمه ويستمر في نفسه كلما وجه إليه غريب كلاماً ينال منه أو على الأقل يحمل بين طياته معنى النيل من شخصه..

استرسل الموظف قائلاً:

ـ طالب علم أو طالب سابق! لقد فكرت في هذا، إنها الخبرة الطويلة المستمرة..

ووضع أصبعاً على جبهته تأكيداً لمسيراته العقلية. وأضاف قائلاً:

ـ لقد كنت طالب علم أو أنك على الأقل ترسمت برنامجاً دراسياً.. ولكن هل تسمح لي؟..

وأشفع كلامه بالفعل، إذ نهض من مجلسه مترنحاً وحمل صحيفته وقدحه واتجه نحو مائدة الفتى حتى إذا ما بلغها.جلس إلى جانبه..

كان ثملاً ولا شك، ولكنه كان يتحدث بجلاء وحماس لولا بعض الالتباس والاختلاط الذي كان يشوب حديثه بين الحين والحين. تهافت على «راسكولنيكوف» بتعطش حتى وكأنه كان هو الآخر قد أمضى شهراً كاملاً لم يتحدث خلاله مع أحد!

أردف بلهجة رزينة يقول:

ـ حقيقة يا سيدي العزيز أن الفقر ليس عيباً، كما أعرف كذلك أن الإدمان رذيلة.. لكن العوز يا سيدي نعم العوز، إنه عيب ولا شك. لأنك في الفقر تستطيع الحفاظ على نبل شعورك المرهف. لكنما في العوز لم يتوصل أحد إلى الإبقاء على كرامته! والمعوز لا يستدعي طرده بالعصا بل بالمكنسة، لتكون معاملته أكثر زراية وتحقيراً.. والناس على حق في ذلك. لأن المعوز نفسه هو أول من يتذلل ويريق ماء وجهه..

وأردف بعد صمت قليل:

ـ منذ شهر يا سيدي ضرب السيد «ليبيزيا تنيكوف» زوجتي.. وأنت تدرك أن زوجتي تختلف عني بالطبع.. فهل رأيت مثل هذا الذل؟.. وأخيراً اسمح لي بأن ألقي عليك سؤالاً وأعتبره لمجرد الفضول: هل أمضيت مرة الليل على نهر النيفا في الزوارق التي تحمل العلف؟

فأجابه راسكو لنيكوف:

ـ كلا.. لم يسبق أن وقع لي ذلك! ولكن ماذا تقصد بسؤالك؟

ـ حسناً.. أردت أن أقول: إنني أبيت حيث ذكرت لك منذ خمس ليال!

ثم ملأ قدحه وأفرغه في جوفه واسترسل في التفكير... كانت ثيابه وما بقي عالقاً بها من القش تؤيد قوله، حتى أن رأسه لم يسلم من المساهمة بنصيبه في هذا التأييد.. ويمكن للناظر إليه أن يحكم بأنه لم يبدل ثيابه ولم يغتسل منذ خمسة أيام حقاً.. كانت أظافره مسودة لكثرة ما تراكم تحتها من الأوساخ ويداه الضخمتان المحمرتان، قذرتين بشكل ملحوظ.

بدأ كأن الحديث قد اجتذب اهتماماً عاماً بين الموجودين لم يبلغ بعد درجة التركيز، فالغلامان كانا يتضاحكان وراء الخوان الكبير بينما لاح صاحب الحانة وكأنه نزل من غرفته العليا خصيصاً للاستماع إلى هذا الإنسان «المسلي»! فكان جالساً على مقربة وهو يتثاءب بخمول ويتصنع الاهتمام مما يؤكد أن «مارميلادوف» كان معروفاً منذ بعيد في ذلك المكان. لا شك أن ضعفه إزاء ميله لإلقاء المحاضرات الطنانة، عاد عليه بمحادثات كثيرة مع غرباء لم يكن يعرفهم من قبل في غير تلك الحانة... وعادة التحدث إلى الناس مستحكمة عند كثير من السكارى وخصوصاً لدى أولئك الذين لا يجدون معاملة حسنة في دورهم، والذين يفضلون أي شيء على المنزل.. لذلك تراهم يحاولون بث رفاق السكر شكاياتهم وتظلمهم سعياً وراء اكتساب عطفهم إذا أمكنهم ذلك.

هتف صاحب الحانة بصوت جهير:

ـ يا لك من مهرج يا هذا... لِمَ لا تشتغل؟ لِمَ لا تؤدي أية خدمة طالما أنك موظف؟

فأجابه «مارميلادوف» موجهاً حديثه إلى راسكو لنيكوف كما لو كان هو المتحدث:

ـ لِمَ لا أؤدي خدمة يا سيدي؟ لِمَ لا أؤدي أية خدمة؟ أو لا يقطر قلبي دماً كلما أحسست بما أنا عليه من ذل وحقارة؟.. عندما ضرب السيد «ليبيزياتنيكوف» منذ شهر زوجتي المسكينة بيده بينما كنت أنا متهالكاً أشبه بالأموات لشدة السكر.. أو لم يكن ذلك ليحز في قلبي؟ اسمح لي أيها الشاب.. هل وقع لك.. آه.. إن توسلت لاقتراض بعض المال دون جدوى؟

ـ لقد حدث لي ذلك.. أريد أن أقول.. ماذا تقصد بكلمة دون جدوى؟

ـ أريد أن أقول بكلمة دون أية جدوى، أن تكون متأكداً سلفاً من أن مساعيك فاشلة لن تصل بك إلى نتيجة.. خذ على سبيل المثال: أنت تعرف سلفاً وبكل تأكيد أن هذا الرجل ـ وهو أشد المواطنين نفعاً وأحسنهم مركزاً ـ لن يقرضك مالاً مهما تذرعت بأسباب. إذ لمَ يقرضك ماله؟ إنه يعرف سلفاً أنك لن ترد إليه ما تقترضه فهل يعطيك بدافع الشفقة؟ إن السيد «ليبيزياتنيكوف» ـ وهو من المطلعين على الآراء الحديثة ـ أوضح مرة أن العلم نفسه ينفي الشفقة، وأن الحال كذلك في بريطانيا حيث يسيطر الاقتصاد السياسي... كنت أسألك: لم يوافق على إقراضك المال؟ مع ذلك فإنك على الرغم من علمك الأكيد بعقم محاولتك فإنك تسير إلى هذا الهدف لكي...

فقاطعه راسكو لنيكوف قائلاً:

ـ وما فائدة الاستمرار؟..

ـ ذلك لأنه ليس أمامك سبيل آخر، ولأنك تميز المكان المناسب عن سواه. المهم أن الحاجة تدفعك إلى سلوك سبيل معين. ولسوف يأتي يوم تجد نفسك فيه مكرهاً على تقرير مصيرك. خذ مثلاً: عندما ذهبت ابنتي الوحيدة للمرة الأولى للحصول على بطاقتها. لقد قمت بنفسي بتدبير يعود علي بالفائدة.. نعم إن ابنتي حصلت على بطاقة وهي تعيش من هذه المهنة!..

ولما شعر بالغلامين يسخران منه، وبصاحب الحانة يشاطرهما السخرية بدوره، ورأى أن وجه الشاب قد ظللته سحابة من الحزن، أردف يقول ببرود ظاهر:

ـ لا تبتئس يا سيدي، لا تبتئس.. فلقد تعودت مثل هذه الهزات من الرؤوس.. إن ما أقوله معروف من الناس أجمعين، والأسرار جميعها تنكشف آخر الأمر، إنني أقابل مثل هذه الأمور بالخزي وليس بالاحتقار.. ليكن. نعم ليكن. هذا هو الإنسان! (eeee homo!) اسمح لي أيها الشاب هل تستطيع.. كلا، يجدر بي أن أعبّر عن رأيي بطريقة أكثر واقعية. لأقل: هل تجرؤ بدلاً من هل تستطيع.. نعم هل تجرؤ ـ بعد أن تمعن النظر فيّ في هذه اللحظة ـ أن تقول بالتأكيد إنني لست خنزيراً؟

غير أن الشاب لم يعقب بكلمة.. بينما استرسل الخطيب المفوه بانتظار انتهاء عاصفة الضحك التي أثارتها عبارته الأخيرة في «الصالة»:

ـ حسناً.. لنفترض أنني خنزير ولكن هي! إنها سيدة! أنا صورة عن الحيوان ولكن كاترين إيفانوفنا ـ زوجتي ـ شخصية ممتازة.. فهي ابنة ضابط كبير.. نعم لنفترض أنني فاسد ولكنها ـ هي ـ تملك قلباً حانياً إلى جانب نفاقها وعواطفها النبيلة! ومع ذلك.. آه لو أنها أشفقت علي يا سيدي.. إن كل إنسان يا سيدي بحاجة إلى ملجأ يشعر فيه بالحنان والشفقة! وكاترين جائرة ظالمة رغم شهامتها ونبلها ورغم علمي بأنها عندما تنقي البراغيث عن ثيابي كما أفعل أحياناً بنفسي، فإنها لا تعمل ذلك إلا بسبب إشفاقها علي..

تعالت الضحكات مجدداً في المكان فأردف يقول وقد علا وجهه الوقار مجسداً:

ـ آه يا إلهي.. لو أن مرة فقط.. ولكن لا.. كل ذلك لا يجدي.. فما

فائدة الكلام؟ نعم ما فائدته؟ إنني لم أعامل مرة بحنان. لكن لقد غدا ذلك أمراً عادياً بالنسبة إلي وغدوت وحشاً بالفطرة!

وهنا تدخل صاحب الحانة في الحوار وهتف بعد أن أهوى بقبضته على المنضدة:

ـ وحش فطري.. وأي وحش!

ـ تلك هي طبيعتي! أتدري يا سيدي.. إنني شربت حتى جواربها ولا أقول أحذيتها.. لأن ذلك يكون غير متناسق مع الوقائع.. أما جواربها.. نعم جواربها فقد شربتها.. وشربت كذلك منديل عنقها المصنوع من شعر الماعز، وكان قد أهدي إليها قبل زواجنا.. فهو إذن يخصها ولا يخصني.. ونحن نسكن غرفة باردة... لقد أصيبت بسعال في الشتاء الأخير وها هي الآن تبصق دماً.. ولنا ثلاثة أولاد صغار، وتشتغل كاترين إيفانوفنا من الصباح وحتى المساء، فهي تغسل الملابس وتنظف الأواني وتعنى بالأطفال لأنها منذ حداثة سنها اعتادت النظافة وألفتها.. وصدرها ضعيف وقابليته للسل جلية واضحة أشعر بها تماماً. وكيف لا أشعر بذلك؟ إنني كلما أكثرت من الشراب كلما ازددت إحساساً بذلك الخطر. ذلك لأنني أكتشف في الشراب استيعاباً كبيراً للألم والشفقة. ولذلك أشرب! أنا أشرب لأضاعف ألمي..

ثم أحنى رأسه بيأس على المائدة ولبث كذلك برهة لا تريم، ولما استعاد هدوءه أعقب قائلاً:

ـ أيها الشاب، يخيل إلي أنني أقرأ على وجهك أمارات حزن معين! وقد أحسست بذلك منذ أن دخلت، مما حدا بي إلى الاتصال بك. إنني باطلاعك على تاريخ حياتي، لم أقصد تحقير نفسي في أعين هؤلاء الكسالى المتراخين الذين يعرفون ذلك بعد أن استمعوا إلي أكثر من مرة،

ولكنني كنت أبحث عن إنسان لطيف حسن التربية لأبثه شكواي. أعلم أن زوجتي تلقت علومها في مؤسسة أرستقراطية جيدة في الأقاليم وقد رقصت عند تخرجها أمام الحاكم مرتدية «شالها» وكانت الحفلة تضم عدداً من الشخصيات الرسمية.. ولما انتهت، حصلت زوجتي على شهادتها وعلى «ميدالية» ذهبية.. فأما الميدالية، فقد بعناها كذلك منذ زمن بعيد...... وأما «دبلوم» الشرف، فلا زالت تحتفظ به إلى اليوم في صندوق. وقد أطلعت عليه مؤخراً صاحبة المسكن الذي نقطنه.. نعم.. لقد أطلعتها عليه رغم مشاحناتها المستمرة معها. ذاك أنها كانت في حاجة إلى التباهي أمام بعضهم، فعمدت إلى ذكرياتها الماضية تحييها. وأنا لا أثقل عليها، نعم لا أثقل عليها، لأن ذكرياتها القديمة هي كل ما بقي لها الآن. أما ما تبقى فقد تبدد كالسحاب.. نعم.. نعم، إنها سيدة غضوب متباهية وصعبة المراس. فهي تغسل أرض مسكنها بيدها وتقنع برغيف من الخبز الأسود. لكنها لا تتزحزح قيد أنملة أمام الأمور التي تتعلق بالاحترام والكرامة. لذلك لم تحتمل سماجة السيد ليبيزيا تنيكوف. فلما ضربها هذا بسبب ذلك، لازمت فراشها متأثرة بالإهانة التي لحقت بها أكثر من آلام الضرب الذي نالها. لقد كانت أرملة لما تزوجتها وكانت أمّاً لثلاثة أطفال صغار.. وقد تزوجت للمرة الأولى ـ بدافع الميل ـ ضابطاً من سلاح المدفعية هربت معه من بيت ذويها. كانت تحبه حباً جنونياً، ولكنه سقط فريسة المقامرة، فحوكم بسبب ذلك ومات على أثر المحاكمة. لقد كان يضربها في أيامه الأخيرة، وعلى الرغم من أنه لم يترك لها شيئاً عند وفاته، فإنها لا زالت تذكره اليوم وملء عينيها الدموع، إنها تذكره كلما أرادت أن تقارن بيني وبينه تشعرني بما أنا عليه؛ وأنا مسرور من ذلك لأنه يتيح لها بهجة التخيل والتذكر.. ولقد ظلت بعد وفاته وحيدة مع أطفالها الصغار في إقليم ناء مجهول حيث التقيت

بها أول مرة. كانت في فاقة مستحكمة لا أستطيع وصفها لك على الرغم من أنني تذوقت كل أنواع العوز.. وكان ذووها جميعهم منصرفين عنها مغفلين أمرها، مع ذلك فقد كانت فخورة أبداً معتزة بنفسها.. وعندئذٍ يا سيدي تقدمت أنا. وكنت أرمل بالمثل، ولي من زوجتي الأولى فتاة كانت في الرابعة عشرة من عمرها! طلبت يدها لأنني ما كنت أستطيع تصور مثل ذلك الألم الهائل ينزل بسيدة مثلها.. لك أن تحكم بنفسك إلى أي مدى بلغت بها الفاقة حتى قبلت أن تتزوجني، وهي المهذبة المثقفة سليلة الأسرة العريقة.. المهم أنها قبلت بي وهي تبكي وتنتحب وتلوي يديها ألماً. ذلك لأنها لم تجد لنفسها مخرجاً آخر! أنت تدرك ماذا أقول.. أنت تفهم ما أعني بكلمة: لم تجد لنفسها مخرجاً.. أم تراك لم تفهم بعد المعنى؟ كلا.. إنك لم تفهمه بعد! لقت قمت بواجباتي حيالها طيلة عام كامل بشرف وأمانة دون أن أقرب هذا (وأشار بيده إلى زجاجة الشراب). لأنني أفهم معنى العواطف. غير أنني لم أوفق في تحريك عواطفها.. وبما أنني كنت عرضة لفقد وظيفتي بين حين وآخر دونما سبب اللهم إلا للدواعي الإدارية البحتة، فقد شغفت بالشراب.. وقد مضى علينا عام ونصف منذ أن جئنا نسعى في هذه العاصمة البديعة المزينة بعدد كبير من الأبنية الضخمة. إننا لم نصل إلى هنا إلا بعد اغتراب ومصائب لا تُحصى.. فوجدت هنا عملاً ما لبثت أن فقدته كالعادة.. ولكن ليكن معلوماً لديك أنني فقدت عملي بخطيئتي هذه المرة لأن طبيعتي الفطرية انتصرت على تطبعي.. إننا نعيش اليوم في كوخ حقير تمتلكه إميلي فيودوروفنا ليبويشمل. أما كيف نعيش ومن أين ننفق وكيف نقتات.. فذلك ما لا أعلمه!..

إن في الدار التي نقطن غرفة منها، عدداً من المستأجرين الأُخر..

وكأننا في «كفر نعوم»[1] حقيقية.. نعم!.. وكانت ابنتي من زوجتي الأولى تنمو مع الزمن. أما ما عانته من «خالتها» زوجتي خلال أعوام نموها، فإنني أفضل أن لا أخوض فيه. لأن كاترين إيفانوفنا، رغم أنها تفيض بالشعور والرقة، إلا أنها لا تخرج عن كونها سيدة قاسية سريعة الغضب. أقول لك هذا فقط، إذ ماذا يجدي البحث في مثل هذه الأمور!.. لم تتلق ابنتي سونيا شيئاً من الثقافة كما لا بد خمنت.. ولقد حاولت منذ أربع سنين أن أعلمها بعض التاريخ العام والجغرافيا، غير أنني توقفت عن متابعة هذا النشاط لأنني شخصياً ضعيف في هذه المواد ولأن الكتب اللازمة لاستدراك هذا الضعف تنقصني.. آه ماذا أقول.. إن مثل هذه الكتب المفيدة لم يعد لها وجود! إذن فقد توقفنا عند سيروس ملك الفرس..

ولما شبت ابنتي وبلغت الرشد، قرأت بعض المؤلفات الروائية.. ولقد أعارها السيد ليبيزيا تنيكوف مؤخراً كتاباً عنوانه: (فيزيولوجية لويس). أتعرفه؟.. لقد قرأته بشغف عظيم. بل إنها التهمته التهاماً، وكانت تقرأ لنا أحياناً بعض الفقرات منه بصوت عالٍ.. ذلك هو كل ذخرها الذهني! والآن إنني أتوجه إليك يا سيدي لألقي عليك سؤالاً بصورة خاصة جداً:

«وهل تستطيع فتاة فقيرة ولكن متعففة أن تربح شيئاً مذكوراً من عمل شريف»؟ لا.. إنها لن تربح أكثر من خمسة عشر «كوبيكاً» في اليوم إذا كانت شريفة وليس لديها مؤهلات خاصة.. نعم خمسة عشر «كوبيكاً» وعلى شرط أن لا تغفل عن العمل دقيقة واحدة! وقد نالها من مستشار ولاية «كلوبستوك» إيفان إيفاتوفيتش ما لا يسر! أتعرفه؟ لعلك سمعت به! حسناً.. إن هذا الرجل اللامع لم يكتف بأن تمنع عن دفع أجرة قمصانه

---

(1) كفر نعوم مدينة من مدن (فلسطين الشمالية). ويقصد المؤلف تشبيه الدار بالمحشر لكثرة سكانها. ـ المترجم ـ.

الستة المصنوعة من القماش الهولندي الفاخر والتي خاطتها له، ولكنه طردها أيضاً وهو يشتمها ويغلظ لها القول، وقد ركلها بقدمه وأطلق عليها كل الأسماء التي أسعفته بها قريحته. محتجاً بأن ياقة واحدة من القمصان لم تكن مصنوعة بدقة وأنها فصلت بشكل خاطئ.. كل هذا بينما الصغار يتلوون جوعاً.. وأمهم كاترين إيفانوفنا لا تنفك تذرع غرفتنا وهي تعصر يديها وعلى خديها لطخات حمراء من بوادر ذلك المرض المخيف! كانت تصيح بها مغضبة قائلة: «أيتها الكسول.. أو لا تأكلين وتشربين وتتدفئين؟».. ولكن قل لي بربك ماذا تأكل المسكينة وماذا تشرب إذا كان الصغار لم يجدوا منذ ثلاثة أيام ما يمضغونه في أفواههم الجائعة؟.. نعم.. لقد نمت دون أن أحاول إسكاتها.. ولم أسكتها؟ لقد كنت ثملاً وأقرب إلى إنسان ميت مني إلى مخلوق حي.. كنت أسمع «سونيتي» تتكلم. إنها هادئة كثيرة الاحتمال فكانت تتكلم بصوت عذب.. وهي شقراء ولها سحنة شاحبة دائماً هزيلة أبداً..

كانت تقول: «ما العمل يا كاترين إيفانوفنا؟ هل من المعقول أن أزاول مثل هذه المهنة؟.. غير أن «داريا بافلونا» ـ وهي امرأة سيئة السمعة معروفة لدى رجال البوليس ـ عاتبتها أكثر من مرة لاستنكارها مثل هذا الأمر مدفوعة من قبل صاحبة المسكن!.. لذلك فقد أجابتها كاترين إيفانوفنا بلهجة تشوبها السخرية قائلة: «يا إلهي.. هذا كنز جدير أن يحتفظ المرء به..».. كلا.. لا تلمها على هذا يا سيدي لا تلمها! فهي لم تكن مالكة أعصابها عندما تفوهت بتلك الكلمات.. فلقد كانت عواطفها مهيجة، وكانت في أقصى حالات الحنق والغضب. إنها مريضة وأمامها أطفالها يبكون من الجوع ويصرخون! لم تتفوه كاترين إيفانوفنا بتلك الكلمات إلا لتسفه الحجة التي تذرعت بها ابنتي.. وتلك هي عقليتها.. فهي تضرب

الأطفال عندما يبكون ولو كان بكاؤهم بسبب الجوع.. لأنها تفقد أعصابها إذا غضبت وثارت!

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة.. وإذا بسونيا تنهض واقفة وتتشح «بلفحتها» ثم تخرج من الغرفة.. لم تعد قبل الثامنة فاتجهت بسكون إلى حيث كانت كاترين إيفانوفنا ووضعت أمامها على المائدة ثلاثين روبلاً.. ودون أن تنبس ببنت شفة، أخذت الدثار الكبير الأخضر (وقد فاتني أن أقول لك: إن لدينا واحداً نستعمله جميعاً حسب الحاجة وهو من قماش «المدام») فلفت به رأسها وجسدها وتهالكت على السرير ووجهها إلى الجدار.. بينما كان كتفاها الناحلين وجسدها الهزيل مسرحاً لقشعريرة وتشنجات تفصح عن سريرتها! كنت أنا على حالي من السكر، مستلقياً كما كنت.. فرأيت أيها الشاب، نعم رأيت كاترين إيفانوفنا تنهض بسكون أيضاً وتتجه نحو سرير «سونيتي» الصغيرة.. هناك ركعت على ركبتيها واستمرت طيلة تلك الأمسية راكعة بقربها تقبّل أقدامها دون فتور ولا توقف.. ولقد نامت بقربها وعانقتها.. نعم لقد نامتا كلتاهما بينما كنت أنا متهالكاً مخموراً..

صمت مارميلادوف وكأنه فقد النطق وملأ قدحه بسرعة وأفرغه في جوفه دفعة واحدة فندت عن حنجرته فرقعة مكتومة ثم أعقب يقول:

ـ ومنذ ذلك الحين يا سيدي اضطرت ابنتي صوفي سيميونوفنا أن تقتني بطاقة لمزاولة مهنتها. وبسبب ذلك أيضاً لم تستطع البقاء عندنا فغادرت المنزل. أما كيف وقع ذلك فإن الأمر في منتهى السهولة. ذلك أنه إثر ملابسة مزعجة، وبناء على أخبار من بعض المغرضين ساهمت فيه «داريا فرانتزوفنا» بقسط وافر بحجة أننا أسأنا في تقديرها وتقديم آيات الاحترام الواجبة علينا حيالها، احتجت صاحبة الدار التي نقطنها على سلوك

ابنتي وادعت أنها لا تحتمل وجودها في دارها على الرغم من أنها دفعت داريا من قبل للتأثير عليها.. وهكذا انتقلت ابنتي من حال إلى حال.

ثم جاء دور السيد ليبيزيا تنيكوف الذي.. آه.. كان له ذلك الموقف مع كاترين إيفانوفنا.. كان ذلك بسبب سونيا. لقد كان في البداية يلتمس من سونيا التفاتة غير أنه ما لبث حتى راح يبدي صدوداً وإعراضاً وتذمراً. كان يقول: «كيف أستطيع العيش في منزل يضم هذا العار وأنا ذلك الرجل النير المعروف».. غير أن كاترين إيفانوفنا لم تسكت إزاء هذا الادعاء الفارغ.. بل صمدت له وقاومته، ومن هنا كان ما حصل لها على يده! أما «سونيتي» الصغيرة فإنها تزورنا غالباً عند هبوط الظلام، فتساعد كاترين إيفانوفنا وتقدم لها ما يلزمها.. وهي تقطن عند الخياط كابيرناوموف الذي أجر لها غرفة خاصة. وهذا «الكابيرناوموف» أعرج وألكن.. وله عائلة، وأبناؤه جميعهم ورثوا عنه عاهته النطقية وكذلك زوجته.. فهي لكناء مثله، وكلهم محشورون في غرفة واحدة. غير أن لسونيا غرفتها الخاصة التي يفصلها عن غرفة الأسرة حاجز من الخشب.. نعم.. إنهم أناس فقراء جداً وتمتامون.. نعم.. وذلك الصباح، نهضت من فراشي وارتديت أسمالي ثم اتجهت إلى حيث يقيم صاحب السعادة إيفان آثانا سيفيتش بعد أن رفعت ذراعي إلى السماء مبتهلاً.. على فكرة.. هل تعرف صاحب السعادة إيفان آثانا سيفيتش؟ كلا؟.. إنك إذن لا تعرف رجلاً ورعاً.. إنه شمعة بكر «شمع كافوري» نصبت أمام الرب! والشمع يذوب.. نعم ولكن هذا ذاب دمعاً بعد أن استمع إلى ما عندي من القول.. وقال لي بالحرف الواحد: حسناً يا مارميلادوف.. لقد خذلت آمالي في المرة الأولى، غير أنني سأعيدك إلى العمل على مسؤوليتي الشخصية فاذكر ذلك.. هيا يمكنك أن تنسحب!» ولقد قبلت آثار أقدامه.. بالخيال طبعاً.. لأنني لو أردت عمل ذلك فعلاً

لما سمح لي به. لأن هذا الرجل رفيع الشأن من أنصار المبادئ الرسمية الجديدة فيما يتعلق بالتربية والمعاملة.. وعدت إلى مسكني. ولا تسل عن الهياج الذي حصل حينما أعلنت أنني سأعود للعمل والقبض المرتب!

طغى انفعال عنيف على مارميلادوف فتوقف عن متابعة حديثه.. وفي تلك الأثناء، دخلت شرذمة من السكارى إلى الحانة بصخب وضجيج وعلى العتبة ارتفعت أنغام متباينة من أورغ استؤجر لهذه المناسبة ولا شك، بينما راح طفل في السابعة من عمره يرفع عقيرته مغنياً «المزرعة الصغيرة».. وعم الصخب في «الصالة» بينما تهافت المعلم وأجيراه لخدمة الزبائن الوافدين! وتابع مارميلادوف قصته دون أن يعبأ بالضجيج:

كان يبدو عليه الانهيار التام إلا أنه كلما ازداد الثمل نيلاً منه كلما قويت رغبته في الحديث والثرثرة.. وبدا وجهه منيراً لمجرد أن تذكر أنه توصل إلى استعادة عمله.. وكان راسكو لنيكوف يصغي إليه بانتباه..

.. «مضى على ذلك خمسة أسابيع يا سيدي.. نعم.. خمسة أسابيع منذ أن بلغ نبأ عودتي إلى العمل مسامع كاترين إيفانوفنا وابنتي الصغيرة. كنت كمن أنتقل إلى النعيم في حين أنني كنت من قبل مهملاً ككلب حقير، لا أسمع إلا الشتائم والسباب.. أما في ذلك الحين فقد كانوا يمشون على أطراف أصابع أقدامهم إذا كنت نائماً ويوصون الأطفال بالسكوت والخلود إلى السكينة.. «عاد سمعان زاخاريتش تعباً وهو الآن يستريح فصمتاً..» وكانوا يقدمون إلي القهوة قبل ذهابي إلى المكتب ويسخنون «الكريما».. نعم «الكريما» الأصلية الحقيقية! لقد استطاعوا أخيراً أن يأتوا بها وأن يجدوا أحد عشر روبلاً ونصفاً لتجديد ملابسي وصيانة مظهري.. أما أين وجدوا هذا المبلغ فذلك ما لا أعلمه.. كل ما أعرفه هو أنني امتلكت أحذية جديدة وقميصاً من القطن وثوباً كاملاً أنيقاً كل ذلك بأحد عشر

روبلاً ونصف.. فبدوت على أكمل وأحسن ما يمكن أن أكون..! وكنت عند عودتي الأولى من المكتب ألاحظ أن كاترين إيفانوفنا قد هيأت طبقين لتناول الطعام: حساء ولحم بقر مملح ببراعة.. الشيء الذي لم أره ولم أعهد مثله من قبل. كانت من قبل لا تملك ثوباً ترتديه، أما ذلك الحين فقد ظهرت على أحسن زينة وكأنها ذاهبة لزيارة بعضهن.. لقد تجدد العتيق القديم على شكل من الأشكال لأن لها موهبة عمل كل شيء من لا شيء. كانت معتنية بشعرها تبدو إنساناً آخر بياقتها الصغيرة البيضاء وأكمامها النظيفة. لقد بدت أصغر سناً وأوفر جمالاً.. وكانت سونيتي الصغيرة العزيزة تكتفي بتزويدنا بالمال وهي تقول: «لن أستطيع التردد عليكم بكثرة في الوقت الحاضر لأن ذلك غير ممكن في هذا الظرف.. سوف أحضر عند هبوط الظلام ولن يراني أحد هل تسمعون؟!».

أويت إلى فراشي ذلك المساء مبكراً فلم تعترضني كاترين إيفانوفنا! هل تصدق هذا؟ ولم يكن قد مضى على شجارها مع إميلي فيودوروفنا أكثر من ثمانية أيام. مع ذلك فقد دعتها لتناول القهوة ومكثتا معاً حوالي ساعتين.. وقد سمعتهما تتهامسان: «نعم.. إن سيميون زاخاريتش قد استعاد عمله وهو يقبض مرتبه من جديد.. لقد تقدم بنفسه إلى صاحب السعادة فجاء سعادته بنفسه ليقود سيميون زاخاريتش من يده على مرأى من الآخرين ويدخله مكتبه». فهل سمعت هذا؟ هل سمعت؟.. وأضافت زوجتي تقول: «لقد قال له سعادته: لا شك يا سيميون زاخاريتش أنني أذكر خدماتك التي سبق أن أديتها لنا وعلى الرغم من ميلك إلى الخمر فإنني بناء على وعدك لي بالإقلاع عن تلك العادة ونظراً لعدم الاستغناء عنك (هل سمعت هذا، هل سمعته؟) فإنني آمل الآن أن تبر بكلمتك».

نعم. إنني أعترف لك بأنها ابتكرت كل هذا من عندها وسوته

وأنضجته ليبدو معقولاً. فلا تظنن بأن ذلك كان مجرد عبث يقصد منه الظهور. كلا. لقد انساقت هي نفسها وراء تخيلاتها.. كانت هي نفسها تتعزى بهذا القول وأشهد الله! ولست ألومها كلا لست ألومها من أجل ذلك.. أذكر أنني عندما أتيتها منذ ستة أيام بمرتبي الأول ـ ثلاثة وعشرون روبلاً وأربعون (كوبيكاً) ـ كاملاً دون نقصان، دلّلتني بعبارات عذبة ولعلك تفهم معنى ذلك التدليل إذا أوضحت لك أننا كنا منفردين هي وأنا لا يعكر صفونا وجود أحد! نعم.. لقد دللتني وهي تغمز خدي بأناملها ونقول بصوت عذب: «آه يا ملفوفتي الصغيرة!..».

توقف مارميلادوف برهة وبدا كأنه يحاول الابتسام بدلالة الرعشة التي اجتاحت ذقنه. ثم تمالك نفسه.

كان ذلك الوسط: الحانة وذلك المظهر الفاسق الليالي الخمس التي قضاها في زورق للعلف، ومنظر الزجاجة إضافة إلى الحب العميق الذي يكنه ذلك الرجل لأسرته، كل هذه الأشياء كانت تذهل جليسه الشاب الذي كان يصغي مأخوذاً وكأنه استحال إلى آذان... بيد أنه لم يتخلص من شعور التبرم والنقمة: لقد نقم على نفسه لأنه ارتاد وسطاً كذلك الوسط!

هتف مارميلادوف مسترسلاً:

ـ عزيزي السيد، عزيزي السيد، لعل كل هذا يدعو إلى الضحك مع أنني لا أعرض على مسامعك، مآسي العائلية الشخصية! أما بالنسبة إلي فإنني لا أرى في كل ذلك ما يضحك. لأنني قادر على استعادة التجسس بكل ما قلته لك... لقد كنت مستسلماً لحلمي الذهبي طوال ذلك اليوم وأمسيته الفردوسية! كنت أحلم في إعادة بناء أسرتي وكساء أولادي كنت أتوقع أن أجلب الهدوء إلى نفس زوجتي وأتطلع إلى انتزاع ابنتي من الوهدة التي تردت فيها وأعادتها إلى حظيرة الأسرة.. كنت أحلم بأشياء

أخرى كثيرة.. نعم.. كنت أستطيع التفكير بحرية في كل هذا لأنه ميسور للإنسان مباح له.

وفجأة انتفض مارميلادوف ورفع رأسه يحدق في وجه زميله الجديد... ثم قال:

ـ ومنذ صباح اليوم الثاني وبعد كل هذه الأحلام الجميلة وعلى الدقة منذ خمسة أيام فقط، سرقت من زوجتي كاترين إيفانوفنا مفتاح صندوقها بحيلة بارعة شأن اللص المدرب واستوليت على رصيد راتبي الذي كنت أعطيته لها وها أنت ذا تراني أين جئت.. بل انظروا إلي جميعكم لقد غادرت منزلي منذ خمسة أيام وهم يبحثون عني هناك ولا شك! ولقد فقدت مركزي وشربت نعم شربت بذتي الجديدة بعد أن استبدلتها بهذه الأطمار البالية في حانة بالقرب من جسر «مصر» وانتهى كل شيء!

لم يكد مارميلادوف يصل إلى هذا الحد من حديثه حتى ضرب جبهته بقبضته وصرف على أسنانه وأغلق عينيه ثم مال بمرفقيه بقوة على المائدة. لكن ذلك لم يدم أكثر من خمس دقائق عاد بعدها إلى مطارحة زميله الحديث نظر إليه بعين لم تخل من خبث مصطنع وقال وهو يبتسم:

ـ لقد كنت اليوم عند سونيا وطلبت منها مالاً لأثمل... ها ها ها...

صاح واحد من أفراد «الشلة» الذين دخلوا الحانة يقول: ـ وهل أعطتك؟ وأشفع سؤاله بقهقهة مجلجلة! غير أن مارميلادوف لم يلتفت إلى المتكلم بل وجه حديثه إلى راسكو لنيكوف وقال:

ـ هذه الزجاجة اشتريتها من المال الذي أعطتنيه! لم تكن تملك إلا ثلاثين «كوبيكاً» لقد تأكدت من ذلك بنفسي فأعطتها لي دون أن تهمس بكلمة.. لقد اكتفت بالنظر ولكن ليس كما ينظرون هنا.. بل إنها كانت

نظرة علوية لا يحسنها إلا الذين يؤمنون بأن الرجال لا يستثيرون إلا الشفقة ولا يستحقون إلا البكاء من أجلهم وليس إصدار الحكم عليهم! ولعمري أن ذلك يعادل أبلغ الحزن لما لا يوجه إليك أي تثريب!.. نعم.. ثلاثون «كوبيكاً» أخذتها راضياً رغم حاجتها إليها. ألست من هذا الرأي يا عزيزي؟ إنها الآن أحوج ما تكون إلى النظافة ومتطلباتها؟ وتلك النظافة تكلف ثمناً معيناً وأنت تفهمني ولا شك! فهناك المراهم والأدهان التي يجب شراؤها والتي لا يمكن عمل شيء بدونها.. هناك الملابس الأنيقة والأحذية الجميلة الثمينة التي تصون الأقدام من برك الماء التي تعترض طريقك. أنت تفهم ولا شك يا سيدي وتدرك ما معنى الحفاظ على النظافة!

إذن ما قولك وأنا أبوها أسلبها الثلاثين «كوبيكاً» التي لم تكن تملك غيرها ولأي شيء؟ لأعاقر الخمر وأنهل من الشراب!.. هل في الدنيا من يشفق على مثل ذلك الرجل الذي هو أنا؟ قل بربك هل تشفق على مثلي؟ أجب بنعم. أو لا.. هل تشفق علي الآن يا سيدي؟ قلها ولا تخف، هل تشفق؟.. نعم أو لا.. ها ها ها ها.

أراد بعد ذلك أن يرتشف جرعة جديدة ولكنه لم يجد في الزجاجة شيئاً.. كانت الزجاجة قد فرغت.

صاح به صاحب الحانة وكان قد عاد إلى مكانه قريباً منهما:

ـ ولِمَ يشفق على مثلك؟

ودوت ضحكة صاخبة مصحوبة بشتائم وسباب. ذلك أن الذين لم يكونوا قد استمعوا إلى تلك المناجاة، كانوا يصرخون لا لشيء إلا للنيل من الموظف السابق والتسلي على حسابه.

وزأر مارميلادوف فجأة وهو ينهض قائلاً:

ـ الشفقة؟ ولِمَ الشفقة؟

كان منتصباً وذراعاه مرفوعتان كان فريسة حماس واندفاع شديدين كان يتحدث كما لو لم يكن قد سمع بتلك الكلمات من قبل.

ـ لِمَ يشفق عليَّ؟ أهذا ما قلته؟ إنك على حق فأنا لا أوحي بالشفقة علي.. على العكس ينبغي أن أصلب نعم أن أصلب على صليب وليس أن يرثى لحالي! ولكن اصلبوني بعد أن تحاكموني واشفقوا علي قليلاً وأنتم تصلبونني وعندئذٍ سأمضي إلى عقابي لأنني لست مشوقاً للسرور بل إنني في شوق للألم والدموع وأنا متعطش إليهما فهل تظن ـ ويحك ـ أن نصف الزجاجة التي قدمتها إلي قد خففت ما بي؟ لقد بحثت في أعماقها عن الألم.. الألم والدموع هذا ما أنا بسبيل البحث عنه فيها! فلما لمستها بشفتي وجدت ما أريد! ولسوف يرحمني من يشفق على الناس أجمعين.. ذلك الذي يفهم كل شيء! إنه الأحد.. هو القاضي العادل.. ولسوف يظهر يوم الدينونة وسيقول: «أين هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحت بنفسها من أجل «خالة» لها مصدورة؟ ضحت بنفسها لتساعد أطفالاً لم يكونوا أطفالها! أين هي تلك الفتاة التي أشفقت على أبيها في الأرض، ذلك السكير الكريه دون أن تتنكر له بقسوة وتقزز!».. ولسوف يقول لها: «تعالي! لقد عفوت عنك مرة.. المرة الأولى.. ولسوف أسامحك وأعفو عن خطيئاتك التالية لأنك أحببت بعنف» ولسوف يعفو عن «سونيتي» نعم سوف يعفو عنها أنا أعرف أنه سيعفو عنها. لقد أحس قلبي بذلك منذ أن كنت عندها منذ حين!.. لسوف يحاكم الجميع.. نعم الجميع دون استثناء ولسوف يصفح عنهم جميعاً: عن طيبهم وخبيثهم شرسهم ولطيفهم.. وعندما ينتهي منهم جميعاً، لسوف يستدعينا نحن أيضاً! وسيقول لنا: «هيا اقتربوا أنتم أيضاً. تعالوا أيها الخاطئون»! وسوف نتقدم جميعنا دون خجل وسيقول لنا: «أيها

الخنازير! إن صورتكم تشبه صورة الحيوان وأنتم تحملون طابعه! ولكن اقتربوا مع ذلك!» ولسوف يهتف الهادئون العاقلون: «رباه.. كيف تتقبل هؤلاء أيضاً؟» فيجيبهم: «يا معشر العقلاء الهادئين، إذا كنت أتقبلهم فذلك لأنهم جميعاً لم يتوقعوا يوماً أن يصبحوا من المنبوذين وأهل الجحيم!».. ولسوف يفتح لنا ذراعيه بعد ذلك فنرتمي بينهما ونبكي ونفهم كل شيء! حتى كاترين إيفانوفنا نفسها ستفهم! رباه.. فليأت ملكوتك!

استنفد المسكين قواه وهو يلقي موعظته المؤلمة فتهالك على مقعده تعباً منهوكاً دون أن ينظر إلى أحد وكأنه نسي كل من كانوا حوله واستغرق في بيداء التفكير! أحدثت أقواله تأثيراً خاصاً في النفوس حتى أن السكون عمَّ خلال فترة من الزمن ولكنه سكون راحت تمطر بعده الشتائم على المتكلم وتغرقه الضحكات فمن قائل:

ـ أحسنت في خطبتك!

إلى آخر يعقب بقوله: ـ إنه يهذي.. وثالث يصيح: ـ يا لك من موظف صغير حقير! وهكذا..

فرفع مارميلادوف رأسه فجأة وأهاب بزميله قائلاً:

ـ هيا لنخرج يا سيدي.. رافقني.. إنني أقطن في دار «كوزل» في نهاية الباحة لقد حان الوقت فهيا إلى حيث كاترين إيفانوفنا!

لم يكن راسكو لنيكوف بأقل منه لهفة على الرحيل فقد كان يفكر منذ برهة في مساعدة مارميلادوف الذي برهن على أن لسانه أقوى من ساقيه اللذين ما كانا يعاونانه على الوقوف مما جعل مهمة راسكو لنيكوف عسيرة!

كانت المسافة التي يتحتم عليهما اجتيازها تتراوح بين مائتين

وثلاثمائة خطوة فكان كلما اقترب الثمل من المكان المنشود كلما اكتسحت كيانه الرهبة والمهابة.. راح يقول لمرافقه بانفعال:

ـ لست أخشى كاترين إيفانوفنا في هذه اللحظة.. لا ولا أن تجذب شعري وتقتلعه إذ ماذا يهمني أن تقتلع شعر رأسي؟ بل إنني أؤكد أنه من الضروري أن تفعل ذلك. كلا ليس ذلك ما أخشاه في هذه اللحظة ولكنني أخاف من عينيها.. نعم عينيها ومن اللطخات الحمراء التي تزين خديها وأخاف أيضاً من تنفسها.. ترى هل شاهدت من قبل كيف يتنفس المصابون بذلك المرض؟ خصوصاً عندما يستهدفون لمشاكسة أو احتدام جدال؟.. إنني أخاف كل هذا وأخاف سماع صوت الأطفال وهم يبكون لأنني لا أعرف ماذا سيكون حالهم إذا كانت سونيا لم تأتهم بما يأكلون.. أما الضرب فلست أخافه واعلم يا سيدي أن ذلك الضرب لا يؤلمني بل على العكس إنه يهيئ لي أحياناً لوناً من اللذة لا قدرة لي شخصياً على الاستغناء عنها! إنه خير.. نعم من الخير لي أن تنفحني «علقة» ترفه بها عن نفسها.. ذلك أفضل ولا شك.. والآن ها هي الدار.. بيت «كوزل» إن صاحبها ألماني غني مهنته صانع أقفال.. هيا قدني!

اجتاز الزميلان الباحة وراحا يتسلقان الطبقات الأربع التي تفصلهما عن غرفة كاترين إيفانوفنا.. فكانوا كلما أمعنوا في الصعود ازداد الظلام حلكة..

كانت الساعة تشرف على الحادية عشرة وعلى الرغم من أن الليل في بطرسبورغ لا يكون ليلاً بالمعنى الحقيقي في مثل ذلك الوقت من العام، إلا أن ذلك لم يمنع العتمة من أن تخيم على أعلى السلم!

كان الباب الحائل اللون الذي يشرف على نهاية السلم من الأعلى

مفتوحاً، وكانت هناك ذبالة تضيء غرفة حقيرة جداً لا يتجاوز طولها عشر طخوات؛ وكان يمكن رؤية كل ما فيها من «بسطة» السلم فإذا بالفوضى تعمها..

كان كل شيء فيها مهملاً منثوراً وعلى الأخص ألبسة الأطفال. وفي إحدى الزوايا نشر دثار بال تملؤه الثوب كان يخفي وراءه ولا شك سريراً. أما في الغرفة فلم تكن العين لتقع على كرسيين وديوان محطم يغطيه قماش من «المشمع» في حالة سيئة جداً! وأمام الديوان انتصبت طاولة مطبخ مصنوعة من خشب الصنوبر لم يكن يغطيها طلاء ولا غطاء! وعلى ركنها كانت شمعة مضاءة تلفظ أنفاسها في شمعدان من الحديد. كان مارميلادوف يشغل غرفة خاصة تشكل هذه ممشى لها وكان الباب المؤدي إلى تينك الغرفتين ـ على ما في هذه الكلمة من استعارة جريئة ـ مواربأ وكانت تنبعث من ورائه صرخات وصيحات.. كان هناك من يضحك ويقهقه كما هو حال الذين يلعبون الورق ويحتسون الشاي ويتسامرون! فكان يمكن التقاط بعض الكلمات دون أن يكون لها مؤدى واضح!

تعرف راسكو لنيكوف فوراً على كاترين إيفانوفنا. كانت امرأة شديدة النحول دقيقة القوام متوسطة الطول متناسقة التكوين. كانت تحتفظ بشعرها الكستنائي البديع ولكن خديها كانا أقرب إلى لطختين لشدة احمرارهما. كانت تذرع غرفتها جيئة وذهاباً ضامة يديها إلى صدرها متصلبة الشفتين، تتنفس تنفساً قصيراً متقطعاً وكانت عيناها تلتمعان من الحمى لكن نظراتهما كانت حادة قاسية فكان الناظر إليها تحت ذلك الضوء المتذبذب الخافت يحس بما يشيعه ذلك الوجه المحموم بفعل السل من أسى في النفس. خمن راسكو لنيكوف سنها فأعطاها ثلاثين ربيعاً فكانت والحالة هذه لا تشكل مع مارميلادوف زوجاً متجانساً..

لم تكن قد سمعت صوت خطى الوافدين ولم تكن قد رأتهما.. إذ كانت مستغرقة في خواطرها لا تسمع ولا ترى! وكان جو الحجرة خانقاً مع ذلك لم تكن النافذة مفتوحة وكانت تنبعث رائحة عفن شديدة من السلالم مع ذلك لم يكن الباب المؤدي إليها مغلقاً.. وكانت سحابة من دخان السجاير تكتسح غرفتها من الغرفة المجاورة فيشتد سعالها ومع ذلك لم تكن مغلقة ذلك الباب الذي كانت تنبعث من ورائه تلك السحب! وكانت صغرى الفتيات ولها من العمر ست سنين، نائمة على الأرض بل قل منكفئة على الأرض منطوية على نفسها ورأسها متكئ على الديوان. أما الطفل ـ وكان أكبر من أخته بعام واحد ـ فقد كان يرتجف في زاوية الغرفة وهو ينتحب.. لا شك أنها كانت قد فرغت للتو من ضربه! وأما البكر وهي في التاسعة من عمرها، طويلة القامة بالنسبة إلى سنها، رقيقة كعود الثقاب، فكانت شبه عارية إلا من قميص مهلهل ممزق وعلى كتفيها العاريتين دثار من الصوف أدخلت عليه الأم تعديلات كثيرة لم تستطع برغمها أن تجعله يبلغ ركبتيها.. كانت واقفة في زاوية الغرفة تضم إلى صدرها أخاها الأصغر وتطوقه بساعدها العاري الهزيل الضامر كانت كأنها تهمس في أذنيه بكلام يمنعه من معاودة البكاء. بينما كانت هي ترتعد هلعاً وتتابع أمها بعينيها الداكنتين الكبيرتين اللتين كانتا تبدوان أكثر اتساعاً في محجريهما من ذلك الوجه الذي يكسوه الرعب العنيف.

لم يدخل مارميلادوف إلى الغرفة بل جثا على ركبتيه ودفع راسكو لنيكوف إلى الأمام. فلما أبصرت المرأة بذلك الغريب يدخل غرفتها توقفت ساهمة أمامه وقد انتشلها دخوله المفاجئ من شرودها.. وحاولت أن تفسر سبب وجوده فظنت أنه يقصد الغرفة المجاورة خصوصاً وأن غرفة مارميلادوف كانت تستعمل كمدخل لها. فلما بلغت من تفكيرها هذا الحد

اتجهت نحو الباب الآخر لتفتحه له دون أن تعيره التفاتاً. غير أن نظرها وقع فجأة على زوجها ورأته جاثياً على ركبتيه أمام العتبة فندت عن صدرها صيحة غضبى وهتفت وقد أعماها الغضب:

ـ آه.. ها قد رجعت.. أيها اللص.. أيها الوحش... أين المال؟ ماذا في جيبك؟ أرني! إن هذا ليس ثوبك فأين ذلك الثوب؟ أين المال؟ تكلم!.. وارتمت عليه تفتشه.. فأبعد مارميلادوف ذراعيه بسكون واستسلام ليساعدها على إتمام مهمتها. لم تجد في جيبه ولا «كوبيكاً» واحداً!

صاحت به:

ـ ماذا عملت بالمال إذن؟ آه يا ربي.. هل يمكن أن تكون قد ثملت به كله؟ لقد كان في الصندوق اثنا عشر روبلاً قبل أن تسطو عليها..

وفجأة استبد بها الغيظ والغضب فأمسكت بشعره وجذبته بكل قواها إلى الغرفة بينما كان ـ هو ـ يسهل عليها تلك المهمة في حدود طاقته مستجيباً لها محاولاً اللحاق بها على ركبتيه وهو على جثوه! وبينما كانت زوجته تهزه من شعره بعنف وتضرب رأسه بأرض الغرفة! كان هو يردد موجهاً الكلام لرفيقه:

ـ إن هذا يفيدني يا سيدي! إنه لا يؤلمني.. واستيقظت الصغيرة التي كانت نائمة على الأرض وراحت تصرخ باكية معولة ولم يتمكن الطفل الذي إلى جانب أخته الكبرى من مقاومة خوفه أكثر من ذلك فانخرط هو الآخر في بكاء مرير وازداد التصاقاً بأخته التي كانت بدورها ترتعد من الرعب فكانت ترتجف كورقة في مهب ريح عاتية!

كل ذلك والمرأة ما فتئت تصيح يائسة:

ـ لقد أنفقه كله على الشراب.. لقد شربه كله! وهذا الثوب ليس ذاك

الذي اشتريته له.. رباه لقد سقطنا من جديد بين أنياب الجوع.. الجوع! وراحت تشير بيدها إلى أطفالها وهي تتلوى من الألم وتقول:

ـ آه من هذا الوجود المريع!

ثم زمجرت قائلة: ألا تستحي.. ألا تخجل..؟ لم تكتف بما فعلت بل توجهت نحو راسكو لنيكوف وصاحت به:

ـ لقد جئت من الحانة معه؟ لقد سكرت معه؟ كنتما تشربان معاً... اخرج من هنا..

تهافت الشاب طالباً النجاة دون أن ينبس ببنت شفة وكان باب الغرفة الأخرى الذي كان مواربأ قد فتح على مصراعيه وبان خلال الفتحة بعض الفضوليين الذين حلا لهم مشاهدة تلك التمثيلية المؤلمة! وكانت الأعناق مشرئبة و«النظارة» متلهفين بين مدخن لفافة ومولع بغليون! كانت أجسادهم ملفوفة في جلابيب نوم ممزقة بالية وكان بعضهم مرتدياً ألبسة صيفية خفيفة أقرب إلى التبذل وآخرون في أيديهم ورق اللعب! وكان يزيد في تسليتهم قول مارميلادوف وهي تجذبه من شعره إن ذلك يفيده ولا يؤلمه! ولقد تدافع أولئك المتطفلون حتى كادوا أن يبلغوا حجرة جيرانهم لولا أن أوقفتهم هممهة حانقة مغضبة! تلك الهمهمة كانت تنبعث من صدر إميلي ليبيوشسل التي ظهرت على «المسرح» لتعيد الأمور إلى نصابها على طريقتها وهي تسقي المرأة المسكينة سيلاً من الشتائم ملوحة لها للمرة المائة بوعيدها القاضي بتخلية الغرفة منذ الصباح!

استطاع راسكو لنيكوف قبل خروجه أن يجمع في قبضته الدريهمات القليلة التي تبقت لديه من «الروبل» الذي أنفق بعضه في الحانة وأن يضعها خلسة على حافة الكوة. فلما بلغ السلم، ندم على ما فعل وود لو استعاد ما منح وراح يناجي نفسه قائلاً:

«يا لها من حماقة تلك التي ارتكبتها في التو واللحظة! إن لديهم «سونياهم» بينما أنا في مسيس الحاجة إلى المال». غير أنه تذكر أقوال مارميلادوف حين قال: «إن سونيا بحاجة إلى الأدهان وإلى كل متطلبات النظافة» فأيقن أنه لن يستعيد منحته حتى ولو أتيح له أن يتسلل دون أن يعترضه أحد! لا لن يفعل ذلك.. إن وسائل النظافة غالية الثمن!

تابع سيره نحو غرفته وهو يغمغم: «إن سونيا لا تستطيع الكسب بسهولة... إن ملاحقة الغني بقصد السيطرة عليه لا تخلو من متاعب وأخطار! نعم... لولا دريهماتي لما كان باستطاعة أفراد هذه الأسرة البائسة إلا التطلع بلوعة وحرمان إلى الطعام الذي لا يستطيعون نيله! مسكينة سونيا... يا للمهنة التي دفعوها إليها بتأثير الحاجة! نعم... لقد ذرفوا دمعاً سخيناً في بادئ الأمر لكنهم سرعان ما اعتادوا تلك التضحية وألفوها. نعم... إن الإنسان نذل حتى أنه يعود نفسه على تقبُّل كل شيء!

ثم تابع تفكيره وقال يخاطب نفسه:

«هيا يا فتى... لقد كنت قاسياً في حكمي. إذ لو لم يكن الإنسان في حقيقته نذلاً أو بالأحرى لو لم تكن النذالة من صفات الإنسانية لكان معنى ذلك أن كل ما في الوجود ليس إلا أباطيل... نعم أراجيف خيالية لا حدَّ لها... ولا شك أنها كذلك!

الفَصْلُ الثّالِثُ

استيقظ راسكو لنيكوف متأخراً بعد أن حفل نومه بالأحلام المزعجة، فلم يفده نومه الطويل في استعادة قواه. كان مزاجه حاداً مستطيراً وبدت الغرفة لناظريه بشعة كريهة. بدت أشبه بقفص طوله ست خطوات ذي مظهر عريق بالبشاعة بوريقاته الباهتة التي تزين جدرانه، يسبح الغبار الكثيف في أرجائها، منخفضة جداً حتى أنه كان على طول قامته أن يتحاشى ارتطام رأسه بسقفها، أما الأثاث فكان يتناسب معها: ثلاثة مقاعد متداعية قديمة ومنضدة مدهونة «مجازاً» في أحد أركانها وقد تراكمت فوقها الكتب والدفاتر التي يشهد الغبار الذي يعلوها أنها لم تمس منذ أمد بعيد!.. وكان هناك كذلك «أريكة» كبيرة تشغل المساحة القائمة بين منتصف الغرفة والجدار مجللة بقماش هندي ممزق كان راسكو لنيكوف يستعملها بدلاً من السرير! وكثيراً ما كان ينام عليها بألبسته كلها دون أن يبسط فوقها غطاء ما ويلتحف معطفه القديم، معطف التلمذة! وكان يستعيض عن الوسادة ـ لافتقاره إلى واحدة ـ بكيس صغير حشر فيه كل ما وصلت إليه يده من ملابس داخلية قذرة أم نظيفة على قدر حاجته.. وكذلك كانت هناك منضدة صغيرة أمام «السرير»!

كان من العسير على المرء الانحطاط إلى أسوأ من هذا المصير!.. مع ذلك فإن راسكو لنيكوف كان في حالة نفسية تجعله يرتضي تلك

الحقارة فكان منظر كوخه المزري يبعث في نفسه نوعاً من السرور. كان قد ألف العيش في عزلة تامة كالسلحفاة التي تلجأ إلى بيتها الطبيعي.. غير أنه لم يكن راضياً عن الخادمة ذات الوجه الذي يثير في نفسه حقداً مريراً كلما أطلت ذات صباح لتراقب ما يجري في غرفته. تلك هي عادة بعض المخبولين الذين يثورون بفعل بعض الأشياء دون بعضها الآخر! وكانت صاحبة الدار قد انقطعت عن تقديم الطعام إليه منذ أكثر من خمسة عشر يوماً. فلم يفكر ـ رغم ذلك الصوم الاضطراري ـ في وجوب النزول إليها ومناقشتها الأسباب! وكانت «ناستاسيا» وحدها ـ وهي الطاهية والخادمة الوحيدة في المنزل ـ راضية عن ذلك المستأجر لأنها كفت نهائياً عن ترتيب سريره وتنظيف غرفته اللهم إلا إذا صدف أن مرت من هناك مرة في الأسبوع وبيدها مكنستها.. وكانت هي التي أيقظته هذا الصباح ـ لدهشته ـ وهي تهيب به أن ينهض:

ـ هيا انهض! كيف تنام إلى هذا الوقت وقد تجاوزت الساعة التاسعة؟ لقد أتيتك بالشاي فهلا ارتشفته؟ سوف تموت من الجوع إذا بقيت على حالك!

فتح المستأجر عينيه وارتعد! فقد عرف صوت ناستاسيا! ولكنه تمالك أعصابه وقال بصوت خافت:

ـ أهي صاحبة الدار التي أرسلت إلي هذا الشاي؟

وضعت أمامه آنية الشاي الخاصة بها والتي كانت فيها بقايا الشاي الذي تحدثت عنه ثم ألقت بجانبها بقطعتين صغيرتين من السكر المصفر وقالت: ـ آه.. صاحبة الدار!... ليكن!

تناهض الشاب وراح يبحث في جيوبه ـ وكان نائماً بثيابه كاملة ـ ثم أخرج قطعة نقود صغيرة وقال:

ـ هاك يا ناستاسيا ائتني إذا أردت بقطعة صغيرة من الخبز ثم اذهبي إلى اللحام واشتري لي بعضاً من «النقانق» واجهدي أن تكون رخيصة الثمن!

ـ سآتيك بالخبز حالاً. أما «النقانق» فإنني أفضل عليها حساء الملفوف الذي عندنا بعضه؛ فلقد رفعت لك جانباً منه مساء أمس ولكنك تأخرت في عودتك! إنه حساء لذيذ جداً..

عادت إليه بعد قليل بالخبز والحساء فمضى يأكل بنهم بينما جلست إلى جانبه وراحت تثرثر. كانت من تلك النسوة القرويات اللاتي يتمتعن بلسان لا يدركه الإعياء! قالت تحدثه:

ـ تريد «براسكوفي بافلونا» أن تشكوك إلى البوليس!

فأربد وجه راسكو لنيكوف وأجاب مستفسراً:

ـ تشكوني إلى البوليس؟ ماذا يزعجها مني؟

ـ إنك لا تدفع لها ولا تريد إخلاء الغرفة وهذا ما يزعجها منك!

فهمهم بين أسنانه يقول:

ـ يا للشيطان.. هذا ما ينقصني في هذه الآونة! إن ذلك يأتي في غير موضعه!.

ثم تابع بصوت مرتفع يقول:

ـ يا لها من حمقاء! سوف أقابلها اليوم وسأتحدث معها في الأمر!

ـ قد تكون حمقاء كما تقول مثلي تماماً.. ولكن أنت الذي تنعم بالذكاء الألمعي لِمَ تبقى هكذا منزوياً دون أن تمد أنفك إلى الخارج؟ كنت من قبل ـ على حدِّ قولك ـ تعطي دروساً للأطفال فلِمَ لا تقوم الآن بأي عمل»؟.

فأجابها بلهجة جافة دون أن يعني ما يقول:

ـ أنا أعمل شيئاً ما..

ـ ماذا تعمل؟

ـ عملاً...

ـ أي عمل؟

فأجابها برزانة بعد صمت قصير قائلاً:

ـ إنني أفكر!

كان مزاج ناستاسيا مرحاً حتى أنها إذا ابتهجت لشيء مهما بلغت تفاهته، راحت تضحك بسكون ضحكة مكبوتة تهز جسمها كله وتجعلها تتلوى بعنف حتى ينتهي بها الحال غالباً إلى قذف ما في أحشائها! تلك كانت إحدى ميزاتها ولقد كانت فريسة لتلك الميزة في تلك اللحظة عند سماعها جواب الشاب!

ولما استطاعت النطق قالت:

ـ هلا فكرت على الأقل.. في كثير من المال؟

ـ لا يمكن إعطاء دروس إذا لم يكن لدى المرء أحذية وعلى كل حال إنني لا أبالي!

ـ لا عليك!..

واسترسل بلهجة شرسة وكأنه يناقش أفكاره الشخصية وقال:

ـ دروس؟ لا يجني الإنسان منها إلا النذر القليل..

ـ لعلك تريد اكتساب ثروة كاملة دفعة واحدة..

فأجابها بلهجة مطمئنة بعد تفكير قصير قائلاً:

ـ نعم ثروة كاملة..

ـ مهلاً.. إنك تخيفني لأنك تتوق إلى الوثوب الخطر.. وعلى فكرة، لقد وردت إليك رسالة في غيابك كدت أنساها..

ـ ماذا؟ رسالة إلي؟ وممن؟

ـ ممن؟ لست أدري! لقد أعطيت الساعي من جيبي الخاص ثلاثة «كوبيكات» فهلا أعدتها إلي؟

فهتف بها راسكو لنيكوف قائلاً وقد هزته المفاجأة:

ـ بحق السماء اذهبي وجيئيني بها! يا إلهي!

لم تمض دقيقة حتى كانت الرسالة بين يديه، كان يتوقع أن تكون من أمه التي تقطن مقاطعة «ر...» وصدق ما توقعه! فلما أخذها بين يديه شحب لونه.. فقد انقطعت عنه الرسائل منذ أمد بعيد؛ وكانت أفكاره تزيد في إيلامه.. وابتهل إلى الخادمة بضراعة أن تذهب وتتركه لوحدته:

ـ هاك «كوبيكاتك» الثلاثة يا ناستاسيا وانصرفي.. انصرفي بحق الرحمن.. بحق السماء عجلي بالانصراف!

كانت يده ترتعد والرسالة فيها، ولم يكن يريد فضها بحضور الخادمة. كان يشعر بحنين للبقاء «وحده» مع ذلك الكتاب، فلما ارتحلت ناستاسيا، حمل الرسالة إلى شفتيه وقبّلها وراح يتمهل في معاينة العنوان الذي كانت تحمله!.. لقد تعرف على كتابة أمه العزيزة، ذلك الخط الدقيق المائل، خط أمه التي علمته أول مبادئ القراءة والكتابة.. وأخيراً فض الغلاف فطالعته رسالة مطولة سطرت على ورقتين كبيرتين امتلأت صفحاتهما كلها بكتابة دقيقة متلاحقة.

عزيزي روديا: ها قد مضى شهران لم أتصل بك كتابة خلالهما، لقد تألمت لذلك وقاسيت من هذا الانقطاع حتى أنني لم أستطع النوم الليلة الماضية لكثرة ما فكرت فيك. أعتقد أنك لن تلومني على سكوتي الطويل القسري! وأنت تعلم كم أحبك.. فأنت كل ما تبقى لنا: لدونيا ولي، أنت كل شيء بالنسبة إلينا، كل أملنا وإيماننا بالمستقبل... لا تسل عن حالي حينما علمت أنك تركت الجامعة منذ شهور بسبب ضيق ذات يدك، وأن دروسك انقطعت وكذلك مواردك!

كيف أستطيع يا ولدي أن أساعدك وأنا لا أمتلك إلا مائة وعشرين روبلاً في العام هي كل جرايتي.. إن الخمسة عشر روبلاً التي بعثت بها إليك منذ أربعة أشهر، كنت اقترضتها ـ كما تعلم ـ من أحد الباعة عندنا: فاسيلي إيفانوفيتش فاخروشين. إنه رجل باسل وقد كان صديقاً لأبيك. بَيْدَ أنني عندما فوضته بقبض جرايتي استيفاء لدينه، لم أتمكن من الوفاء قبل اليوم، مما جعلني خلال هذه المدة عاجزة عن إمدادك بأي عون. أما الآن والحمد للّه، فإنني أعتقد أن بمقدوري أن أمدك ببعض الشيء، وعلى العموم نستطيع اليوم أن نتباهى بأننا في حال يتحسن باطراد الأمر الذي بادرت إلى إطلاعك عليه.. فهل خمنت يا عزيزي روديا ما هو السبب؟ إن أختك يا ولدي تقطن منذ شهر ونصف معي وإننا نأمل أن لا نفترق بعد اليوم أبداً. حمداً للّه فقد انتهت آلامها ولسوف أطلعك على دقائق الأمر بالترتيب لكي تدرك كيف وقع ذلك، الأمر الذي أخفيناه عنك حتى اليوم.

عندما كتبت لي منذ شهرين أنه ترامى إلى سمعك أن أختك دونيا موضع معاملة سيئة من قبل مستخدميها آل سفيد ريكايلوف وأنك تسألنا إيضاحاً عن ذلك يفي بحاجتك إلى الاطمئنان، ما كنت أعرف كيف أجيبك... ولو أنني أخبرتك بالحقيقة كلها لهجرت المدينة ولقطعت الطريق مشياً

على قدميك لتصل إلينا. ذلك لأنني أعرف عواطفك وأفهم عقليتك، فما كنت لتترك أختك عرضة للامتهان والاعتداء عليها حتى أنني شخصياً كنت يائسة ولكن لم يكن بوسعي عمل شيء! زد على ذلك أنني ما كنت أعرف الحقيقة كلها... وكان أسوأ ما في الأمر أن أختك «دونيا» لما عملت عندهم كمربية منذ عامين، استلفت مائة روبل بشرط أن تحسم على دفعات من أجورها الشهرية، الأمر الذي جعلها عاجزة عن التحرر من ربق مستخدميها قبل وفاء السلفة... وهذا المبلغ (وأستطيع الآن أن أصارحك يا عزيزي روديا) كانت استلفته بصورة خاصة لترسل إليك منه الستين روبلاً التي تلقيتها منا في العام الماضي... وقد خدعناك كلتانا حينما أوهمناك أنه مال ادخرته أختك من قبل... والآن أطلعك على الحقيقة كلها لأن اللّه منّ علينا وأراد أن تختلف أوضاعنا كلها وتتحسن ولأنني أريدك أن تدرك إلى أي حدٍّ تحبك أختك دونيا وأي قلب عطوف نادر المثيل تحمل بين ضلوعها... والقضية هي أن السيد سفيدريكايلوف كان يعاملها في البداية بخشونة وصلف... فكان يعرضها على مائدة الطعام لمختلف أنواع الهزء والمشاكسة الممجوجة... ولا أريد الاسترسال في شرح هذه التفاصيل المؤلمة كي لا أثيرك وأحرك غضبك دون جدوى طالما أن هذه الأمور قد انتهت الآن ولن تعود...

موجز القول، كان مركز دونيا أليماً لدى آل سفيدريكايلوف رغم ما كانت تلاقيه من حسن المعاملة من زوجته «مارتا بيتروفتا» ومن كل سكان المنزل الآخرين، لكن ماذا نتج عن ذلك؟ تصور أن ذلك المأفون كان منذ أمد بعيد يضمر ميلاً نحو دونيا وأنه كان يخفي كل ذلك تحت ستار من الغلظة والفظاظة والاحتقار! ولعله كان يخجل من نفسه أو أنه استنكر ما يبيت لها من آمال محرمة وهو الطاعن في السن، رب الأسرة

الكبيرة... ومن أجل ذلك كان ينقم على دونيا ويحقد عليها... ولعله كان يقصد من وراء تلك القسوة والسخرية التي كان يعرضها لهما أن يجعل الباقين يحذون حذوه في معاملتها. غير أنه لم يستطع الصمود والمثابرة على خطته... وبلغ منه الهوس أن راح يفاتح دونيا بصراحة بما في نفسه ويعرض عليها عروضاً دنيئة ممنياً إياها بشتى المكافآت والعطاءات ومؤكداً لها استعداده لهجر أسرته والفرار معها إلى حيث ينعم بحبه الأثيم سواء أكان ذلك في إحدى ممتلكاته النائية، أو في خارج البلاد... لك أن تتصور بعد هذه المقدمة في أي ذعر وأية رهبة كان تعيش أختك المسكينة.. وما كان لها أن تفكر في ترك عملها، ليس بسبب السلفة الواجبة التأدية فحسب، ولكن لتجنب مارتا بيتروفنا الألم الذي سيحدثه لها علمها بالأمر... وهي لو علمت به، أو شعرت بظل من الشك في نفسها في هذا العدد، لأحدثت في الأسرة مشاحنات لا تؤدي إلا إلى أسوأ النهايات والاحتمالات. أضف إلى ذلك الفضيحة التي كان يمكن أن تلحق بدونيا، رغم أننا لم نتمكن من اجتناب الفضيحة كلياً..

كانت دونيا لا تستطيع الفرار من ذلك البيت الممقوت، قبل ستة أسابيع على الأقل، وذلك بنتيجة ظروف شتى... وأنت تعرف أختك، وتعرف كم هي حكيمة عاقلة متينة الخلق! وهكذا عولت دونيا على الاحتمال، مطمئنة إلى شجاعتها التي لا تخونها في مجابهة تلك الأمور، مهما كانت الظروف حرجة، والملابسات دقيقة خطيرة! وقررت الامتناع عن الكتابة إليّ حول هذا الموضوع، كي لا تثير الرعب في نفسي، لذلك فإن رسائلها التي كانت ترد إلي تباعاً، لم تكن تحمل أي تلميح حول هذا الموضوع؛ فجاءت الخاتمة بشكل فجائي غير متوقع! ذلك أن «مارت بيتروفنا» ـ بصدفة عجيبة ـ داهمت زوجها في البستان، وهو يبتهل إلى دونيا، ويتوسل

إليها... ففهمت الموضوع على عكسه، واتهمت دونيا بما كان ينبغي لها أن تتهم به زوجها. فقام بينهما في ذلك البستان مشهد مريع... كانت «مارت بيتروفنا» ترفض الاستماع إلى إيضاحات «دونيا»، بل إنها سمحت لنفسها أن تضربها وأن تصيح في وجهها طيلة ساعة من الزمن، وأمرت أخيراً أن تعاد إلى المدينة ـ عندنا ـ على عربة قروية عادية، ألقيت فيها حاجاتها دون نظام ولا ترتيب... وتكدست في تلك العربة ألبستها «وبياضاتها» وكل ما حملته معها في ذهابها إلى ذلك البيت... وكانت السماء تمطر مطراً غزيراً، واضطرت دونيا على ما كانت عليه من تجريح وخزي، أن تقطع سبعة عشر فرسخاً برفقة الفلاح، وفي عربة مكشوفة، فاحكم الآن بنفسك على نوع الجواب الذي كان يمكنني إرساله إليك، وجواباً على كتابك الذي بعثت به إلي منذ شهرين؟.. لقد كنت يائسة، لا أكاد أفقه شيئاً مما يدور حولي، فلم أجرؤ على مكاشفتك بالحقيقة، وإلا لتجرحت كرامتك، ولاستثارك الغضب، ولكنت أتعس المخلوقات.. خصوصاً ما كنت لتستطيع الإتيان بأي أمر، إلا زيادة موقفك سوءاً وخطورة! هذا مع العلم أن دونيا حذرتني من مفاتحتك بالموضوع، فلم أجد في نفسي القدرة على تدبيج رسالة، تحمل تفاصيل تافهة مغلوطة لا أعرف كيف أصوغها!

استمرت الافتراءات تروج هنا في المدينة، طيلة شهر كامل، وكنا هدفاً مكشوفاً لها؛ وبلغت من شدتها أننا ـ دونيا وأنا ـ ما عدنا نستطيع وطء أرض الكنيسة بأقدامنا، خشية ألسنة الناس الحداد، ونظرات الاحتقار التي كنا نستهدف لها، والهمسات التي كانت ترتفع في استقبالنا؛ وبلغ الحال حداً لم يعد بعضهم يخجل من إبداء آرائه أمامنا وجاهياً دون خفر ولا حياء.. وأدار معارفنا ظهورهم لنا، وقلب لنا أصدقاؤنا ظهر المجن. حتى امتنع بعضهم عن توجيه التحية إلينا ومخاطبتنا.. ثم بلغني من مصدر

موثوق أن بعض المستخدمين والموظفين الصغار، تآمروا بينهم، وقرروا إهانتنا بشكل دنيء، بأن يلطخوا باب مسكننا بالقطران، حتى أن مالكي الدار راحوا يدعوننا إلى إخلائها... وكانت «مارت بيتروفنا» وراء كل هذه التخرصات والأفاعيل؛ فقد راحت تقص القصة كما قصتها في كل مكان تؤمه، لتنال من دونيا وتحط من قيمتها.. وكانت معرفتها بالناس من مختلف الطبقات تسهل مهمتها؛ خصوصاً وأنها ميالة بطبعها إلى الثرثرة والتحدث عن شؤونها الداخلية، الأمر الذي كان يهددنا بانتشار تلك القصة، ليس في مدينتنا فحسب، بل في المقاطعة كلها؛ وبلغ من حزني أن وقعت فريسة المرض، على عكس دونيا التي أظهرت جلداً عجيباً...

ليتك رأيتها وشهدت كيف كانت تحتمل كل هذه الافتراءات المرذولة، وتشجعني على الاحتمال وتعزيني بالمصاب لتخفف وطأه في نفسي، إنها ملك! وقد رحمنا الله وغمرنا بإحسانه إذ انتهت آلامنا.. ذلك أن السيد سفيدريكايلوف قرر الاعتراف بذنبه، والإقلاع عن خطئه.. ولعله أشفق على دونيا مما حلّ بها بسببه، فشرح «لمارت بيتروفنا» الأمر بحذافيره، وقدم إليها الأدلة التي تنادي ببراءة دونيا الكلية وتدعمها.. وأذكر منها بصورة خاصة، رسالة كانت دونيا قد وجهتها إليه قبل أن تفاجئهما مارت بيتروفنا في الحديقة، كانت تطلب إليه فيها أن يكف عن ملاحقته لها، وتعتذر له فيها عن ملاقاته في الموعد الذي رجاها أن توافيه فيه.. ـ وقد بقيت تلك الرسالة بعد انسحاب دونيا بين يدي السيد سفيدريكايلوف ـ وتعتب عليه فيها سلوكه المشين حيال زوجته مارت بيتروفنا. وتذكره بأنه متزوج ورب عائلة، وأن تصرفه سوف يجلب التعاسة والشقاء للأسرة كلها. وتدعوه إلى الكف عن مضايقة فتاة مسكينة عزلاء، لا تملك عن نفسها دفاعاً... كل ذلك بلهجة عنيفة شديدة حاسمة.

خلاصة القول يا عزيزي روديا، كانت تلك الرسالة مؤثرة ونبيلة، حتى أنني لم أتمالك نفسي عن الانتحاب عندما قرأتها. ولا أستطيع اليوم أن أعيد تلاوتها دون أن تملأ الدموع عينيّ.. وجاءت شهادة الخدم مصداقاً لصحة ما جاء في رسالة دونيا، مزيدة لها. أولئك الخدم الذين ظهر أنهم كانوا يعرفون أكثر مما قدر السيد سفيدريكايلوف نفسه، كما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات.. وقد ذهلت «مارت بيتروفنا» للنبأ، فكانت صدمة أليمة لها. زادت شدتها عن الصدمة الأولى ـ كما اعترفت بنفسها بعدئذٍ.. ولم يبق لديها أي شك في براءة دونيا.. وهكذا لم تكد شمس الصباح تشرق ـ وكان اليوم أحداً ـ حتى هرعت إلى الكنيسة تبتهل إلى العذراء شديدة القدسية أن تساعدها على احتمال هذه التجربة العنيفة، والقيام بالواجب المترتب عليها، ثم جاءت تزورنا بعد ذلك مباشرة، دون أن تتوقف في الطريق، فقصت علينا الخبر بحذافيره، وبكت بمرارة واندفعت ـ تحت تأثير ندمها وشعورها بالإثم ـ إلى دونيا تعانقها، وتطلب إليها الصفح عنها. ثم غادرتنا وطافت في أنحاء المدينة كلها، فلم تترك أحداً من معارفها إلا وأزجت دونيا أمامه مديحاً حاراً، وسكبت سيلاً من الدمع وهي تشيد بنقاء عواطفها، ونبل أخلاقها.. ولم تكتف بذلك بل راحت ـ زيادة في تبرير موقف دونيا وسعياً وراء ردّ اعتبارها السليب إليها ـ راحت تتلو رسالتها بصوت عال أمام الناس، تلك الرسالة التي حدثتك عنها، والتي وجهتها دونيا إلى السيد سفيد سفيدريكايلوف.. بل وسمحت لمن أراد أن ينسخ عنها صورة ليحتفظ بها، يطلع عليها من يشاء (وهو تصرف لا أعتقد أنه في محله).. وبهذه الطريقة لبثت «مارت» عدة أيام متتالية تطوف المدينة، ساعية لإصلاح ما أفسدت. فلم تترك أحداً من معارفها إلا وحدثته بالنبأ الجديد، حتى أن بعض هؤلاء راح يبذها في نشر الخبر والتعقيب عليه!..

وكانت زيارة مارت بيتروفنا متوقعة لكل مكان، فكان يعرف سلفاً أنها ستقرأ الرسالة في يوم كذا، حتى أن الذين سبق لهم سماع ما جاء فيها، كانوا يقصدون حيث تكون، ليستمعوا من جديد إلى تلك التلاوة العتيدة!

إنني اعتقدت أن مارت بيتروفنا بالغت كثيراً في أمثال هذه التصرفات، ولكنها كانت ترضي ضميرها وتحتكم لعقليتها؛ وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التصرف أن عاد إلى دونيا اعتبارها، وتحررت نهائياً من الوصمة التي كانت تهدد حياتنا... وقد تلقت دونيا عروضاً كثيرة للتدريس في عدة دور، إلا أنها رفضت تلك العروض؛ واستعدنا مرة ثانية مكانتنا بين الناس الذين راحوا يعربون لدونيا عن مودتهم وأسفهم.. وكان لهذا الحدث أثر في تسهيل التحسن الذي طرأ على موقفنا، إذ تقدم خطيب يطلب يد دونيا فوافقت عليه، وأنا بدوري بادرت إلى إخبارك.. إذ رغم أن القضية قد بُتَّ فيها دون أخذ موافقتك فإننا ـ دونيا وأنا ـ ندرك تماماً أنك لن تسرها في نفسك، خصوصاً متى عرفت أننا ما كنا لنستطيع إرجاء البت فيها، وأنك ما كنت لتستطيع الحكم على الموضوع بدقة، وأنت حيث أنت الآن... وإليك تفصيل القضية كما وقعت:

بيير بيتروفيتش لوجين المستشار القضائي، يمت بقرابة بعيدة إلى مارت بيتروفنا، التي لعبت دوراً فائقاً في هذه المناسبة. فهو الذي بدأ يعرب لقريبته عن رغبته في التعرف إلينا؛ وقد استقبلناه بالطبع على أحسن ما يكون الاستقبال، وقدمنا له القهوة... وفي اليوم التالي بالذات بعث إلينا رسالة عرض فيها بأسلوب مهذب رغبته، والتمس جواباً سريعاً وحاسماً.. وبيير هذا، رجل أعمال جم المشاغل تعتبر الثواني ثمينة في حياته.. ولسوف ينتقل إلى بطرسبورغ! فلما أطلعنا على رغبته، فوجئنا بها، كما لا شك تتصور ذلك. لأنه كان عرضاً فجائياً غير منتظر.. فأمضينا كلتانا

سحابة يومنا نمحص المسألة، ونناقشها على كل الوجوه. صحيح أن سن بيير هذا يبلغ الخامسة والأربعين، إلا أن مظهره مرض جداً، وفيه جاذبية للنساء؛ وهو إلى جانب ذلك ذو مركز ممتاز، وحال مرموق رغم ما يبدو على محياه من كسوف وترفع. لكن ذلك قد لا يعدو المظهر، مجرد مفعول النظرة الأولى ليس إلا؛ ولسوف تلقاه في بطرسبورغ، ولن يتأخر ذلك، فآمل أن لا تحكم عليه باندفاع ودون روية، كعادتك يا عزيزي، إذا لمست في مظهره مما يستوقف الانتباه للوهلة الأولى! أقول لك لمجرد القول، رغم وثوقي من أنه سينتزع إعجابك ولأنه، لكي نحكم على رجل من أي نوع كان ونتوصل إلى معرفة سريرته، ينبغي أن نتصرف حياله بحكمة واحتراس بالغين. إذا أردنا أن لا نقع في شطط يصعب تصحيحه بعدئذٍ وإزالة آثاره. أما فيما يتعلق ببيير بيتروفيتش، فلدينا أكثر من دلالة على أنه من خيرة الرجال، وأوفرهم احتراماً!.. وقد صرح لنا في زيارته الأولى أنه رجل إيجابي حقاً، ولكنه إزاء العديد من النقاط، يؤمن «بمبادئ الأجيال الحديثة» حسب تعبيره الخاص. وأنه عدو التسرع في الحكم على الأشياء... ولقد حدثنا في زيارته تلك بأشياء كثيرة، لأنه ـ كما يبدو ـ معجب بنفسه بعض الشيء. يحب أن ينصت الناس إلى حديثه، مما لا يجدر اعتباره عيباً إلا إذا شئنا أن نفرط في الحكم!... إنني لم أفهم شيئاً كثيراً من كل ما قال، غير أن دونيا شرحت لي أنه على الرغم من أن ثقافته الأساسية لم تكن عالية، إلا أنه ذكي تبدو عليه الطيبة والنبل... إنك تعرف عقلية أختك يا روديا. إنها شابة ذات تفكير منطقي قويم، مثابرة شريفة النفس رغم قلبها الحساس المتأجج كما لاحظت عليها ذلك. طبيعي أن، لا دونيا ولا بيير، ارتبط أحدهما بالآخر بغرام مسبق. لكن دونيا ـ إلى جانب كونها فتاة ذكية ـ شابة نبيلة كملك السماء، تعتبر أن من واجبها بناء سعادة زوجها الذي عليه

بدوره أن يفكر بمثل ذلك، الأمر الذي لا نجد لدينا أي دافع للشك فيه رغم السرعة التي رافقت البت في هذه القضية! إنه على العموم من الرجال الأذكياء النابهين، فهو يدرك إذن أن سعادته العائلية ستكون أكثر توطيداً كلما كانت دونيا محفوفة بالسعادة والهناء. أما فيما يتعلق ببعض التباين في الأمزجة وتوافه الميل، والذي يرجع في الغالب إلى تباين في الآراء ـ وهو الأمر الذي لا يمكن اجتنابه حتى في أكثر الأسر تفاهماً وسعادة ـ فإن دونيا تكفلت في علاجه على طريقتها. إنها تؤكد لي، بأن ليس في الأمر ما يتعلق ويشغل البال، وأنها ستتغاضى عن كثير من الأمور شريطة أن تعم العدالة، ويسود علاقاتهما التجرد والنزاهة.

إن المظاهر كثيراً ما تخدع يا ولدي! فقد بدا لي هذا الرجل لأول وهلة غضوباً بشيء من الوقاحة، غير أنني تأكدت من أن هذا الشعور يرجع إلى صراحته الشديدة.. وقد صرح في زيارته الثانية لنا، عقب إبلاغه موافقتنا، أنه قبل أن يصادف دونيا ويتعرف إليها كان مقرراً أن لا يتخذ لنفسه زوجة إلا فتاة شريفة دون بائنة، تذوقت معنى الحرمان والفاقة.. وفسر لنا وجهة نظره هذه قائلاً: إن الرجل لا يجب أن يكون مديناً بشيء لزوجته، ومن الخير أن تنظر المرأة إلى زوجها نظرتها إلى محسن كريم. هذا مع العلم أنه عبّر عن رأيه ذاك بشكل ألطف مما كتبته لك، غير أنني نسيت عباراته التي تفوه بها، واكتفيت بأن نقلت إليك المعنى! كما أنه لم يقل ذلك القول متعمداً متروياً، بل أن تلك العبارة أفلتت من فمه خلال حمى النقاش والحديث، حتى أنه بعد أن قال ما قال عاد يصلح ما تفوه به، ويزيل ما قد يكون علق في نفوسنا من آثاره! ولبثت أعتبر ذلك القول لوناً من الإهانة، وفاتحت دونيا بعد ذلك بما خمنت، فأجابتني بشيء من التبرم «أن الكلام شيء والأفعال شيء آخر» وهو قول على العموم لا يخرج عن الحقيقة!

أمضت دونيا ليلتها الأولى ساهرة.. تلك الليلة التي سبقت قرار القبول.. كانت تظنني نائمة. لذلك فقد نهضت من فراشها، وراحت تذرع غرفتها جيئة وذهاباً، ثم جثت على الأرض وراحت تصلي بحرارة وقتاً طويلاً، أمام «الأيقونة» وفي الصباح، أنهت إليّ قرارها بالموافقة على الزواج!

قلت لك في متن هذه الرسالة: إن بيير بيتروفيتش سيسافر إلى بطرسبورغ، وإن أعمالاً هامة تقتضيه ذلك السفر. وأنه سيفتتح فيها مكتباً للمحاماة فهو يزاول هذه المهنة منذ زمن بعيد، وقد ربح مؤخراً قضية هامة. على ذلك، تستطيع اعتباره يا عزيزي روديا، ذا منفعة بالنسبة إليك، وقد اتفق رأينا ـ دونيا وأنا ـ على أنك تستطيع منذ اليوم أن تبني مستقبلك الذي أصبح مؤمناً نهائياً.. آه.. ليت ذلك يتحقق بالفعل.. إنه سيكون فعلاً نجاحاً منقطع النظير، أو قل رضواناً منْ اللّه لا أكثر ولا أقل.. حتى أن دونيا لا تنفك تفكر في ذلك!... ولقد ألمحنا إلى بيير بيتروفيتش بذلك، فكان جوابه متحفظاً ولكنه صرح بأنه يفضل بالطبع أن يدفع أتعاباً لواحد من أفراد الأسرة طالما أنه لن يستطيع الاستغناء عن أمين سر له «سكرتير»، شريطة أن يبرهن ذلك القريب على كفاءته، فيشغل مركزه بجدارة (ولست عاجزاً عن ذلك أبداً!) ثم عبّر عن شكوكه في أن تكون دراسته في الجامعة لا تسمح لك بمزاولة العمل في مكتبه؛ وتوقفت المسألة عند هذا الحد. غير أن دونيا التي لا يشغلها أمر أكثر من هذا، ستعود إلى البحث فيه من جديد.. لقد وضعت منذ أيام مشروعاً مستعجلاً يتعلق بمستقبلك: هي تجزم بأنك تستطيع أن تصبح بعد قليل مساعداً لبيير بيتروفيتش، بل شريكاً له في أعماله القانونية، خصوصاً وأنك طالب في كلية الحقوق! إنني شخصياً من هذا الرأي، لذا تراني أسبح في هذه الأمال، وآتيه في خضم هذه المرئيات معتبرة كل ذلك حقيقة واقعة! وعلى الرغم من تحفظ بيير

بيتروفيتش الحالي، وهو تحفظ واضح السبب لأنه لم يتعرف إليك بعد، فإن دونيا متأكدة تماماً من أنها ستبلغ الهدف بفضل نفوذها الذي تفكر في استعماله على زوجها المقبل.. نعم إنها واثقة من ذلك!

إننا ولا شك نمتنع عن التحدث عن آمالنا أمام بيير بيتروفيتش، خصوصاً عن رغبتنا في أن نراك يوماً شريكاً له، لأن بيير هذا رجل واقعي ولعله إذا شهد وعرف ما نضمر عزا ذلك إلى إغراقنا في الخيال والأوهام. هذا عدا عن أننا ـ دونيا وأنا ـ لم نحدثه قط عن أملنا في أن يقدم إلينا المال اللازم، طيلة وجودك في الجامعة لمتابعة دروسك؛ ونحن واثقتان من أننا في غير حاجة إلى التحدث عن هذا الأمر، الذي سيكون بديهياً في المستقبل، والذي لا شك سيبدأ من جانبه، بعد أن يسمعك بعض المواعظ، لأنه لن يستطيع رفض هذا الرجاء الذي تتقدم به دونيا إليه كزوج! عدا عن أنك ستكون مساعده الأيمن في أعماله، وبذلك تخرج القضية عن نطاق الإحسان والمساعدة وتكون مجرد دفع أجر أنت تستحقه لقاء عملك. تلك هي مشاريع دونيا التي تضمرها لك، وأنا متضامنة معها في ذلك مؤيدة لها!

كذلك لم نتحدث في هذا الأمر لأنني كنت أهدف إلى جعلك معه على قدم المساواة، بعد أن تتقابلا للمرة الأولى! ذلك أن دونيا كانت تتحدث إليه عنك بلهجة كلها حماس وتأييد، فإذا به يجيبها لكي يحكم على رجل ما ينبغي أن يراه عن قرب، وأن يحتك به. لذلك فهو يحتفظ برأيه فيما يتعلق بك إلى اليوم الذي سيتعرف عليك فيه.

سأطلعك كذلك على أمر يا عزيزي روديا. إنه ليس رأي بيير بيتروفيتش بالطبع ولكنه ـ ولنقل ـ هذيان امرأة عجوز! ذلك أنني بسبب اعتبارات معينة، أفكر في البقاء حيث أنا، بعد زواج أختك دونيا، بدلاً من أن أشاطرهما السكن. إنني واثقة من أنه سيكون له من نفسه ما

يحفزه على مطالبتي بعدم الافتراق عن ابنتي، وسأرفض بالطبع طلبه... وهو وإن كان لم يحدثني بعد بشيء، ولكنه واضح أنه سيكون كذلك! وقد لاحظت أكثر من مرة في هذه الحياة، أن الأصهار لا يضمرون خيراً لحمواتهم، لذلك فإنني إلى جانب رغبتي في عدم إزعاجهما في عشهما، أفكر جدياً بالاحتفاظ بحريتي المطلقة واستقلالي التام!.. ولن أعدم قطعة من الخبز أتبلغ بها، وأنا أم لولدين مثل دونيا ومثلك! ولسوف أقطن بالقرب منكما كليكما.

وأخيراً سأصل بك يا روديا إلى النهاية الطيبة التي احتفظت لك بها في هذه الرسالة: ألا فاعلم يا عزيزي روديا أننا سوف نجتمع ثلاثتنا قريباً، ولسوف نتعانق بحرارة بعد فراق دام ثلاثة أعوام. ذلك أنه تقرر ـ مسبقاً ـ أن نذهب ـ دونيا وأنا ـ إلى بطرسبورغ، أما متى سيكون ذلك؟ فلست أدري! إنما أرجح أن يكون ذلك خلال ثمانية أيام. وهو متوقف على الاستعدادات التي سيتخذها بيير بيتروفيتش والزمن الذي ستتطلبه. غير أنه سيخبرنا في حينه لتوافيه إلى بطرسبورغ، لأنه يتعجل زواجه ويهدف إلى الانتهاء منه خلال الشهر أو على أبعد حدّ، في وقت جد قريب: أي بعد عيد «انتقال العذراء»!

آه... بأية سعادة سوف أضمك إلى صدري! ودونيا... إنها تحترق شوقاً إلى رؤيتك... لقد قالت ذات مرة مازحة: إنها لم تتزوج بيير بيتروفيتش إلا لكي تنتقل إلى بطرسبورغ وتراك! إنها ملك كريم! لقد أخبرتني بأنها لن تضيف شيئاً إلى رسالتي إليك هذه المرة، ورجتني أن أعلمك بأن لديها أشياء كثيرة سوف ترويها لك بنفسها، أشياء تبلغ من الكثرة حداً يجعلها عاجزة عن الإمساك بالقلم وتسطيرها إليك بالترتيب والتسلسل. لأنها تعرف أن الأسطر القليلة ـ مهما بلغ عددها ـ لن تستطيع

إيضاح ما يعتلج في نفسها. لأن الأسطر توقظ الحنين في النفس لا أكثر... لسوف نلتقي قريباً يا ولدي غير أنني عازمة على أن أرسل إليك في الأيام القريبة، كل ما أستطيع إرساله من مال. إذ إن اعتباري المالي قد ارتفع في كل مكان منذ أن عرف الناس، أن دونيا ستتزوج من بيير بيتروفيتش. وأنا أعرف أن أتاناس إيفانوفيتش سيوافق على تسليفي خمسة وسبعين روبلاً على جرايتي السنوية، مما سيجعلني قادرة على أن أرسل إليك منها خمسة وعشرين أو ثلاثين روبلاً. ولولا خوفي من نفقات الطريق وما قد يطرأ علينا، لأرسلت إليك أكثر من هذا المبلغ. إنني أحتاط لهذا رغم أن بيير بيتروفيتش عرض علينا أن يتحمل جزءاً من النفقات الناجمة عن هذه الرحلة، فيطلب إلى واحد من معارفه أن يقوم بنقل متاعنا. غير أننا يجب أن ندفع قيمة تذاكر سفرنا حتى بطرسبورغ، وليس من المعقول أن نحل في المدينة دون أن يكون معنا مال يكفينا في أيامنا الأولى على الأقل. هذا مع العلم أن دونيا وأنا، دققنا في كل صغيرة وكبيرة، واتخذنا لها الحيطة. وبذلك فلن يكلفنا السفر غالياً. إذ لا يفصلنا عن محطة السكة الحديدية أكثر من تسعين فرسخاً، وقد اتفقنا مع أحد الفلاحين على إيصالنا إليها، سنسافر في الدرجة الثالثة بكل اطمئنان ورضا، وبذلك سأنجح في إرسال ثلاثين روبلاً إليك وليس خمسة وعشرين.

أعتقد أن ما كتبته حتى الآن يكفي؛ فقد ملأت ورقتين كبيرتين لم أترك فيهما مكاناً خالياً. لقد أنهيت لك قصتنا كما وقعت، والله يعرف كم وقع لنا من حوادث؛ والآن يا عزيزي روديا، أقبلك على البعد بانتظار تلاقينا المقبل، وأحمل إليك قبلات دونيا التي كلفتني بها، وليرض عنك الله ولتحل عليك بركتي كأم.

أحبب أختك دونيا يا روديا، أحببها بقدر ما تحبك، واعلم أنها تحبك

حباً عميقاً لا حدود له، تحبك أكثر مما تحب نفسها! إنها ملك كما قلت لك. وأنت يا عزيزي روديا، أنت كل شيء بالنسبة إلينا، أنت أملنا وعزاؤنا في المستقبل. أرجو اللّه أن تكون سعيداً فنكون كذلك سعداء...

هل تصلي دائماً كما كنت تفعل من قبل يا روديا العزيز؟ وهل تؤمن أبداً بالقدرة والعناية الإلهية المقدسة؟ إنني أخاف أن تكون الزندقة التي بدأت تسري بشدة اليوم، قد وجدت طريقها إلى نفسك. إذا كان ذلك قد حدث، فسأصلي من أجل هدايتك يا ولدي. وأذكر يا ولدي الحبيب، كيف كنت تتمتم صلواتك لما أن كنت طفلاً وكان أبوك حياً. كنت تجلس على ركبتي، وكنا جميعاً سعداء. فإلى اللقاء يا ولدي، أضمك بعنف بين ذراعي وأرسل إليك قبلاتي.

محبتك حتى القبر
بولشيري راسكو لنيكوف

كانت العبرات تغسل وجنات راسكو لنيكوف منذ أن قرأ الكلمات الأولى، غير أنه ما أن فرغ من قراءة الرسالة كلها، حتى شحب وجهه واكتسحت جسده رعشة هزت كيانه، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة كلها مرارة! ترك رأسه يسقط على الوسادة القذرة المحشوة بالألبسة، وراح يفكر. كان وجيب قلبه يصم آذانه، وكانت أفكاره توقد نيران الحمى في جسده. شعر أنه سيختنق في هذه الغرفة الصفراء التي تشبه الخزانة أو الصندوق، بينما تاهت نظراته في الفضاء... ولم يلبث أن اختطف قبعته وخرج دون أن يتهيب هذه المرة من لقاء صاحبة الدار على السلم! نعم لقد نسي هذه الحيطة تماماً... سار في اتجاه (ايل سان بازيل) جزيرة القديس باسيل، ماراً بالشارع (فـ ـ ...) كما لو كانت هناك أعمال هامة

مستعجلة تنتظره. غير أنه راح كعادته يناجي نفسه ويتحدث إليها بصوت مرتفع أحياناً، دون أن يلاحظ ما حوله، أو يبالي بمن يصطدم بهم، شأن السكير المدمن.

* * *

الفَصْلُ الرابعُ

كانت رسالة أمه تعذبه... فقد أدرك منذ البداية الأساس أو الجوهر الذي قامت عليه خطة أمه وأخته؛ فوصل إلى قرار حاسم. قرار نهائي لا رجعة فيه: «لن يحدث هذا الزواج وأنا على قيد الحياة... أما السيد لوجين فإلى جهنم!».

نعم كانت التضحية واضحة تقذي العيون... فراح يتمتم بين أسنانه وعلى وجهه ابتسامة من نجح في مسعاه.

ـ لا يا أمي، لا يا دونيا، لن تخدعاني... يا للعذر الذي تتذرعان به عن عدم استشارتي في الأمر، والذي دفعكما إلى البت فيه بدوني. آه... لم يكن ينقصني إلا هذا... إنهما تظنان أن لا أمل بعد ذلك في فسخ الخطوبة... سنرى هل هناك إمكان أم لا... كم هو عجيب ذلك القول: «إنه رجل عملي جداً هذا الـ : بيير بيتروفيتش، جم المشاغل حتى أنه لا يستطيع إلا أن يتزوج بسرعة البرق:»... كلا يا دونيا... أنا أرى بوضوح وأعرف «كل» ما تزمعين قوله لي... أنا أعرف ما كنت تفكرين فيه تلك الليلة عندما كنت تذرعين غرفتك بقلق... أنا أعرف ماذا طلبت إلى الله في صلواتك لعذراء كازان التي تزين صورتها غرفة أمي الصغيرة!

إن الصعود إلى غولغوتا[1] صعب شائك هه... هكذا إذن قررت نهائياً... هل يعجبك يا أختي أفدوتيا رومانوفنا أن تتزوجي رجل أعمال إيجابي يملك ثروة (ولنقل إنه يملك ثروة، لأن ذلك أكثر إيجابية وأشد تأثيرًا)، ويشغل عملين ويشاطر الأجيال الحديثة مبادئها (كما كتبت أمي)، حسن المظهر كما لاحظت ذلك بنفسك! إن هذا «المظهر» هو الباقة! ودونيا، إنها ستتزوج بهذا المظهر... رائع... رائع!

لِمَ ألمحت أمي في رسالتها إلى «الأجيال الجديدة» إنه أمر يثير الفضول. هل أرادت وصف عقلية الشخص، أو أن لها أهدافاً أبعد من ذلك؟ كأن تسترضيني مثلاً لحساب السيد لوجين؟ آه يا للماكرات... يجب معرفة المدى الذي بلغت إليه الصراحة التي تبادلتاها تلك الليلة وذلك النهار والأيام التي تلته.. إنه أمر جدير بالاهتمام! هل نطقتا «بالكلمات» التي كتبتها لي كلها، أم أن كلاً منهما خمنت ما في ذهن الأخرى. لا شك أن ذلك هو نصيب الجزء الأوفى من هذه القصة. إن ذلك واضح في الرسالة.

بدا الرجل «بارداً» بعض الشيء حيال أمي، فراحت الساذجة المسكينة تطلع دونيا على ملاحظاتها، فانزعجت هذه وخاطبتها في «شيء من التذمر»... لا شك أنها ستتذمر! من ذا الذي لا يتذمر إذا كان الأمر منتهياً وفي غير حاجة إلى سؤال أو جواب؟ عندما يكون القرار النهائي متخذاً دونما حاجة إلى نقاش؟.. ولِمَ كتبت لي كذلك: «أحبب دونيا يا رودي لأنها تحبك أكثر من نفسها». أو ليس ذلك بسبب تبكيت الضمير الذي كان يعتلج في أعماقها، بسبب تضحية ابنتها في سبيل ابنها؟... «أنت أملنا وذخرنا للمستقبل، أنت كل شيء بالنسبة إلينا...»! آه يا أمي!

---

(1) غولغوتا Golgotha جبل بالقرب من أورشليم صلب عليه المسيح. ـ المترجم ـ.

أحس بغضب عنيف يملأ صدره، حتى أنه ودَّ لو قابل السيد لوجين، إذن لقتله! وأضاف يحدث نفسه وهو يتابع زوبعة أفكاره:

ـ هه... بالطبع، يجب التصرف ببطء وحذر لمعرفة أي شخص وسبر غوره، غير أن السيد لوجين كالضياء نفسه، في غير حاجة إلى درس وسبر! فهو قبل كل شيء «رجل أعمال ومظهره حسن»... تصور أنه تحمل أعباء نقل «عفشهما» على نفقته!.. فكيف لا يكون طيباً بعد كل هذا؟ أما هما ـ خطيبته وأمها ـ فستستخدمان قروياً وستقطعان الطريق إلى المحطة في عربة مغطاة بقماش خلق، وأنا أدرى بالمشقة في مثل هذه الرحلات. لكن ماذا يهم؟ ليست المسافة إلا تسعين فرسخاً فقط!!

ثم «سوف ننتقل بهدوء في عربة من عربات الدرجة الثالثة» مسافة ألف فرسخ! لا شك أن الواجب يقضي على الإنسان أن يتصرف بحسب إمكانياته. ولكن ما قولك يا سيد لوجين؟ إن الموضوع يتعلق بخطيبتك! ثم إنه لا يمكنك أن تجهل حاجة أمها واضطرارها إلى الاستلاف على جرايتها لتقوم بتلك الرحلة! لا شك أنك فهمت ذلك بعقليتك التجارية، وخمنت أن في هذه العملية شخصين لا يمكن إلا أن يتساويا من حيث الشروط والواجبات. وإذن فعلى أحدهما أن يقدم الخبز وعلى الآخر أن يقدم الملح أما التبغ (على حدّ قول المثل) فهو علاوة «على البيعة»! وهكذا أيها الرجل العملي، لقد تصرفت بما يضمن مصالحك لأن نفقات شحن «العفش» ستكون أقل تكليفاً من أجرة الانتقال ولعلك تنقل «العفش» مجاناً... فهل غفلتا عن هذا أم تعمدتا إغفاله؟ والعجيب أنهما سعيدتان... كيف يغفل المرء عن الإدراك أن هذه الباكورات ليست إلا أزهاراً، وأن الثمار ستأتي بعدها... نعم كيف؟.. صحيح أن البخل ليس هو كل ما يثير الحفيظة في هذا الموضوع، حتى يأتي معه القبح ويعقبه التصرف! إن

مثل هذا التصرف ينبئ بكامل البرنامج عندما يتم الزواج. فلِمَ إذن تنحدر أمي إلى مثل هذا الجنون! كيف ستصل إلى بطرسبورغ، بثلاثة روبلات في جيبها أو كما تقول هذه المرأة العجوز «ورقتين صغيرتين». هه... على أي شيء تعتمد في عيشها في بطرسبورغ؟ لقد تأكدت ـ من بعض الدلالات ـ أن بقاءها مع ابنتها في بيت واحد بعد الزواج مستحيل، حتى ولو كان في الأيام الأولى! لا شك أن ذلك الرجل النبيل كان قد أغفل عامداً بضع كلمات، حتى يُفهم قصده. مع ذلك فإن أمي تريد أن تستغفلني، وتجعلني أعتقد أنها هي التي سترفض! ماذا تنتظر؟ وعلى أي شيء تعتمد؟ على مائة وعشرين روبلاً جرايتها السنوية التي يجب إنقاصها بما يسدد القرض لصاحبه: آثاناس إيفانوفيتش؟ إنها تقضي الشتاء كله وهي تحيك الدثارات الصوفية والقفازات، وتتعب بذلك عينيها! ولكن ذلك لا يأتيها بأكثر من عشرين روبلاً في العام، تضاف إلى المائة والعشرين التي هي من حقها... فهي إذن تعتمد على كرم السيد لوجين!...

«سوف يعرض عليَّ بنفسه، سوف يرجوني قبول ما يعرض». لها أن تبتجح! ذلك شأن أصحاب النفوس النبيلة الطاهرة. إنه ليروق لهم أن يفرقوا حتى اللحظة الأخيرة ريش الطيور القذرة عن ريش الطواويس كما يقول المثل، إنهم لا يرون إلا الخير ولا شيء إلا الخير، ومهما بلغ من احتمالهم للشر وتعرضهم له، فإنهم لا ينطقون الكلمة التي يجب أن تقال في هذا الصدد... إن مجرد التفكير في الشر يقلق مثل تلك النفوس الساذجة، نعم، إنهم يحجبون أعينهم بأيديهم أمام الحقائق حتى تصفعهم الصورة الحقيقية وتصطدم بأنوفهم...

كم أود أن أعرف إذا كان هذا السيد لوجين يحمل أوسمة أم لا! إنني أراهن أنه يدلي من عروته شريط القديسة آن، وأنه يضيف إليه الصليب

عندما يدعى إلى وليمة يقيمها بعض الرجالات الرسميين أو التجار.. فليس هناك من خطر أن ينسى ذلك في حفلة زفافه! ولكن ليذهب إلى الجحيم...

يا إلهي! إن أمي خلقت هكذا، لكن دونيا؟ عزيزتي دونيا... أنا أعرفك جيداً، لقد كنت في العشرين من عمري لما فارقتك آخر مرة! كنت أعرف عقليتك. فقد كان لدي من الوقت ما يكفي لهذه المعرفة... ها أن أمنا الصغيرة تكتب لي وتقول: إن دونيا «صبورة جداً».. أنا أعرف عنك ذلك. أعرفه منذ عامين ونصف ومنذ عامين ونصف لم أكف مرة عن التفكير في هذا الصبر، وبصورة أدق، في هذه الطاقة الكبيرة التي تمتلكينها، الطاقة على الاحتمال والصبر! كيف لا وقد صبرت على مثل سفيدر يكايلوف وكل الملابسات التي لازمته... إنها طاقة جبارة هائلة! واليوم تعتقدين أنت وأمي أن لا عليك إذا صابرت واحتملت «لوجيناً» الذي يبدي اغتباطه لمصاهرة نساء فقيرات ويدلي برأيه حول هذا الموضوع في المقابلة الأولى!.. حسناً... لنفترض أن «ذلك قد أفلت منه» رغم أنه ذلك الإنسان الرزين المفكر الذي لا يمكن أن يغفل عن مثل هذه الأقوال فيدعها تسبق إرادته وتعاند رغبته في كتمانها! ولكن كيف فات دونيا هذا؟ كيف تستطيع أن تعيش مع زوج هذا رأيه؟ أجدى لها أن تأكل خبزاً يابساً وتتجرع قطرات من الماء، من أن تتورط وتبيع روحها! كيف تستغني عن حريتها من أجل قضية لها علاقة بالترف، نعم لن تفعل ذلك ولو كان في سبيل كل الـ: «سشليسويغ[1] ـ هو لستن» فكيف من أجل هذا اللوجين! كلا... إن دونيا التي عرفتها ليست هذه التي أراها اليوم... ولا يمكن أن تكون قد تغيرت عما كانت عليه... فماذا أقول؟

---

(1) كلمتان الأولى لمقاطعة دانماركية والثانية لمقاطعة بروسية ضمتا معاً وأدخلتا في عداد الأراضي البروسية تحت هذا الاسم. ـ المترجم ـ.

لا شك أن البقاء لدى آل سفيدر يكايلوف محزن أليم، كما أنه مؤلم كذلك أن يتجول المرء من مقاطعة إلى أخرى كل حياته لقاء مائتي روبل في العام ليعمل في تربية الأطفال وإدارة البيوت. لكنني أعرف أن أختي تفضل أن تعامل معاملة الزنجي بالنسبة إلى صاحب مزارع المطاط أو معاملة «ليتواني» بالنسبة إلى الألمانيين، على أن تفسد روحها وإحساسها بالارتباط مع رجل لا تميل إليه أبداً وليس بينها وبينه أي توافق أو امتزاج، مدفوعة أبداً بغنم شخصي. حتى ولو كان السيد لوجين مصنوعاً من سبيكة من الذهب أو منحوتاً في قطعة من الماس، فإن دونيا ما كانت لترضى أن تكون المحظية «السرية» الشرعية للسيد لوجين. فلِمَ إذن وافقت الآن؟ ما هذا... آه... أي سرٍّ غامض؟ إن الأمر واضح جداً: فهي ما كانت لترتضي ذلك من أجل نفسها أو من أجل رفاهها حتى ولو كان في ذلك إنقاذاً لها من الموت! فهي لم تكن لتبيع نفسها هكذا... لكن إذا كان الأمر من أجل شخص آخر، إنها في هذه الحالة تبيع نفسها... نعم إنها تبيع نفسها! إذا كان الشخص الذي تضحي من أجله يأتي في منزلة أرفع من منزله نفسها! أي إذا كانت تحبه حب عبادة، وهنا ينجلي السر! إنها تبيع نفسها من أجل أمها وأخيها! إنها تفرط في كل شيء إلا في هذين! نعم... إننا نحاول في بعض المناسبات قتل عواطفنا، فنحمل حريتنا إلى السوق نعرضها، حريتنا وسعادتنا وراحتنا حتى وضميرنا.. نعم كل شيء! لتهلك حياتنا إذا كان في هلاكها إسعاد المخلوقات التي نحبها ونرجو لها السعادة! بل إننا نمضي إلى أبعد من هذا، فنبتدع ما يحلنا من ذمتنا، ونستعير حكمة اليسوعيين لنعتقد خلال وقت ما، أننا قمنا بواجبنا، وتقنع أنفسنا بأن ما كان، إن هو إلا أحسن ما يمكن أن يكون، وإنه طالما أن النتيجة ستكون حسنة، فإن الوسائل إلى بلوغ هذه النتيجة تجد ما يبررها. نعم نحن هكذا.. والقضية

في منتهى البساطة والوضوح. من الواضح أن روديون رومانوفيتش راسكو لنيكوف ـ أي أنا ـ هو الذي يأتي في الصف الأول من هذه القضية، وهو محور التضحية! كيف لا؟ ينبغي دعم سعادة هذا «الراسكو لنيكوف» وضمان حريته ومثابرته على دروسه في الجامعة وتأمين عمل شريف له في مكتب مرموق يكون شريكاً فيه فيصبح غنياً... ولمَ لا؟ سوف يتذوق لذائذ الشهرة وطعم الظفر حتى ولو كان في نهاية أيامه! أما الأم فهي ليست بذات موضوع هنا... المهم هو ابنها روديا «رودياها» الابن المدلل، الابن البكر! كيف لا تضحي من أجل ولد بكر «كهذا» بفتاة ـ كدونيا ـ؟ آه أيتها الأخوات العزيزات الظالمات... أعتقد أن الاستعداد للوصول إلى نهاية تشبه تلك التي ترددت فيها سونيا ليس بعيداً إذا كان ذلك في سبيل إسعاد روديا! نعم... سونيا... سونيا مارميلادوف، سونيا الخالدة التي ستبقى أزلية ما بقي العالم...

يا اللّه... هل فكرتما في التضحية التي أنتما بصددها؟ هل قمتما بهذه التضحية إذن؟ هل قارنتما بين قواكما ومصالحكما؟.. هل وجدتما ذلك معقولاً؟ أتدرين يا عزيزتي دونيا أن مصير سونيا ليس أحط من مصيرك في عيشك مع لوجين؟

إن أمي تقول: «إن المسألة ليست مسألة حب متبادل مسبق». لكن كيف يمكن أن يقوم هنا حب أو مجرد ميل، طالما أن الازدراء والاحتقار والتوتر هي كل ما يبدو إلى الآن! أولا يساوي هذا مصير تلك الفتاة التي دفعت إلى البغاء واضطرت إلى «الاحتفاظ بالنظافة»... هل هناك فارق بين المصيرين؟ أنا لا أجد فارقاً... أنا أفهم معنى «النظافة». إن «نظافة» «لوجين» تعادل «نظافة» سونيا. لعلها أكثر سوءاً وأشد حقارة وأكبر مقتاً... نعم إنها أكثر من ذلك، لأنك أنت يا دونيا، تملكين بعض الرفاهية، بينما

الأمر بالنسبة إلى سونيا هو اجتناب الموت جوعاً... إن هذه «النظافة» يا دونيا، هذه النظافة تكلف غالياً... وغداً، لما ينهار الثقل ساحقاً قواكما، لن يكون الندم ممكناً... لن يتبقى لكما إلا الدموع والأحزان... والآلام واللعنات! دموع ساكنة تذرفانها بهدوء، لأنكما لستما «مارت بيتروفنا»... وأنت يا أمي ماذا سيحل بك؟ أنت منذ الآن قلقة حزينة معذبة! فماذا يكون حالك عندما تبصرين بوضوح... وأنا... نعم أنا... من ظننتماني؟ أنا لا أريد تضحيتك يا دونيا، كذلك لا أريد تضحيتك يا أمي الصغيرة! إن ذلك لن يكون وأنا على قيد الحياة... نعم لن يكون... لن أحتمل هذا ولن أتقبل به!

ثاب راسكو لنيكوف إلى نفسه بعد طول استغراق، فتوقف برهة كأنه يعيد النظر فيما قال... وراح يخاطب نفسه معنفاً:

ـ لن يكون؟... ماذا تفعل أنت لتمنع ذلك؟ هل تمنعها عن ذلك؟ وبأي حق من فضلك؟ ماذا تستطيع أن تعوضهما به أو أن تعدهما بتحقيقه لقاء هذا الحق الذي تريد ممارسته؟ أأن تكرس لهما مصيرك ومستقبلك «عندما تنهي دراساتك وتجد وظيفة تشغلها»!؟ إن هذه النغمة معروفة فضلاً عن أنها تنبئ بالمستقبل.. نعم المستقبل. بينما نحن نعيش في الحاضر. فماذا أعددت لهذا الحاضر؟ إنك قانع بالعيش على فتات مائدتهما... وهذا المال الذي أنفقته وستنفقه، أو ليس من القروض التي تتداركانها لك؟ أليس ما استطاعتا اقتطاعه من المائة روبل التي تتقاضيانها في العام؟ أليس كذلك مما ستقترضه أمك بفضل تعارفها بآل سفيدريكايلوف؟ كيف تحميهما من آل سفيدريكايلوف ومن هذا الـ : أثاناس إيفانوفيتش فاخروشين أيها المليونير المنتظر؟ هل تظن نفسك من الآلهة حتى تتصرف بمقدراتهما؟ لسوف تجد أمك وقتاً كافياً خلال السنوات العشر المقبلة لتفقد بصرها لكثرة ما تنهك عينيها بحياكة «الشيلان» والقفازات، بينما تكون الشابة قد

فقدته لكثرة ما تذرف من دموع... وأختك؟ تصور قليلاً ماذا سيحدث لأختك خلال عشر سنين فهل فهمت؟..

وهكذا كان الشاب يتعذب ويتألم بهذه الأسئلة والمحاكمات، ويثير كوامن غضبه وكأنه يجد متعة في ذلك... إنما الجدير بالذكر أن تلك الأسئلة لم تكن جديدة تماماً بالنسبة إليه، إذ لم يكن لديه شيء غير منتظر... بل إنه كان يشعر بها منذ زمن طويل، كانت هذه القضية ماثلة أمام عينيه، تنمو وتترعرع حتى اتشحت منذ حين بوشاح المعضلة المخيفة، المعضلة الموحشة المروعة التي تحرق دماغه وقلبه دون هوادة، متطلبة جواباً حاسماً كان يؤمن أنه لن يكون! وجاءت رسالة أمه فكان لها في نفسه وقع الصاعقة... نعم إن الوقت اليوم ليس وقت الشكوى والتحسر ومعالجة المسألة سلبياً، إذ إنه ثبت لديه مواقع «آ + ب» أن المسألة صعبة الحل، فكان يجب والحالة هذه الشروع في أمر فوري وبأسرع ما يمكن. كان ينبغي له أن يتخذ قراراً مهما كلفه الأمر، بالغاً ما بلغ من خطورة؟

كان يتساءل مخنقاً: «هل أضع حداً لحياتي؟ هل أتقبل الوقائع وأحتملها، خانقاً في نفسي كل شعور بالنقمة والثورة والتمرد.. هل أتنازل عن حقي في الحياة، حقي في العمل، حقي في الحب؟..

تذكر فجأة السؤال الذي طرحه مارميلادوف مساء أمس حين قال:

ـ «هل تفهم يا سيدي، هل تفهم معنى جملة: «لم يعد يعرف أين يذهب وإلى أين يقصد؟ هل تفهم معنى هذا؟ يجب أن يكون لكل إنسان جهة يذهب إليها!..».

ارتعدت فرائصه فجأة وعادت الفكرة التي كان يهدهدها في خياله أمس، تمثل أمام عينيه، لم يرتعد لأن الفكرة القديمة عادت إلى الظهور،

كان يعرف سلفاً أنها ستخامره، كان يحس بها أنها تلاحقه وتشق لنفسها طريقاً لتصل إلى الصف الأول من معروضات فكره، كان ينتظر أوبتها... ثم إن الفكرة لم تكن كتلك التي كان يشعر بها أمس أو منذ شهر... لأن تلك كانت أشبه بالخيال، الخيال المجرد. أما فكرة اليوم، فكانت مختلفة كل الاختلاف، إنها أكثر من مجرد حلم، إنها تبدو بشكل جديد مجهول منه... كان يفهم سبب هذا التبدل ومؤداه..

اندفع الدم إلى رأسه وغشيت عينيه سحابة، فبدا كل شيء قاتماً... راح يتلفت حوله متلهفاً باحثاً عن شيء... مقعد مثلاً. لأنه كان يشعر برغبة عنيفة في الجلوس... كان يسير حينذاك في شارع «ك»... فأبصر بمقعد على بعد مائة خطوة من مكان وقوفه! اندفع إلى حيث كان المقعد بكل ما في ساقيه من قوة. لكن حادثاً وقع له في الطريق استلفت انتباهه وأخره عن غايته.

كانت أبصاره عالقة بالمقعد الذي يقصد إليه، فإذا بامرأة تسير على بعد عشرين خطوة أمامه. لم يعرها أي اهتمام في البداية، كما كان شأنه في كل ما يحيط به، إذا كان مشغول الفكر مستغرقاً في خواطره... وكثيراً ما وقع له أن عاد إلى غرفته دون أن يعلم بأي الشوارع مرّ، وكيف وصل إلى حيث كان... كان يسير هكذا عفوياً دون تقدير ولا تدبر... غير أن هذه المرأة التي كانت تمشي أمامه، لم تكن تخلو من شيء شاذ يستوقف الانتباه للوهلة الأولى؛ شيء بدأ يحتكر تدريجياً كل اهتمامه، حتى نسي كل شيء إلا التحديق فيه والتطلع إليه! أراد اكتشاف هذا السر الذي يجعل تلك المرأة حافلة بالشذوذ الغريب، كانت تسير في ذلك الجو الحار الخانق، عارية الرأس دون مظلة وقفازات، وكانت تطوح ذراعيها بأسلوب مضحك. كانت تلبس ثوباً من الحرير الرخيص، غريب التكوين، يبدو كأنه لا

يجد مستقراً على جسد لابسته ويكاد يتخلف عنه لولا رباط خفيف يثبته في مكانه. ثوب ممزق ابتداء من التقاء الجزع بالساقين، تتدلى منه قطعة انفصلت عن مجموعه وراحت تتأرجح كلما تحركت صاحبته... كانت تلف عنقها العاري «بلفحة» صغيرة لا تكاد تستره. لم يكن هذا وحده يستوقف النظر، بل المرأة نفسها. إذ كانت تسير بخطى غير متزنة، تتعثر في مشيتها وتتمايل يميناً وشمالاً... مما أيقظ فضول راسكو لنيكوف، فأدركها في اللحظة التي بلغت فيها المقعد، وتهالكت على جانبه، ملقية رأسها على المسند مغمضة عينيها اللتين أنهكهما ولا شك التعب... كانت نظرة واحدة إليها تكفي ليعرف الناظر أنها مخمورة تماماً... فبدا المشهد لعينيه غريباً شاذاً حتى أنه ودّ لو كان مخطئاً..

كان يرى أمامه فتاة ذات وجه صغير يدل على سنها المبكرة، فهي لم تكن تبلغ السادسة عشرة من عمرها، دقيقة التكوين تحيط برأسها ثروة من الشعر الذهبي الأشقر، جميلة الوجه منتفخته! كان يبدو عليها أنها لا تعي ما حولها... فقد عقدت ساقيها الواحدة فوق الأخرى، فظهر منهما أكثر ما يجعل ظهوره عادة، مما يدل على أنها لم تكن تشعر بوجودها في الشارع.

لم يجلس راسكو لنيكوف لا، ولم يمض في طريقه كذلك، بل وقف يتأمل الفتاة دون أن يصل في قراره إلى رأي حاسم... كان ذلك الشارع مقفراً معظم الوقت، أما في تلك الساعة (الواحدة بعد الظهر) وفي مثل تلك الحرارة الخانقة، فإن مرور الناس فيه يكون غريباً حقاً. مع ذلك فقد كان هناك سيد يقف على مسافة خمس عشرة خطوة، منتحياً جانباً في ممشى بين أشجار الشارع، يبدو عليه أنه ينتظر بدوره أن تسنح له فرصة للاقتراب من الفتاة المخمورة، تنفيذاً لرغبات معينة! ولعله شاهدها هو

الآخر فلاحقها، ولكن راسكو لنيكوف عرقل مسعاه بظهوره. فكان ذاك يلقي عليه نظرات حاقدة دون أن يشعره بذلك، وينتظر بفارغ الصبر أن يمضي ذلك المتطفل حتى يحل محله. كان الأمر واضحاً لا يحتاج إلى تمحيص. فهذا السيد في الثلاثين من عمره متين الجسم ممتلئ الجسد مزدهر الوجه، ذو شفتين ورديتين يزينهما شارب صغير، يرتدي ملابس تدل على أناقة كبيرة. إذن؟ لقد أصبحت الغاية معروفة!

شعر راسكو لنيكوف بغضب جامح، ووَدّ بجدع الأنف لو يوجه إهانة إلى ذلك الديك الرومي.. فاقترب منه وقد ضم قبضتيه انفعالاً وصاح به وهو يكشر عن أسنانه التي غطاها الزبد!

ـ أنت يا سفيدر يكايلوف... ماذا تبحث هنا؟

فقطب السيد حاجبيه لدى سماعه الاسم الذي أطلقه راسكولنيكوف استعارة عليه، وقال بلهجة خطيرة وترفع مرموق!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ ابرح هذا المكان فوراً... هذا ما أردت أن أقوله!

ـ كيف تجرؤ على التلفظ بهذا الكلام أيتها الحشرة؟.. وهز سوطه بيده! فلم يمهله راسكو لنيكوف وارتمى عليه دون أن يفكر بأن خصمه الضخم يساوي اثنين من حجمه! وفي تلك اللحظة، شعر بيد تقبض عليه بشدة من الخلف. وإذا برجل من رجال البوليس يتدخل في الأمر قائلاً:

ـ أيها السادة، المرجو تجنب المشادة في مكان عام...

ولما شاهد أطمار راسكو لنيكوف صاح به:

ـ من أنت يا هذا؟ وماذا تريد؟..

نظر راسكو لنيكوف بجرأة إلى رجل البوليس. كان له سالفان أشهبان يضفيان على وجهه النبيل ذي التقاطيع الدالة على النباهة والذكاء، لوناً من الوسامة! قال:

ـ إنني أريدك أنت بالذات!

ثم أمسك بذراعه وأردف:

ـ أنا طالب علم سابق واسمي راسكو لنيكوف إذا كان يعنيك معرفته... واستدار نحو «الديك الرومي» وقال:

ـ وأنت، تعال معي، سأريك شيئاً... ومشى نحو المقعد الذي تخاذلت عليه الفتاة يرافقه الشرطي وأردف:

ـ انظر، إنها مخمورة تماماً، لقدْ رأيتها تسير على غير هدى في الشارع، ومن يدري من أين خرجت ومن هي! غير أنه من الواضح، أنها ليست محترفة. إنها على الأرجح فتاة مسكينة، ائتمر بها حتى أغريت على الشرب فثملت... ولعل هذه هي المرة الأولى التي تتذوق الخمرة فيها... لقد أريد بها شر فنصب لها هذا الشرك الذي تردت فيه! لعلك تفهم يا سيدي ما أعني... لقد ألقي بها إلى الشارع بعد أن نال منها الأنذال ما يشتهون... انظر إلى ثوبها الممزق وكيف لبسته أو بالأحرى كيف أنزلت فيه... من الجلي أنها لم تلبسه بنفسها، إنها أيدٍ غير مجربة تلك التي ألبستها هذا الثوب... إنها أيدي الرجال... والآن الق نظرة على هذا السيد السمين الذي كدت أتشاجر معه منذ قليل.. إنني لا أعرفه بل إنني رأيته اليوم للمرة الأولى... لقد شاهدها هذا السيد النبيل وهي على حالها هذا من الثمل وفقد الحواس، وقد رأيتها لا تعي ما تعمل ولا تستطيع التمييز بين الخير والشر، فأراد أن يقترب منها ليفاجئها في هذه الحال ويقودها

إلى أي مكان... ثق أنني لست مخطئاً فيما أقول... لقد شهدته بنفسي يرقبها ويحصي حركاتها ويتبعها. فكان حضوري عائقاً غير منتظر. وهو ينتظر أن أبرح المكان لينفذ مأربه. انظر كيف ابتعد بعض الشيء وراح يتظاهر بلف «سيجارة»... فكيف السبيل لانتزاع هذه الفتاة من براثنه؟ كيف السبيل لإعادتها إلى ذويها؟

أدرك الشرطي على الفور ماذا هناك وراح يفكر. كانت نواياه حيال الرجل السمين غير خافية. إنما كانت هناك عقبة من نوع آخر.. تلك هي الفتاة المخمورة. انحنى عليها يتفحصها عن قرب، وبدت على وجهه آيات الشفقة والحنان ودمدم قائلاً:

ـ يا للطفلة المسكينة! لا زالت طفلة تماماً... لقد خدعوها ولا شك... هذا واضح! هل تسمعين يا آنسة... أين تقطنين؟

وفتحت الصغيرة عينيها المتعبتين وقد اصطبغتا بلون الدم، وحدجت سائليها بنظرة بلهاء، ثم حركت ذراعها ملوحة وكأنها تحاول طردهما.

بحث راسكو لنيكوف في جيبه وأخرج عشرين كوبيكاً قدمها للشرطي وقال له: ـ أرجو أن تستدعي عربة وأن ترافقها إلى منزلها إذا كنت تعرف عنوانها! ولكن كيف السبيل لمعرفة العنوان؟

أما الشرطي فقد عاد ينادي الفتاة بعد أن أودع المال في جيبه:

ـ يا آنسة، يا آنسة، سوف أقودك بنفسي فإلى أين تذهبين؟ أين تقطنين هه؟

تمتمت الفتاة وهي تلوح بذراعها قائلة:

ـ اغرب عن وجهي أيها «الكلاّب»... دعني بسلام.

بدت أمارات الألم على وجه الشرطي وراحت تتنازعه عوامل مختلفة بين إشفاق وانتصار للفضيلة المنتهكة، واستنكاراً للنعت الذي أطلقته عليه. وقال مسترسلاً:

ـ كم هو مخجل ما أنت فيه يا آنستي...

ثم خاطب راسكو لنيكوف مرة ثانية وهو يتفحصه من رأسه وحتى أخمص قدميه:

ـ هنا الصعوبة الحقيقية... نعم هنا العقبة.. إنها لا تعي شيئاً. فهل لقيتها بعيداً عن هنا؟

ـ لقد قلت لك إنها كانت تسير أمامي تائهة شاردة اللب وهي تتمايل وتترنح، ولم تكد تصل إلى هذا المقعد حتى تهاوت عليه!

ـ يا إلهي كم هو مخجل هذا الذيْ يجري في هذه الأيام. فتاة كهذه، بل طفلة لم تشب عن الطوق تثمل... لقد غُرر بها حتماً ليس هناك شك أبداً. إن ثوبها ممزق كله.... آه من أولئك الفجار الذين يسابقون الوقت ويمضون إلى أهدافهم من أقصر الطرق!... لعلها من عائلة كريمة أصيبت بالفاقة والعوز. فالمدينة تحفل بهذه العائلات البائسة اليوم... إن الناظر إليها يخيل إليه أنها آنسة فاضلة...

صمت الشرطي برهة وعاد إلى المخمورة يحاول إعادتها إلى صوابها... لعل له وللآخر بنات «يفضلن يعتبرن آنسان فاضلات» يتبعن الأساليب السائدة بين الفتيات، المقتبسة عن ابتكارات مصطنعة لا تمت إلى حسن التربية في شيء...

بادر راسكو لنيكوف يقول:

ـ المهم أن لا ندعها فريسة لهذا السافل، فهو قمين بتدنيسها من جديد! ذلك ما يريد وليس من العسير تبيانه... ألا ترى أنه لا ينصرف... الفاجر!

كان يتكلم بصوت مرتفع وهو يشير إلى السيد... وسمعه هذا فكاد أن يغضب من جديد.. غير أنه تمالك واكتفى بأن ألقى على الطالب المفلس نظرة تنطوي على الازدراء. وأخيراً استدار على عقبيه، وراح يمشي بتمهل مبتعداً ثم توقف من جديد بعد قطع عشر خطوات...

قال الشرطي بلهجة حالمة:

ـ أن لا نتركها له أمر ميسور، لو أنها ذكرت لنا أين تقطن.. وعاد يهزها ويصيح: يا آنسة، يا آنسة!

فتحت الفتاة عينيها وبدت كأنما استعادت بعض حواسها، ونظرت بإمعان إلى الشرطي ورفيقه، ثم نهضت وسارت في الاتجاه الذي جاءت منه، ودمدمت وهي تلوح بيدها شأن من يطرد إنساناً يضايقه: «المغفلون! ماذا يريدون من ملاحقتي» وراحت توسع الخطى وهي تتعثر وتترنح، أما الرجل الأنيق السمين، فقد راح يتبعها من جديد محافظاً على المسافة التي بينهما، دون أن يغادر الممشى بين الأشجار!

أثارت هذه الفعلة حفيظة الشرطي ذي الشاربين الكبيرين فقال لراسكو لنيكوف بلهجة العزم والتصميم:

ـ لا تبتئس... لن أدعها له! وتبع الفتاة وطاردها... وقبل أن يبتعد عن الفتى أردف يقول: كم انتشر الفسق والفساد في هذه الأيام...! أما راسكو لنيكوف، فقد كان في تلك اللحظة كمن وخزته إبرة نفذت خلال جسده. شعر برد فعل عكسي تجاوب صداه في نفسه فهتف ينادي الشرطي، ولما استدار هذا نحوه مستجيباً لندائه قال له:

ـ دعك من هذا... لِمَ تحشر نفسك فيه؟ دع الرجل يتابعها، دعه يبحث عن تسليته! ماذا يهمك منه!

فاتسعت حدقتا الشرطي وظن أنه حيال مخبول ذاهب العقل، فلم يعد ولم ينفض يده من المهمة التي آلى على نفسه إتمامها، بل اكتفى بأن لوح بيده ومضى وهو بين مصدق ومكذب يتبع الرجل الأنيق والفتاة. وما أن أصبح راسكو لنيكوف وحيداً حتى خاطب نفسه بقوله:

ـ لقد حمل معه العشرين «كوبيكاً» التي كنت أملكها. يا للشيطان... لسوف يجعل الآخر يدفع له بعض المال ليترك له الفتاة! وستكون تلك خاتمة القصة... يا الله! هل لمثلي أن ينصب نفسه حامياً للغير؟ هل لي الحق بالتدخل؟ ماذا يهمني إذا افترس الناس بعضهم بعضاً؟ ثم كيف سمحت لنفسي بإعطاء العشرين «كوبيكاً» التي كانت معي؟ هل هي تخصني فعلاً؟

شعر إزاء هذه الأفكار والأسئلة، بحمل ثقيل يهبط على صدره يكاد يكتم أنفاسه! جلس على ذلك المقعد الوحيد وتاهت أفكاره في سماء الخيال... لقد كان من العسير بالنسبة إليه أن يفكر في أي شيء... كان يتمنى لو فقد الوعي وخسر الإحساس، حتى إذا ما استفاق، كان كل شيء قد أضحى منسياً، فيعود إلى حياة جديدة لا أفكار محزنة فيها ولا تفكير... ألقى نظرة إلى حيث كانت الفتاة جالسة لم يتمالك نفسه أن قال:

ـ يا للفتاة المسكينة، سوف تعود إلى وعيها وستبكي، ثم تطلع أمها على كل شيء... ولسوف تضربها أمها أول الأمر، لسوف تجلدها بشدة وقسوة وإذلال. بل لعلها ستطردها من البيت! وإذا افترضنا جدلاً أنها لن تطردها، فإنها لن تعدم واحدة مثل داريا فرانتزوفنا تشتم رائحة الفريسة وتحوم حولها، ولسوف تبدأ الفتاة بالتنقل هنا وهناك، وبعدئذٍ سيكون المستشفى (والحال أبداً كذلك بالنسبة للخاطئات اللاتي يعشن في كنف أمهات شريفات يفضلن التخلص من عارهن بصمت) ولن تخرج منه حتى

تعود إليه! وهكذا فإنها لن تبلغ التاسعة عشرة من عمرها، حتى تصبح سقيمة عليلة وتكون قد انتهت... النهاية نعم... لقد شهدت حالات مشابهة! ولكن ماذا يهم؟ يا للشيطان... يبدو أن هناك نسبة مئوية ينبغي أن تدفع في مكان ما... إلى الجحيم؛ نعم ذلك ضروري لإنعاش الآخرين والإبقاء عليهم. نعم... نسبة مئوية... يا له من تعبير جميل... كلمات منمقة مطمئنة ذات طابع علمي... إذ من ذا الذي يرهب هذه الكلمة: نسبة مئوية! أما لو كانت كلمة أخرى... لكان الحال أقل طمأنينة... ماذا مثلاً لو أن دونيا أدخلت في هذه النسبة على شكل من الأشكال؟ النسبة الواجبة الدفع اليوم أو في المستقبل؟...

وفجأة ثاب إلى رشده وتذكر أنه خرج من غرفته لسبب ما فهتف:

ـ رباه... إلى أين أمضي؟ كان هناك سبب وجيه دفعني إلى الخروج من غرفتي! نعم... نعم... لقد خرجت مباشرة بعد قراءة الرسالة... آه لقد تذكرت، كنت أقصد إيل سان بازيل... نعم كنت أريد الذهاب عند رازوميخين! ولكن لماذا أذهب إلى هناك؟ كيف طرأت لي فكرة الذهاب إلى رازوميخين فجأة؟ غريب...

أدهشه تصرفه... لقد كان رازوميخين أحد أصدقائه القدماء في الجامعة! ومن الغريب أنه لما كان يتابع دروسه في الجامعة، لم يكن يختلط بزملائه ويرتبط بهم بصداقات، حتى أنهم جميعاً تنكروا له وتغافلوا عن وجوده. فكان لا يزور أحداً ولا يسره أن يستقبل أحداً... لا يشترك في اجتماعات الطلبة ولا في مناظراتهم، عازفاً عن لهوهم ومجونهم... وكان منصرفاً إلى العمل منكباً على الدراسة، فاستطاع بذلك اكتساب عطف زملائه. لكنه لم يكن محبوباً من أحد! كان فقيراً معدماً مشتطاً في كبريائه عزوفاً عن الناس... كان يبدو أبداً وكأنه يتدبر أمراً في سريرته! كان بعض

زملائه يعتقدون أن له أسلوباً كريهاً بالنظر إليهم، حتى لكأنهم أطفال، ولكأنه متفوق عليهم بالذكاء والمعرفة وإدراك الأمور، وكان يعتبرهم دونه إيماناً ومعتقداً.

أما مع رازوميخين، فقد كان الأمر مختلفاً، إذ كان أكثر ميلاً إليه، أكثر صراحة معه وأشد تعلقاً به من كل الزملاء الآخرين... ولم يكن من الممكن معاملة رازوميخين خلاف ذلك. فهو شاب يتفجر لطفاً وإيناساً، بسيطاً نقي السريرة طيباً حتى السذاجة... وكان ذلك المظهر الساذج يخفي وراءه تعمقاً في الأمور وكرامة موفورة... فكان محبوباً من أقرانه جميعاً وخصوصاً أولئك الذين عرفوه واختبروه. نعم... لقد كان بسيطاً بل وساذجاً أحياناً، ولكنه لم يكن قط أحمق... كان ذا مظهر جذاب بقامته المديدة وتحول وجهه، ولحيته المهملة وشعره الأسود... كان يظهر أحياناً على حقيقته جباراً عربيداً... حتى أنه ذات مرة، بينما كان خارجاً مع أصدقائه إلى المدينة، تغلب بضربة واحدة على نقيب في الجيش، يبلغ طوله ستة أقدام تقريباً... وكان يستطيع أن يشرب بشكل مريع، كما كان يستطيع الامتناع عن الشراب وعدم الاقتراب منه. كان كذلك يسترسل أحياناً في تصرفات مشبوهة ولكنه كان يعرف دائماً كيف يتخلص من نتائجها وينأى بنفسه عن مضاعفاتها، وكانت هناك ميزة أخرى تضاف إلى مزايا رازوميخين الكثيرة: ذلك أنه ما كان يستسلم أمام أية خيبة أمل تصيبه، ولا يتراجع إذا ركبه النحس! كان يستطيع أن يعيش في حجر وأن يحتمل آلام الجوع ولذعات البرد وآلامه، دون أن يتذمر. لأنه كان فقيراً يعول نفسه بنفسه ويبحث عن المصادر التي تغذيه بإيراد مناسب، ويزاول كل الأعمال... كان يعرف أن هناك عدداً لا يُحصى من الحيل التي يمكن اللجوء إليها في العمل ـ طبعاً ـ.. ولقد أمضى ذات مرة شتاء كاملاً دون أن تدخل النار حجرته. مع ذلك، فقد كان

يؤكد أن ذلك أفضل، لأن الإنسان ينام بهدوء وهناء إذا كان يشعر بالبرد! لقد كان في ذلك الوقت خارج الجامعة.. نعم لقد ترك الدرس، ولكن لفترة قصيرة كما كان يقول. كان يعمل جاهداً للتغلب على الظروف القاسية وتيسير الدراسة، ولم يكن راسكو لنيكوف قد زاره منذ أربعة أشهر. وكان رازوميخين يجهل عنوانه بدوره! ولقد لمحه ذات مرة منذ شهرين مضيا، لكنه أدار وجهه حتى لا تقع عينه عليه. بل إنه انتقل إلى الرصيف المقابل كي ينجو من المقابلة... ولقد لاحظ رازوميخين ذلك، غير أنه تابع طريقه دون أن يزعج «صديقه»...

الفَصلُ الخَامِسُ

فكر راسكو لنيكوف في أمره وهو على حاله ذاك، وراح يخاطب نفسه قائلاً:

ـ بالأمس عزمت على زيارة رازوميخين. كنت أريده على أن يجد لي عملاً على طريقته... عملاً أفيد منه: تدريس مثلاً... أي عمل. أما الآن، كيف يمكن أن أفيد منه؟ لنفرض أنه أوجد لي من أدرسهم، وأنه تقاسم معي آخر «كوبيك» يملكه ـ هذا إذا كان يملك شيئاً ـ ليشتري لي أحذية وملابس أظهر بها، فماذا يكون؟ هل هذا ما أنشده بالفعل؟ الحقيقة أن زيارتي لرازوميخين ضرب من الحماقة...

كان عزمه على زيارة رازوميخين يقلقه ويغمر روحه بعذاب مستمر... بدا كأنه كان يعرف السبب الحقيقي لهذا العزم... كان يقلب أوجه الرأي في هذه المسألة العادية، ليجعلها تبدو ذات طابع خاص سيّئ، فيفرغ ما في جعبته من لوم وعتاب على نفسه منددأ زاجراً... كان يتساءل: «هل صحيح أنني فكرت بإصلاح كل شيء بمساعدة رازوميخين؟...» كان يفكر ويفكر... ويضغط على جبهته بيده، حتى واتته فكرة... فكرة مفاجئة غريبة كانت محصلة تردده العميق العنيف. ناجى نفسه يناقشها بهدوء كمن اتخذ قراراً نهائياً:

ـ هه... سأذهب إلى رازوميخين... سأذهب إلى رازوميخين ولا شك..

ولكن ليس الآن. سأذهب إليه صباح اليوم التالي «للعملية»، بعد أن تكون قد انتهت بنجاح، لأعيد معه بناء كل شيء على قواعد جديدة! ثم استدرك بعد أن ثاب إلى نفسه وقال: «وبعد ذلك؟ هل حقيقة سيكون «ذلك» حسناً لا غبار عليه؟ هل يعقل أن يكون كذلك؟».

غادر المقعد الذي جلس عليه، بل انتزع نفسه عنه انتزاعاً، ومضى بخطى حثيثة، وكأنه يهرب من شيء يتابعه. تاقت نفسه للعودة إلى بيته... إلى حيث بدأ... ولكن هذه الفكرة أثارت في أعماقه الاشمئزاز. فهناك.. في ذلك الحجر المرتفع المنزوي.. اختمرت تلك «العملية» في ذهنه منذ نيف وشهر... إذن لا ينبغي أن يعود إلى هناك.. ومضى دون أن تكون له وجهة يقصدها.

انقلب اضطرابه العصبي إلى نوع من الحمى.. إلى نوع من المرض، فراح يرتجف وكأن البرد يهرأ جسده، رغم ذلك الحر الخانق الذي يشبه نار الأتون الملتهبة.. تسلط بمجهود جبار على أعصابه، وأجبر حواسه على الانتباه، وعينيه على التطلع فيما حوله بتدقيق ودقة، عله يجد في المحيط الذي يمخر فيه، مادة ترفه عن نفسه وتسليه. لكنه لم يوفق في هذا أيضاً.. كان يعود من جديد إلى أحلامه وتخيلاته.. كان جسده وحده يعيش على الأرض، أما روحه وعقله، ففي مجاهل لا يعرف لها قراراً... عادت القشعريرة تكتسح جسمه وتهزه... فنظر حوله ليجد أنه نسي ما كان يفكر فيه، ونسي أين يكون، وإلى أين يمضي... وهكذا اجتاز جزيرة «سان بازيل» كلها، فبلغ نهر «نيفا الصغير» واخترق الجسر ثم استدار في طريق الجزر. تلطف الجو بعض الشيء بفعل المياه والنباتات الطفيلية التي تكسو المكان، فكان لهذا التبدل في الجو أثره في تهدئة أعصاب الشاب بعض الشيء. وارتاحت عيناه لهذا المشهد بعد أن أنهكهما الغبار... غبار الشوارع وذرات الجير.. وأرهقهما منظر الأبنية الكبيرة الضخمة وهي تسد أمامهما المنافذ.

وصل إلى حيث لا غبار ولا عفن ولا اختناق... ولا... ولا حانات! غير أن هذه الراحة التي شعر بها فترة وجيزة، فقدت بعد قليل بهجتها، وانقلبت ثقيلة الوطء تنهك قواه. كان يتوقف أحياناً أمام «فيلا» ضائعة بين الخضرة، ليتطلع خلال الحاجز الخارجي، إلى الشرفات وعليها نساء جميلات بكامل زينتهن، وأطفال هانئون، بعضهم يلعب في الحديقة وينادي الآخرين... كانت الأزهار تجذب انتباهه بصورة خاصة... إنها مخلوقات صامتة..! وبين الحين والحين، كانت تطالعه مناظر الترف والنعيم، بين عربات أنيقة وفرسان من الجنسين، فكان يتابعهم النظر بفضول، ثم ينسى وجودهم حتى قبل أن يختفوا عن ناظريه..! توقف مرة ليعد ما يملك من مال. فوجد أن ثروته تبلغ ثلاثين «كوبيكاً»، وتذكر أنه أعطى رجل البوليس عشرين «كوبيكاً» وأعطى ثلاثة لناستاسيا من أجل الرسالة، فيكون إذن، قد منح آل مارميلادوف مساء البارحة، حوالي سبعة وعشرين روبلاً وخمسين «كوبيكاً» كانت كل المبلغ الذي كان يملكه هو ثلاثون روبلاً وقد أعطاها كل لآل مارميلادوف. كانت دريهماته على كفه يحصيها. لكنه نسي لِمَ أخرجها من جيبه وقام بعملية الإحصاء... لا شك أنه كان يحس سبباً وجيهاً دفعه لفعل ذلك. لكنه نسيه! وصدف أن مرّ أمام دكان شواء، فهاجت نفسه وتاقت إلى الطعام. فدخل المطعم وتناول فيه كأساً من الخمر (العرق) وأكل شطيرة محشوة باللحم المبهر... لم يكن قد شرب الخمر منذ أمد طويل. لذلك فقد أثر القدح الصغير في أعصابه، رغم أنه مجرد قدح صغير! فغدت خطاه متثاقلة وطاب له أن ينام. لذلك عاد في طريق مسكنه، لكنه لم يكد يبلغ جزيرة «بيتروفسكي» حتى توقف منهوك القوى... فتنكب الطريق ودخل بين الأدغال، يرتمي على الحشائش حيث استغرق من فوره في نوم عميق.

يلاحظ أن أحلام المرء في الحالات المرضية، تمتاز غالباً برونق

عادي وألوان صارخة وتشابه عجيب مع الواقع. لكن تسلسلها وإخراجها يبلغان من الواقعية ومن دقة التفاصيل مبلغاً، يجعلها تبدو أشبه بلوحة فنان عبقري. حتى أن الحالم نفسه لو استطاع رسمها في يقظته، لنافس فيها الفنانين الموهوبين أمثال بوشكين وتورجينييف. إنما الأحلام التي من هذا النوع، أحلام مؤلمة تترك في نفس المرء ذكرى باقية، وتحدث على نفسيته أثراً غير حي تزيد في تحطيم أعصابه وزعزعة ثقته. كذلك كان الحال بالنسبة للحلم الذي تخيله راسكو لنيكوف..

حلم في طفولته هناك... في مدينتهم الصغيرة... عندما كان في السابعة من عمره..! وفي يوم عيد كان يتجول مساء مع أبيه في ضواحي المدينة، في جو مشبع بالغبار، والحرارة شديدة الارتفاع، والأمكنة هي هي التي انطبعت صورتها في ذهنه... بل إن الذكرى ما كانت لتوضح معالمها كما أوضحها الحلم. كانت المدينة الصغيرة قائمة في منطقة مكشوفة وكأنها الكف... لم يكن يحيط بها مرتفع واحد ولا شجرة واحدة... وفي الأفق البعيد، كانت نقطة سوداء صغيرة، تفضح وجود حرش صغير... وعلى بعد خطوات من آخر بستان من بساتين المدينة، كانت هناك حانة... حانة كبيرة كانت تترك في نفسه أثراً سيئاً، بل تخيفه كلما كان يمر بالقرب منها وهو يتنزه مع أبيه. كان فيها أبداً جمع غفير من الناس يتبادلون الشتائم والصراخ، ويضحكون ويغنون أغنيات بذيئة، وكثيراً ما كانوا يتضاربون! وحول تلك الحانة كان عدد من السكارى بوجوههم البشعة تفوح منهم رائحة كريهة. فإذا صادفهم، كان يلتصق بأبيه وهو يرتعد..! وعلى مقربة من تلك الحانة كانت هناك الطريق، طريق مختصرة مغطاة بالغبار... غبار أسود، تنعطف على بعد ثلاثمائة خطوة على شكل مرفق، ثم تدور حول المقبرة... وفي وسط المقبرة تقوم الكنيسة، وهي مبنية من الحجارة، ذات

قبة خضراء، كان يذهب إليها مرة أو مرتين في العام، أثناء القداس الذي كانوا يقيمونه على روح جدته المتوفاة منذ زمن بعيد يسبق ميلاده! كان يحمل معه في تلك المناسبة قطعة من الحلوى «كاتو» موضوعة في صحن أبيض، وملفوفة في منديل. كانت تلك الحلوى تصنع من السكر وعلى سطحها صليب من حبات الزبيب المغموسة في الأرز..

كان يحب تلك الكنيسة بصورها القديمة التي كانت غالباً دون إطارات، ويحب الكاهن ذا الرأس المرتجفة... كان إلى جانب ضريح جدته الذي تغطيه قطعة كبيرة من البلاط، ضريح صغير يرقد فيه أخوه الأصغر الذي توفي في شهره السادس، فكان لا يعرفه كذلك ولا يحتفظ له في ذاكرته بأية صورة. كل ما في الأمر أنهم قالوا له بأن ذلك هو ضريح أخيه. فكان كلما زار المقبرة، رسم أمامه على صدره علامة الصليب بخشوع ورفع قبعته عن رأسه ثم انحنى ليقبل الضريح البارد!

كان يحلم في تلك اللحظة بأنه مع أبيه يسيران في الطريق إلى المقبرة فيمران أمام الحانة... فيقبض على يد أبيه بشدة وينظر إلى تلك الناحية ـ ناحية الحانة ـ برعب ظاهر، فيجذب انتباهه أمر غريب! كانت تدور فيها حفلة داعرة حقيقية: نساء «بورجوازيات» في ألبسة أيام الآحاد ونساء من العوام مع رجالهن وأنواع مختلفة من المخلوقات التي تعيش في الأوساط المظلمة... الطبقة السفلى... وكان أمام باب الحانة عربة غريبة الشكل... عربة ضخمة من ذلك النوع الذي تجرها خيول قوية متينة وتستعمل لنقل البضائع وزكائب الخمر... كان يحب رؤية تلك الخيول القوية الجبارة ذات الذوائب الطويلة والسيقان المتينة، تمشي براحة، بإيقاع متزن وهي تجر وراءها أثقالاً كأنها الجبال دون أن يبدو عليها التعب وكأن أحمالها ترفه عنها بدلاً من أن تنهكها!

والغريب أن تلك العربة لم تكن تقطرها الخيول الجبارة القوية. بل كانت مقطورة إلى «كديش» أعجف من ذلك النوع من الجياد التي يرثى لحالها، والتي كثيراً ما شاهد مثلها، وهي تجهد في جر حمولة من الخشب أو القش على الطرق المخربة حيث تغرز العجلات إلى محاورها في الأتربة والحفر، والفلاحون يسوطونها بوحشية وقسوة على ظهورها وأحياناً على وجوهها وعيونها حتى أنه كان يشعر بوقع السياط على جسده هو إشفاقاً منه عليها فيكاد ينفجر من البكاء لولا أن تسارع أمه إلى إبعاده عن النافذة موفرة عليه متابعة هذا المشهد الكئيب المفجع!

وفجأة ارتفع ضجيج كبير: فقد خرج من الحانة عدد من الفلاحين «الموجيك» الأقوياء وهم يغنون ويتضاحكون ويرقصون «البلالايكا» وهم على أسوأ حال من الثمل، يرتدون قمصاناً حمراء وزرقاء و«جواكيتهم» على أكتافهم. صاح أحدهم:

ـ اصعدوا... اصعدوا جميعكم سوف أنقلكم جميعاً فاصعدوا..

كان المتكلم فتى ضخم العنق منتفخ الوجه بلون أشقر مشبع بالحمرة.

ـ أيستطيع «كديش» كهذا أن يحملنا؟..

ـ اسمع يا ميكوكا... لا شك أنك مجنون... من ذا الذي يفكر في ربط فرس هزيل كهذا إلى عربة هائلة كهذه العربة؟

ـ لعمري... هذا حيوان تكدست على ظهره أعباء عشرين سنة وتزيد..

تلك كانت الملاحظات والآراء التي تطايرت من الأفواه إثر الدعوة الغريبة التي تقدم بها ذلك الفتى إلى أولئك السكارى... غير

أنها ملاحظات لم تزعزعه عن رأيه فهتف وهو يقفز إلى العربة ويمسك بمقاود الحصان الهزيل:

ـ اجلسوا جميعاً... لسوف أحملكم كلكم... لقد أعرت حصاننا الأشعل إلى «ماتغيئي» وقد ذهب به منذ لحظات. وهذه الفرس ملكي أيها الأصدقاء.. إنها كرب وأسى بالنسبة إلي. وإني أفكر أحياناً في أن أقتلها لأنها لا تساوي الشوفان الذي تلتهمه.. هيا اصعدوا ولسوف أجعلها تمشي خبباً..

أخذ السوط في يده وراح يهزه وكأنه يتلذذ سلفاً بما سيذيق الحيوان المسكين من ضرب موجع أليم.

وصاح بعضهم يقول: ـ فلتصعدوا إذن... ألم تسمعوه يقول إنه سيجعلها تطير خبباً..؟

وآخر يقول: ـ إنها لم تخب منذ عشر سنين على الأقل.

وثالث: ـ بل ستخب... لا تشفقوا عليها أيها الأصدقاء، ليضربها كل منكم بسوطه... ليستعد كل منكم... هيا... انهالوا عليها بالضرب..

راحوا يصعدون إلى العربة... عربة ميكولكا وهم يضحكون ويتبادلون السباب... وجلس ستة أشخاص فيها بانتظار الآخرين، لأن المكان كان يتسع للكثيرين، وحملوا معهم امرأة ضخمة ذات خدين بارزين مصبوغين. كانت ترتدي «صدارة» من القماش الهندي الأحمر وتحشر قدميها في حذاءين عاليين ثقيلين... وكانت تكسر بندقاً بين أسنانها وتضحك بين حين وآخر.. كذلك كان الجميع يضحكون... وكيف لا يضحكون وهذا الحطام الذي على شكل فرس مدعو للسير خبباً بهذا الحمل الثقيل!

أخذ غلامان كانا في عداد الراكبين سوطاً ليساعدا به ميكولكا في مهمته القاسية.. مهمة جلد الحيوان.. وارتفعت الصيحات تحث الدابة

على السير. واستصرخت هذه قواها، لكنها لم تستطع أن تخب بل بالكاد استطاعت التقدم خطوة واحدة. كانت تضرب الأرض، وهي تكاد أن تخرج من جلدها من ألم السياط الثلاثة التي كانت تلهب ظهرها وتنهال عليها كالبرد بينما تضاعف ضحك الركاب وصخبهم! وغضب ميكولكا وعبّر عن غضبه بلسعات أشد قوة كما لو كان يعني ما يقول من أن الفرس ستخب. واندفعت من بين الجماعة التي بقيت على الرصيف فتاة صغيرة بدت معجبة بالمنظر. صاحت مستعطفة.

ـ دعوني أركب يا أصدقائي!

فأجابها ميكولكا ملء حنجرته:

ـ هيا اصعدي. اصعدوا جميعاً، سوف أقودكم إلى منازلكم وسترون كيف سأثير حماس هذه الفرس. وراح يضرب ويضرب ويضرب ويبحث عن أدوات جديدة ليستعملها في هذه المهمة.

صاح الفتى:

ـ أبي أبي، أبي ماذا يعمل هؤلاء؟ أبي إنهم يضربون الحصان الصغير المسكين! فيجيبه أبوه:

ـ هيا بنا، هيا بنا، إنهم سكارى قادرون على ارتكاب حماقة. دع هؤلاء المأفونين، تعال لا تنظر إليهم! وأراد أن يبعده عن المكان!

غير أن الفتى تملص من يد أبيه فاقداً أعصابه وهرع إلى الحصان الصغير الذي كاد أن ينفق من الألم: فيستجمع أنفاسه وقواه ويعاود الجردون جدوى. وكان الركاب يصيحون:

ـ اضرب، اضرب إلى أن ينفق، وعلى كل حال لن يتأخر ذلك...

بينما صاح عجوز من النظارة مستنكراً هذا المشهد:

ـ أولست مسيحياً أنت؟ أجب بلا أو نعم أيها الوحش!

وأضاف آخر:

ـ هل رأيتم قبل الآن حصاناً صغيراً هزيلاً كهذا يجر حملاً بهذه الضخامة؟ وثالث موجهاً حديثه لميكولكا:

ـ أيها القذر.. ويجيب ميكولكا غير آبه بالاعتراضات:

ـ فيم تتداخلون؟ إنه حصاني أصنع به ما أشاء. ليصعد من يريد، لسوف أجعله يسير خبباً.

وفجأة انفجرت ضحكة هائلة طغت على صوت ميكولكا: ذلك أن الفرس لم تعد تحتمل الضرب الذي ينهال عليها ولم تكن تستطيع السير بحملها، وكنتيجة طبيعية لغضبة الحيوان راحت تستعمل قائميتها الخلفيتين دلالة على احتجاجها العنيف. حتى أن المحتجين أنفسهم لم يتمالكوا من الضحك. وهرع فتيان من «الشلة» فأمسكا بسوطين وراحا يلهبان كشح الحيوان بالضرب الوجيع كل من جانب. وكان ميكولكا يشجعهما بقوله:

ـ اضربا، اضربا على الأنف والعينين والوجه.

ويصيح آخر من ركاب العربة: غنوا يا أصدقائي. نعم لنغن؛ وسرعان ما رفعوا العقائر بأغنية قذرة مبتذلة على أنغام الصفير وحركات الأرجل في ضبط الإيقاع بينما ظلت المرأة الضخمة تكسر بندقاتها بين أسنانها وكأن ما يجري لا يعنيها في قليل أو كثير.

ركض الفتى إذاً نحو الحصان واندفع إلى الأمام وهو يشاهد أولئك القساة يضربونه على عينيه وملء وجهه وراح يبكي. كان قلبه يتفطر حزناً

ودموعه تنهمر بغزارة... أحس بالسوط يلمس جانب وجهه حينما كان أحد الضاربين يرفعه بيده لينهال به أداء لمهمته. غير أنه لم يشعر بالألم.. كان يصيح ويتلوى ويستصرخ عواطف الموجودين ويندفع نحو الرجل العجوز ذي اللحية المدببة الشائبة مستنجداً، فيقابله هذا بهزات من رأسه شأن من أصدر حكمه وانتهى. وتحاول امرأة إمساكه من يده لتخلصه من ذلك الجمع الحاشد، فيفلت منها ويعود قرب الفرس... الفرس التي كانت في تلك اللحظة على آخر رمق.

لم يكف ميكولكا عن الصراخ والغضب، كان ينعت الدابة المسكينة بما يحضره من كلمات. ولما لم تستجب له ألقى السوط من يده واحتضن مقعداً كبيراً كان داخل العربة رفعه بيديه إلى الأعلى بجهد بالغ وانهال به بضربة عاتية شرسة على ظهر الفرس المسكينة وهو يصيح معترضاً على الاحتجاجات التي ارتفعت من حوله ويقول:

ـ إنها ملكي، ملكي!..

وصدر عن ارتطام المقعد صوت مكتوم بينما تعالت بين النظارة أصوات تقول:

ـ اجلدوها. لِمَ لا تجلدون؟ لماذا توقفتم؟.. فيرفع ميكولكا المقعد ثانية إلى أعلى ويهبط به من جديد على ظهر الحيوان التعس الذي سقط على مؤخرته ثم نهض كالمجنون واستجمع آخر ما تبقى له من قوى وجذب، جذب دون أن يستطيع التقدم. والسياط الست والمقعد الضخم ترتفع وتهبط دون شفقة بقوة ووحشية وبشكل رتيب، وميكولكا يكاد يجن غيظاً لأنه لم يجد طريقة يقتل بها الحيوان بضربة واحدة. أما المتفرجون فقد قنعوا بإبداء الملاحظات. فمن قائل:

ـ كم هو جلود هذا الحيوان! وآخر:

ـ لن يعيش طويلاً، فقد دنت نهايته! وثالث يزمجر:

ـ إن ضربة فأس واحدة هي وحدها قادرة على وضع حدٍّ لكل هذا.

لم يكتف ميكولكا بكل ذلك، وهو الذي أعماه الغضب... ألقى فجأة بالمقعد جانباً، وانحنى يفتش في عربته عن سلاح جديد ثم انتصب وفي يده عتلة من الحديد وصاح ملء حنجرته يحذر المجتمعين حول الدابة مما سيكون، وانهال على ظهر الحصان بضربة صاعقة حشد فيها كل قوته فترنح الحيوان وسقط وهو يحاول جر العربة، ولما أصابته الضربة الثانية هوى على الأرض وكأنه جُرّ من قوائمه...

لم يشفق ميكولكا ولم يهز المشهد عواطفه، بل قفز من العربة كالمجنون وهو يصيح: لنجهز عليها... لنجهز عليها. وراح الناس يختطفون ما تقع عليه أيديهم: سوط، عصا، مقعد؛ أي شيء وينهالون به على الفرس المحتضرة بينما كان ميكولكا واقفاً قرب رأسها يهوي عليه بعتلته دون إشفاق حتى أن الحيوان المسكين اختلج أخيراً ومد عنقه إلى أقصاه ثم زفر زفرة عميقة ونفق. وصاح صائح:

ـ لقد نفقت. وآخر:

ـ لِمَ لمْ تخب؟

وهتف ميكولكا وعتلته في يده وقد اختلط الدم ببياض عينيه:

ـ إنها ملكي! وبدا كأنه يأسف إذ لا يرى شيئاً يضرب به. وتعالت أصوات بين النظارة محتجة تقول:

ـ لقد وضح الآن أنك لست مسيحياً. نعم لقد ضح!..

أما الطفل الصغير فلم يكن يعي ما حوله. أطلق صيحة مريعة وشق

لنفسه طريقاً بين الجمع متجهاً نحو «الكديش» وجثا بالقرب منه وراح يعانق رأسه الميت المثخن بالجراح ويقبل عينيه وشفتيه وفجأة تغلب عليه الغضب فارتمى على ميكولكا مطبقاً قبضتيه، وفي تلك اللحظة أدركه أبوه الذي كان يحاول عبثاً إيجاده بين الحشد والإمساك به وصاح:

ـ لنذهب، لنذهب، لنعد إلى البيت...

كان الطفل يبكي وجسمه يهتز. شعر بأن شيئاً ما يقطع عليه تنفسه ويلجم لسانه فجهد حتى صاح من صدر كليم:

ـ أبي! لِمَ.. لِمَ قتلوا هذا الحصان البريء المسكين؟ فأجابه أبوه:

ـ إنهم سكارى يا ولدي يتسلون. ثم هل يعنينا هذا؟ تعال يا ولدي نرتحل. وطوقه أبوه بذراعيه ولبث يعاني ثقلاً شديداً على صدره... كابوساً مريعاً؛ يحاول التخلص منه واسترداد أنفاسه المبهورة. وبلغ من ضيق صدره إن كاد يختنق. فأطلق صيحة مدوية واستفاق...

استفاق راسكو لنيكوف فوجد أن العرق يتصبب على جسده، وقد ابتل به شعره؛ واستوى جالساً والرعب ماثل في عينيه وقال وهو يزحف نحو شجرة قريبة ليستند إلى ساقها. كان يتنفس تنفساً عميقاً. هتف:

«حمداً لله. إنه ليس أكثر من حلم!... ولكن ألا يجوز أن يكون هذا بداية حمى؟ حلم مخيف».

كان يشعر أن جسمه محطم وأن روحه تعيش في ظلام وخيبة. فأسند مرفقيه على ركبتيه وأخذ رأسه بين يديه وراح يفكر ويناجي نفسه على طريقته:

ـ رباه! هل هذا يمكن؟ هل أستطيع أن آخذ فأساً بيدي فأضرب به

الرأس وأجعل الدماغ يتناثر؟ هل يمكن أن أسبح في الدماء الحارة اللزجة؟ هل أستطيع تحطيم القفل والسرقة؟ سوف أرتعد، سوف أرتعد وأنا مغطى بالدم... رباه! بضربات فأس... هل ذلك ممكن؟

كان يرتعد كالورقة الجافة أمام الريح العاتية وهو يحدث نفسه. عاد من جديد يستغرق في ذهوله المعهود ناجى نفسه قائلاً:

ـ رباه! ماذا حل بي؟ كنت أعرف سلفاً أنني لن أحتمل ذلك. والبارحة لما قمت بتلك التجربة. نعم البارحة فهمت تماماً أنني لن أحتمل هذا. فلم شككت في الأمر حتى الآن. والبارحة تماماً وأنا أهبط السلم قلت لنفسي: إن ذلك مريع وقذر... إنه انحطاط... رباه! لم أستطع النوم وهذه الفكرة وحدها تثير حفيظتي وتشل حركتي خوفاً. كلا لن أستطيع.. لن أستطيع.. ولنفرض جدلاً أن كل حساباتي وتخميناتي لا تترك مجالاً للشك وأن كل ما قررته خلال هذا الشهر واضح وضوح الشمس، دقيق كعلم الحساب فإنني ـ رباه ـ لن أستطيع التصميم. كلا... أبداً.. لن أستطيع اتخاذ قرار نهائي. فكيف؟ كيف أنني حتى الآن...

وقف ذاهلاً ونظر حوله دهشاً لوجوده حيث كان ثم اتجه نحو الجسر «ت»... شاحب الوجه، ملتهب العينين، منحل الأطراف، يهده التعب.. خيل إليه أن تنفسه كان أخف من المعتاد، وشعر أنه تحرر من عبء ثقيل كان يسحقه زمناً طويلاً وأن روحه انتعشت بعد طول غم، فهتف ضارعاً: «رباه! هب لي من لدنك طريق الصواب حتى أقلع عن حلمي الملعون...»

اجتاز الجسر ونظر بسكون وهدوء إلى نهر «نيفا» وغروب الشمس يضفي عليه لون النار، والشمس محمرة عند الأفق. لم يشعر قط بضعفه رغم التعب الذي كان ينهكه حتى ليعلن أن العلة التي كانت في قلبه

تعكر صفو حياته قد برئت وشفيت. حراً... حراً، كان الآن حراً... لقد نجا من السحر، من الإغراء، من الآلام.. من الوسواس المرعب، وغداً عندما يستعرض هذا الوقت بكل ما حصل فيه وما وقع له في هذه الأيام دقيقة فدقيقة، ثانية فثانية، نقطة فنقطة سيحس في أعماقه إحساساً خرافياً ممتعاً! وعلى الرغم من أن تلك الحال لم تكن شديدة الغرابة إلا أنه كان يجد فيها شيئاً من نفسه وكأنه يكتشف ويتصور مقدراته ومصيره.

كان يجهل الأسباب التي تدفعه إلى التجول في الشوارع متخذاً طريقاً مطولة للعودة إلى غرفته وهو الذي كان على آخر رمق يسحقه التعب، والألم. كان يستطيع اللجوء إلى طريق أقصر تعيده بسرعة إلى حيث يستريح، ومع ذلك هو يذهب إلى حيث لم تكن تدعوه حاجة إلى الذهاب، عاد عن طريق «شارع العلف» دون أن يفسر لنفسه الأسباب. صحيح؟.. لقد حصل له أن عاد إلى غرفته مرات دون أن يعرف كيف وصل وأي سبيل سلك. نعم لقد وقع ذلك أكثر من عشر مرات! أما لِمَ وقعت تلك المقابلة الهامة الحاسمة وغير المنتظرة في ذلك المكان بالذات الذي لم يكن لديه من سبب يدعوه إلى ارتياده، وفي تلك اللحظة الحاسمة من حياته حيث ما كان يمكنه وهو على حاله تلك وفي ظروفه التي عاش فيها أن يتجنب التأثر بها وإخضاع مصيره لها، فذلك ما كان يتساءل عنه دائماً! وأخيراً عده شراً كما هيأته الأقدار ليقع فيه:

كانت.الساعة تشرف على العاشرة حينما اخترق السوق. وكان الباعة المتجولون وأصحاب المخازن يغلقون دكاكينهم أو يجمعون بضاعتهم المعروضة ويحزمونها ليعودوا بها إلى دورهم وقد انقطع سيل الزبائن، وهنا وهناك بالقرب من دكاكين الشواء ومداخل البؤر، وفي الساحات القذرة النتنة التي تحيط منازل «شارع العلف» كان الصعاليك والسوقة

وحثالة المصانع يعج بهم المكان! وكان راسكو لنيكوف يميل إلى هذه الأمكنة والأزقة المحيطة بها فيرودها لما يخرج تائهاً دونما هدف يقصده لأنه ما كان يستهدف هنا لأي نوع من النقد المزري وهو في تلك الأسمال البالية. كان يمكن أن يتنزه المرء هنا دونما خشية من فضيحة أو رزية! وعلى زاوية زقاق «ك» كان بائع وزوجه يبيعان، منفصلين، خيوطاً، وأشرطة، ومناديل قطنية، و«خرداوات» كانا يستعدان لمغادرة المكان والعودة إلى مسكنهما ويتلكآن قليلاً في الثرثرة مع شخص يعرفانه. أما ذلك الشخص فكان إليزابيت إيفانوفنا أو بالاختصار إليزابيت كما كان يسميها الناس وهي الأخت الأصغر لأليونا إيفانوفنا تلك العجوز المرابية أرملة معاون في الكلية والتي كان راسكو لنيكوف قد رهن أمس ساعته عندها حينما كان يقوم «بتجربته». كان عارفاً بوجود هذه الـ «إليزابيت» منذ زمن بعيد وكانت هي بدورها تعرفه بعض الشيء. كان يعرف أنها فتاة خرقاء خجول مرحة العقلية حمقاء بعض الشيء في الخامسة والثلاثين من عمرها تعاملها أختها الكبرى معاملة الرقيق. كانت تشتغل من أجلها ليلاً نهاراً وتضطرب تحت وطء نظراتها وتحتمل منها كل إهانة حتى الضرب. كانت تلك اللحظة تحمل ربطة في يدها وتقف مترددة أمام البائع وزوجته تصغي إليهما بانتباه وهما يرويان لها أمراً بحماس ظاهر. ولما شاهدها راسكو لنيكوف أحس بشعور مبهم غامض يشبه الذهول يستحوز عليه رغم أن تلك المقابلة لم تكن تعني بالنسبة إليه شيئاً مهماً. وسمع البائع يقول متمماً حديثه:

ـ لك أن تقرري يا إليزابيت إيفانوفنا فالأمر منوط بك. عودي غداً في السابعة وسيكونوا جاهزين.

فأجابت إليزابيت ساهمة بصوت واهن وكأنها تحجم عن اتخاذ قرار: غداً؟

فقالت زوجة البائع وهي امرأة عطوف في عينيها إشفاق:

ـ آه.. آه كم تخيفك العجوز اليونا إيفانوفنا! لعمري إن المرء ليعتقدك طفلة إذا استمع إليك. رغم أنها ليست أختك بالمعنى المفهوم. إن هي إلا أخت بالعهد ومع ذلك انظري كيف تعاملك.

وقاطعها زوجها قائلاً:

ـ نعم لمرة واحدة اغفلي عن أخبار اليونا إيفانوفنا. اتبعي نصحي: تعالي إلينا دون أن تستأذنيها فالمسألة مهمة ولسوف تقتنع أختك بعدئذٍ بذلك.

ـ ومتى ينبغي أن أحضر؟

ـ حوالي الساعة السابعة غداً. ولسوف يأتون بدورهم، ولسوف تحكمين بنفسك. وأضافت الزوجة: ـ ولسوف يقدمون لك الشاي...

فأجابت إليزابيت دون أن تخرج عن شرودها:

ـ حسناً سأحضر... ثم تأهبت للانصراف.

كان راسكو لنيكوف قد تجاوزهم في تلك اللحظة فلم يسمع من حديثهم أكثر مما سمع... وقد تعمد أن يبطئ الخطى دون أن يشعرهم بذلك ساعياً إلى سماع ما يستطيعه من تلك المحاورة. وكان الذهول الذي أحس به في البداية قد انقلب تدريجاً إلى رعب فقشعريرة باردة اكتسحت كيانه. لقد عرف شيئاً عن طريق الصدفة المحضة... شيئاً هاماً في «مشروعه» لقد عرف أن إليزابيت الأخت الوحيدة للعجوز المرابية ستكون غائبة عن المنزل ـ منزل أختها ـ غداً في الساعة السابعة... أي أن العجوز ستكون وحيدة في تلك الساعة..

كان يفصله عن غرفته عدد قليل من الخطى فلما دخل مسكنه كان

كمن حكم عليه بالموت. لم يكن يستطيع المناقشة ولا البحث في شيء ولكنه شعر من صميم كيانه أنه فقد من جديد حرية الفكر والإرادة وأنه فقدهما نهائياً. لا شك أنه إذا كان قد انتظر سنوات طويلة اللحظة الحاسمة لتحقيق «مشروعه» فذلك لأنه لم يكن ليستطيع الاعتماد على مثل هذه الصدفة السعيدة التي عرضت له اليوم وفي تلك اللحظة بالذات. نعم لا شك أنه ما كان يستطيع معرفة الوقت الذي تكون فيه العجوز منفردة دون أن يستقصي ذلك ويتحقق منه بطرح أسئلة خطيرة هنا وهناك قد تجعل المسؤولين يذكرونه عند التحقيق وهكذا فقد تقرر أن يكون غداً في ساعة معينة، الموعد الذي تكون فيه عجوز معينة وحيدة في دارها وأن يكون هناك فتى يقصد اغتيالها. نعم كان ذلك مقرراً من الأزل.

الفَصلُ السَّادِسُ

راسكولنيكوف يتأهب لارتكاب الجريمة

كان مقدراً أن يلم راسكو لنيكوف بالسبب الذي دعا البائع وزوجته إلى دعوة إليزابيت، أن يعرف أنه بسيط عادي. فقد كانت هناك عائلة كريمة أخنى عليها الدهر تريد بيع بعض حاجات من ألبسة وأثواب نسائية، ولما كانت تلك العائلة تخجل من عرض تلك الحاجات في السوق فقد راحت تبحث عن مشترية. وكانت إليزابيت تهتم بمثل هذه الأمور ولها زبائن كثر لأنها كانت معروفة بنزاهتها وأسعارها المعقولة وعزوفها عن المساومة. كانت قليلة الكلام كثيرة اللطف رقيقة المعشر شديدة الحذر.

غدا راسكو لنيكوف في أيامه تلك خيالياً متطيراً وقد خلف ذلك التطير في نفسه آثاراً لا تمحى حتى أنه كان يميل إلى الاعتقاد ـ وهو في صدد هذه القضية ـ أن هناك تسابقاً غريباً وغامضاً في الأحداث، تسابقاً شاذاً ترافقه سلسلة من المؤثرات والمصادفات: ففي الشتاء السابق كان أحد أصدقائه الطلاب المدعو «بوكوريف» ذاهباً إلى «خار كوف» فأعطاه عنوان العجوز أليونا إيفانوفنا في سياق حديث عابر. وأعلمه أنه يستطيع أن يجد لديها ما يقترضه إذا دعته الحاجة وكان لديه رهينة يقدمها.

ومضت أيام طويلة قبل أن يتذكر راسكو لنيكوف ذلك العنوان، لأنه كان يعطي دروساً مأجورة يتخلص بريعها من ضائقاته المالية. فلما تزايدت متطلباته لم يكن لديه إلا حاجتان تصلحان لتكونا رهناً ترتضيه العجوز: الساعة القديمة المصنوعة من الفضة التي ورثها عن أبيه والخاتم الذهبي المزين بثلاثة أحجار حمراء كانت أخته قد أعطته له على سبيل الذكرى لما أن افترقا أول مرة. فقرر أن يضحي بالخاتم بادئ ذي بدء فيقدمه للمرابية. ولما ذهب إليها شعر نحوها بكراهية عميقة قبل أن يعرف عنها شيئاً. ولما أعطته «الورقتين النقديتين» عرج في طريق عودته إلى البيت على حانة موبوءة وطلب لنفسه قدحاً من الشاي ثم جلس يفكر. فنبتت في رأسه فكرة غريبة ما لبثت أن سيطرت على تفكيره.

كان إلى مائدة قريبة منه طالب لا يذكر أنه رآه أو عرفه من قبل. وكان الطالب يجلس مع ضابط يحتسيان الشاي بعد أن فرغا من شوط «بليار»، سمع راسكو لنيكوف الطالب يحدث الضابط عن مرابية عجوز، أرملة مساعد في الكلية، اسمها آليونا إيفانوفنا ويعطيه عنوانها فكان ذلك في حدّ ذاته نوعاً من الغرابة في نظره. فهو قد وصل تواً من لدنها وها إنهم هنا يتحدثون عنها! إنها الصدفة ولا شك ولكنه وقع تحت تأثير شعور

معين! وكأن الطالب أراد دعم ذلك الشعور وتنميته في نفسه، فراح يروي لصديقه تفاصيل دقيقة كثيرة تتعلق بتلك الـ «اليونا إيفانوفنا». كان يقول:

- إنها مدهشة،... يمكن للمرء أن يجد لديها دائماً ما يقترضه... فهي غنية كأحد اليهود تستطيع إقراض خمسة آلاف روبل دفعة واحدة ولا تتنازل عن روبل واحد تقرضه لقاء رهن. ولقد غمرت عدداً كبيراً من أصدقائي بحسن صنيعها غير أنها عنيدة قاسية كالجمل!

وهكذا راح الطالب يقص على زميله ما يعرفه من صفات للمرأة فقرر أنها خبيثة جشعة وأن تأخر يوم واحد عن أجل الدفع الممنوح من قبلها، يكفي لضياع الرهينة التي في يدها؛ وأنها تعطي ربع قيمة الشيء المرهون وتستوفي فائدة تتراوح بين خمسة وسبعة في المائة عن الشهر الواحد. ولم يغفل ذلك الطالب أية معلومات عن المرابية: فذكر في سياق حديثه أن لها أختاً تدعى إليزابيت وأنها صغيرة نسبياً ومستكينة لدرجة أن العجوز تضربها لأتفه الأسباب وتسيطر عليها سيطرة تامة رغم أن طول هذه الـ «إليزابيت» لا ينقص عن ستة أقدام، وهذا وجه الغرابة في الموضوع كما كان يقول!

وهنا انتقل موضوع الحديث وتركز حول أخبار إليزابيت فكان الطالب يتحدث عنها بغبطة ملحوظة دون أن يكف عن الضحك حتى أن الضابط الذي استمع إليه حتى تلك اللحظة بشغف واهتمام، رجاه أن يبعث بتلك الـ «إليزابيت» إليه لتغسل له ثيابه الداخلية. لم تفت راسكو لنيكوف كلمة واحدة من ذلك الحديث. حتى أنه تأكد من إحاطته علماً بكل ما يتعلق بتلك العجوز دفعة واحدة: فإليزابيت هي الأخت الصغرى ولكن من أم أخرى، ولها من العمر خمسة وثلاثون عاماً تعمل ليل نهار لسحاب أختها وتشغل في بيتها مركز الطاهية والغسالة إلى جانب أشغال

الحياكة التي كانت تقوم بها كلما سمح لها الوقت؛ وأنها كانت ترهق نفسها بالعمل والخدمة وتعطي أختها كل ربحها دون أن تجرؤ على تقبل عمل ما أو عقد صفقة ما إلا بإذن العجوز وموافقتها. وكانت المرابية قد كتبت وصيتها التي حرمت فيها إليزابيت من كل شيء باستثناء بعض الأثاث. ولم تكن إليزابيت تجهل ذلك. كانت تعرف أن أختها العجوز قد وهبت ديراً في مقاطعة «نـ..» كل مالها، التماساً لراحة روحها عند الموت.

لم تكن إليزابيت تمت إلى بيئة راقية رغم انحدارها من أسرة عاشت في المدينة. كانت طويلة القامة، هزيلة التكوين ذات قدمين كبيرتين ملتويتين، تنتعل دائماً أحذية مشوهة، وتميل إلى النظافة المفرطة. وكان ما يزيد في دهشة الطالب واستغرابه أن إليزابيت تلك كانت دائماً حبلى. حتى أن الضابط لم يتمالك أن قال معقباً:

ـ إنك هنا تعطي صورة لوحش مخيف.

ـ يجوز... إنها نحاسية اللون وكأنها جندي في لباس امرأة ولكن لا يمكن أن تنحدر إلى مرتبة الوحش. إن لها سمات غاية في الطيبة وعينين جميلتين. وهي هادئة ووديعة ترتضي كل شيء حتى يمكن القول أن ابتسامتها جذابة..

فقال الضابط متسائلاً وهو يضحك:

ـ هل يمكن أن تروق لك؟

ـ لمجرد غرابتها فقط. أما تلك العجوز اللعينة: فأقسم أنني ما كنت لأشعر بأي تبكيت في ضميري لو قتلتها وسلبتها مالها...

ضحك الضابط لقول صديقه. غير أن راسكو لنيكوف ارتعد له: لقد كان غريباً أن يسمع ذلك. غريباً أن يسمع فكرته على لسان غيره!

قال الطالب بحماس مخاطباً زميله:

ـ سوف أطرح عليك سؤالاً جدياً لو سمحت وبالطبع إنني أقول ذلك على سبيل المزاح فحسب. قارن بين عجوز خرقاء حمقاء خبيثة غليظة الفؤاد مريضة غير ذات فائدة لأحد، لا تعرف من حياتها لِمَ تعيش، وستموت غداً ميتة طبيعة... هل تفهم، هل تفهم؟

فقاطعه الضابط قائلاً بعد أن أصغى إليه باهتمام وراقبه بنظرة منفعلة:

ـ لا شك أنني أفهم.

واسترسل الطالب يقول:

ـ نعم قارن بين عجوز كالتي وصفتها وبين قوى فتية نشيطة تضيع هباء لافتقارها إلى السند والدعم، قوى تضيع بالألوف وفي كل مكان... مئات بل ألوف من الأعمال الممتازة والمشاريع التي يمكن تحقيقها وتنفيذها بأموال تلك العجوز الموهوبة لدير... مئات بل ألوف من المخلوقات يمكن تسييرها في الطريق القويمة وعشرات من الأسر يمكن إنقاذها من المجاعة والانحلال والدمار والتفكك وتجنيبها مستشفيات الأمراض السارية بتلك الأموال. فلتُقتل إذاً وليؤخذ مالها وليكرّس بعدئذٍ لنفع الإنسانية. فهل تعتقد أن جريمة تافهة كهذه لا تساوي ألوف الحسنات التي تقابلها. فكر أن حياة واحدة تنقذ ألوفاً من الدمار والانحلال والفساد... مئات من الأرواح تنقذ لقاء روح تزهق. ألا ترى في ذلك عملية حسابية واضحة؟ ثم ما وزن حياة عجوز خبيثة كهذه في الميزان العام... عجوز سخيفة بليدة معلولة؟ إنها لا تساوي ذرة بل جرثوماً بل وأقول: إن حياتها أبخس من ذلك ثمناً. لأن هذه العجوز ضارة بالإنسانية. إنها تبتز وتحتكر المستقبل بثمن الحاضر، إنها وحش ضار... أتدري أنها مؤخراً عضت أصبع إليزابيت في ساعة غضبها فكادت أن تقطعه لولا قليل؟

فقال الضابط:

ـ لا شك أنها غير جديرة بالحياة. ولكن هي الطبيعة!

ـ آه... آه يا صديقي. الطبيعة؟ الطبيعة؟ يمكن تبديلها وتعديلها وتسييرها وإلا أوشكنا على الغرق في خضم من المعتقدات الفاسدة. لو تركنا الطبيعة وشأنها لما لمع رجل كبير. يقولون: «الواجب! الضمير» وأنا لا أعارض ولا أستنكر الواجب والضمير لكنني أطلب بل أطالب بإيضاح معنى هذه الكلمات! حسناً. سأطرح عليك سؤالاً آخر:

ـ كلا! بل دع لي أنا فرصة السؤال:

ـ أنت الآن في اندفاع كلامي كالخطيب المفوه ولكن قل لي هل تتعهد بقتل هذه العجوز «بنفسك»؟

ـ بالطبع لا. إنني أتحدث من وجهة النظر العدالية وذلك لا يعني أنني أقصد نفسي بالذات في هذه اللحظة.

ـ حسناً. إذا أردت رأيي قلت لك إنه طالما لا تحزم أمرك على تنفيذ ما تقول فلا يمكن أن تتعلق المسألة بالعدالة... هيا نلعب شوطاً آخر...

كان راسكو لنيكوف فريسة اضطراب عنيف لأن تلك النظريات لم تكن غريبة عنه. إنها نظريات وآراء شباب سمعها غالباً، وهم يتداولونها على أشكال مختلفة وبصدد مواضيع مختلفة. ولكن لِمَ جمعت الصدفة تلك الآراء وادخرتها حتى تلك اللحظة ليسمعها راسكو لنيكوف؟ أو على الأصح كيف انتقلت أفكاره بحذافيرها إلى رأس سواه في اللحظة التي نبتت فيها في رأسه وراحت تزدهر؟ كيف يفكر هو في العجوز ثم لا يلبث حتى يسمع حديثاً يدور حولها؟ إنها صدفة غريبة. وقد لبث ذلك الحديث

الذي دار في تلك الحانة يؤثر تأثيراً كبيراً على الأحداث التي وقعت بعد ذلك حتى أنه ليقال إن هناك علاقة أو ارتباطاً أو تقريراً يصدر عن القدر..

* * *

عندما عاد راسكو لنيكوف من «سوق العلف» استلقى على «سريره» ولبث ساعة لا يريم ولا يتحرك. وكان الظلام قد أرخى سدوله في ذلك الحين ولم يكن لديه شمعة يوقدها بل إن فكرة إيقادها ـ لو وجدت ـ لم تكن لتخطر على باله. لم يذكر أبداً خلال المدة الأخيرة أنه استطاع التفكير في شيء... وأخيراً عادت إليه قشعريرة الحمى التي شعر بها مؤخراً فوجد أن خير ما يفعله هو النوم. فأغمض عينيه واستغرق في نوم عميق.

نام أكثر من عادته ولم يتخلل نومه أحلام، حتى أن ناستاسيا التي دخلت غرفته في العاشرة صباحاً وجدت صعوبة في إيقاظه. كانت تحمل إليه الشاي والخبز. الشاي الذي كانت قدمته له من قبل في إنائها الخاص.

هتفت باحتقار:

ـ رباه كم ينام إنه لا يحسن إلا النوم.

نهض بإجهاد وهو يشعر بألم في رأسه، فراح يتمشى في غرفته ثم لم يلبث أن سقط على السرير من جديد. صاحت ناستاسيا:

ـ أتعاود النوم؟ هل أنت مريض؟..

ولما لم يجب، أردفت:

ـ ألا تريد أن تحتسي قدحاً من الشاي؟

فأجابها بضعف وهو يغمض عينيه ويستقبل الجدار بوجهه: ـ فيما بعد..

انحنت ناستاسيا فوقه وهي تقول:

ـ لعمري قد يكون مريضاً... ثم دارت على عقبيها وخرجت، ولم تعد إليه إلا في الساعة الثانية وكانت تحمل الحساء. كان لا يزال نائماً كما تركته والشاي لم يمس، فراحت تهزه بغضب وتقول:

ـ ما بك لا تنفك تنام؟ هل أنت مريض؟ أجب بنعم أو لا!

لكنها لم تتلق جواباً كذلك. فنظرت إليه باستنكار وقالت:

ـ من الخير لك أن تقوم بجولة في الشارع، قد يفيدك الهواء الطلق... ماذا لو جلست قليلاً!

جلس الشاب في «سريره» وأطرق برأسه محدقاً مستغرقاً في خواطره. ولم يرد على قوله: ـ فيما بعد... ارتحلي.. وأشار بيده نحو الباب. فوقفت برهة تتأمله بنظرة إشفاق ثم خرجت.

لبث مطرقاً بضع دقائق ثم رفع رأسه ونظر باستغراق إلى الشاي والحساء وأخيراً انتزع قطعة من الخبز وأمسك بالملعقة وبدأ يأكل... ابتلع لقيمات دون شهية وبشكل آلي. فسكن الألم الذي في رأسه ولما انتهى من طعامه تمدد على «السرير» ولكنه لم ينم. بل لبث ساكناً مستلقياً على صدره دافناً وجهه في «الوسادة». كان يفكر ويفكر وكانت أحلامه غريبة. كان يتصور نفسه هناك في إفريقيا، في مصر بالقرب من بعض الواحات، ويرى أن القافلة تستريح والجمال تنام هانئة، وأشجار البلح نامية على شكل دائرة محيطة. وكان الجميع يتناولون الطعام أما هو فكان يشرب من غدير جار مزمجر قريب من هناك. ولقد شعر أن ذلك الماء أنعشه... إنه ماء أزرق صاف يسيل فوق حصى ملونة وفي مجرى من الرمال التي تعكس إشعاعاً ذهبياً.

وفجأة سمع دقات ساعة بوضوح فانتفض ورفع رأسه ونظر من

النافذة وبعد أن خمن الوقت غادر «سريره» كما لو انتزعته أيد خفية. شعر بإشراق عقلي فسار متلصصاً نحو الباب يواربه بهدوء ويصغي. فلم يسمع أية ضجة على السلم كما لو أن كل من في البيت كانوا نياماً. راح يعتب على نفسه استغراقه في النوم كل هذا الوقت دون أن يتخذ العدة لما هو في سبيله. واعتبر هذا الإهمال منه عملاً شنيعاً شاذاً. فقد أدركه الوقت والساعة أشرفت على السادسة؛ وهنا شعر بوجيب قلبه يتجاوب في الحجرة، واستولت عليه عجلة خارقة صاخبة مضطربة طردت الذهول والنعاس اللذين كانا مستوليين عليه. كانت الاستعدادات اللازمة بسيطة غير معقدة. فاستنجد بكل قواه ليدبر الأمر ويبلغ به مبلغ الكمال فلا ينسى شيئاً ولا يغفل أمراً وشعر بضربات قلبه تكاد تخنقه فصعد وقاوم وأخرج من «وسادته» رزمة من الثياب انتقى منها قميصاً قذراً خلقاً نزع منه «سريدة» بعرض بوصة واحدة وطول ثمانين بوصات أراد أن يصنع منها عقدة سيالة «أنشوطة» يثبتها في معطفه، الأمر الذي لن يستغرق منه إلا دقائق معدودات. نزع معطفه الصيفي الواسع المصنوع من قماش قطني متين (وهو اللباس الخارجي الوحيد الذي كان يملكه)، وبدأ يخيط في داخله تحت الإبط طرفي «السريدتين». كانت يداه ترتعدان خلال تلك العملية ولكنه أنجزها بدقة لا تفضحها العين، ثم ارتدى المعطف...

كان قد هيأ الإبرة منذ بعيد وكذلك الخيط كان محتفظاً به في قمطر المائدة ملفوفاً في ورقة باعتناء. أما «الأنشوطة» فكانت من تصميمه: ادخرها للفأس إذ إنه يستحيل عليه الخروج إلى الشارع والفأس في يده، أما إخفاؤها تحت المعطف فيستوجب استعمال اليد أو الذراع لتثبيتها. ولكن بمثل هذه «الأنشوطة» ليس عليه إلا أن يدخل الجزء الأعلى منها فيها ويتركها متدلية دون أن يخشى سقوطها؟ وستبقى تحت إبطه طيلة

الرحلة ولن يقتضيه الأمر إلا إدخال يده اليسرى في جيب معطفه والإمساك بالمقبض ليمنعها من التأرجح. ولما كان معطفه عريضاً حتى لكأنه غرارة كبيرة، فإن الناظر إليه لن يستطيع أن يحدس أنه يسند بيده شيئاً. وهكذا نبتت فكرة «الأنشوطة» في رأسه منذ نيف وخمسة عشر يوماً...

أنهى عمليته ومد يده إلى الفراغ الواقع بين «الديوان» وحافة الجدار من الجهة اليسرى وعبث برهة بأصابعه باحثاً ثم أخرج «الرهينة» التي ادخرها لهذه المناسبة. لم تكن شيئاً ثميناً بالمعنى المفهوم. كانت عبارة عن قطعتين من الخشب المجلو المصنوع على شكل علبة السجائر وقد غطاهما بقطعة من الحديد الأبيض (تنك) عثر عليها خلال إحدى نزهاته، ثم لفهما بعناية في ورقة بيضاء ناصعة نظيفة جداً ألصقها من أطرافها حتى ليتعذر نزعها بسهولة. كان قصده من ذلك لفت انتباه العجوز وقتاً كافياً وإشغالها زمناً ينزع الغلاف بانتظار اللحظة الحاسمة. وقد عمد إلى قطعة الحديد ليزيد في وزن العلبة الموهومة حتى لا تدرك العجوز خدعته للوهلة الأولى... وهي خطة مدروسة بعناية ومعدة بحذق.

سمع فجأة صوتاً من ساحة الدار يهتف:

ـ لقد أعلنت الساعة السادسة منذ طويل... فكان لهذا القول رد فعل عنيف في نفسه: «السادسة منذ زمن طويل؟ رباه!».

اندفع نحو الباب وأصاخ السمع ثم أخذ قبعته ونزل الدرجات الثلاثين بحذر القط وحرصه وتوقف برهة: كان عليه تنفيذ الجزء الأهم من تلك الاستعدادات: سرقة الفأس من المطبخ.

أما لِمَ استعمال الفأس بالذات؟ فذلك ما لا يعرفه! لأن الفكرة واتته من قبل فتبناها وتقبلها دون نقاش...

يجدر إبراز نقطة هامة في قرار راسلو لينكوف: ذلك أنه كلما اتخذت خطته صبغة نهائية كلما ازدادت في عينه رهبة ووحشية لدرجة أن الصراع الأليم الذي كان ينشب في أعماقه كلما ناقش تلك الفكرة كان يجعله أبعد ما يكون عن تنفيذ عزمه. حتى إنه في تلك اللحظة، رغم جمعه كل ما يلزم لتلك «العملية» وتدقيقه في كل التفاصيل حتى التافه منها، كان لا يزال يعتقد أن ما سيقدم عليه ضرب من المستحيل... نوع من الإغراق في الوحشية. مع ذلك كان يشعر أن التراجع متعذر في تلك اللحظة!

لم يكن الحصول على الفأس يقلق باله من قبل نظراً لهولته: فناستاسيا غالباً ما تكون غائبة عن البيت مساء لأنها تزور الجيران حيناً أو تكون في السوق أحياناً تاركة باب المطبخ مفتوحاً... ذلك الباب الذي كان علة قلق راسكو لينكوف وخوفه كلما أراد التسلل من البيت. فلم يكن أسهل عليه من أن يتسلل إلى المطبخ بهدوء فيأخذ الفأس ليعيدها بعد ساعة على الأكثر عندما يكون كل شيء قد انتهى. بَيْدَ أنه كان يخشى بعض الثغرات في هذه الخطة كأن ترجع ناستاسيا قبل الوقت فيتعذر عليه إعادة الفأس ويضطر للانتظار حتى تسنح فرصة أخرى، يجوز أن تكتشف خلالها ضياع الفأس فتبحث عنها صارخة مزمجرة وبذلك يتولد الشك أو على الأقل يسبب نمو الشك. لكن الوقت ما كان يسمح له بالتريث أمام هذه العقبة التافهة، لأن تفكيره كان منصرفاً إلى الناحية الأهم من الموضوع تاركاً توافه التفصيل إلى ما بعد عندما يكون قد انتهى من عمله.

رغم هذا فإنه ظل يشعر باستحالة تنفيذ «العمل». تذكر على سبيل المثال حاله مساء البارحة ـ لما أن أقنع نفسه بوجوب إجراء تجربة تقتصر على زيارة المكان دون أن يرافقها أي عمل ـ وكيف ثارت خواطره واضطربت أفكاره وتخاذلت ساقاه رغم ما كان يقنع به نفسه من أقوال ومن أن لا

ضير من إجراء التجربة طالما أنها تتعلق بحلم وليس بحقيقة. بَيْدَ أنه حلل النتيجة الأدبية لتلك المسألة تحليلاً دقيقاً فكان تفسيره وإفناؤه من الدقة وحسن السبك لدرجة لم يشعر معها في وجدانه بأي اعتراض. لم يكن يريد التساهل مع نفسه في هذا الموضوع بل كان يبحث بعناد عن اعتراضات وانتقادات تسفه قراره. لكن نهار أمس الغني بحوادثه المفاجئة الحاسمة أثر فيه تأثيراً آلياً فكان كمن يقسر على اتباع الطريق ترغمه قوة قاهرة لا قبل له بمقاومتها... كمن أطبقت على ثوبه عجلة جبارة وراحت تدور وتجذبه إليها بشدة وتصميم.

فكر من قبل ـ قبل أن يضع خطته ـ في الأسباب التي تجعل كل جريمة سريعة الاكتشاف، وفي الدوافع التي تتيح للمحققين العثور بسهولة على آثار تدين القتلة وخرج بنتائج مثيرة: كان السبب الرئيسي ـ على رأيه ـ هو الاستحالة الطبيعية لإخفاء الجريمة في صدر المجرم نفسه. لأن المجرمين من أي نوع كانوا يشعرون عند تنفيذ جريمتهم وبعدها بقليل، بضعف في إرادتهم وفي أحكامهم؛ وكان راسكو لنيكوف مؤمناً بأن ذلك الخور يستحوذ على الإنسان كما يتسلط عليه المرض وينمو فيه باطراد حتى أنه يبلغ الذروة قبل الإقدام على تنفيذ الجريمة بقليل، ويظل على هذه الحال أثناء ارتكابها ويبقى أثره زمناً ما بعد ذلك بحسب الأشخاص ودرجة مقاومتهم ثم لا يلبث أن يزول شأن كل الأمراض. بقي أن يعلم هل المرض يرافق الجريمة أبداً أم أن الجريمة ذاتها هي بحسب طبيعتها ممتزجة بنوع من المرض... ذلك ما لم يتوصل إلى حله حتى تلك اللحظة!

ظن راسكو لنيكوف ـ حينما بلغ من تحليله هذا الحد ـ أن أمره سيختلف بعض الشيء عما استنتج وأن مثل ذلك الانقلاب الروحي لن يحدث في نفسه. وظن أن قواه الفكرية وإرادته لن تتخليا عنه خلال

مراحل «مشروعه» لسبب بسيط: هو أن ما هو بسبيله (ليس جريمة). وليس لنا أن نفسر الأسباب التي أوصلته إلى هذه النظرية الأخلاقية، لكننا نكتفي بالقول أن الصعوبات العملية ذات الصبغة المادية البحتة ما كانت تلعب في ذهنه إلا دوراً ثانوياً. كان يقنع نفسه بقوله: «ـ يكفي أن أراقب إرادتي ووجداني وأسيطر عليهما حتى أتغلب في اللحظة الحاسمة على كل الصعوبات التي قد تعترض مشروعي».

لكن اللحظة الحاسمة كانت تتأخر باستمرار حتى بات يشك في المبادئ التي أوجدها والاستنتاجات التي استخلصها من مناقشاته. والآن بعد أن حان الوقت فإن الحوادث اتخذت صبغة جديدة غير منتظرة، وأول عقبة صادفته كانت عندما بلغ نهاية السلم قرب ذلك الباب الذي كان أبداً مفتوحاً إذ إنه بينما كان يلقي عليه نظرة جانبية ليتأكد من غياب ناستاسيا وصاحبة الدار أو على الأقل غياب الأولى ووجود الثانية في غرفة مغلقة داخل الشقة، ليتسنى له أخذ الفأس دون أن يراه أحد، رأى لدهشته البالغة، أن ناستاسيا كانت هناك مشغولة بنشر بياضات على الحبال فاستمر في سيره وكأنه لم يرها. لكنها أبصرت به بل إنها راحت تتابعه بنظرها حتى تجاوز نطاق الرؤية المتاح لها في مكانها وهكذا أخفق في أهم جزء من خطته. وراح يعتب على نفسه وقد عصفت بين جوانحه غضبة حيوانية ويقول:

ـ «من أين جئت بتلك الفكرة السخيفة، فكرة غياب ناستاسيا عن المطبخ في اللحظة الحاسمة ولمَ، لمَ اعتبرتها أمراً واقعاً رغم ما يعتورها من أخطا سخيفة؟»

وقف أمام الباب الخارجي للبناء تتنازعه عوامل شتى: فهو لا يستطيع الخروج إلى الشارع هكذا دون هدف لأن في ذلك إيلاماً له،

ولا يريد العودة إلى غرفته فالإيلام أشد! راح يدمدم حانقاً: «لقد أضعت فرصة جوهرية وأضعتها إلى الأبد!» وفجأة التمعت عيناه ببريق خاطف وارتعش كيانه فرحاً: شاهد في غرفة حارس البناء شيئاً يلتمع، شيئاً عرف فيه ضالته التي أخفق في الحصول عليها من المطبخ: فأساً كامنة بين قطعتين من الخشب، تحت مقعد الحارس! ولما كان الباب مفتوحاً فقد حدس أن يكون الحارس خارج الغرفة غير بعيد عنها... لم ينتظر أكثر من ذلك واقترب من الكوخ وهو ينادي بصوت مختنق حتى إذا تأكد من غيابه دخل الكوخ وانتزع الفأس فأودعها المكان الذي أعده لها تحت معطفه وخرج دون أن يراه أحد.

قال يحدث نفسه: ـ الحقيقة أن الشيطان يتدخل عندما يخفق الذكاء... وارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة: لقد خدمه الحظ وشجعته تلك الخدمة أيما تشجيع.

سار في الشارع ببطء خشية إيقاظ الشكوك وجهد في أن يتحاشى النظر إلى الوجوه زيادة في الحيطة والحذر. تذكر فجأة قبعته الشاذة فهتف غاضباً: «رباه! كيف فاتني استبدالها بما كنت أملكه من نقود البارحة؟» وأفلتت شفتاه سبة بذيئة. وبينما هو في طريقه لمح ساعة جدار في دكان مر بالقرب منها فإذا بها تشير إلى السابعة وعشر دقائق فكان ينبغي إذاً أن يحث الخطى خصوصاً وأنه معتزم بلوغ المكان من الطريق الجانبية. والغريب أنه في المرات السابقة، مرات التجربة، كان يشعر برعب واضطراب. أما الآن فلم يكن يحس بشيء من ذلك بل ويمكن القول أن شعوراً بالارتياح كان يغمره. كانت أفكاره متجهة وجهات لا علاقة لها بما هو بصدده. كان يقول وهو يسير بالقرب من حديقة «يوسُوبوف»: إنه من المستحسن لو عُمد إلى إقامة نوافير كثيرة

كبيرة لتلطف الجو في مثل هذه الأمكنة العامة، ثم لاحظ أنه لو عُمد إلى توسيع «البستان الصيفي» حتى «ساحة مارس» ودمج في حديقة «پاليه ميشيل» فإن ذلك سيكون تجديداً جميلاً نافعاً «لسان بطرسبورغ» وهنا أثار انتباهه سؤال عرض له فجأة: لمَ يفضل الناس في المدن الكبيرة ـ سواء بدافع الحاجة أو بدافع الذوق ـ السكنى في الأحياء التي لا تتخللها نوافير ولا حدائق والتي ليس فيها إلا الوحل والعفن والروائح القذرة؟ وتذكر نزهته في «شارع العلف» والأسباب التي دفعته إليها فلم يتمالك أن تمتم: «يا لي من أحمق! يجدر بي أن لا أفكر في هذا.. أعتقد أن أولئك الذين يساقون إلى ساحة النطع يستمتعون لآخر مرة بالمناظر التي تحيط بهم وهم في طريقهم إلى الموت».

ومضت هذه الفكرة في رأسه برهة لكنه سرعان ما أطفأها إذ كان قد بلغ الدار التي يقصدها وأصبح الباب قبالته. تناهى إلى سمعه صوت ساعة بعيدة تدق دقة واحدة فهمهم: «هل يمكن أن تكون النصف بعد السابعة! مستحيل أن هذه الساعة مغلوطة».

خدمه الحظ مرة أخرى عندما همّ باجتياز عتبة المكان حتى ليظن أن القضية جاءت عمداً. فقد مرت في تلك اللحظة عربة كبيرة محملة بالقش راحت تجتاز المدخل الرئيسي للدار وبذلك حجبت دخوله فلم يشعر به أحد حتى أن العربة لم تكد تبلغ الباحة إلا وكان قد بلغ السلم الأيمن وارتقاه. وتناهت إلى سمعه أصوات مزمجرة آتية من جانب العربة. وفتحت نوافذ كثيرة مطلة على الباحة غير أن الأبواب المطلة على السلالم لبثت مغلقة.

راح يصعد قاصداً الطبقة الرابعة حيث تقيم العجوز وقد وضع يده على قلبه ليمنعه من الوثوب. وتجسس الفأس التي إلى جانبه واطمأن إلى

وجودها للمرة الأخيرة... سره خلو المكان في تلك اللحظة... صحيح أن في الطبقة الثانية مسكناً غير مأهول وأن بعض العمال يقومون بإصلاحات فيه، غير أن ذلك لم يثبط من عزيمته. تجاوزهم دون أن ينظر إليه أحد وراح يحدث نفسه قائلاً: «لا شك أنه كان من الأصلح عدم وجودهم ولكن لا بأس على كل حال فهناك طبقتان أخريان».

بلغ الطبقة الرابعة ووقف أمام الباب ونظر إلى المسكن الخالي المقابل لمسكن العجوز. تذكر أن في الطابق الثالث مسكناً يقوم ولا شك تحت مسكنها مباشرة وهو خال بالمثل وراودته فكرة عابرة لحظة واحدة: «أوليس من الخير أن أعود!» غير أنه لم ينتظر الجواب بل راح يسترق السمع وأذنه لصق باب العجوز فلم يسمع حركة. كان السكون يخيم على السلالم بالمثل فألقى نظرة أخيرة حوله وتأهب مستعداً وهو يرفع من جديد مقبض الفأس تحت معطفه ويتساءل: «أولست شاحباً بعض الشيء؟ إن العجوز حذرة جداً فهلا يجدر بي أن أتريث برهة ريثما أسترد روعي؟».

لكن ضربات قلبه لم تخف، بل على العكس كانت تزداد باطراد فلم يأبه لها وأمسك بحبل الجرس فجذبه ثم عاد يقرعه بعد نصف دقيقة بأشد من المرة السابقة دون أن يتلقى جواباً! شعر أن لا فائدة من القرع بإلحاح لأنها ستثير ريبة العجوز بدلاً من أن توحي إليها بالاطمئنان... ولا شك أنها في الداخل وحيدة كما يعرف سلفاً وهذا هو سبب التلكؤ الذي يبدو عليها... نعم... لقد كان يعرف بعضاً من عادات آليونا إيفانوفنا..

أصغى من جديد إلى الباب فسمع فجأة احتكاك يد على مزلاج الباب من الداخل وحفيفاً خافتاً كالذي يتخلف عن مرور شخص قرب الجدار.. وسواءٌ اكتسبت حواسه إرهافاً خاصاً أم أن الحركة كانت واضحة مسموعة، فإنه لم يتمالك أن ارتعد وهو يفكر أن وراء هذا الباب يقف

شخص ينصت مثله إلى ما قد يدور في الممشى... ولعله مثله، قد ألصق أذنه على الباب... فراح يتحرك في مكانه مثيراً ضجة معقولة ليجنِّب الشخص المترقب وراء الباب كل خوف وحذر، ثم عاد يقع للمرة الثالثة بهدوء دون أن تظهر عليه بوادر نفاد الصبر... وظلت هذه اللحظة ماثلة في خاطره، حتى أنه لبث يذكرها أمداً طويلاً.. أدهشه الاستعداد الذي أبداه والحيل التي تذرع بها على الرغم من أنه ـ خلال فترات متقطعة ـ كان يشعر بانعدام الإحساس وكأنه بارح جسده.

وفجأة، سمع صوت المزلاج وهو يرفع...

سوبا

الفَصلُ السَّابعُ

راسكولينكوف على السلم، بعد الجريمة

وورب الباب بهدوء كالمرات السابقة وبدت العينان الحادتان الحذرتان تلتمعان وسط الظلام. وفي تلك اللحظة فقد راسكو لنيكوف هدوءه وكاد أن يفسد خطته كلها بالخطيئة التي ارتكبها: ذلك أنه خشي أن يدفع الحذر بالعجوز إلى إغلاق الباب في وجهه، ولم يلاحظ أن وجهها كان

يعكس إحساسها بالاطمئنان، فأمسك الباب وجذبه نحوه بشدة حتى أن العجوز التي كانت تمسك به بحذر وعنف معاً اندفعت معه إلى الممشى. ولما رأى أنها تتصدى له لتمنعه من الدخول تقدم نحوها وفي عينيه نظرة وحشية أخافت العجوز، فتراجعت خطوة إلى الوراء وأرادت أن تقول شيئاً غير أن لسانها لم يسعفها بالنطق.

ابتدرها بلهجة سعى أن يجعلها طبيعية:

ـ مساء الخير يا أليونا إيفانوفنا... لقد جئتك بالرهينة التي وعدتك بها... ولكن لنمض إلى هناك حيث النور... وراح يدفعها أمامه بعنف وهو يدخل الغرفة دون أن تدعوه إلى الدخول. وعادت العجوز تقف في سبيله وقد استعادت القدرة على النطق وصاحت:

ـ يا إلهي؟ ماذا تريد؟ من أنت؟ ماذا تبغي؟

فمد لها راسكو لنيكوف يده بالعلبة الوهمية وقال:

ـ هيا يا أليونا إيفانوفنا. أنا من معارفك القدماء أنا راسكو لنيكوف وهذه هي الرهينة التي حدثتك عنها مؤخراً.

تناولت العجوز العلبة ومضت تتفحصها ثم لم تلبث أن عادت تنتصب أمامه وتنظر في عينيه محدقة... كانت تتأمله بانتباه وريبة وقد مضت دقيقة خيل لراسكو لنيكوف خلالها أن عيني العجوز تلتمع بسخرية مرة كما لو أنها خمنت كل شيء، فشعر بضعف شامل وبنوع من الخوف حتى أن تحديق العجوز لو استمر نصف دقيقة أخرى للاذ بأذيال الفرار.

بذل مجهوداً جباراً للتغلب على ضعفه وقال بلهجة خبيثة:

ـ ماذا دهاك حتى تنظري إلي بهذا الشكل؟ ألا تعرفينني؟ هذه العلبة التي حدثتك عنها فإما أن تأخذيها وإما أن تعيديها إلي لأتصل بأناس آخرين.

فاه بتلك العبارات عفوياً حتى أن العجوز اطمأنت للهجته بعض الشيء ووجدت في قوله ما يشجعها فقالت وهي تنظر إلى الرهينة:

ـ لكن يا صديقي لِمَ تصرفت هكذا منذ قليل؟ ثم أشارت إلى العلبة وأضافت: ما هذا؟

ـ علبة سجائر فضية. ماذا دهاكِ؟ لقد حدثتك عنها من قبل.

فمدت يدها وهي تقول:

ـ كم أنت شاحب! ويداك ترتجفان! هل أنت مريض؟

فأجابها بصوت مرتجف:

ـ كيف لا يشحب من لا يجد ما يأكل؟ إنني مصاب بالحمى...

وخذلته قواه من جديد، غير أن العجوز اقتنعت بالجواب وتناولت الرهينة وعادت تسأل وهي تزن البضاعة في يدها وتنظر بحدة إلى راسكو لنيكوف:

ـ ما هذا؟

ـ إنه الشيء... علبة السجاير... علبة فضية، عاينيها.

ـ هم!... لا تبدو أنها من الفضة ثم إنها ملفوفة بعناية.

وراحت تسعى لإزالة الغلاف فاقتربت من النافذة حيث النور أقوى بعض الشيء لأنها تحتفظ بنوافذها مغلقة دائماً رغم الحرارة الخانقة، وتركته لحظات وقد أدارت له ظهرها... ففك أزرار معطفه وخلص الفأس من العقدة السيالة «الأنشوطة» دون أن يخرجها من تحت إبطه وأسندها بيده اليمنى تحت معطفه. شعر بضعف هائل يكتسح ذراعيه وبحركاته تتثاقل وكأن أطرافه قدت من رصاص وخاف أن تسقط الفأس من يده! وفجأة أحس بدوار. تناهى إلى سمعه صوت العجوز وهي تقول:

ـ يا لها من فكرة سقيمة تلك التي قضت بحزم هذه العلبة في مثل هذا الغلاف... فكان لهذه الجملة وقع السحر في نفسه. كان الوقت يدركه وعما قليل ستكتشف المرأة الخدعة وعندئذٍ يضيع كل شيء.

أخرج الفأس من مكانها ورفعها بكلتا ذراعيه دون أن ينتبه إلى حركته وتركها تسقط آلياً ودون عنف على رأس العجوز؛ فقد كانت قواه خائرة. لكنه سرعان ما استرد قواه بعد الضربة الأولى. وكانت العجوز كعادتها عارية الرأس وشعراتها البيضاء القليلة مضمخة بالأدهان كالعادة مجدولة على شكل ذنب فأر وملفوفة على مشط صغير في مؤخرة رأسها.

أصابتها الضربة الأولى في قمة رأسها وساعده في ذلك قصر قامتها. وكانت الرهينة لا تزال في إحدى يديها. ثم انهال عليها بكل قواه بضربة ثانية وثالثة مستهدفاً الرأس فتفجر الدم وكأنه سُفح من إناء، وتهاوى جسمها على الأرض فتراجع إلى الوراء ليتفادى الاصطدام بها... كانت قد فارقت الحياة وقد اتسعت حدقتاها وكأنهما على وشك الخروج من محجريهما بينما راح وجهها وجبينها يختلجان ويتقلصان من تشنجات النزع الأخير.

وضع الفأس على الأرض قرب القتيل وراح يبحث في جيوبها محاذراً تلويث يديه بالدماء التي كانت تتدفق من رأسها. بدأ بالجيب اليمنى حيث رآها تضع المفاتيح في المرة الأخيرة. كان محتفظاً بصفاء ذهنه لا يشعر بأي خدر أو دوار باستثناء رعدة خفيفة في يديه وكان يقظاً حذراً فلم يتسخ ثوبه. عثر بالمفاتيح التي كانت تجمعها رزمة واحدة وتربطها حلقة من الفولاذ وهرع إلى الغرفة الداخلية التي كان يحجب الستار بابها.

كانت غرفة صغيرة جداً يقوم في صدرها دولاب من الزجاج يغص «بالأيقونات» وإلى الجدار المقابل سرير نظيف جداً وعليه غطاء من الحرير

المبطن بالقطن مصنوع بعناية ودقة. وبالقرب من الحاجز الخشبي الذي يفصل بين الغرفتين قامت الخزانة. والغريب أنه لم يكد يدخل المفتاح في القفل ويسمع الصرير حتى اعترته رعدة اكتسحت كيانه وأحس برغبة ملحة بالفرار لكن تلك الرغبة لم تدم أكثر من لحظة واحدة إذ لم يكن من السهل التراجع بعد أن وصل إلى تلك المرحلة. تملكته فكرة جديدة مقلقة: «ألا يمكن أن تكون العجوز لا زالت على قيد الحياة أو أن تكون الحياة قد عادت إليها؟ فترك المفاتيح والخزانة وعاد قرب الجثة وأمسك بالفأس مرة أخرى ورفعها بين يديه لكنه لم يضرب. ذلك لأن وفاة العجوز كانت أمراً محققاً. انحنى فوقها يتفحصها عن قرب فرأى أن جمجمتها محطمة وأن الجزء الأعلى منها قد انتزع من مكانه وود لو لمسه بيده ولكنه تماسك. شاهد بركة من الدم تجمعت على الأرض ووقع بصره فجأة على شريط من الحرير يطوق عنق القتيل فجذبه ولكنه امتنع عليه. كان الشريط غارقاً بالدم فحاول رفعه ولكن عائقاً كان يحول دونه. تملكه نفاد صبر غريب وود لو استعمل الفأس مجدداً ليقطع الشريط بضربة واحدة ولكنه لم يجرؤ على ذلك. وبعد عناء وجهد دقيقين لوث خلاهما أصابعه والفأس بالدم توصل إلى استخلاص الشريط من الجثة. كان يتدلى منه كيس نقود وصليبان أحدهما من خشب السرو والآخر من النحاس وبينهما صورة من «الصيني» أما في الكيس فكانت حافظة نقود منتفخة من جلد الوعل ذات قفل صغير من الفولاذ. وضع راسكو لنيكوف الحافظة في جيبه دون أن يعاين ما فيها وألقى الصليبين فوق المرأة وحمل معه الفأس وعاد إلى غرفة النوم من جديد.

راح يعمل بعجلة محمومة: ويجرب المفاتيح عبثاً ولم يكن سبب ذلك ارتعاد يديه، لأنه كان يميز أشكال المفاتيح وأحجامها ويدرك تماماً أن

هذا مثلاً لا ينطبق على فتحة القفل وفجأة تذكر ذلك المفتاح الطويل ذي الأسنان المشرشرة وقدّر أنه لا يمكن أن يكون لهذه الخزانة (وهو تقدير سبق له أن توصل إليه من قبل) بل إنه مفتاح صندوق حديدي ما حيث يمكن أن تكون فيه كل ثروة العجوز. وعلى هذا فقد ترك الخزانة وراح يبحث تحت السرير معتمداً على أن العجائز اعتدن دائماً إخفاء صناديقهن في مثل ذلك المكان.

لم يخطئ الظن فقد شاهد صندوقاً كبيراً ذا غطاء محدودب مكسو بقماش «الماروكان» الأحمر ومزين بالمسامير الحديدية، ولما أدخل المفتاح في القفل فتحه بسهولة. وقع بصره بادئ ذي بدء على غطاء أبيض يخفي فراء أرنب تزينه أشرطة وبطانة حمراء وثوب من الحرير ثم حرملة «شال». أما ما تبقى فلم يكن أكثر من خرق لا قيمة لها ولا شكل؛ فراح يزيل الدم العالق بيديه مستعملاً بطانة الفراء الحمراء وهو يحدث نفسه قائلاً:

ـ إنها حمراء والدم أحمر ولا شك أنه لن يظهر عليها...

وبينما هو يفتش بين الخرق، إذ عثر على شاشة ذهبية تنزلق بينها. فحفزه ذلك على متابعة البحث متأكداً أن أليونا إيفانوفنا تحتفظ بين هذه الخرق «بالرهائن» التي تحصل عليها لقاء ما تسلفه من مال. بل لعلّ ما يراه الآن لا يعدو الرهائن التي عجز أصحابها عن دفع ما استلفوا عليها من نقود فأصبحت ملكاً للعجوز. رأى مجموعة غريبة من أقراط وأساور ودبابيس ثمينة بعضها لا زال في علبه المخملية والبعض الآخر ملفوفاً بعناية بأوراق الصحف؛ فأودع تلك الأشياء جيبه دون تردد... ولم يستحسن فتح العلب كلها وفض اللفافات خشية أن يستغرق ذلك من الوقت ما هو في مسيس الحاجة إليه.

وفجأة سمع صوت خطوات في الغرفة التي سجيت فيها جثة القتيل؛ فتوقف وقد عقل الرعب القاتل حركاته فشلها... وانقطع الصوت حتى أنه عزا ما سمعه إلى اضطراب أعصابه وتخيلاته السقيمة المريضة. غير أنه سرعان ما سمع صرخة خافتة أشبه بزمجرة مكتومة... وران سكون مريع دام دقيقة أو دقيقتين... كان خلالها مقعياً بالقرب من الصندوق يحاول عبثاً استعادة هدوئه وتنفسه الرتيب.. وفجأة انتفض بعنف وأخذ الفأس بيده ثم هرع إلى الغرفة التي ترك فيها القتيل!

كانت «إليزابيت» واقفة في وسط الغرفة وهي تحمل حزمة كبيرة، وكانت تنظر بذهول وتبلد إلى أختها الميتة وقد شحب وجهها حتى غدا كقطعة من القماش القذر... بدا عليها أنها عاجزة عن الصراخ فلما رأته مندفعاً نحوها ارتعدت كالورقة التي تتقاذفها الرياح، وقد اعترتها قشعريرة متقطعة وعلا وجهها تشنج دوري رتيب! رفعت ذراعيها وراحت تتراجع ببطء أمامه باحثة عن زاوية تلتصق فيها وهي تحدق في وجهه خرساء مكتومة الأنفاس. اندفع نحوها رافعاً فأسه فتقلصت شفتا المرأة المسكينة تقلصاً أليماً شأن بعض الأطفال عندما يفاجأون بشيء يخيفهم ويحاولون الصراخ مستنجدين. كانت تلك التعسة من السذاجة بحيث إنها لم ترفع ذراعها لتحمي وجهها كما ينتظر غريزياً في موقف كالذي وجدت فيه. بل إن حركتها كانت من الضعف والحيرة حتى أن يدها لم ترتفع إلى مستوى الكتف وهكذا أصابتها ضربة الفأس ملء رأسها، وكان يستعملها هذه المرة من جزئها الحاد المدبب، فشطرت رأسها شطراً وتهاوت البائسة في مكانها بينما تناول راسكو لنيكوف الجزمة التي كانت بين يديها وألقى بها جانباً وعاد إلى غرفة النوم من جديد.

بدأ الرعب يستحوذ على نفسه أكثر فأكثر وخصوصاً بعد جريمته

الثانية التي لم يكن قد مهد لها أو أدخلها في حسابه وشعر برغبة ملحة في مغادرة المكان وكأنه أدرك في تلك اللحظة دقة موقفه وحرجه وأنه على الرغم من توقعه مثل تلك المصاعب والعقبات فإنه لم يكن حتى ذلك الحين إلا في المرحلة الأولى وليس يدري كم من موانع جديدة ستنتصب في طريقه قبل أن يعود سالماً إلى غرفته، بل كم جريمة أخرى سوف يضطر إلى ارتكابها واقتراف وحشيات أبشع فأبشع صيانة لسلامته؟... لو أنه توقع كل ذلك لكان حرياً به أن يتراجع. ودّ الآن لو يوقع بنفسه ليس من الخوف بل من الاشمئزاز وبشاعة ما أقدم عليه.

راح ذلك الاشمئزاز يتزايد في نفسه دقيقة فدقيقة حتى همَّ بالابتعاد عن غرفة النوم والصندوق وسيطر على عقله شرود جديد أشبه بالتخيل. بلغ به الأمر أن نسي نفسه أو على الأصح نسي الفكرة الرئيسية التي جاء من أجلها ليهتم بتفاصيل ثانوية تافهة. من ذلك أنه لاحظ في المطبخ دلواً مملوءاً بالماء مثبتاً فوق مقعد خاص فقرر أن يغسل يديه والفأس لأنها كانت مغطاة بالدم. واندفع إلى حيث كان الدلو فغمر فيه حديد الفأس وانتزع قطعة من الصابون كانت في علبة على حافة النافذة وراح يغسل يديه داخل الدلو بالذات ولما انتهى أخرج الفأس وأمضى ثلاث دقائق وهو يزيل ما علق بمقبضها من نقاط الدم حتى أنه استعمل الصابون لهذه الغاية ثم جفف يديه والفأس بقطعة من الثياب كانت منشورة على حبل في المطبخ، اقترب بعد ذلك من النافذة ليتسنى له معاينة مقبض الفأس بوضوح ولما تأكد من خلوها من الآثار أقلقه أن يكون المقبض رطباً وأخيراً أعادها إلى مكانها من «الأنشوطة» وألقى نظرة أخيرة على معطفه وسرواله وحذائه فرأى للوهلة الأولى نقاطاً صغيرة على حذاءيه فبلل خرقة ومسحهما. وخيل إليه أنه لم يعاين كل شيء وأن هناك بعض التفاصيل

غابت عن عينيه المدققتين فوقف برهة في وسط الغرفة يتأمل موقفه وظن لحظة أنه بات أقرب إلى الجنون لأنه يفتقر في تلك اللحظة إلى الوعي الكافي للتحليل والتفكير والاستنتاج وزمجر يقول: «رباه! ينبغي أن أفر، أفر»! غادر غرفة النوم محاولاً الخروج وهناك لقي ما صعقه صعقاً ـ وهو أدق تعبير يطلق على ما شعر به في تلك اللحظة ـ فوقف متسمراً في مكانه لا يصدق عينيه: رأى الباب، الباب الخارجي الذي يؤدي إلى حيث الجثتين ويطل على الممشى الخارجي، ذلك الباب الذي قرعه منذ قليل، الذي نفذ منه إلى هذا المسكن، رآه مواربأ!.. ومعنى ذلك أنه كان خلال كل هذا الوقت غير مغلق بالمفتاح ولا بالمزلاج وإذاً فإن العجوز كانت قد تركته مفتوحاً من باب الحذر، التعقل وبذلك أتيح لإليزابيت أن تدخل إذ لا شك أنها لم تنفذ خلال الجدران.

بادر إلى الباب فأغلقه ودفع المزلاج وراءه ووقف لحظة يفكر: وليس الأمر مجرد إغلاق الباب، إنما المهم هو الخروج». فعاد يفتح الباب ويصيخ السمع. تناهى إلى أذنيه صوتان صاخبان يعربدان بسباب وشتائم فتساءل عمن يكون صاحباهما وانتظر بفارغ الصبر أن تخفت أصواتهما ويرتحلا، وأخيراً وبعد لأي هدأت الأصوات. وبينما كان يستعد للخروج سمع في الطابق الأسفل صوت باب يفتح وزمجرة على السلم فخمن أن شخصاً ما يهبط إلى الأسفل وهو يدمدم لحناً وتساءل مرة أخرى قائلاً:

ـ ما بالهم يحدثون مثل هذا الصخب؟

أغلق الباب من جديد وعاد ينتظر حتى خيم السكون وهدأت الأصوات. وما كاد يضع قدمه على الدرجة الأولى حتى تناهى إلى سمعه صوت خطى بعيدة آتية من أسفل السلم وشعر أن تلك الخطوات تتجه إلى حيث هو بالذات أو بالأحرى إلى حيث كان. أما كيف خمن ذلك؟ وما هي

الميزات التي تفردت بها تلك الخطى حتى توصل إلى ذلك الاستنتاج؟ ليس يدري! كانت خطوات ثقيلة متزنة بطيئة وكانت في تلك اللحظة قد بلغت الطبقة الأولى من البيت وبدأ وقعها يتجاوب مرتفعاً باطراد. أحس كأن صاحب الخطى يلتقط أنفاسه المبهورة بصعوبة، فلبث يتابع تلك الخطوات بسمعه حتى بلغت الطابق الثالث ولم يبق لوصولها إليه إلا زمن يسير بينما لبث هو جامداً في مكانه عاجزاً عن تحريك أطرافه.

بدأ القادم يرقى إلى الطبقة الرابعة عندما استرد راسكو لنيكوف حواسه ونجح أخيراً في العودة إلى المسكن الذي غادره فأغلق الباب وراءه ثم دفع المزلاج ببطء وهدوء محاذراً إحداث أي صوت. كانت حركته غريزية فحسب فلما فرغ منها قبع وراء الباب كاتماً أنفاسه وجعل يصغي بكل حواسه.

بلغ القادم الباب ولم يعد يفصله عنه إلا ذلك الحاجز الخشبي وشعر بأنه يصيخ السمع بدوره وأنه يتنفس بصعوبة وتصوره راسكو لنيكوف ضخم الجثة طويل القامة! قرع الزائر الجرس وانتظر برهة ثم عاود الكرَّة ولم يلبث أن استولت عليه غضبة مفاجئة فراح يهز الباب نافد الصبر. وكان راسكو لنيكوف يراقب المزلاج وهو يهتز في مكانه وخيل إليه أنه سيتداعى آخر الأمر تحت وطأة الهزات العتيقة وخطر له أن يمسك المزلاج بيده ويدعمه ولكنه خشي أن يفطن «الآخر» إلى ذلك فطاش صوابه وبدأ الدوار يغزو رأسه وظن أنه ضائع لا محالة. وفجأة سمع القادم يزمجر.

ـ ماذا جرى؟ هل استغرقتا في النوم أم أن أحداً قتلهما؟ يا للجيفتين: هيه: أليونا إيفانوفنا أيتها الساحرة العجوز! إليزابيت إيفانوفنا يا ذات الجمال الرائع! افتحا... آه يا ملعونتان! هل يعقل أن تكونا نائمتين؟

ومن جديد عاد يقرع الجرس بإلحاح في ثورة غضبه حتى كاد أن

يقطع الحبل وبدا كأنه ليس غريباً عن المرأتين وأنه يشغل مركزاً هاماً عندهما. وفي تلك اللحظة ارتفعت أصوات خطوات أخرى سريعة خفيفة... كان قادم آخر يقترب من المكان، قادم لم يسمع راسكو لنيكوف صوت خطاه أول الأمر وسمع الحديث التالي يدور بين المجهولين: سمع القادم الجديد يقول:

ـ لا يعقل أن لا يكون أحد في البيت. مرحباً يا «كوخ».

كان الصوت رناناً مرحاً حتى أن راسكو لنيكوف قدر أن صاحبه لا يعدو أن يكون شاباً في مطلع العمر. وأجاب الصوت الآخر:

ـ الشيطان وحده يعرف! لولا قليل لاقتلعت القفل منذ لحظات، ولكن كيف عرفتني أنت؟

ـ كيف هذا؟ ألم أهزمك أمس الأول في «كامبرينوس» ثلاثة أشواط متعاقبة بالـ «بليارد»؟

ـ آه.. آه...

ـ غريب أن لا يكون في المنزل أحد، بل أستطيع القول أنه غاية في الغرابة أين يمكن أن تكون العجوز في هذه اللحظة؟ عندي ما أقوله لها؟

ـ وأنا كذلك يا صديقي عندي ما أقوله لها..

ـ إذاً ما العمل؟ لم يبق إلا أن ننسحب. ولكنني لا أفهم مع ذلك لمَ تحدد تلك الساحرة موعداً في هذه الساعة ثم تتخلف عنه، والأدهى من ذلك أنني جئت من بعيد، يا للشيطان! لست أفهم أين مضت. فهي لا تتحرك كل العام من بينها! تلك الساحرة. إنها مريضة تشكو ألماً في ساقيها مع ذلك فهي ليست في مسكنها.

ـ ماذا لو سألنا حارس البناء؟

ـ ماذا نسأله؟

ـ أين ذهبت ومتى تعود!

ـ هم!... يا للشيطان! نسأل... نسأل... ولكن بما أنها لم تعتد الذهاب إلى أي مكان فكيف نسأل؟..

وجذب مقبض الباب من جديد وتابع:

ـ إلى الشيطان لا بدّ وأن نذهب خائبين.

ـ انتظر... انظر... ألا ترى كيف أن الباب قد تحرك لما جذبته؟

ـ حسناً.. وماذا بعد؟

ـ هذا يعني أنه غير مغلق بالمفتاح، بل بالمزلاج... ألا تسمع «صلصلة» المزلاج؟

ـ حسناً.. وماذا بعد؟

ـ أولا تفهم؟ معنى ذلك أن واحدة منهما في البيت، فلو أن كلتيهما خارجتان لأغلقتا الباب بالمفتاح من الخارج وليس بالمزلاج من الداخل. انتبه... هل سمعت الصوت الذي يحدثه المزلاج؟ إذاً.. لكي يستطيع المرء أن يدفع المزلاج ينبغي أن يكون في الداخل هل أدركت؟ هما هنا غير أنهما لا تفتحان.

فصاح كوخ مأخوذاً:

ـ به!.. لا شك أنهما هنا...

وعاد يهز الباب بعنف بينما هتف الشاب يقول:

ـ انتظر. لا تجذب الباب هكذا... إن في الأمر ما يريب... فلقد قرعت الجرس وهززت الباب بعنف وهما لا تفتحان وإذاً فهما مغمى عليهما أو...

ـ ماذا؟

ـ هيا لنأتِ بالحارس وليوقظهما بنفسه.

ـ حسناً...

وراح الاثنان يهبطان السلم وفجأة هتف الشاب:

ـ انتظر... قف أنت هنا قليلاً وأنا سآتي بالحارس!

ـ ولمَ أبقى؟

ـ من يدري؟

ـ ليكن!

وهتف الشاب متحمساً قبل أن يهبط السلم:

ـ أرأيت؟.. إنني أستعد لأكون قاضي تحقيق! مما لا شك فيه نعم لا شك أن في الأمر سراً مريباً.

بقي كوخ في مكانه وحيداً وجذب مرة أخرى حبل الجرس فارتفع صوته مجلجلاً ثم أخذ يهز الباب ولكن بهدوء وكأنه مستغرق في خواطره. كان يدير المقبض يميناً ويساراً ليتأكد تماماً من أن الباب غير مغلق بالمفتاح ثم نفخ كالثور الهائج وانحنى على ثقب الباب ينظر خلاله. لكن المفتاح كان فيه من الداخل وهذا ما حال دونه وما اعتزم.

أما راسكو لنيكوف فكان واقفاً دون حراك يضغط على فأسه ذاهلاً. كان مستعداً لمقاومتهما والقضاء عليهما عندما يعودان وقد واتته فكرة مناداتهما للقضاء عليهما بل لشتمهما والسخرية منهما.

ومر الوقت دقيقة دقيقة ولم يعد الشاب مما جعل «كوخ» يتململ قلقاً وأخيراً هتف يقول:

ـ يا للشيطان! ماذا بعد؟ لمَ أنتظر؟

وترك مكانه ومضى يهبط السلم مسرعاً حتى اختفى وقع قدميه الثقيلتين. وبحركة غريزية، فتح راسكو لنيكوف الباب ثم أغلقه على أحسن ما استطاع وهبط السلم بدوره مندفعاً فبلغ الطبقة الثانية حينما تناهى إلى سمعه صخب وضجيج ينبعثان من الأسفل، وحار في إيجاد مخبأ يلوذ به وكاد أن يعود أدراجه لولا أن سمع فجأة صوتاً يصيح:

ـ آه.. أيها الوحش القذر! أوقفوه!

وأعقب ذلك هبوط سريع على السلم في الطبقة السفلى وصوت يصيح بجنون:

ـ ميتكا.. ميتكا.. ميتكا.. ميتكا.. ليأخذك الشيطان.

وأعقبت الصرخات زمجرة مريعة استمرت حتى بلغت الساحة الخارجية ثم عاد السكون وفي الوقت نفسه انبعث عدد من الرجال يتحدثون بأصوات مرتفعة وراحوا يصعدون بضجيج وصخب. قدر راسكو لنيكوف أن يكون القادمون ثلاثة أو أربعة وغمغم: «لقد أتوا» وبيأس واستبسال اتجه نحوهم وهو يقول لنفسه: ليكن ما يكون! فأنا ضائع سواء أوقفوني أو تركوني أمرّ لأنهم سيذكرونني حتماً!

لم يبق بينه وبين القادمين إلا طبقة واحدة وفجأة لاح له الخلاص... رأى على مقربة منه إلى اليمين مسكناً خالياً تماماً وقد ترك بابه مفتوحاً عرف فيه المسكن الذي يقوم العمال بترميمه وأدرك أن أولئك العمال هم الذين خرجوا منذ قليل يتحدثون بأصوات مرتفعة وبدا له كأنهم تعمدوا ترك الباب مفتوحاً ليتيحوا له مجال الاختفاء. وكان أرض المسكن ملطخاً بالجير وفي وسط الغرفة صفيحة وإلى جانبها فرشاة كبيرة ووعاء فيه

أصباغ. وبسرعة البرق انسل راسكو لنيكوف إلى الداخل والتصق بالجدار. ولم يكد يتوارى حتى وصل القادمون إلى مكانه واستمروا يصعدون إلى الأعلى وهم يتحدثون. وانتظر بضع ثوان ثم هبط مسرعاً فلم يجد أحداً في طريقه حتى بلغ الباب الرئيسي فنفذ منه إلى الشارع.

كان يعرف أنهم في تلك اللحظة قد بلغوا مسكن العجوز وأنهم ذهلوا أمام الباب المفتوح الذي كان منذ لحظات مستعصياً عليهم ورآهم بعين الخيال يتأملون الجثتين خلال دقيقة وأنهم توصلوا أخيراً إلى الإدراك بأن المجرم كان منذ قليل وراء هذا الباب المغلق وأنه نجح بوسيلة ما في الاختفاء والفرار تحت أنوفهم. ولعلهم اهتدوا كذلك إلى أنه توقف لحظة في المسكن الخالي حينما كانوا يصعدون إلى الطبقة الرابعة... لكنه ما كان يجرؤ على حث خطاه رغم أنه كان على بعد مائة خطوة من المنعطف الأول. كان يتساءل: «ماذا لو تسللت خلال أحد المداخل واختفيت تحت واحد من هذه السلالم في بيت من هذه البيوت المجهولة»؟ كلا! سوف يؤذيني ذلك. إذاً هل ألقي بفأسي في مكان ما؟ هل أستقل عربة؟ كلا! يا للتعاسة! الويل الويل!

وأخيراً مر بزقاق فانعطف فيه وهو يكاد أن يموت من الذعر. كان حاله يوحي بالشك وينطق به. لكن الازدحام كان شديداً فضاع فيه كما تضيع الذرة في صحراء من الرمل. وبلغ من انفعاله واضطرابه أنه كان يسير على قدميه بمعجزة. وكان العرق يغمر وجهه ويتصبب على عنقه حتى أنه سمع بعضهم يهتف به حينما بلغ مدخل القتال:

ـ «يبدو لي أنك جلد جم المقاومة»!

راح يهدئ اضطرابه كلما أوغل في السير ولما بلغ الرصيف رُوّع إذ

رأى عدداً قليلاً من الناس هناك وخشي أن تكون ملاحظته أسهل بين هذا العدد القليل وودّ لو رجع إلى ذلك الزقاق المزدحم. وأخيراً بذل مجهوداً خارقاً وقام بدورة وصل بعدها إلى منزله عن طريق آخر.

لم تكن أفكاره هادئة تماماً حينما تخطى مدخل البيت لذلك فإنه لم يتذكر الفأس إلا عندما بلغ السلم وعندئذٍ فقط تذكر أن عليه إعادتها إلى مكانها بسرية تامة. ولم يستطع إقناع نفسه بجواز التملص منها كيفما اتفق دونما حاجة إلى إعادتها إلى مكانها لأن فكرة استبقائها زمناً آخر بانتظار إلقائها في باحة منزل مجهول عندما تسنح الفرصة لم تكن تعجبه.

وهنا تدخل القدر أيضاً لأنه رأى باب كوخ الحارس مغلقاً فاتجه نحوه دون تفكير ولا تدبر ودفع الباب برعونة حتى أن الحارس لو كان في مكانه وسأله عما يريد لما زاد على أن يقدم له الفأس دون أن يتفوه بحرف واحد. لكن الصدف أرادت أن تضيف إلى ملابساتها العجيبة فصلاً جديداً فلم يكن الحارس في كوخه. وهكذا أتاحت له أن يعيد الفأس إلى مكانها بين قطعتي الخشب كما وجدها بل وأكثر من ذلك: استطاع أن يبلغ غرفته دون أن يقابل أحداً لأن باب المطبخ «العتيد» كان مغلقاً... وهكذا استلقى راسكو لنيكوف بكامل ثيابه على «السرير» لا لينام بل ليستغرق في ذهول عميق حتى أنه لو دخل بعضهم غرفته لانتفض وانتصب واقفاً وهو يصيح ويرتعد.

كانت صور وخيالات وأفكار مبعثرة مشوهة تحتدم وتصطخب في رأسه لم يوفق في تمييز شيء منها ولم يستطع الأخذ بواحدة منها رغم الجهد العنيف الذي كان يبذله.

القسم الثاني

الفَصلُ الأوّل

لبث مستلقياً وقتاً طويلاً... وكان يبدو أحياناً متنبهاً يدرك أن الليل قد أقبل وأن قسماً منه قد لُف في حساب الزمن، لكنه ما كان يفكر في النهوض.. وأخيراً بدا له أن النور يعم الغرفة وأن النهار قد أقبل، فلبث في ذهوله مستلقياً على «السرير» ووجهه إلى الأسفل، بينما صكت أذنيه زمجرات مريعة صادرة من الشارع... كانت تلك الزمجرات مألوفة لديه من قبل لأنها أصوات السكارى الذين يخرجون من الحانات صاخبين... فخمن أن الساعة قد جاوزت الثانية صباحاً... وقفز فجأة من «السرير» وكأن يداً انتزعته منه وهتف: «كيف؟ الساعة الثانية؟...» وجلس مستغرباً وسرعان ما عادت به الذاكرة إلى الوراء فوعى كل شيء.

خيل إليه في اللحظات الأولى أنه فقد العقل، فسرت في جسده رعدة باردة من أثر الحمى التي بدأت تنهش عقله وجسمه كما كانت تفعل به من قبل... واصطكت أسنانه حتى لكأنها تتحطم في فمه... نهض إلى الباب يفتحه ويصغي بانتباه فلم يسمع حركة ولا حساً... وكل من في البيت مستغرق في النوم. سرح طرفه في غرفته وعاد ينظر إلى نفسه واستغرب كيف أغفل إغلاق باب غرفته من الداخل بالمزلاج عندما آب من جولته... وكيف سمح لنفسه بالارتماء بكامل ثيابه على «الديوان» دون أن يخلع حتى قبعته! نظر إلى القبعة فإذا بها قد انحدرت عن رأسه تستقر على

الأرض حيث كانت «وسادته» وتمتم على عادته القديمة: «لو أن أحداً دخل غرفتي ماذا كان حري به أن يظن؟ سيقول إنني ثمل ولكن...».

هرع إلى النافذة وراح يتفحص ثيابه بدقة على الضوء القوي الذي كان يتدفق خلالها. لكنه سرعان ما استسخف الطريقة التي يسلكها... فنزع ثيابه وهو يرتجف ليقوم بالفحص اللازم. لم يترك ثنية إلا وبحث خلالها. ولا طية إلا وسواها وبحث فيها وأعاد الفحص مثنى وثلاثاً.. دون أن يجد لطخة واحدة باستثناء بضع نقاط تجمعت أسفل كم سرواله، فأخذ سكيناً كبيراً من النوع الذي يطوى وقطع ذلك الجزء من الثوب وهكذا بدا كأن كل شيء قد اختفى...

تذكر فجأة حافظة النقود والأشياء الأخرى التي أخذها من صندوق العجوز والتي كانت في تلك اللحظة تملأ جيوبه! لم يكن قد فكر في إخراجها والتخلص منها بل إنه لم يفكر فيها منذ قليل وهو يتحرى ثيابه! كيف ذلك؟ هل هذا معقول؟ وبلمحة خاطفة، بادر إلى انتزاعها من جيوبه وإلقائها على المائدة ثم قلب بطانة جيوبه خشية أن يبقى فيها شيء لم يعثر عليه وحمل ما تراكم لديه منها إلى زاوية من الغرفة... وفي تلك الزاوية من الجدار، كانت بعض القطع من سجاد الزينة معلقة وقد بليت وحال لونها حتى بات وجودها لوناً من ألوان البؤس الذي تفيض به الغرفة، فحشر تلك الأشياء في ثغرة وراءها تحت الورق الباهت الذي يزين الجدار وتمتم: «هكذا... لن تُرى ولن تُعرف... وسألحق المحفظة بها».

شعر براحة بال وعاد يتأمل المكان الذي أخفى فيه مسروقاته ولم يلبث أن هتف: ـ «يا إلهي... ماذا فعلت؟ هل يسمى هذا «مخبأ»... أهكذا يخبئ المرء ما يريد؟»... والحقيقة أنه لم يكن قد فكر في غير المال النقدي لذلك لم يكلف نفسه عناء البحث المسبق عن المخبأ المناسب. واسترسل يدمدم:

ـ «لكن الآن... نعم الآن؟ هل لي أن أغتبط بهذه النتيجة؟ هل هكذا تخفى الأشياء؟ لا شك أنني فقدت العقل!».

ولما أعياه التفكير، عاد إلى «السرير» مرة ثانية يجلس عليه وعادت القشعريرات القاسية تهز جسده... وبحركة آلية، جذب إليه معطفه القديم الذي كان ملقى على «كرسي» هناك وتدثر به، واستحوذ عليه الذهول فراح في بحران عميق وهو بين النوم واليقظة وفقدان الحس! لكن ذلك لم يدم طويلاً إذ لم تمض دقائق معدودة حتى انتفض من جديد وانحنى بارتياع يفحص ثيابه؛ وزمجر خلال أسنانه المطبقة يقول:

ـ «كيف أسمح لنفسي بالنوم وأنا لم أنته من عمل شيء؟ لا شك أنني لم أنته من شيء... نعم لا شك! وكيف أزعم ذلك وأنا لم أرفع «الأنشوطة» من مكانها من المعطف؟».

انتزع «الأنشوطة» ومزقها قطعاً صغيرة وأودع القطع «وسادته» وهو يتمتم: ـ «كيف غفلت عن هذا؟ كيف غفلت عن هذا الأثر؟ أما هذه القطع الممزقة من القماش فإنها لن تثير الآن أية شبهة، أو على الأقل هذا ما يبدو لي... نعم كذلك يبدو لي» ووقف في وسط الغرفة وهو يحيل حوله نظرات محمومة واجفة فلم يترك الأرض ولا الجدران إلا وتفحصها بدقة ليتأكد من أنه لم ينس شيئاً.

كان شعوره بأن كل شيء بدأ يخونه حتى الذاكرة، يؤلمه أشد الألم ويزيد في تعذيبه؛ فدمدم مروعاً: «ماذا... هل يعقل أن يبدأ ذلك؟ هل يعقل أن يكون العقاب قد بدأ يدب ليعمل عمله؟ ويلاه... ها هو!... ها هو!... إنه هو..» كانت القطع الممزقة التي فصلها عن سرواله والتي كانت آثار الدماء عالقة فيها، ملقاة بإهمال على الأرض عرضة لأنظار أي داخل

متطفل! لذلك لم يتمالك أن هتف وهو فريسة القلق القاتل: «ماذا جرى لي؟.. ماذا حصل لي؟».

خطرت له فكرة غريبة في تلك اللحظة: لعلَّ تلك الثياب كلها ملوثة بالدماء دون أن يلاحظ ـ هو ـ ذلك؛ أم لعله لم يتمكن من العثور عليها نظراً لحواسه الضعيفة الفانية وتفكيره السقيم القاتم! وفجأة تذكر أن حافظة النقود ملوثة هي الأخرى بالدم. فناجى نفسه قائلاً: «... وعلى ذلك فإن الدم ينبغي أن يكون قد علق في جيبي كذلك لأن الدماء لم تكن قد جفت عليها حينما أودعتها جيبي!».. وقرن القول بالفعل فقلب بطانة جيبه وإذا عليها آثار واضحة من الدم فهتف: «إذن... لم يهجرني التفكير السليم تماماً... لا زلت أمتلك قواي العقلية وحرية تفكيري وإلا لما توصلت إلى هذه الاستنتاجات!». وندت عن صدره زفرة فرح وغبطة وراح يتذوق هذا الانتصار المبين ويحدث نفسه بقوله: «لم يكن ما شعرت به من قبل إلا الضعف الذي تحدثه الحمى... كان لحظة ذهول فحسب». ونزع بطانة الجيب الأيسر كلها! وفي تلك اللحظة نفذ شعاع من الشمس خلال النافذة وسقط على حذائه الأيسر... كانت بعض الآثار تبدو على مقدمة الحذاء... فغمغم: «إن مقدمة حذائي كلها مغموسة بالدم»... أي أنه في لحظة شرود، وطأ بقدمه بركة الدم هناك! وزمجر بانفعال يقول: «ما العمل الآن؟ كيف أتخلص من هذا الآن؟ كيف أتخلص من هذا الجزء من نعل الحذاء ومن بطانة الجيب ومن قطع السروال الملوثة؟».

جمع تلك الأشياء كلها وحملها في يده ووقف منتصباً في وسط الغرفة يجيل الطرف حوله مستطلعاً منقباً وراح يتساءل: «أفي المدفأة؟ ولكنهم سيبحثون فيها قبل كل شيء! أأحرقها، ولكن كيف وبأي شيء وأنا لا أمتلك ثقاباً! كلا... الأفضل أن ألقيها بعيداً!». وعاد إلى «الديوان» يجلس

عليه واسترسل يقول: «ولكن الآن... فوراً... ودون تأخير!» لكن رأسه سقطت مجدداً على الوسادة يثقلها المرض والتعب والإنهاك ومن جديد أحسَّ بالرعدة المتجمدة الأليمة تجتاح جسده المتداعي... ومن جديد جذب معطفه إليه يتدثر به. واستمر وقتاً طويلاً فريسة فكرة واحدة تضرب على أعصابه باستمرار وإلحاح. فكرة التخلص من تلك الآثار بأسرع ما يمكن... كانت تتجسد أمام ناظريه وفي خياله وتحدثه قائلة: «فوراً... فوراً...».

حاول مراراً أن ينهض من «السرير» ولكنه كان يخفق في كل مرة. وسمع فجأة قرعاً عنيفاً على الباب وصوتاً مزمجراً يقول:

- افتح... هل أنت ميت؟ نعم أم لا؟ أنت لا تحسن إلا النوم... إنه ينام أياماً كاملة كالكلب! هيا افتح... لقد تجاوزت الساعة العاشرة!

كان المتحدث ناستاسيا المخيفة... ناستاسيا فحسب! وسمع صوتاً آخر يقول:

- لعله ليس في غرفته!

فانتفض راسكو لنيكوف وقال يخاطب نفسه: «اللعنة... هذا صوت الحارس! ترى ماذا يريد؟» شعر أن قلبه يكاد أن يبلغ فمه.. وقالت الخادم مزمجرة تجيب على تعليق الحارس:

- ومن الذي أغلق الباب بالمزلاج إذن؟ أرأيت هذا؟ إنه يحبس نفسه الآن! هل يخشى أن يخطفه أحد! هيا افتح... استيقظ أيها «اللوار»[1].. استيقظ.

خاطب راسكو لنيكوف نفسه قائلاً: «ماذا يريدون؟ لماذا الحارس؟ لقد اكتشف كل شيء! هل أقاوم أم أفتح؟.. ليذهبوا إلى...».

---

(1) اللوار حيوان قارض، يختفي طيلة الشتاء ويقتات بالبلوط يضرب به المثل لمن ينامون نوماً عميقاً. المترجم.

ونهض قليلاً وانحنى نحو الباب فرفع المزلاج... كانت غرفته من الضيق بحيث تسمح له أن يعمل ذلك دون أن يبارح مكانه! ورأى أمامه الحارس وناستاسيا منتصبي القامة!

تفحصته ناستاسيا بنظرة غريبة أما هو فقد نظر إلى الحارس نظرة ملؤها التحدي واليأس! فمد هذا يده إليه وفيها ورقة سمراء مطوية ومختومة بالشمع الأحمر! وقال وهو يسلمها إليه:

ـ إنها دعوة جاءت من الدائرة!

ـ أية دائرة؟

ـ من دائرة الشرطة! إنهم يطلبونك... ألا ترى أنها من دائرة البوليس!

ـ البوليس ولِمَ؟

ـ لست أدري! إنهم يدعونك فاذهب إليهم!.. ونظر إليه باهتمام وألقى نظرة شاملة على المكان ثم انصرف.

قالت ناستاسيا دون أن تفارقه بنظرها:

ـ ألست منحرف المزاج؟ إن آثار الحمى بادية عليك منذ البارحة!

فلم يتحرك ولم يجب، لكنه فض الدعوة التي سلمها إليه الحارس دون أن يلقي نظرة على ما فيها بينما أردفت ناستاسيا وقد لانت لهجتها بعض الشيء وظهرت أمارات الشفقة على وجهها: ـ حسناً... لا تنهض... وإذا كنت مريضاً فلا تذهب إلى دائرة الشرطة فليس في الأمر ما يستدعي العجلة.. ما هذا الذي في يديك؟

نظر إلى حيث أشارت فرأى قطعة السروال الملوثة والجزء الذي انتزعه من «نعل» حذائه و... بطانة الجيب الملوثة! كان لا زال محتفظاً بها

في يده وقد نام وهي في يده لم يفلتها! لم يفعل شيئاً... بل ضغط بشدة على تلك الأشياء في يده وارتمى على فراشه وهو بين الموت والحياة... كانت الحمى تنهش جسده ومقاومته تضعف باستمرار. بينما استرسلت «ناستاسيا» تقول:

ـ أرأيت إلى هذه الخرق والتفاهات يجمعها وكأنها كنز ثمين! والأدهى من ذلك أنه ينام وهو ممسك بها! وانفجرت في ضحكتها المكتومة وراح جسمها يهتز ويرتعد ويتلوى على الأثر!

أخفى راسكو لنيكوف تلك «التفاهات» تحت معطفه بسرعة شأن البخيل الذي يدافع عن ثروته وحدجها بنظرة عميقة نفاذة... شعر وهو في شبه غيبوبة أن الأمر ليس خطيراً كما توهم لأنه لا يعقل أن يعامل امرؤ يراد توقيفه وسوقه بهذا الشكل! وسمع «ناستاسيا» تخاطبه وكأن صوتها صادر عن مكان سحيق:

ـ ألا ترغب في قدح من الشاي؟ سوف آتيك بقدح إذ لا زال بعضه في الإناء!

فدمدم دون أن يعي:

ـ كلا... سأذهب... أريد أن أذهب إلى هناك... إلى الدائرة فوراً... وهمَّ بالوقوف. فخرجت دون أن تضيف كلمة واحدة.

هرع إلى النافذة يعاين قطعة «النعل» والخرق الملوثة وقال: «إنها ملطخة ولا شك، ولكنها غير واضحة المعالم والفضل يعود إلى الاحتكاك والطين اللذين جعلا اللون حائلاً... وهكذا فإن «ناستاسيا» لم تميزها عن بعد! حمداً للّه!» ثم أدنى «الدعوة» من عينيه وراح يقرأ... لبث يقرأ ويتمعن برهة طويلة حتى فهم. كانت دعوة عادية جداً من مكتب مدير

شرطة الحي «قوميسير» يطلب إليه فيها المثول في القسم في التاسعة والنصف من ذلك النهار!

أخذ يسأل نفسه قائلاً: «ما معنى هذه الدعوة؟ أنا شخصياً لا تربطني علاقات مع رجال الشرطة... ثم لماذا اليوم بالذات؟».

همَّ أن يجثو على ركبتيه مبتهلاً إلى اللّه أن يلهمه الرشد والسكينة من ذلك القلق المميت الذي استولى عليه... وتلاعبت على شفتيه ابتسامة لم يكن مبعثها الرغبة في الصلاة بل الدوافع التي سولتها له. ارتدى ملابسه على عجل وهو يتمتم: «إذا خسرت نفسي فسحقاً... نعم لا يهمني أن أضيع ولا يمكن إلا أن ألبس في قدمي هذا الحذاء ولسوف تضمحل كل الآثار عندما يزداد اتساخاً!» لكنه لم يكد يدخل قدمه فيها حتى سحبها باشمئزاز وهلع. بَيْدَ أنه فكر أنه لا يملك زوجاً آخر، فعاد يضحك وهو يتمتم: «لن يحصل شيء... ها قد لبسته في قدمي... وفرغت منه»! شعر أن ساقيه لا تحتملانه فدمدم مستنتجاً: «إنه الخوف». وأعقب وهو يشعر برأسه تدور وبمعالم الأشياء تغيب عن ناظريه: «إنها خدعة! إنهم يتذرعون بالمكر ليستدرجوني ثم ينالون مني نيلاً وضيعاً». وتمالك نفسه بجهد خارق واتجه نحو السلم يهبطه وهو يقول: «المزعج في الأمر أنني في حالة هذيان أو ما يقربها.. وقد أفلت بعض الحماقات عفواً».

فكر وهو في طريقه إلى السلم بالمسروقات التي خبأها في تلك الثغرة من الجدار فغمغم: «لعلهم ينتهزون فرصة غيابي للقيام بتفتيش دقيق في حجرتي». غير أنه هز كتفيه دلالة على اليأس والاستسلام للمصير وتابع طريقه وهو يقول: «ليفعلوا ما يبتغون علني أتخلص من آلامي!».

كانت الحرارة في الطريق لا تحتمل كالعادة لأن السماء شحت

في تلك الأيام الثلاثة الماضية فلم تهطل قطرة واحدة من المطر... وعاد منظر الجير والآجر والقرميد يصافح عينيه ويحدث في نفسه ذلك الأثر المقبض حتى أنه شعر بالدوار... كذلك نفذت إلى أنفه رائحة العفن وأبخرة الحانات القذرة وعاد يصطدم بالسكارى في كل خطوة وحول كل منعطف! وهكذا عادت إليه أعراض الحمى كعادته كلما خرج في نهار شديد النور قوي الحرارة.

وصل إلى المنعطف الذي سلكه أمس في ذهابه وألقى نظرة قلقة نحو ذلك «البيت» ثم حول أبصاره وجهة أخرى. وغمغم يتساءل بوجل: «أتراني أعترف إذا سألوني في دارة الشرطة؟».

كانت دائرة البوليس على بعد ربع «فيرست»[1] من محل إقامته في الطبقة الثالثة من بناء حديث جداً. وقد أتيح لراسكو لنيكوف أن يزور دائرة البوليس في مركزها السابق قبل أن تنقل إلى المركز الجديد... أما هذا المركز فلم تكن لديه أية فكرة عنه.

اجتاز المدخل العام فإذا بسلم إلى يمينه كان يهبط عليه في تلك اللحظة واحد من «الموجيك» وبيده كتاب. فغمغم: «لعله الحاجب وعلى هذا فإن المكتب هنا». صعد السلم شارداً دون أن يحاول الاستفسار عن وجهته من أحد.

قال يخاطب نفسه: «سوف أدخل وأركع على ركبتي وأعترف بكل شيء!».

كان السلم ضيقاً وشديد الميل مليئاً بالماء القذر تفضي عليه مطابخ المساكن كلها التي تعمر بها «أدوار» البناء الثلاث وتبقى أبوابها مفتوحة

(1) فيرست: 1067 متراً. المترجم.

طيلة النهار فتنتشر منها روائح مزعجة. وكان الحجاب لا يفتأون يصعدون ويهبطون وسجلاتهم تحت آباطهم ورجال الشرطة يعج بهم المكان بالإضافة إلى عدد كبير من الأشخاص من الجنسين وكل ينتظر دوره؛ وكانت الحرارة خانقة في الداخل يزيد في ضغطها رائحة الزيت التي كانت تنتشر من الغرف حديثة الطلاء حتى ليحس المرء بالغثيان. انتظر راسكو لنيكوف لحظة وآثر بعدئذٍ الانتقال إلى الغرفة المجاورة. كانت غرف البناء كلها صغيرة منخفضة... شعر بلهفة لا تقاوم تدفعه إلى استباق الزمن وبلوغ غرفة المدير ليطمئن إلى السبب الذي دعي من أجله. فلما دخل الغرفة الثانية شاهد نفراً من الكتبة منكبين على دفاترهم. ولم تكن ملابسهم أفضل من ملابسه سأله أحدهم قائلاً:

ـ ما هي حاجتك؟

أبرز راسكو لنيكوف تذكرة الدعوة فلما قرأها الكاتب قال له:

ـ أنت طالب علم؟

فأجاب: ـ نعم طالب علم سابق.

تفحصه الكاتب بنظرة لا تنطوي على شيء من الضجر أو الحقد. كان رجلاً أشعث الرأس بشع المنظر ذا نظرة ثابتة متحجرة؛ أشار بيده إلى الغرفة الأخيرة في الممشى وقال:

ـ اتصل بأمين السر هناك.

اتجه راسكو لنيكوف نحو الغرفة الرابعة والأخيرة، وكانت ضيقة تعج بالمراجعين. كان الحاضرون أفضل حالاً ممن شاهدهم حتى تلك اللحظة في تلك الدار وكان بينهم سيدتان إحداهما ترتدي ملابس الحداد متجهة بوجهها نحو أحد الكتاب تملي عليه أقوالها. أما الأخرى ـ وكانت ضخمة

الجسم ذات وجه زاهي اللون تشوهه لطخات من أثر مرض جلدي، مفرطة الزينة تتدلى على صدرها حلية «بروش» تشبه الإناء ـ فإنها كانت تجلس منفردة وكأنها تنتظر دورها. قدم راسكو لنيكوف الرقعة لأمين السر فنظر هذا إليها نظرة سريعة ثم قال باقتضاب:

ـ انتظر... وراح يتابع الاهتمام بالسيدة ذات الملابس السوداء.

تنفس راسكو لنيكوف الصعداء وهو يتمتم: «لا شك أن الأمر لا علاقة له بقصة البارحة!» واستعاد شجاعته وروعه وصفاء ذهنه وحضور بديهيته. وتمتم محدثاً نفسه: «إن أية حماقة، بل إن أية خطيئة مهما بلغت تفاهتها تقضي عليَّ... هم!... من المؤسف أن لا يكون هنا شيء من الهواء... أكاد أختنق والدوار يعاودني...».

شعر في أعماقه بانقلاب مريع.. كان يخشى أن يفقد سيطرته على نفسه! كان يحاول التمسك بشذرات أفكار قلقة تضيق بها رأسه ولكنه يخفق! وكان اهتمامه متجهاً إلى «أمين السر»... كان يحاول أن يستخلص شيئاً اعتماداً على مظهره، شيئاً يستهدي به ويرتكز إليه.

كان أمين السر شاباً في الثانية والعشرين من عمره، ذا وجه أسمر يبدو أكبر سناً من حقيقته، مرتدياً ثيابه على أحدث طراز وبشيء من الأناقة، ذا شعر مموج مضمخ مفروق في الوسط حتى مؤخرة الرأس «يلمع في أصابعه» عدد من الخواتم وله يدان نظيفتان دقيقتان، وتتدلى من جيب صدارته سلسلة ذهبية. سمعه يتبادل مع أحد الأجانب كان يجلس بالقرب منه حديثاً باللغة الفرنسية ولاحظ أنه يتكلم بطلاقة! وفجأة قال أمين السر موجهاً حديثه للسيدة البدينة:

ـ هلا جلست يا لويز إيفانوفنا!

فجلست وسط حفيف ثوبها الحريري ذي اللون الصارخ بعد أن كانت واقفة لا تحاول الاقتراب من «الكرسي» القريب منها. وانتشرت ذيول الثوب الموشاة «بالدانتيلا» في شبه دائرة كبيرة وصلت إلى منتصف الغرفة بينما تضوع عنه شذى عطر نفاذ. بدت السيدة مرتبكة بعض الشيء لإشغالها هذا الفراغ الكبير بثوبها الأزرق السماوي وعبرت الابتسامة الباهتة التي ارتسمت على شفتيها تعبيراً واضحاً عما يعتلج في نفسها من انفعالات... وفي تلك اللحظة انتهت السيدة ذات الثياب السوداء من عملها ونهضت تهم بالخروج فإذا بجلبة ترتفع وضابط في هيئته ما يوحي بالشجاعة يدخل الغرفة وهو يمشي محركاً كتفيه بحركة وتيرة تتناسق مع خطاه. ألقى الداخل قبعته المزينة بالأشرطة على المكتب وجلس على «أريكة». نهضت السيدة البدينة باحترام حينما شاهدت الضابط وانحنت أمامه انحناءة عميقة محيية فلم يكترث لها ولم يعرها التفاتة ولم تجرؤ هي بدورها على الجلوس في حضرته فظلت واقفة. كان ذلك الضابط معاون رئيس القسم ذا شاربين كبيرين أشهبين يبرزان أفقياً على جانب وجهه وتقاطيع دقيقة تعبر عن شيء من الخشونة والتكبر. نظر إلى راسكو لنيكوف باحتقار، وكان على حق إذا حكم على المظهر لأن راسكو لنيكوف كان زري الملابس إلى جانب الارتباك والخجل اللذين لاحا عليه فكان مظهره الخارجي لا يتلاءم مع المستوى في تلك الغرفة. وشاء سوء حظ راسكو لنيكوف أن ينظر بجرأة في عيني ذلك الضابط الذي شعر بنوع من الإهانة لتلك النظرة وأدهشه وجود صعلوك في تلك الغرفة لا يفكر في غض بصره أمام نظرته الصاعقة فصرخ يقول:

ـ ماذا تريد يا هذا؟

فأجاب راسكو لنيكوف بشكل ما:

ـ لقد استدعيت بناء على طلب.

وبادر أمين السر إلى القول متخلصاً من أوراقه:

ـ إنه هنا بصدد المطالبة بالمال: «إنه الطالب»!

ثم دفع نحو راسكو لنيكوف دفتراً وأشار إلى فقرة فيه وقال:

ـ اقرأ هذا:

خفق قلب راسكو لنيكوف فرحاً وشعر براحة هائلة عميقة تفيض على نفسه. المال؟ وأي مال؟ إذاً ليست الدعوة بصدد «ذاك».

كان هذا محور تفكير راسكو لنيكوف. شعر بأن الحمل الذي كان يوقره قد أزيح عن كاهله. صاح به الضابط الذي استشاط غضباً دونما سبب وجيه:

ـ وأية ساعة حُددت لكم يا صاحب المعالي؟ يطلب إليك أن تحضر في التاسعة وها نحن في العاشرة والربع.

لم يتمالك راسكو لنيكوف نفسه فقد شعر بدوره بغضب مفاجئ يكتسحه، غضب لم يترك مجالاً لأية رغبة أخرى فصاح بصوت مرتفع:

ـ لم تعط إلي «الرقعة» إلا منذ ربع ساعة فقط. وإنه لمجهود مني أن أحضر أنا المريض المحموم.

ـ لا تصرخ هكذا!

ـ أنا لا أصرخ! أنا أتكلم بهدوء أما أنت، فأنت الذي تصرخ... وأنا طالب ولا أسمح أن يُصرخ في وجهي.

ـ اخرس، إنك في محكمة وتلك سماجة يا حضرة السيد.

ـ وكذلك أنت في محكمة مع ذلك فإنك تصيح في وجهي وتدخن لفافتك وإذاً فأنت تحتقرنا جميعاً.

شعر راسكو لنيكوف بسرور بالغ وهو يتفوه بتلك الكلمات وكان أمين السر ينظر إليهما باسماً. أما الضابط فقد زاد غليانه حتى أنه لبث برهة مشدوهاً ولما أسعفه النطق هتف بصوت غير طبيعي:

ـ هذا ليس شأنك. تفضل بالإدلاء بإفادتك التي تطلب منك. أره يا «ألكسندر غريغوريفيتش»! هناك شكايات ضدك. أنت لا تدفع ديونك مع ذلك فأنت تصيح وتحتج...

ثم التفت إلى أمين السر وقال:

ـ ما موضوع الشكوى ضده؟..

فأجاب أمين السر مخاطباً راسكو لنيكوف:

ـ إنه مال يطلب منك أن تدفعه سداداً لسفتجة وبناء على الطلب. فلك إما أن تدفع مع النفقات والغرامة إلى آخره، وإما أن تصرح خطياً عن التاريخ الذي تستطيع الدفع فيه وبذات الوقت تتعهد بعدم مغادرة العاصمة وعدم بيع أو إخفاء شيء من ممتلكاتك قبل التسديد. أما الدائن فإنه مخير بل ومجاز في أن يبيع ما تملك وأن يتصرف ضدك وفقاً للأنظمة المرعية.

ـ ولكنني لست مديناً لأحد.

ـ ذلك ليس من شأننا. لدينا سفتجة موقعة بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلاً قدمتها السيدة «زارنيستين» أرملة أحد مساعدي الكلية وقد رفعت الأرملة «زارنيستين» تلك السفتجة إلى المستشار الحقوقي «تشيباروف» وهكذا استدعيناك لضبط أقوالك.

ـ ولكنها صاحبة مسكني؟

ـ وماذا يهم أن تكون صاحبة مسكنك؟..

كان أمين السر يتأمله وعلى وجهه ابتسامة مشفقة عطوف وقد

التمعت في عينيه نظرة انتصار وكأنه يقول: «هذا غر وقد ارتج عليه». ظل راسكو لنيكوف واقفاً يقرأ ويسمع ويجيب أحياناً، كل ذلك بشكل آلي. فهو لم يستطع الصمود لرد الفعل الذي حدث في نفسه: «هل كان يجدر استدعاؤه وإقلاقه من أجل هذه التفاهة؟ سفتجة... هل تستحق مثل هذه العناية». كان يشعر شعوراً غريباً بأنه أفلت من خطر مريع وأنه أنقذ عنقه من النطع. وكان هذا كل ما يمثل في خاطره. نعم.. لقد نجا دون أن يعمد إلى توقد ذهنه واللجوء إلى تدابيره واحتياطاته التي صممها ودون أن تطرح عليه أية أسئلة. لكنه في تلك اللحظة انتزع من خواطره بفعل إرعاد الضابط وصياحه. كان في هذه المرة ـ وهو لا زال يعاني من آثار تحدي راسكو لنيكوف له ـ يبحث عن ناحية أخرى يفثئ غضبه فيها ولم يجد غير «المرأة البدينة المتبرجة» التي كانت لا تزال تنظر إليه بابتسامة بلهاء منذ أن احتقرها عند دخوله.

صاح بها يقول:

ـ آه.. هذا أنت! أنت أيتها الـ... الـ... ماذا حصل عندك في الليلة الفائتة؟ هه؟ لقد عدت مجدداً وصمة في جبين الحي الذي تقطنين فيه وعدت إلى إثارة عراك في الشارع؟ إذاً خصام جديد وثمل، لسوف أرسلك إلى إصلاحية ولقد أنذرتك من قبل... أنذرتك عشر مرات وأفهمتك أنني لن أحتمل المرة الحادية عشرة وها أنت ذي قد عدت أيتها «الفاعلة التاركة».

كادت الورقة التي في يد راسكو لنيكوف أن تسقط على الأرض من الدهشة فنظر إلى السيدة البدينة نظرة استغراب للمعاملة التي تلقاها دون أن تريم وأدرك فوراً أي نوع من النساء هي وبدت القصة له مسلية بعض الشيء فأصغى وفي نفسه رغبة في الضحك... والانفجار مقهقهاً. فلقد كانت أعصابه كلها تهتز استجابة لهذه الرغبة. وكان أمين السر يحاول

تهدئة الضابط «إليابتروفيتش» وهو يعرف سلفاً ـ لخبرته الطويلة به ـ أن تدخله لن يجدي وأن من العبث وضع حدٌ لغضبة الملازم إذ انفجر مرجل ذلك الغضب. أما السيدة المتبرجة فقد بدأت ترتجف عندما بدأ الضابط الملازم يبرق ويرعد ولكنه ـ لعظيم دهشته واستغرابه ـ وجد أنها كانت تهدأ ويكسو وجهها الاطمئنان كلما ازدادت شتائم الضابط الملازم وسبابه وقاحة وعنفاً. بل إنها ابتسمت له ابتسامة جذابة ولم تن تنحني أمامه منتظرة بفارغ الصبر دورها في الكلام. ولما أراد الضابط أن يتنفس ليتابع حملته انتهزتها فرصة مؤاتية لتقاطعه بقولها:

ـ يا سيدي الرئيس (لاحظ كلمة الرئيس) لم يحدث عندي لا عراك ولا معارك ولا فضيحة. كل ما في الأمر نوع من الثمل وسأحدثك كيف وقع ذلك يا سيدي الرئيس! إنها ليست خطيئتي... إن منزلي محترم يا سيدي الرئيس! والرواد يتصرفون تصرفاً نبيلاً يا سيدي الرئيس! ولم يحدث أبداً أبداً أن وافقت على حدوث فضيحة... وقد جاءني ذلك الرجل ثملاً يترنح وطلب ثلاث زجاجات ثم رفع ساقيه في الهواء وراح يعزف بهما على «البيان» فهل هذا تصرف نبيل في منزل شريف؟ لقد أعطب «بياني» فقلت له: إن تصرفه لا يروق لي وعندئذٍ أخذ زجاجة وراح يضرب الموجودين بها على أقفيتهم، فناديت الحارس «فورنيك» فجاء. وضرب الرجل «كارل» فخدش إحدى عينيه وكذلك خدش عيناً لهنرييت وصفعني خمساً. وإزاء هذا التصرف غير اللبق وخصوصاً في منزل محترم كمنزلي لم أتمالك أن استنجدت يا سيدي الرئيس؟ فمضى الرجل إلى النافذة المطلة على القنال وراح يزمجر كالخنزير الصغير حتى خجلت منه إذ كيف تجوز الزمجرة كالخنزير أمام النافذة؟ في.. في.. في..! جذبه كارل من معطفه ليرغمه على مغادرة النافذة وهنا ـ والحق يقال ـ مزق

له ثوبه وعندئذٍ راح يصرخ ويحتج مطالباً بعطل وضرر قدره خمسة عشر روبلاً قيمة «فراكه» الممزق وأنا لم أدفع له يا سيدي الرئيس إلا خمسة روبلات ثمناً لذلك الثوب، كل هذا جرى في منزل محترم أحدث فيه هو هذه الفضيحة. وقد هددني بأنه سيكتب ضدكم هجاءً كبيراً وينشره في الصحف مدعياً أنه على اتصال بها جميعها.

ـ هيه!.. إذاً فهو كاتب؟

ـ نعم يا سيدي إنه إنسان خشن وجريء فوق ذلك لأنه لم يخش وهو في منزل شريف..

ـ هيا هيا هيا.. كفاني ما سمعت لقد قلت لك وكررت...

وهنا تدخل أمين السر من جديد وهتف بالضابط «إليا بتروفيتش» معاتباً فنظر هذا إليه نظرة سريعة قابلها أمين السر بإيماءة من رأسه وتابع:

ـ.. حسناً فيما يتعلق بك يا لويز إيفانوفنا المحترمة فإليك كلمتي الأخيرة وللمرة الأخيرة: إذا حدث أن وقعت فضيحة جديدة في بيتك المحترم فلسوف أصعدك بنفسي إلى «سلة السلطة»[1] كما يقال باللغة الفصيحة. فه سمعت؟ إذاً إنه أديب كاتب ذلك الذي قبل في «منزل محترم» خمسة روبلات لقاء ذيل «فراكه».. مرحى لأولئك الكتبة...

وألقى على راسكو لنيكوف نظرة احتقار وأردف:

ـ أول أمس في حانة، وقعت حادثة مع واحد من أولئك الأدباء فقد تناول الطعام ورفض الدفع وهدد صاحب المطعم بهجوه في الصحف. وكان آخر على باخرة منذ ثمانية أيام فسبّ وشتم بكل الكلمات عائلة

(1) يقصد عربة السجن. المترجم.

من أرفع العائلات وأعرقها شرفاً: زوج وابنة مستشار في الدولة وكذلك طُرد واحد منهم منذ أيام من دكان حلويّ. هكذا هم هؤلاء الأدباء الكتاب الطلاب... پوه!

وعاد إلى السيدة يصيح بها:

ـ أما أنت فارحلي من هنا وسأراقبك بعين لا تغفل فحذار حذار! هل سمعت؟

حيت لويز إيفانوفنا وانحنت للحاضرين جميعهم بحركة رشيقة! ثم اتجهت نحو الباب وهي تتراجع وتنحني تحاول الخروج. غير أنها اصطدمت صدمة عنيفة بضابط ذي وجه مشرق وضاء يزين وجهه سالفان أشقران... كان ذلك الضابط هو «نيكوديم فوميتش» بالذات رئيس القسم «قوميسير». فبادرت لويز إيفانوفنا إلى الانحناء أمامه حتى كادت أن تلمس الأرض ثم غادرت الغرفة. أما الضابط فقد راح يقول بصوت ناعم لطيف يحمل معنى الود موجهاً حديثه إلى مساعده إليا بتروفيتش:

ـ لقد أثاروك مجدداً يا عزيزي إليا بتروفيتش! نعم كنت ثائراً وقد سمعت من السلم. فأجابه إليا بتروفيتش وهو ينتقل من طاولة إلى أخرى حاملاً أوراقه معه ومحركاً كتفيه على عادته:

ـ ما العمل؟ انظر هذا: إن حضرة السيد كاتب، طالب أو بالأحرى طالب سابق غير أنه لا يسدد ديونه، ويوقع على سفاتج ويرفض إخلاء المسكن فتنهال علينا شكايات مستمرة ضده وإذا به يحتج لأنني أدخن لفافتي في حضرته ومع ذلك تمعن فيه: هذا هو في أروع بهائه!

غير أن نيكوديم فوميتش قال مقاطعاً:

ـ إن الفقر ليس عيباً يا صديقي لكننا نعلم أنك من البارود لا تحتمل الأذية.

ثم خاطب راسكو لنيكوف قائلاً:

أرى أنك أثرت حفيظته ولم تسيطر على أعصابك وقد أخطأت يا صاح لأن إليا بتروفيتش من زبدة الرجال وخيرتهم أؤكد لك ذلك إلّا أنه ناري المزاج كالبارود يشتعل ويثور ثم يخمد ولا يبقى من ثورته شيء! إن له قلباً من ذهب وقد أطلق عليه في الفرقة لقب «الملازم البارود».

هتف إليا بتروفيتش وقد سره ثناء رئيسه وأرضى غروره:

ـ ويا لها من «فرقة» تلك...

شعر راسكو لنيكوف بإغراء ليقول شيئاً جميلاً مناسباً فوجد نفسه يقول بصوت واضح:

ـ العفو يا سيدي الرئيس... لكن ضع نفسك مكاني! مع ذلك فأنا على استعداد للاعتذار إليه إذا كنت قد غمطته حقه من الاعتبار. أنا طالب فقير مريض أنوء بالفاقة (وقد استعمل عامداً كلمة أنوء) نعم... أنا طالب سابق لأنني اليوم لا أملك وسائل المعيشة اللازمة للاستمرار في الدراسة. لكن أمي وأختي اللتين تسكنان مقاطعة «إيكس»... سترسلان إلي مالاً قريباً ولسوف أدفع. أما صاحبة المسكن الذي أقطنه فهي سيدة نبيلة أزعجها أن أخسر دراستي وأن أنقطع عن دفع ما علي منذ ستة أشهر فامتنعت خلال هذه المدة عن تقديم الطعام إلي ولست أفهم سبب هذه المعاملة! وها هي ذي تصر الآن على أن أدفع لها مستعينة بهذه السفتجة، فاحكم بنفسك.

وتدخل أمين السر من جديد ليقول:

ـ لكن هذا ليس من شأننا...

لكن راسكو لنيكوف تابع حديثه دون أن يعبأ بملاحظة أمين السر:

ـ عفواً، عفواً، أنا من رأيك. ولكن دعوني من جانبي أشرح لكم: إنني أقطن عند السيدة «زارنيستين» منذ ثلاث سنوات وهو الوقت الذي مضى علي هنا منذ أن تركت المقاطعة التي جئت منها. وفي البداية... أقصد في بادئ الأمر... ـ ينبغي أن أعترف ـ بأنني بدوري وعدتها بأن أتزوج من ابنتها. كان وعداً شفهياً فحسب لأن الفتاة كانت تعجبني رغم أنني لم أكن أعشقها وبكلمة واحدة أقول: إنه الشباب! هذا ما دعا صاحبة المسكن أن تقرضني بسخاء وكنت أعيش حياة وديعة مسلية...

كان راسكو لنيكوف يتحدث غير مبال بأمين السر. كان يخاطب نيكوديم فوميتش وحده ولقد أراد حيناً أن يشرك الملازم إليا بتروفيتش في الحديث غير أن هذا تشاغل بفحص أوراقه معرضاً عنه باحتقار. ولما بلغ هذا الحد من كلامه قاطعه إليا بتروفيتش بجفاء قائلاً:

ـ لم نكن نطلب منك هذه التفاصيل الخاصة أيها السيد وليس لدينا الوقت للاستماع إليك.

فأوقفه راسكو لنيكوف بإشارة من يده وتابع قصته بحماس رغم ما شعر به فجأة من صعوبة في الاستمرار...

ـ لكن لو سمحت، ينبغي أن أطلعكم على سير الأمور بالترتيب رغم عدم نفع التفاصيل واهتمامكم بها. منذ عام توفيت تلك الفتاة متأثرة «بالتيفوس» ولبثت أنا مستأجراً عند السيدة التي احتلت منذ ذلك الحين الشقة التي تقطنها الآن وقالت لي بتودد: إن لها ملء الثقة بي لكنها ترجوني أن أوقع لها تلك الورقة التي أوردت فيها حسب تقديرها مجموع الدين الذي لها بذمتي وأردفت ـ بعد أن وقعت بناء على طلبها ـ بأنها

ستستمر على إقراضي الوقت الذي أشاء وأنه يستحيل ـ نعم هذه هي الكلمة التي استعملتها ـ يستحيل أن تستثمر توقيعي على تلك الورقة بل إنها تترك لي الحق في أن أدفع متى أشاء... والآن وقد أضعت دروسي وغدوت لا أملك ما أتبلغ به تأتي هي وتشكوني فماذا نطلق على هذا؟

فقال له إليا بتروفيتش بلهجة حاسمة مهينة:

ـ إن كل هذه التفاصيل الدقيقة الشخصية لا تهمنا أيها السيد إننا نطلب منك أن توقع على التصريح والتعهد فحسب. أما وإنك كنت عاشقاً أو غير عاشق إلى آخر تلك الملابسات المؤسية فليس لنا إلا...

فقاطعه نيكوديم فوميتش مغمغماً وهو يجلس وراء مكتبه يكتب وكأنه خجل من تصرف مساعده:

ـ هيه! أنت تقسو قليلاً.

وقال أمين السر مخاطباً راسكو لنيكوف:

ـ اكتب!..

فسأل هذا بلهجة خشنة:

ـ وماذا أكتب؟

ـ سوف أملي عليك.

لاحظ راسكو لنيكوف أن أمين السر يعامله بمزيد من الاحتقار والاشمئزاز بعد اعترافه ذاك ولكنه كان يشعر في أعماقه باستهتار لما قد يتخذه غيره ضده من الإجراءات ويستخلصه من الاستنتاجات. وقد طرأ عليه ذلك التحول في خلال لحظة خاطفة حتى أنه لو فكر قبل أن ينطق بما نطق لاستنكر على نفسه تصرفها ولأدهشه إشراكهم في عواطفه ودخائله... تلك العواطف التي لا يدري من أين جاء بها. كان يشعر في

تلك اللحظة أنه لو استبدل من في الغرفة من رجال الشرطة بأصدقاء أعزاء على نفسه لما وجد في مقدوره أن يتلفظ بكلمة إنسانية واحدة يعرب بها عن إحساساته حيالهم... لقد غدا قلبه فارغاً تماماً وعاوده الإحساس القاتم بالوحدة.. الوحدة العميقة القاسية التي تنخر كيانه. لم يكن مرد ذلك الانقلاب النفسي دناءة الاعترافات العاطفية التي أوردها على مسامع إليا بتروفيتش أو الانتصار البشع الذي سجله ذلك الملازم عليه، فقد شعر بأن دناءته وغرائزه والضباط والألمان والسفاتج والدوائر وكل ما هناك لا يمكن أن يثير اهتمامه في شيء حتى أنه ما كان ليطرف بعينه استغراباً أو استنكاراً لو سمع أنهم يحكمون عليه بإحراقه حياً. بل إنه ما كان ليلقي بالاً إلى ذلك الحكم لو صدر. كان ما يشعر به جديداً كل الجدة، عاملاً خفياً لم يسبق له أن شعر بمثله من قبل. عاملاً لم يفهمه بل شعر به فقط وأحس بتأثيره. إنه يدعوه بل يستصرخ إحساساته بأن لا ينبغي له أن يخاطب هؤلاء الناس، هؤلاء الموظفين من الشرطة ليس في مشاكله وعواطفه كما فعل منذ حين فحسب بل في أي شيء حتى أنه لو استُبدل هؤلاء الموظفون بأقرب وأعز أقربائه، بإخوانه وأخواته، لما وجد في نفسه دافعاً إلى مخاطبتهم.

وبينما كان فريسة لهذا الشعور المؤلم الذي لم يعهد بمثله كان أمين السر يملي عليه صيغة الاعتراف المعمول به في مثل تلك الحالات «لا أستطيع الدفع وأعد بالتسديد بتاريخ كذا. لن أبرح هذه المدينة ولن أبيع أو أمنح ما أمتلك إلخ..» ولاحظ أمين السر بفضول أن القلم قد سقط من يد راسكو لنيكوف فهتف به:

ـ أرى أنك لن تستطيع الكتابة! فهل أنت مريض؟

ـ نعم إن بي دواراً... استمر

ـ هذا كل شيء، وقع بإمضائك.

وسحب أمين السر الورقة الموقعة وانصرف إلى أعمال أخرى بينما أعاد راسكو لنيكوف القلم ولكن بدلاً من أن ينصرف أسند مرفقيه إلى الطاولة وضغط رأسه بين يديه. كان يشعر كأن مسماراً قد غرس في جمجمته وأحس برغبة غريبة تدفعه إلى القيام فوراً والاقتراب من نيكوديم فوميتش والاعتراف له بالتفاصيل الدقيقة، بما عمل البارحة، ثم مرافقته حتى مسكنه ليطلعه على الأشياء التي أخفاها في تلك الثغرة وراء السجادة المهلهلة. كان الإغراء عنيفاً حتى أنه نهض من مكانه لينفذ ما جال في خاطره. وحدث نفسه خلال ذلك الذهول العظيم: «أولا يجدر بي أن أمعن النظر دقيقة أخرى؟ ولكن كلا! من الأفضل أن أعمل دون أن أفكر فأزيح هذا العبء الثقيل!» وتسمر في مكانه برهة:

كان نيكوديم فوميتش يتحدث بحرارة إلى إليا بتروفيتش وبلغت مسامع راسكو لنيكوف العبارات التالية:

ـ ذلك لا يمكن أن يحدث، سوف نطلق سراحهما معاً لأن القضية معقدة متناقضة ولك أن تحكم بنفسك. لِمَ يستدعيان البواب لو أنهما فعلا ذلك؟ ألكي يشيان بنفسيهما أم إغراقاً منهما في الخداع؟ كلا، ذلك لا يمكن أن يكون مكراً! ثم إن ذلك الطالب «بيستر ياكوف» شوهد من قِبل امرأة وبوابين قرب المدخل الرئيسي في اللحظة التي وصل بها وكان برفقة ثلاثة من أصدقائه ودعهم عند الباب طالباً إليهم الانتظار. ولقد استفسر عن العنوان بحضور أصدقائه فهل كان يعمل ذلك لو أنه جاء ينفذ تلك الفعلة؟ أما «كوخ» ذاك فقد أمضى نصف ساعة عند بائع حلي في الشارع قبل أن يصعد إلى مسكن العجوز وكانت الساعة الثامنة إلا ربعاً تماماً حين خرج من لدن الجوهري متجهاً إليها فاحكم الآن.

ـ لكن اسمع لي، كيف يمكن أن تتناقض عباراتهما بهذا الشكل؟ فما يؤكدان أنهما قرعا الباب فوجداه مغلقاً ثم بعد ثلاث دقائق عادا مع الحارس فوجدا الباب مفتوحاً.

ـ لا شك أن هنا نقطة السر! فالقاتل بالتأكيد كان مختفياً داخل المسكن مغلقاً على نفسه الباب بالمزلاج لولا حماقة «كوخ» الذي انصرف من مكانه ليستدعي الحارس لاكتشفه حتماً. استطاع القاتل خلال هذه الفترة أن يهبط السلم وأن يتسلل تحت أنوفهم على شكل من الأشكال ثم إن «كوخ» كان يقول ملوحاً بيديه الاثنتين: لو أنني لبثت هناك لخرج إلي فجأة ولقتلني بفأسه.

ـ مع ذلك لم يشاهد القاتل أحد.

ـ وكيف يشاهدونه والبناء سفينة نوح حقيقية؟..

كانت هذه الملاحظة صادرة عن أمين السر الذي كان يصغي إلى حديثهما بانتباه. واسترسل نيكوديم فوميتش بحرارة:

ـ إن القضية واضحة، واضحة!

غير أن إليا بتروفيتش أصر على قوله:

ـ كلا! إن القضية ليست واضحة أبداً.

رفع راسكو لنيكوف قبعته واتجه نحو الباب لكنه لم يبلغه... وعندما استرد وعيه رأى نفسه جالساً على «كرسي» وإلى جانبيه شخصان يمسكان به ليمنعاه عن السقوط وفي يد أحدهما كأس فيها ماء أصفر اللون بينما كان نيكوديم فوميتش واقفاً أمامه ينظر إليه بحدة. فنهض من مكانه وابتدره نيكوديم فوميتش بلهجة خشنة:

ـ ما بالك؟ أأنت مريض؟

وأعقب أمين السر قائلاً وهو يعود إلى أوراقه:

ـ كان لا يكاد يضبط أعصابه حينما كان يكتب الإقرار حتى أن القلم كان يتحرك في يده بصعوبة.

وهتف إليا بتروفيتش من مكانه وهو يرتب أوراقه:

ـ أأنت مريض منذ بعيد؟

فغمغم راسكو لنيكوف:

ـ منذ أمس.

ـ لكنك لم تكنس أمس في مسكنك. هل خرجت منه؟

ـ نعم لقد خرجت.

ـ وأنت مريض؟

ـ نعم وأنا مريض..

ـ وكم كانت الساعة؟

ـ حوالي الثامنة مساء.

وأين ذهبت؟ واسمح لي بسؤالك.

ـ إلى الشارع.

ـ يا لها من إجابة قصيرة وواضحة.

كان راسكو لنيكوف شاحباً لا حياة فيه وكان يجيب باقتضاب وبصوت مضطرب دون أن يغضي بطرفه أو أن يشيح بعينيه السوداوين الملتهبتين أمام نظرة إليا بتروفيتش الذي قال بلهجة غريبة:

ـ لا... بأس... عليك..!

وأراد نيكديم فوميتش أن يضيف شيئاً غير أن أمين السر نظر إليه نظرة حافلة بشتى المعاني فصمت وسكت الباقون مما أدهش راسكو لنيكوف خصوصاً عندما سمع إليا بتروفيتش يقول:

ـ هيا لا بأس لن نستبقيك أكثر من ذلك.

انسحب راسكو لنيكوف واستطاع وهو في طريقه إلى الباب أن يسمع احتدام الحديث بين الضابطين وأمين السر وبلغه صوت نيكوديم فوميتش يطرح بعض الأسئلة ولما بلغ الشارع استعاد هدوءه فهتف قائلاً:

«تفتيش! تفتيش!»، لسوف يفتشون مسكني، أولئك الأشقياء إنهم يشتبهون بأمري، وعاد الرعب يستحوذ عليه من رأسه حتى أخمص قدميه.

الفَصلُ الثّاني

كان يتساءل: «ماذا؟ ماذا يكون لو أن التفتيش قد وقع بالفعل؟ سوف أراهم حتماً في غرفتي الآن».

لكنه بلغ غرفته فلم يجد فيها أحداً حتى ناستاسيا نفسها لم تكن قد مست شيئاً. هتف:

ـ رباه! كيف تركت كل هذه الأشياء في مخبئها؟

هرع إلى المخبأ فأدخل يده وراء السجادة المعلقة وأخرجها حاملة المسروقات ثم حشرها في جيبه وهو يعدها: ثمانية، بينها علبتان صغيرتان تحويان أقراطاً للأذن أو شيئاً من هذا القبيل لم يحاول التدقيق فيه، ثم أربع علب أخرى مغطاة بقماش «الماروكان» وسلسلة ملفوفة في ورقة انتزعت من صحيفة يومية وأشياء خرى مشابهة ولعلها أوسمة ذهبية ملفوفة كذلك بورق الصحف. وزع هذه الأشياء على جيوب معطفه والجيب الوحيد الذي بقي له في سرواله ساعياً أن لا يظهر لها حجم واضح ثم أضاف إليها حافظة النقود وخرج من غرفته تاركاً بابها مفتوحاً على مصراعيه.

سار بخطى حثيثة متزنة رغم ضعفه وشعر بصفاء في ذهنه: كان يخشى تسللاً، ويخاف أن يُداهم أو أن يُفتح تحقيق معه خلال نصف ساعة أو ربع ساعة وعلى ذلك فإن عليه أن يخفي الأدلة الجرمية. نعم، يجب أن

ينتهي من كل هذا طالما أنه يحتفظ ببعض القوة وصفاء الذهن! ولكن إلى أين يذهب؟..

كانت هذه النقطة مبحوثة من قبل ومقررة: «سألقي بهذه الأشياء في القتال ولسوف تمضي هذه الأدلة الثبوتية إلى الماء حاملة معها المسألة كلها» تلك كانت فكرته في الليلة السابقة عندما كان في ذهوله وهذيانه يهتف خلال لحظات الإشراق التي كانت تتخللهما: «ينبغي الخلاص من هذا بالسرعة الكلية» وبدت له القضية الآن أسهل مما كانت عليه بالأمس.

أمضى ربع ساعة وربما أكثر وهو يذرع ضفة قنال «كاترين» ويعاين السلالم التي تهبط إلى المرافئ المنخفضة كلما لقي واحداً منها، لكنه لم يفكر في تنفيذ مشروعه خلال ذلك الوقت لأنه كان يلتقي تارة بزورق وأخرى بنسوة يغسلن الملابس، أو كان يصادف مراكب مثبتة إلى الرصيف؛ وكانت الأرصفة تعج بالناس والمكان مكشوفاً يصعب فيه اجتناب نظرات الفضوليين. سيكون غريباً أن ينحدر إنسان عمداً وأن يتوقف ليلقي بأشياء إلى الماء... ثم هل يعقل أن تغوص تلك العلب المصنوعة من القماش في الماء؟ وإذا طفت ـ وهذا ما سيحدث ـ فلسوف يراها كل الناس. بل إن كل من صادفهم حتى الآن كانوا يمعنون النظر فيه كما لو لم يكن لديهم ما يشغلهم إلا هذا. خاطب نفسه قائلاً: أليس هذا بفعل الوهم؟ أهو حقيقة؟

وأخيراً خطرت له فكرة جديدة: أن يلقي بتلك الأشياء في مكان ما من «النيفا»! فهناك سيكون الازدحام أقل ولن يلاحظ فعلته أحد وستكون العملية أسهل لأنها بعيدة عن مكان الحادث. أدهشه أن يكون قد أمضى أكثر من نصف ساعة فريسة للقلق والاضطراب وهو يطوف في تلك الأمكنة الخطيرة: كيف يضيع مثل هذا الوقت الثمين محاولاً تنفيذ مشروع جنوني

بدا له خلال فترة ذهوله وهذيانه أمس؟ لا شك أنه أصبح ساهماً شديد النسيان وهو يشعر بذلك.

توجه نحو نهر «النيفا» مجتازاً شارع «ف»... وفي الطريق خطرت له فكرة أخرى: «لماذا في «النيفا»؟ لِمَ ألقي بهذه الأشياء إلى الماء؟ أوليس من الأصوب أن أمضي إلى أي مكان آخر بعيداً عن هنا ولنقل الجزر مثلاً؟ لسوف أبحث هناك عن مكان قصي منعزل في حرش مثلاً أو تحت شجرة، وسأدفن كل هذه الأشياء بعد أن أميز الشجرة التي أخفي كنزي تحتها؟» وعلى الرغم من إيمانه بأن حالته لا تسمح له بالحكم على الأشياء حكماً مدروساً قوياً، إلا أن تلك الفكرة بدت له قوية ومعقولة.

بَيْدَ أنه لم يبلغ الجزر. ذلك أنه بينما كان ينطلق من شارع (ف)... نحو الميدان، لمح إلى اليسار ساحة محاطة بجدار من كل جهاتها، وإلى يمينها مباشرة بعد باب مدخلها الرئيسي، يرتفع جدار من الحجر المجرد لبناء ذي أربع طبقات. أما في الجانب الأيسر قبالة ذلك الجدار اعتباراً من المدخل الرئيسي، فقد قام حاجز من الخشب بطول عشرين خطوة ينعطف فجأة. كان المكان قاحلاً وقد ألقيت فيه أشياء كثيرة مهملة: وفي صدر الساحة برزت زاوية مرآب مشيد من الحجر المتسخ، وخمن راسكو لنيكوف أن هناك في مكان ما من تلك الفسحة يقوم دكان حداد أو قفال أو صانع عجلات بدلالة الغبار الأسود الذي ينجم عن الفحم والذي كانت الأرض مغطاة به؛ فهتف يقول فجأة: «هذا هو المكان المناسب حيث ينبغي أن ألقي فيه بما معي وأنصرف».

لم يشاهد أحداً هناك، فتخطى المدخل ولاحظ بالقرب من الباب ميزاباً كالذي يشاهد مثله في أبنية المصانع والمعامل. وفي أعلى الميزاب غرست لوحة كتب عليها بالحكك: «ممنوع الوقوف هنا»، قدر راسكو

لنيكوف أنه لن يتبادر إلى ذهن أي مخلوق أنه جاء إلى هنا. فخاطب نفسه قائلاً: «سوف أتخلص من هذه الأشياء دفعة واحدة هنا وسأمضي بعد ذلك».

ألقى نظرة أخيرة على ما حوله وهو يغيب يده في جيبه، فلاحظ قرب الجدار الخارجي بين الباب والميزاب، حجراً كبيراً غير مصقول يزن عشرين رطلاً على أقل تقدير، مسنداً إلى الجدار بمحاذاة الشارع. وكان الرصيف يأتي مباشرة وراء الجدار، فتناهى إلى أذنيه وقع خطوات. غير أنه لم ير أحداً، وتأكد من أن أحداً لن يستطيع رؤيته من الخارج إلا إذا تخطى الباب، وهذا محتمل، لذلك فإن السرعة واجبة.

انحنى على الحجر يحتضنه من أعلاه بكلتي يديه. واستنجد بكل قواه حتى أزاحه من مكانه فإذا به يخفي حفرة غير عميقة ألقى فيها بما في جيوبه ووضع الحافظة فوقها دون أن تمتلئ وأعاد الحجر إلى مكانه بعد أن سوى الأرض حوله ومحا كل الآثار التي قد تشي بما فعل، ثم ألقى نظرة أخيرة ليتأكد من حسن صنعه، فرأى أن الحجر لا يكاد يبدو عليه تبدل مركزه، وتأكد أنه من المستحيل تخمين ما فعل.

خرج من الساحة واتجه نحو الميدان وهو يشعر بمثل ذلك الفرح الطاغي الذي استولى عليه منذ حين لما كان في دائرة الشرطة. هتف يناجي نفسه «لقد دفنت الأدلة الجرمية فمن.. من ذا الذي يخطر له أن يبحث عنها تحت ذلك الحجر؟ إنه في مكانه منذ أن بنيت تلك الدار وسيبقى طويلاً حيث هو. ولو افترضنا أن تلك الأشياء سوف تكتشف فمن ذا الذي يفكر فيّ أنا؟ نعم لقد انتهى كل شيء ولم تبق هناك أدلة» وراح يضحك وقد تذكر فيما بعد أنه ضحك بعصبية ضحكة طويلة مكتومة، وأنه لبث يضحك طوال الوقت الذي استغرقه في اجتياز الميدان. ولما بلغ إلى

شارع «ك»... حيث التقى أول أمس بتلك الفتاة المخمورة، بتر ضحكته بل إنها تلاشت وحل محلها تفكير من نوع آخر. خيل إليه فجأة أنه يشعر بدافع عنيف للمرور قرب ذلك المقعد الذي كان يجلس عليه لما انصرفت الفتاة، وخشي أن يقابل رجل البوليس ذا الشاربين الكبيرين الذي أعطاه ذلك اليوم عشرين «كوبيكا» وزمجر: إلى الشيطان.

راح يمشي وهو يتلفت ساهماً ذات اليمين وذات الشمال وتركزت أفكاره كلها في نقطة رئيسية أو على الأقل خيل إليه أنها رئيسية. رأى نفسه في تلك اللحظة وحيداً أمام تلك الفكرة الرئيسية، وحيداً لأول مرة منذ شهرين، قال يحدث نفسه: «ليحمل الشيطان كل هذا. طالما أنني بلغت هذا الحد فلأبق حيث أنا ويحمل الشيطان الحياة الجديدة، رباه كم هو سخيف كل هذا.. كم كذبت وتوسلت اليوم! كم تصرفت بدناءة أمام ذلك البغيض إليا بتروفيتش! لكن ماذا بهم! لست أبالي بهم ولا أبالي بالتذلل الذي بدا علي أمامهم. ليس هذا ما يشغلني. طبعاً ليس هنا».

توقف فجأة وقفز أمام عينيه سؤال جديد كل الجدة، غير منتظر ومع ذلك بسيط غاية في البساطة، حيره وأربكه:

«لو أن كل ما وقع وحدث كان بدافع حقيقي وليس بسخف وغباء، لو أنه كان لديك هدف واضح مسطر محدود، فكيف لم تلق حتى الآن نظرة واحدة على ما بداخل الحافظة؟ كيف تجهل ما عادت به عليك فعلتك؟ كيف سببت لنفسك كل هذه الآلام وارتكبت تلك الفعلة البغيضة الشديدة النذالة ولأي سبب؟ كيف تبادر إلى ذهنك منذ قليل أن تلقي بتلك الحافظة والحلي إلى الماء وأنت لم تكد تمعن النظر فيها؟ ما معنى هذا إذاً؟».

هذه هي النقطة الرئيسية التي تركز فيها السؤال المحير الأليم. كان

يعرف سلفاً أنه حق وأن السؤال لا يحمل شيئاً جديداً يجهله: قرر التخلص من تلك الأشياء في الليلة الفائتة بإلقائها إلى الماء وكان يود لو نفذت ذلك دون تردد ولا إمهال. ولكن كيف إذا وجب عمل ذلك ـ وإنه لواجبٍ ـ كيف إذن فعل ما فعل؟

كان يعرف كل هذه الأشياء ويتذكرها، إن تلك الفكرة ـ فكرة التخلص من هذه الأشياء ـ راودته في ذات اللحظة التي كانت يده تمتد فيها إلى صندوق العجوز القتيل تفتشه؟...

ناجى نفسه بقوله: «إن السبب في كل ذلك هو المرض، إنني أعذب نفسي وأكثر من إيلامها ولست أدري ماذا أعمل... كذلك كنت أمس وأمس الأول وكل الوقت الذي كنت أتعذب فيه... أما عندما أشفى، فسأتخلص من هذه الآلام! لكن ماذا يحصل لو أنني لم أشفَ؟ رباه كم أرزح تحت كل هذه الأعباء»!.

كان يمشي دون توقف وكان مشوقاً إلى الترفيه عن نفسه بأي شكل كان، لكنه ما كان يدري كيف السبيل إلى ذلك. كان هناك شعور غامض يشق طريقه إلى رأسه، شعور بالاشمئزاز نحو كل ما يحيطه وكل ما يصادفه في طريقه، شعور عميق وحشي حقود. كان المارة يبدون أمامه بشعين بوجوههم وتصرفاتهم وحركاتهم يثيرون اشمئزازه. حتى لو أن أحداً خاطبه لبصق في وجهه أو لعضه بأسنانه.

توقف فجأة عندما أشرف على رصيف نهر «النيفا» الصغير في جزيرة «سان بازيل» بالقرب من الجسر وإذا به يحدث نفسه بقوله: «هنا يقطن في هذه الدار... لكن ما معنى هذا؟ ها قد جئت إلى حيث يقطن «رازوميخين» رغماً عني... وأن قصة أمس تتكرر اليوم... إن هذا غريب. أتراني جئت متعمداً أم هكذا صدفة؟ مع ذلك لا بأس لقد كنتِ أقول منذ

ثلاثة أيام إنني سأزوره بعد «الصفقة» والآن وقد تمت فسأذهب إليه. أم هل تراني لا أستطيع زيارة أحد»!.

صعد إلى الطبقة الخامسة حيث يقطن (رازوميخين) وكان هذا في غرفته مشغولاً بالكتابة فجاء يفتح له الباب بنفسه. والتقى الصديقان اللذان لم يلتقيا منذ أربعة شهور. كان رازوميخين مرتدياً معطفاً منزلياً بالياً تماماً وقد وضع قدميه العاريتين في حذاء خفيف وترك شعره مشعثاً: كانت لحيته مهملة ووجهه غير مغسول. ارتسمت آيات الدهشة على ذلك الوجه وهتف وهو يصعد صاحبه بنظرة من رأسه حتى قدميه:

ـ كيف! هذا أنت؟..

ثم أطلق صفيراً من شفتيه وهتف:

ـ كيف حدث أن وقعت في مثل هذا العوز؟ لعمري أن «أناقتك» تفوق «أناقتي».

وراح ينظر إلى أسمال راسكو لنيكوف ويقول:

ـ ولكن هلا جلست؟ إنك تبدو تعباً.

تهالك راسكو لنيكوف على «ديوان» تركي مغطى بقماش مشمع يفوق بالقدم ذلك الذي في حجرته بينما اقترب رازوميخين منه وهو يقول:

ـ أتدري أنك مريض جداً؟

راح يجس نبضه. فانتزع راسكو لنيكوف يده منه بحركة عنيفة وصاح:

ـ لا تتعب نفسك. لقد جئت... إليك السبب... لم يعد عندي دروس... فأردت.. مع ذلك لست في حاجة إلى دروس.

هتف رازوميخين وهو يحدق في وجهه:

ـ لكن... ماذا دهاك؟ إنك تهذي!..

استوى راسكولنيكوف واقفاً! لم يكن قد فكر ـ عندما صعد إلى مسكن رازوميخين ـ في أنه سيقابله وجهاً لوجه. أما وقد وقعت التجربة الآن، فقد شعر بأنه لا يستطيع بعد هذه اللحظة أن يلتقي بأي كان، وأن لقاء الناس يؤلمه ويزعجه. وثارت في نفسه غضبة عنيفة وكاد أن يختنق من الانفعال لمجرد دخوله بيت رازوميخين! وفجأة قال:

ـ الوداع... وقصد إلى الباب.

ـ لكن ابق... ويحك ابق... يا لك من شاذ!

فأجاب راسكو لنيكوف وهو يخلص يده من يد صديقه:

ـ لبس بي ما يغريني بالبقاء!

ـ إذاً؟ لِمَ جئت... هل أنت مجنون؟.. هيا... إنك بذلك توجه إلي نوعاً من الإهانة! لن أعك تخرج هكذا...

ـ حسناً...! لقد جئت إليك لأنني لا أعرف أحداً يستطيع مساعدتي سواك. هذا أولاً.. ولأنك أحسن من الباقين دون استثناء وأقصد أكثرهم ذكاء وأنك تستطيع أن تحكم.. أقصد..! ولكنني الآن لست في حاجة إلى شيء. لقد اكتشفت ذلك فجأة فهل تسمع؟ لا شيء مطلقاً: لا خدمات ولا تودد من أحد! أنا وحيد ويكفيني هذا فدعني هادئاً...

ـ لكن تريث! تريث دقيقة! يا لك من مغفل! نعم هذا رأيي ولن تستطيع إبداله. استمع إلي قليلاً! ليست لدي دروس ولا يهمني ذلك. إنما لدي في «سوق البراغيث» كتبي يدعى «خيرو فيموف» وهو يساوي أكثر من درس! ولن أبدله لقاء خمسة دروس تعطى إلي عند التجار! إنه يُهيّئ وينشر كتباً في العلوم الطبيعية يتخاطفها الناس كما يتخاطفون الخبز! والعنوان وحده مسألة قائمة في حد ذاتها! أنت تدعي

دائماً بأنني سخيف. ولكني أؤكد لك أن هناك من هم أشد مني سخفاً.. «إن الناشر الذي أتعامل معه قد تبع «موضة» هذا الوقت وهو شخصياً لا يعرف الـ«أ» من الـ«ب» وأنا أشجعه في مسعاه بالطبع. خذ مثلاً هاتين الورقتين إلى جانب عدد من الأبحاث الألمانية.. إنها في رأيي لون من الهذر السخيف بعضهُم يبحثون هنا عما إذا كانت المرأة مخلوقاً إنسانياً، أم لا! وبالطبع إنهم يدللون أخيراً «وبكل فخر» على أنها إنسان ككل إنسان، إن «خيرو فيموف» يهيئ هذه الأبحاث لنشر «المسألة النسائية» التي هي حديث الساعة؟ وأنا الذي أترجم له وهو بدوره سيضخم هذه الوريقات حتى يضاعفها ويجعلها ستاً، وعندئذٍ سنطلق عليها عنواناً مثيراً سيحتل نصف الصفحة الأولى وسنبيع النسخة الواحدة بخمسين «كوبيكاً»! ولسوف تكون تجارة رابحة، إنني أتقاضى ستة روبلات لقاء سحبها من غير جملة. وقد دفع لي ستة روبلات مقدماً.. وعندما نفرغ من هذا العمل سوف نترجم موضوعاً آخر يتعلق بالحوت. وقد لاحظنا في الجزء الثاني من «الاعترافات»[1] مجموعة من الأقاصيص والروايات ولسوف نترجمها كذلك رغم أنها لون من الإزعاج المحسوس! وقد صرح بعضهم لخيرو فيموف أن «روسو» يشبه في عقليته وإنتاجه «راديستشيف»! وأنا بالطبع لا أناقشه ولا أناقضه وليذهب إلى الشيطان.

هيا... هل تريد أن تترجم الورقة الثانية التي تبحث في: «هل المرأة مخلوق إنساني؟» إذا راق لك ذلك فخذها على الفور وخذ بعض الأقلام والورق وكل هذا على حساب «السيد» واقبل مني هذه الروبلات الثلاثة! وبما أنني تقاضيت سلفة لترجمة الورقتين الأولى والثانية، فيكون نصيبك ثلاثة روبلات لترجمة الورقة الثانية ومتى فرغت منها فستتقاضى ثلاثة

(1) كونفيسيون: مجلة فرنسية Confessions مثيرة. المترجم.

روبلات أخرى. آه. أرجوك لا تتصور أنها خدمة أقدمها لك بل على العكس. لقد أدركت عندما رأيتك تدخل أنك ستكون ذا نفع عميم لي، فأنا أولاً سيّئ الخط وثانياً ضعيف في اللغة الألمانية لدرجة أنني أخترع اختراعاً بين الحين والحين ويعزيني أن ما أضيفه من عندي خير من المكتوب في الوريقة! لكن من يدري؟ قد يكون ما «اخترعه» أسوأ مما أقدر بل قد يكون سيئاً للغاية. والآن هل تقبل؟ نعم أم لا؟

أخذ راسكو لنيكوف أوراق الموضوع الألماني وخرج دون أن يفوه بكلمة و«رازوميخين» ينظر إليه حائراً لتصرفه. ولما بلغ زاوية الشارع الأول، عاد فجأة من حيث أتى، وصعد إلى مسكن رازوميخين فوضع الأوراق والروبلات الثلاثة ثم خرج بصمت كالمرة السابقة!

صاح رازوميخين وقد بان عليه الغضب:

ـ ما هذا؟ إنها الحمى «الساخنة» ولا شك. هل تمثل دوراً؟ إنك تفقدني صوابي. يا للشيطان! لِمَ عدت؟

فتمتم راسكو لنيكوف وهو يهبط السلم:

ـ لست في حاجة إلى... ترجمات..

ـ إذاً ماذا تبغي؟

فلم يجبه راسكو لنيكوف بل استمر يهبط بصمت...

ـ اسمع!.. أين تقطن؟

ولما لم يتلق جواباً هتف معقباً:

ـ حسناً... اذهب إلى الشيطان!

حينما بلغ راسكو لنيكوف جسر «نيكولا» أتيح له مرة أخرى أن

يستعيد شعوره. كان ذلك إثر حادث مزعج وقع له. ذلك أن سائقاً كان يقود عربة خاصة لسعه بسوطه لسعة قوية جعلته يقفز قفزة كبيرة نقلته حتى حاجز الجسر! لقد نبهه الرجل ثلاثاً دون جدوى فعمد إلى هذا التنبيه العملي، لأنه كان يسير في منتصف الجسر حيث لا ينبغي أن تكون إلا العجلات والبهائم. صرف على أسنانه حانقاً متألماً بينما تعالت حوله الضحكات والسخريات.

ـ لقد أحسن صنعاً...

ـ لا بد وأنه نشال مأفون!

ـ يا للخبيث! إنه يتصنع الثمل ويرمي بنفسه بين قوائم الخيول ليطالب بتعويضات!

ـ إنها تجارة مثل غيرها!

وبينما هو بالقرب من الحاجز يصغي إلى تلك الأقوال الساخرة ويتابع العربة بنظرة حانقة مخبولة، إذ شعر بيد تلمس يده وتضع فيها نقوداً. ورأى سيدة متقدمة في السن قليلاً قدر أنها من طبقة التجار، ملتفة بحرملة وإلى جانبها فتاة تحمل مظلة خضراء لا شك أنها ابنتها. كانت السيدة تقول له:

ـ «اقبل مني هذا الإحسان باسم المسيح!».

فأخذ المال وتابعت السيدتان سيرهما. تأكد لديه أن مظهره الخارجي أوحى لهما بأنه واحد من أولئك المتسولين أو محترفي التسول الذين يعمدون إلى حيل لاستدرار شفقة الناس... وها هو يملك عشرين كوبيكاً والفضل في ذلك يعود إلى تلك الضربة التي نالته من سوط سائق العربة، تلك الضربة التي حركت الشفقة في نفس السيدة.

أطبق يده بشدة على النقود التي فيها وسار بضع خطوات ثم استدار في مواجهة النهر باتجاه القصر. كانت السماء صافية لا سحاب فيها والمياه زرقاء غير كدرة وهو أمر نادر بالنسبة إلى نهر «نيفا»... وكانت قبة «الكاتدرائية» ـ وهي لا تبدو واضحة المعالم أكثر منها من تلك البقعة فوق الجسر ـ تلمع وتتألق في هذا الجو الصافي الرائق حتى ليستطيع الناظر إليها تعداد كل خطوطها وزخرفتها. شعر راسكو لنيكوف بهدوء في نفسه ناسياً الألم الذي خلفته لسعة السوط وراح ينظر إلى تلك الأماكن التي كانت مألوفة لديه بشكل خاص. كيف لا وهو الذي وقف مئات المرات حيث هو ـ حينما كان يرجع من الجامعة في طريقه إلى البيت ـ يتأمل تلك المناظر البهيجة البديعة يغمره شعور غريب. كان ذلك المشهد يثير في نفسه فكرة جامدة غير مفهومة إذ كان يخيل إليه أن كل هذه الأبهة ومظاهر العظمة كانت محرومة من النشاط أو على الأصح من الروح! وكانت تلك الفكرة تدهشه فهي غامضة حزينة لم يجد لها تعليلاً. أما الآن فقد بدا له أن تلك الأسئلة التي كان يبحث عن أجوبة لها وذلك الشعور الغريب الذي كان يعتوره قد أصبحت جميعها مفهومة واضحة الخطوط. وبدت له غرابة الصدف في وقوفه في تلك اللحظة بالذات في ذلك المكان بالذات ناظراً إلى تلك المناظر بالذات التي كان يتأملها من قبل لما أن كان في الجامعة وكأنه يرجو أن يشعر بمثل الشعور الذي كان يحس به من قبل. بدا له كل ذلك مضحكاً وانتهى بأن أحس بقوة غير منظورة تعتصر قلبه فيقطر ألماً. أدرك أن ماضيه وأفكاره ومشاكله، إحساساته ووجهات نظره التي كان يحس بها من قبل، مفروشة تحت قدميه بل غارقة في جرف سحيق ليس له قرار. وإلى ذلك الجرف السحيق انحدرت روعة المناظر التي بدت لعينيه ثم تبعها بنفسه هابطاً... شعر كأن حلق إلى ارتفاعات سامقة حتى اختفت

كل المعالم عن ناظريه! وتحركت يده حركة آلية فأحس بالنقود التي فيما تأملها برهة ثم طوح بها إلى الماء! وعندئذٍ دار على عقبيه وعاد إلى البيت وهو يشعر بأنه في تلك اللحظة قد قطع آخر رباط يصله بالعالم الحي!

بلغ مسكنه مساء بعد أن انقضت ست ساعات منذ أن بارحه! أما كيف وأي سبيل سلك فإنه ما كان ليستطيع الجزم في معرفته! خلع ملابسه وارتعد كالحصان الحرون ثم استلقى على «الديوان» متدثراً بمعطه وغط في نوم عميق!

استيقظ فجأة في الظلام الدامس إثر صرخة مريعة صكت سمعه. صرخة لم يكن قد رأى أو سمع بمثلها من قبل، صرخة رافقتها زمجرة ونحيب وضربات ولعنات فظيعة لم يعهد مثلها من قبل. لم يكن يفكر أو يتصور وجود مثل هذه الوحشية والضراوة، فرُوع وانتصب في «سريره» جالساً شاعراً بعذاب متزايد ينزله به ثانية فثانية، لكن الضربات والنحيب والشتائم كانت تتزايد تدريجياً، وبالشدة ذهوله واستغرابه حينما تعرف وسط ذلك الضجيج على صوت صاحبة مسكنه. كانت تزمجر وتزأر بصوت حاد متقطع سريع حتى أنه أحفل في فهم بعض ما تقوله. غير أنه خمن أنها تتوسل وتستعطف لكي يكف أولئك الذين يضربونها عن عدوانهم. وكان الصوت آتياً من السلم فسمع راسكو لنيكوف هدير صوت المعتدي، كان صوته يفيض غضباً وقد استحال إلى صرخات مبحوحة حتى تعذر عليه فهم شيء من حديثه اللاهث المختنق. وفجأة اقشعر جسم راسكو لنيكوف: لقد تعرف على صوت الوحش الضارب... كان إليا بتروفيتش: «ترى ماذا يفعل إليا بتروفيتش هنا ولِمَ يَضرب صاحبة الدار؟ من الواضح أنه كان يركلها بقدميه فيضرب رأسها على درجات السلم وما كان يمكن تخمين ذلك من بكاء المرأة وصوت الضربات فماذا حدث يا ترى هل انقلبت الأوضاع في العالم؟».

هرع السكان إلى السلم وارتفعت أصواتهم مستنكرة ثم ارتفع صوت أقدام صاعدة وأبواب تُصفق وخطى متلاحقة.. «ترى لِمَ كل هذا؟ لِمَ؟ كيف يمكن أن يحدث أمر كهذا؟».

كان راسكو لنيكوف وهو يطرح على نفسه مثل هذه الأسئلة يعتقد مخلصاً أنه قد جن لولا أنه كان يسمع بجلاء كل هذا الضجيج. وفجأة خيل إليه أنهم آتون إلى غرفته فغمغم يحدث نفسه:

«رباه إنهم صاعدون! إذاً إن كل هذا بسبب مسألة البارحة» وأراد أن يغلق الباب بالمزلاج لكن يده لم تطعه وشعر بعقم هذه المحاولة وبألم يعذب روحه ويسحق عظامه. انقضى الوقت بطيئاً قاتلاً ومضت عشر دقائق دون أن يحدث شيء وهدأت الأصوات بالتدريج وتناهى إلى سمعه صوت صاحبة الدار تزمجر وتنتحب وصوت إليا بتروفيتش يهدد ويشتم ثم اختفت الأصوات نهائياً وران السكون فتمتم قائلاً: رباه! هل ذهبوا حقيقة؟ لا شك في ذلك وها إن صاحبة الدار تذهب إلى شقتها باكية منتحبة، ها إنها تغلق باب الشقة بعنف وصخب والناس يتفرقون ويخلون السلم ليدخل كل منهم إلى مسكنه، وهم يتناقشون ويتنادون بصيحات مرتفعة أو يتحادثون بما يشبه الدمدمة. كان يبدو أنهم عديدون كما لو أن كل المكان قد هرعوا إلى مكان الحادث. فلبث يتساءل عبثاً عن السبب.

خارت قوى راسكو لنيكوف أخيراً وتهاوى من جديد ولكن ما لزم أبي أن يداعب عيونه فبقي نصف ساعة ممداً فريسة الألم، ألم عنيف لا يُحتمل والشعور بالرعب لم يحس بمثله من قبل، وفجأة انبثق نور في حجرته ورأى ناستاسيا داخلة تحمل شمعة موقدة في إحدى يديها وآنية حساء في الأخرى. نظرت إليه بانتباه ولما رأته مستيقظاً وضعت «الشمعدان» على الطاولة وراحت ترتب الأشياء التي تحملها: الخبز والملح والطبق والملعقة وهي تقول:

ـ إنه لم يأكل شيئاً منذ الأمس، مع ذلك فقد راح يجر أسماله طول النهار وهو مصاب بهذه الحمى العنيفة.

ـ ناستاسيا... لِمَ ضربوا السيدة؟

فنظرت إليه بدهشة وقالت:

ـ من الذي ضرب السيدة؟

ـ منذ حين، منذ نصف ساعة. إيليا بيتروفيتش، مساعد رئيس الشرطة... على السلم. لِمَ عاملها بهذه الخشونة؟ بل ولِمَ جاء إلى هنا؟

حدقت ناستاسيا في وجهه طويلاً وقطبت حاجبيها ولزمت الصمت. شعرت بنوع من الارتباك بل ومن الخوف. بينما استمر راسكو لنيكوف يقول بصوت ضعيف خائر:

ـ ناستاسيا لِمَ لا تتكلمين؟

فتمتمت وكأنها تحدث نفسها:

ـ هذا هو الدم.

فشحب لونه وتقهقر حتى التصق بالجدار وهتف:

ـ الدم؟... أي دم؟...

نظرت إليه ناستاسيا بصمت وأخيراً قالت بصوت ثابت وبلهجة خطيرة:

ـ لم يضرب السيدة أحد.

فنظر إليها وهو يكاد يختنق وقال:

ـ لقد سمعت بنفسي... لم أكن نائماً... كنت جالساً.. لقد سمعت طويلاً. إن مساعد مدير الشرطة كان هنا على السلم... وكل السكان قد هرعوا وغادروا مساكنهم.

ـ لم يأت أحد إنما هو الدم يصرخ فيك... إذ إنه عندما لا يجد مخرجاً يهاجم الكبد ويجعلك بذلك تتصور مثل هذه الأوهام. والآن سوف تأكل. أليس كذلك؟...

لم يجب وظلت ناستاسيا بالقرب منه صامتة تحدق في وجهه متفحصة.

ـ ناستاسيا.. أريد أن أشرب...

غادرت الحجرة وعادت إليه بعد دقيقتين تحمل ماء في إبريق من الفخار الأبيض لكنه لم يذكر ما وقع له بعد ذلك. تذكر فقط أنه ابتلع جرعة من الماء البارد وصب محتويات الإبريق على صدره ثم فقد الوعي.

الفَصلُ الثّالِثُ

استمر مريضاً زمناً طويلاً لكنه لم يفقد خلاله حاسة التفكير تماماً فكانت حاله منقسمة بين هذيان الحمى والشرود الذهني. تذكر فيما بعد أنه كان يحس أحياناً بجمع غفير من الناس التفوا حوله يريدون انتزاعه وحمله إلى مكان ما وهم يتناقشون بصدده ويتشاجرون، وأحياناً أخرى يجد نفسه وحيداً في غرفته وقد بارحها الناس لأنهم خافوا منه، فكانوا من حين إلى آخر يواربون الباب قليلاً لينظروا إليه ويهددوه أو يستهزئوا به مستثيرين غضبه. وتذكر كذلك أن ناستاسيا كثيراً ما كانت تجلس قرب سريره كما لاحظ رجلاً غريباً لم يستطع معرفته ولا تحديد مهمة يشاطرها زياراتها الأمر الذي أحزنه حتى أن الدموع كادت أن تطفر من عينيه.

كان يخيل إليه أحياناً أنه أمضى أكثر من شهر في سريره، وأحياناً أخرى أن كل شيء قد تم في بحر يوم واحد. لكن «ذلك الشيء» نعم ذلك الشيء كان قد نسيه تماماً، وإن كان يشعر في قرارة نفسه أنه افتقد أمراً لا يجد في نفسه القدرة على استعادته، فكان يتألم ويتعذب ويزفر ويثور لمجرد تفكيره في هذا العجز ثم يذهل ويغيب عن الوعي. وإذا استفاق بعدئذٍ كان ينهض محاولاً الفرار والابتعاد عن السرير فيشعر بأيد تعيده إليه بالقوة فيعود إلى غيبوبته.

أمضى زمناً طويلاً على هذا المنوال ولما صحا ذات يوم ـ وكان ذلك

في الساعة العاشرة والطقس جميل والشمس تغمر الجدار الأيمن بإشعاع ضوئي بديع فتنير الزاوية القريبة من الباب ـ رأى ناستاسيا جالسة بالقرب من سريره مع رجل لم يكن يعرفه كان يرقبه بفضول، وصاحبة المسكن تنظر إليه خلال الباب الموارب. كان ذلك الغريب شاباً مرتدياً قفطاناً، ذا لحية صغيرة مدببة يشبه الحياة في مظهره. تناهض راسكو لنيكوف وسأل مشيراً إلى الشاب:

من هذا يا ناستاسيا؟

ـ هيه؟ لقد عاد إلى وعيه...

ـ شعرت صاحبة الدار أن المريض قد استعاد قواه فأغلقت الباب الموارب واختفت فوراً لأنها كانت امرأة شديدة الخجل ترهب المناقشات والاستفسارات. كان لها أربعون عاماً وكانت سمينة منتفخة ذات عينين سوداوين يعلوهما حاجبان بلونهما، طيبة في كل شيء: بكسلها وكرمها، مضيافة، مفرطه في الخجل؟

عاد راسكو لنيكوف يستفسر موجهاً حديثه إلى الغريب مباشرة:

ـ من... أنت..؟

وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل رازوميخين وهو يحني قامته قليلاً بسبب طولها. هتف وهو بالباب:

ـ يا له من كوخ!! إن رأسي يصطدم أبداً بالسقف ومع ذلك فهم يطلقون عليه اسم مسكن... إذاً يا أخي فقد عدت إلى وعيك... لقد علمت بذلك تواً من «باشنكا».

قالت ناستاسيا:

ـ لقد استعاد صوابه تواً...

وقال الغريب الذي يشبه الجباة في هيئته بصوت مجلجل وهو يبتسم:

ـ لقد عاد إليه وعيه.

تذكر راسكو لنيكوف أن سؤاله الذي وجهه إلى ذلك الغريب لم يحظ بجواب بعد أو شعر رازوميخين برغبة صديقه فسأل:

ـ ولكن أنت... من أنت؟ فأنا مثلاً اسمي رازوميخين وأنا طالب مفضال مهذب وهذا صديقي. أما أنت فمن تكون؟

ـ أنا مستخدم لدى التاجر «شيلوبابيف» وقد جئت هنا لحاجة.

فقال رازوميخين:

ـ حسناً. تفضل بالجلوس على هذا «الكرسي». واستوى بنفسه جالساً على المقعد الآخ بجانب المائدة. وخاطب راسكو لنيكوف بقوله:

ـ يا صديقي العجوز أحسنت صنعاً إذ استعدت حواسك. فمنذ أربعة أيام ـ كما قيل لي ـ لم تأكل ولم تشرب شيئاً باستثناء ما كان يصب في فمك من قطرات الشاي بواسطة الملعقة. ولقد أتيتك مرتين بـ «زوسيُموف». أنت تذكر زوسيُموف؟ لقد عاينك بدقة وصرح أن الأمر ليس خطيراً وأن حالك تشبه بكل بساطة حال الذي تلقى ضربة من مطرقة. أي ـ كما أكد ـ إنك تشكو من ضعف عصبي نتيجة لسوء التغذية. أما المرض نفسه فبسيط يمكن الشفاء منه بسهولة. إن زوسيُموف حجة لا يبارى وهو يعود عدداً من المرضى الخطرين. ثم استدار نحو المستخدم وقال:

ـ لا أحب استبقاءك كثيراً... فتفضل إذا أردت باطلاعنا على سبب زيارتك. لاحظ يا روديا أن هذه هي المرة الثانية التي يبعث صاحب ذلك المخزن برسل من لدنه. ففي المرة الأولى كان واحداً غير هذا، فمن الذي جاء في المرة الأولى؟

فأجاب المستخدم:

ـ لعلك تقصد الذي جاء منذ ثلاثة أيام. إنه مستخدم مثلي واسمه: ألكسيس سيميو نوفيتش.

ـ إن لسانه على الأقل أطول من لسانك فما رأيك؟

ـ نعم إنه رجل أكثر كفاءة مني.

ـ ليس لنا إلا أن نهنئك... هيا استمر.

ـ حسناً. هذه هي الحكاية: إن لدينا حوالة من والدتك أرسلت بواسطة المدعو آتاناس إيفانوفيتش فاكروشين الذي أعتقد أنك سمعت عنه. وإنني مكلف بأن أقدم لك مبلغاً قدره خمسة وثلاثون روبلاً هي ما أخذه سيميون سيميونوفيتش من أمك وأعتقد أنك مطلع على مجرى الأمور.

كان هذا الكلام موجهاً إلى راسكو لنيكوف جواباً على سؤال صديقه فتمتم هذا بصوت حلم:

ـ آه... فاكروشين. نعم أذكر.

هتف رازوميخين قائلاً:

ـ هل تسمع؟ إنه يعرف التاجر فاكروشين. وكيف لا يعرفه؟ ثم إنني ألاحظ أنك أنت الآخر ذو لسان طويل... هيا لا تبتئس. إنه لذيذ دائماً أن يستمع الإنسان إلى محاضرات حكيمة. استمر...

ـ حسناً. بالضبط إن هذا الـ«فاكروشين أتاناس إيفانوفيتش» هو الذي توسط في المرة الأولى بناء على رجاء والدتك في إرسال نقود إليك ولم يحجم هذه المرة بالمثل عن إبلاغ سيميون سيميونوفيتش بوجوب دفع خمسة وثلاثين روبلاً إليك بانتظار ما هو أحسن.

هتف رازوميخين:

ـ لعمري إن هذه الـ«بانتظار ما هو أحسن» هي أجمل ما خرج من فمك ولقد نطقتها بسهولة لا يماثلها في الجمال إلا قولك «بناء على رجاء والدتك» والآن ماذا تعتقد هل هو مالك قواه؟ نعم أو لا؟

ـ بالنسبة إلي إنه ككل أولئك الذين يوقعون لدينا عند القبض.

ـ إذاً سوف يحسن التوقيع «الشخيرة» هل معك الدفتر؟

ـ الدفتر؟ ها هو ذا.

ـ هاته. هيا يا روديا انهض قليلاً. سوف أسندك بينما ستكتب له هنا: راسكو لنيكوف. خذ القلم بيدك يا صديقي. إننا في شديد الحاجة إلى المال.

هتف راسكو لنيكوف وهو يدفع القلم بعيداً:

ـ لا حاجة بي إلى المال.

ـ إذاً ماذا يلزمك؟

ـ لن أوقع هذا الإيصال.

ـ لكن يجب أن تعطي إيصالاً.

ـ لست في حاجة إلى النقود.

ـ لست في حاجة إلى النقود؟ اسمع يا صديقي أنت تكذب وأنا شهد على ذلك! ثم استدار إلى المستخدم وقال: لا تبتئس. إنه يهزر. ثم إن هذا مألوفاً لديه في حال اليقظة الكاملة وأنت رجل عاقل. لسوف نسير يده ليستطيع التوقيع فهيا بنا نتعاون.

ـ على كل حال إنني أستطيع العودة مرة أخرى.

ـ كلا! كلا! لِمَ تزعج نفسك؟ أنت رجل معقول... هيا يا روديا لا تؤخر هذا الزائر. ألا ترى؟ إنه ينتظر...

أمسك بيد راسكو لنيكوف ليساعده على التوقيع. فهتف هذا قائلاً:

ـ دعني سوف أوقع بنفسي. ثم أخذ القلم وكتب اسمه في الدفتر فسلمه المستخدم المال وانسحب.

ـ مرحى! ألا تأكل الآن يا صديقي؟

فأجاب راسكو لنيكوف:

ـ بلى.

سأل رازوميخين الخادم قائلاً:

ـ هل لديكم حساء؟

فأجابت ناستاسيا وقد حضرت المناقشة من أولها:

ـ نعم لدينا من بقايا البارحة.

ـ هل هو حساء بالأرز والبطاطا؟

ـ نعم بالأرز والبطاطا.

ـ كنت أخشى أن لا يكون كذلك... إلينا بالحساء واعطنا شاياً.

ـ ها أنا ذاهبة.

كان راسكو لنيكوف يرقب ما يجري بدهشة عميقة ورهبة متبلدة وقد استصوب الصمت وانتظار ما سيحدث. قال مخاطباً نفسه: «يخيل إلي أنني لست واهماً بل أن هذا يبدو واقعياً».

استغرقت مهمة ناستاسيا دقيقتين عادت بعدهما بالحساء والشاي. كانت تحمل ملعقتين وطبقين وما يلزم مائدة الطعام من ملح وبهار

وخردل مما لم ير راسكو لنيكوف ترتيباً مثله من قبل، بل إنها كانت تحمل أيضاً غطاء مائدة نظيف.

قال رازوميخين:

ـ يحسن بـ «پراسكو في يافلوفنا» أن ترسل إلينا قدحين من الجعة وسنشربهما باستمتاع يا ناستاسيا.

فغمغمت الخادمة:

ـ لعمري إنك تعني بنفسك... ومضت تنفذ الأمر.

استمر راسكو لنيكوف يحدق فيما حوله بذهوله المعهود لكنه لم يخل هذه المرة من اهتمام ملموس. بينما جلس رازوميخين إلى جانبه على «الديوان» وراح يرفع رأسه بحركة غير حاذقة فأسندها إلى ذراعه ثم بدأت يده اليمنى بعد ذلك تسمى بين إناء الحساء وفم راسكو لنيكوف مرات وهو يستوقف الملعقة أمام فمه كل مرة لينفخ عليها خشية أن يكون الحساء ساخناً فينزعج المريض. وكان الحساء بارداً تقريباً، غير أن ذلك لم يمنع راسكو لنيكوف فينزعج المريض. وكان الحساء بارداً تقريباً، غير أن ذلك لم يمنع راسكو لنيكوف من التهام ملء ملعقة وتكرار ذلك مرات. وفجأة توقف رازوميخين عن أداء مهمته وصرح بأنه يجب استشارة زوسيّموف الآن!

دخلت ناستاسيا في تلك اللحظة حاملة زجاجتين من الجعة وضعتهما على الطاولة فسأل رازوميخين راسكو لنيكوف قائلاً:

ـ أترغب في شرب قليل من الشاي؟

ـ نعم.

فصاح بناستاسيا قائلاً:

ـ اجري فوراً وائتي بالشاي يا ناستاسيا. إنني أعتقد أننا نستطيع الاستغناء عن رأي كلية الطب بصدد الشاي.. آه! ها هي الجعة أيضاً.

جلس رازوميخين على كرسيه وراح يفتك باللحم فتكاً ذريعاً وكأنه لم يقرب الطعام منذ ثلاثة أيام. وكان يحدث راسكو لنيكوف على قدر ما يسمح به فمه الممتلئ ويقول:

ـ يا صديقي العجوز روديا إنني أطعم عندك منذ ثلاثة أيام على حساب السيدة باشانكا وهي تعني بي عناية خاصة! إنني لا أرى مانعاً من مصارحتك بأنني لا أحتج ولا أعترض على عنايتها بي. ولكن ها هي ناستاسيا وقد جاءت بالشاي إنها تحسن التدبر. حسناً هل ترغبين في قدح من الجعة يا ناستاسيا؟

ـ يا لك من ماكر ممازح!

ـ إذاً من الشاي.

ـ أما هذا فنعم.

ـ حسناً قدمي لنفسك. بل انتظري سأقوم أنا على خدمتك. اجلسي إلى المائدة.

وقام فوراً بواجب رب الدار كأحسن ما يكون، فملأ القدح الأول ثم قدحاً ثانياً وترك طعامه وعاد يجلس على «الديوان» قرب صديقه. وللمرة الثانية مد ذراعه اليسرى إلى رأس راسكو لنيكوف يرفعها ثم راح يسقيه الشاي بالملعقة وهو ينفخ عليها لتبرد؛ وكأنه بذلك يساهم في شفاء المريض مساهمة فعلية.

أما راسكو لنيكوف فكان صامتاً لا يبدي مقاومة رغم شعوره بقدرته على الحركة واستعمال يديه بما يكفي للإمساك بملعقة وقدح بل لعله كان

يستطيع المشي، لكنه عمد بمكر حيواني إلى إخفاء طاقته وقواه متصنعاً البله والذهول مراقباً بنفس الوقت ما يحدث ومفكراً بإمعان فيما يرى. وبعد أن جرع محتويات الملعقة العاشرة، حرر رأسه من ذراع صديقه ودفع الملعقة بطيش ثم ترك رأسه تهوي على «الوسادة» وشعر بأنها وسادة حقيقية يكسوها غطاء نظيف مما ضاعف في حيرته.

تمتم رازوميخين وهو يعود إلى مجلسه الأول فيأكل ويشرب الجعة:

ـ ينبغي أن ترسل باشانكا اليوم أيضاً مربى التوت لنهيئ شراباً للمريض.

فسألت ناستاسيا وهي تمسك قدحاً بأصابعها الخمس وتمتص الشاي على قطعة السكر التي في فمها:

ـ ومن أين تأتي بالتوت؟

ـ إنه شائع وموجود في كل البقاليات يا عزيزتي. ألا ترى يا روديا؟ لقد وقعت هنا حكاية لم تطلع على تفاصيلها بعد: عندما فررت كالنشال في ذلك اليوم من مسكني دون أن تطلعني على عنوانك، غضبت غضباً شديداً وقررت أن أبحث عنك لأؤدبك. فشرعت أطاردتك منذ ذلك اليوم وأنا أبحث هنا وهناك ناسياً أنك تقطن هنا. خصوصاً وأنني ما كنت أستطيع أن أذكر هذا لأنني ما كنت أعرفه. أما مسكنك الأسبق فكنت أعرف أنه في «الزوايا الخمس» «خارلاموف». بحثت طويلاً عن هذا «الخارلاموف» وظهر لي فيما بعد أن اسمه هو «بوخ» وليس خارلاموف ولكن الأخطاء شائعة في أسماء الإعلام فاستأت استياءً بليغاً وعدت في اليوم التالي إلى مكتب الاستعلامات. تصور أنني خلال دقيقتين فقط استطعت أن أحصل على عنوانك لأن اسمك كان مسجلاً هناك.

ـ مسجل؟

ـ وكيف! مع ذلك لم يستطيعوا في ذلك المكتب أن يلموا بعنوان الجنرال كوبيلييف ليعطوه إلى شخص كان يسأل عنه بحضوري... لا أود إضاعة الوقت بالتفاصيل لذلك أقول لكلمة واحدة: إنني وصلت إلى هنا وأحطت علماً بكل ما يتعلق بك. نعم بكل شيء يا صديقي. أنا أعرف كل شيء وناستاسيا تشهد على ذلك وقد تعرفت إلى نيكوديم فوميتش. كذلك رأيت إيليا بيتروفيتش واتصلت بالحارس «فورنيك» وبالسيد ساميونوف ألكسندر غريغوربيفيتش أمين سر قسم شرطة الحي وأخيراً تعرفت إلى باشانكا وهي فضلاً عن ذلك الياقة العطرة في هذه المجموعة وناستاسيا لا تجهل ذلك.

فغمغمت ناستاسيا وهي تضحك ساخرة:

ـ لقد عرفت كيف تفتنها.

ـ هيه!.. يا ناستاسيا نيكيفوروفنا! ألا تصمتين؟

فانفجرت ناستاسيا ضاحكة وهتفت:

ـ أيها الحيوان. لكني بيتروفنا وليس نيكيفوروفنا.

ـ أخذنا علماً بذلك. والآن يا صديقي أردت قبل كل شيء أن أدخل الكهرباء إلى هنا لكي أبدل دفعة واحدة الأفكار والآراء الخاطئة المتكاثفة، لكن باشانكا انتصرت ثق يا صديقي أنني ما كنت أعتقد أنها بمثل... بمثل هذا الكرم. هيه. ماذا تقول؟

كان راسكو لنيكوف صامتاً لا يريم رغم أنه لم يغفل لحظة واحدة عن ملاحقة رازوميخين بنظرة ثقيلة ثابتة. واستمر رازوميخين قائلاً:

ـ لا أود إضاعة الوقت بمحاضرات تافهة. لذلك أقول: إنها إنسان كأحسن ما يكون ومن كل وجهات النظر.

كان يبدو على رازوميخين أن صمت راسكو لنيكوف لم يزعجه في شيء وأنه يكتفي بما كانت تثيره ناستاسيا من ملاحظات على حديثه الذي بدا وكأنه يدخل على نفسها لوناً من السرور الغامض.

هتفت هذه من جديد:

ـ يا لك من حيوان.

بينما استرسل هو وكأنه لم يسمع:

ـ المؤلم يا صديقي أنك لم تدرك كيف تتصرف منذ البداية. لم يكن ينبغي لك أن تعاملها هكذا! إن ذلك ـ ماذا أقول ـ إنه... إنها عقلية غريبة بَيْدَ أننا سنبحث في هذا فيما بعد.

صمت قليلاً ثم أردف قائلاً:

ـ خذ مثلاً هذه الناحية الدقيقة: كيف جعلت الحال يصل بها إلى درجة إمساك الطعام عنك؟ وأكثر من ذلك أيضاً تلك السفتجة!.. يخيل إلي أنك كنت فاقد الرشد عندما وقعت عليها، بينما كان مشروع زواجك من الفتاة ناتالي إبيكورفنا لا زال ماثلاً! أرأيت كيف أني ملم بكل شيء؟ إنني أرى هنا حبلاً حساساً وأنا حمار فاعذرني! ولكن بما أننا نتكلم عن الحماقات فماذا تظن؟ ألا ترى أن براسكوفي بافلوفنا أبعد من أن تكون حيواناً كما يلوح للمرء للوهلة الأولى؟

غمغم راسكو لنيكوف وهو لا يدري أيهما أفضل: أن يسكت صاحبه أم أن يدعه يستمر:

ـ نعم.

فهتف رازوميخين وقد بدا عليه السرور لسماعه صوت صديقه يجيبه:

ـ ليس كذلك؟ لكنها ليست ذكية جداً. هم؟ لقد قلت لك إن تلك عقلية غريبة وأنا من جانبي يا صديقي لا أستطيع فهم شيء: فهي تشرف على الأربعين من عمرها ولا تعترف إلا بست وثلاثين ولها كل الحق. ثم أقسم لك بأن حكمي افتراضي بحت لا يعتمد إلا على علم «الميتافيزيك»: إن ما يحدث بيننا هو بالنسبة إلي مسألة جبر لذلك فلست أفهم شيئاً، وكل شيء معقد! فهي ـ لما رأت أنك انقطعت عن الجامعة وخسرت الدروس والألبسة، وأنها بعد وفاة ابنتها لم تعد تستطيع اعتبارك فرداً من الأسرة ـ شعرت فجأة بالرهبة، أما أنت فإنك بدلاً من أن تستمر في حياتك كما كانت عليه في الماضي، انقلبت فجأة. ففكرت في طردك وقد أمضت زمناً طويلاً تفكر في ذلك المشروع ولكنها كانت تخاف على مالها خصوصاً وأنك أكدت لها بأن أمك ستدفع.

غمغم راسكو لنيكوف بصوت مرتفع واضح قائلاً:

ـ لقد كنت شديد النذالة حينما قلت ذلك. لقد أصبحت أمي أشبه بالمتسولات وكنت أنا أكذب لكي أغريها على قبولي في المسكن وإطعامي.

ـ لقد أحسنت صنعاً في هذا. إنما المزعج أنها استعانت بالسيد تشيباروف وهو رجل أعمال ومستشار في المحكمة العليا. ولولاه لما جرؤت «باشانكا» على تدبير شيء ضدك وهي تلك المرأة الخجول. لكن ذلك المستشار لم يكن خجولاً مثلها فكان أول ما سعى إلى معرفته هو: هل من أمل في أن تحصل صاحبة المسكن على مالها، فجاءه الجواب: نعم لأن أمه رغم أنها لا تملك إلا جراية قدرها مائة وعشرون روبلاً في السنة فإنها ستستغني عن الطعام لتكفل ابنها روديا وأن أخته على استعداد لبيع

نفسها كالرقيق إذا اقتضى الأمر لتساعد أخاها. وهكذا قرر ملاحقتك. لكن... ماذا بك؟ أراك قد اضطربت! هل أدركت الآن أنني أفهمك تماماً؟ إنه لم يكن عبثاً ذلك الحديث الذي أفضيت به إلى باشانكا عندما كانت تعدك واحداً من الأسرة وقد استقيت هذه المعلومات من حديثك ذاك... وسأقص عليك الآن ماذا وقع بالضبط.. حدث أنه بينما كان الرجل النبيل الحساس الذي هو أنت يدلي باعترافاته كان رجل الأعمال يستعد ليفوز بحصة الأسد وهذا هو السبب الذي من أجله أعطت باشانكا السفتجة برسم القبض إلى تشيباروف هذا وهو بدوره طالب بإلحاح أن يسدد المبلغ فلما اطلعت على سير الأمور أردت إرضاء لضميري أن أدلي بدلوي وهكذا أصبحت أنعم بتفاهم تام مع باشانكا وأوقفت بل وقتلت المؤامرة في مهدها مؤكداً لها أنك ستدفع دونما حاجة إلى هذا التدبير. هل فهمت ما أعني يا صديقي؟ لقد كفلتك فاستدعينا تشيباروف هذا وألقينا إليه بعشرة روبلات ثم استعدنا منه السفتجة التي لي الشرف بأنها أقدمها إليك. والآن فإن كلمتك هي وحدها موضع الاعتبار. خذ. هذه هي السفتجة وقد مزقتها كما ترى بما يناسب المقام.

وضع رازوميخين الورقة الممزقة على الطاولة فنظر إليها راسكو لنيكوف وفجأة استدار نحو الجدار دون أن يهمس بكلمة حتى أن رازوميخين نفسه شعر بصدمة في كرامته. قال:

ـ أرى يا صديقي أنني ارتكبت هنا نوعاً من الحماقة كما يبدو. بينما كنت أعتقد أنني أسري عنك بثرثرتي فإذا بي على العكس أثير سخطك.

قال راسكو لنيكوف بعد صمت دون أن يستدير:

ـ أهو أنت الذي لم أعرفك في بحراني؟

ـ نعم وحضوري كان يسبب لك نوبات وخصوصاً في المرة التي اصطحبت معي فيها زاميوتوف.

ـ زاميوتوف؟ أمين سر قسم الشرطة؟ لماذا؟

واستدار فجأة بينما تعلقت أبصاره بوجه رازوميخين:

ـ لكن ماذا دهاك؟ لِمَ تثور؟ كان يرغب في التعرف إليك وهو نفسه الذي عرض ذلك لأننا تحدثنا أنا وهو طويلاً عنك. ولولاه لما عرفت كل هذه الأمور. إنه غلام شجاع، غريب من نوعه، سريع الفهم ونحن الآن كأحسن الأصدقاء، نلتقي كل يوم تقريباً حتى أنني غادرت مسكني ذاك وجئت أسكن هذا الحي ولقد ذهبنا مرتين عند لويز. أتذكر لويز؟.. لويز إيفانوفنا.

ـ هل كنت أهذي؟

ـ وكيف؟ كنت لا تملك نفسك.

ـ ماذا قلت؟

ـ وماذا بعد؟ ماذا قلت؟ إن ما يقوله رجل يهذي معروف والآن لندع هذا ولنهتم بما هو أجدى. ثم نهض وأخذ قبعته وأراد الانصراف.

ـ سألتك ماذا قلت؟

ـ لعمري إذا كنت تصر! هل أنت خائف من أن تكون كشفت سراً، لا تخش: إنك لم تبح بشيء عن أميرتك. لكنك تحدثت كثيراً عن كلب «البولدوج» وعن أقراط للأذن وسلاسل للساعات وعن جزيرة «كريستوفسكي» ثم عن حارس معين. وقد بحثت أيضاً في: نيكوديم فوميتش وإيليا بيتروفيتش مساعده وأظهرت اهتماماً كلياً بطرف حذائك فكنت أبداً تطلبه بأنين قائلاً: «أعطوني قطعة النعل» حتى أن زاميوتوف

نفسه بحث عنها في كل الأركان ثم أعطاك تلك القذارة بنفسه بعد أن حملها بيديه النظيفتين البيضاوين المعطرتين المزينتين بالخواتم وعندئذٍ فقد خمدت حدتك ولبثت أربعاً وعشرين ساعة قابضاً على تلك القذارة بيديك مطبقاً عليها حتى تعذر سحبها منك ولعلها لا زالت في مكان ما تحت غطائك. كذلك كنت تطلب بإصرار قطع سروالك وكنت تبكي وأنت تطالب بها ورحنا نتساءل عن نوع تلك القطع التي تتحدث عنها، إنما لم نفهم غايتك. على كل حال انتهى هذا الآن والأهم أنك تملك في هذه اللحظة خمسة وثلاثين روبلاً سأحتفظ بعشرة منها وسترى بعد ساعتين ما سأكون قد عملت بها وخلال هذا الوقت سوف أستشير زوسيموف الذي هو لا شك هنا منذ زمن طويل خصوصاً وأن الساعة الآن قد جاوزت الحادية عشرة. أما أنت يا ناستاسيا فعليك بزيارته دائماً خلال غيبتي ولتهتمي بشأنه فتسقيه كلما طلب وتقدمي إليه ما يريد، وسأذهب إلى باشانكا لأتحدث إليها بما ينبغي أن يكون فإلى اللقاء.

خرج رازوميخين بينما راحت ناستاسيا تقول:

ـ إنه يناديها باشانكا يا له، من مهرج!

ثم نهضت وأصاخت السمع ولم تستطع مقاومة فضولها فاندفعت تهبط السلم في أثره لتنصت إلى الحديث الذي سيدور بينه وبين سيدتها التي كانت ولا شك مفتونة به.

لم تكد ناستاسيا تخرج بدورها حتى ألقى المريض غطاءه فجأة وقفز كالمجنون مبارحاً السرير. لكن ما هي تلك المهمة؟ هاهو ذا قد نسيها! فراح يتمتم: «يا إلهي! ودت لو عرفت شيئاً، شيئاً واحداً: هل يعرفون كل شيء أو لا يعرفون شيئاً؟ لعلهم يعرفون ويتصنعون الجهل بالأمر لتشويش

أفكاري خلال مرضي ثم الانقضاض علي فجأة واطلاعي على أنهم يعرفون كل شيء منذ حين، وأن سلوكهم ما كان إلا على سبيل الخدعة... فما العمل الآن وأنا الذي نسيت ما كنت أعتقد أنني أعرفه منذ نصف دقيقة؟».

كان واقفاً في وسط الحجرة يدور بأنظاره حوله وهو فريسة هياج عصبي أليم. مضى إلى الباب ففتحه وأنصت فلم يجد من يسترق السمع. وفي لحظة من صفاء الذهن اندفع إلى الزاوية التي تحجب السجادة المهلهلة الثغرة التي فيها ففحصها بعناية ثم أدخل يده في الثغرة باحثاً منقباً وسرعان ما أدرك أنه لم يكن يفكر في هذا بالضبط. تذكر أنه يسعى وراء قطع سرواله الممزقة وبطانة جيبه التي انتزعها والتي ألقاها مع قطع السروال في مكان لم يعد يذكره. ولما فتح باب المدفأة وبحث بين الرماد وجدها هناك فتأكد أنهم لم يبلغوا في البحث تلك المرحلة. بقيت قطعة النعل المتخلفة عن حذائه! ارتمى على السرير يبحث عنها فوجدها. كانت خلقة متأثرة من الاحتكاك قذرة. إن زاميوتوف لا يمكن أن يكون قد لاحظ عليها شيئاً. غمغم محدثاً نفسه: «هيه زاميوتوف! مكتب البوليس! لكن لمَ استدعوني إلى ذلك المكتب؟ وأين رقعة الدعوة؟ بَهْ! لا شك أنني أخلط بين الأمور فقد كان الاستدعاء أمس البعيد وليس اليوم وكنت أفحص طرف حذائي أما الآن فقد كنت مريضاً. فلمَ إذاً جاء زاميوتوف؟ ماذا في الأمر؟ هل يصور لي الخيال كل هذا أم أنه حقيقة؟ لا شك أنه حقيقة؟ آه. لقد تذكرت: ينبغي أن أفر. أفر بأسرع وقت. أفر تماماً! لكن إلى أين؟ وأين ملابسي؟ أين أحذيتي؟ ها لقد أخذوها وأخفوها. فهمت، ها هو معطفي لقد أفلت من انتباههم وها هو المال على الطاولة وها هي السفتجة. حمداً لله. سأحمل المال وأذهب، وسأستأجر مسكناً آخر. لن يجدونني بعد ذلك. لكن أين ذلك المكتب؟ مكتب الاستعلامات. إنهم سيكتشفونني كما

اكتشفني رازوميخين. الأفضل أن أفر تماماً. بعيداً إلى أمريكا. وأن أسخر منهم. وينبغي أن أحمل معي السفتجة الممزقة. لعلها تنفعني هناك. وماذا أحمل أيضاً؟.. إنهم يظنونني مريضاً ولا يصدقون أنني قادر على المشي... ها ها ها... لقد قرأت في عيونهم أنهم يعرفون كل شيء فليس لي إذن إلا أن أهبط السلم. لكن ما العمل إذا كان البيت مخفوراً ورأيتني وجهاً لوجه مع رجال البوليس؟ ما هذا الذي هنا؟ أهو شاي! آه لقد بقي شيء من الجعة. نصف زجاجة منعشة»...

أفرغ ما في الزجاجة فملأ كأساً كبيرة تجرعها دفعة واحدة بتلذذ وكأنه يطفئ النار المستعرة في صدره. ولم تمض دقيقة واحدة حتى أثرت الجعة في رأسه واعترته رعشة خفيفة لذيذة نوعاً... فاستلقى وجذب الغطاء على نفسه وعادت أفكاره تزدحم محمومة معقدة حتى استولى عليه النعاس فدفن رأسه بغبطة في الوسادة النظيفة، والتف بالغطاء النظيف الأنيق الذي استعيض به عن معطفه الممزق ونام نوم المحسنين.

استفاق على صوت شخص يدخل غرفته ففتح عينيه ليرى رازوميخين واقفاً على العتبة متردداً في الدخول. نهض راسكو لنيكوف فجأة بقوة وراح ينظر في عيني صديقه وكأنه يحاول تذكر شيء معين فهتف رازوميخين قائلاً:

ـ كم أنك مستيقظ؟ حسناً. ها أنا ذا إذن. سوف أقدم لك علماً بنفقاتي والتفت نحو السلم وصاح:

ـ ناستاسيا! إلي بالرزمة.

سأل راسكو لنيكوف وهو يلقي حوله نظرة قلقة:

ـ كم الساعة؟

ـ لقد نمت زمناً يقرب من ست ساعات... لقد نمت ست ساعات طويلة وقد أقبل الليل...

ـ رباه! كيف استطعتُ النوم؟

ـ وماذا بعد؟ نم كما تشاء! من ذا الذي يوقظك؟ أتكون على موعد مع أحد؟...

إن لدينا من الوقت ما يكفي. وأنا أنتظر يقظتك منذ ثلاث ساعات. وقد جئت مستطلعاً مرتين. فكنت في كلتيهما نائماً. وذهبت مرتين إلى دار زوسيِّموف فلم أجده كذلك. لكن سوف يحضر. وقد اضطررت للتغيب قليلاً لأعمالي الصغيرة الخاصة لأنني كما أعلمتك أبدلت مسكني اليوم مع عمي. ألا تعرف أن لي عماً الآن؟ لكن إلى الشيطان. هذا لا يهم. لنعد إلى العمل. وها نحن... فكيف تشعر الآن أيها العجوز؟

ـ أنا على خير حال. لم أعد مريضاً يا رازوميخين. هل أمضيت زمناً طويلاً هنا؟

ـ طبعاً طالما أنني أخبرتك بأنني أنتظرك منذ ثلاث ساعات...

ـ كلا! أعني قبل ذلك؟

ـ كيف قبل ذلك؟

ـ أقصد منذ كم من الوقت جئت هنا؟

ـ غريب. لقد حدثتك بذلك البارحة مطولاً. ألا تذكر؟

مضى راسكو لنيكوف يفكر. كان يبدو له أن ما حدث لا يمكن أن يعدو الحلم. فلم يكن يذكر شيئاً. لذلك عاد ينظر إلى رازوميخين مستفسراً فقال هذا:

ـ هم... لقد نسيت إذاً... لقد بدا لي منذ حين أنك لم تكن مالكاً قواك

تماماً وأعتقد أن النوم قد أفادك وأرى أن وجهك يبدو مشرقاً. فمرحى إذاً. لسوف تعمل ولسوف تذكر كل شيء اللحظة. والآن انظر يا عزيزي انظر.

وراح يزيل رباط الحزمة التي بدا مهتماً بها. وقال:

ـ انظر يا صديقي لقد كنت شديد الاهتمام بهذه الناحية. لأنني أود الآن أن تعود رجلاً! حسناً لنبدأ من الأعلى: أترى هذه القبعة «كاسكيت» أنها رغم جمالها لم تكلفني مبلغاً كبيراً فاسمح لي أن أضعها على رأسك لتجربتها.

فدفعه راسكو لنيكوف بشيء من العنف وقال:

ليس الآن. فيما بعد.

ـ أما هذا فلا! يا صديقي روديا. لا تلح! سيكون «فيما بعد» متأخراً! ولن أنام الليل لأنني اشتريت هذه الأشياء دون معرفة مقاساتك والآن. أرني... هاه... إنها مطابقة تماماً كما لو كان رأسك معي! أتدري أن غطاء الرأس هو القطعة المهمة في مجموع الملابس؟ إن صديقي تولستيا كوف يضطر إلى رفع قبعته البالية إذا وجد بين جمع من الناس بينما يكون الجميع محتفظين بقبعاتهم فيشكره الجميع ظناً منهم أنه شديد الاحترام ولا يعلمون أنه يخجل من إبقاء قبعته الزرية على رأسه.

والتفت إلى ناستاسيا وقال وهو يضع قبعة راسكو لنيكوف العتيقة إلى جانب الجديدة التي اشتراها:

ـ انظري يا ناستاسيا إلى هاتين القبعتين الموجودتين هنا، إنه يطلق على هذه اسم قبعة. ولعلها تسمية مجازية. ولكن هل تعرفان كم دفعت ثمناً لهذه القبعة الجديدة؟

قالت الخادم:

ـ عشرون كوبيكاً على الأقل.

عشرون؟ ويحك. إن عشرين كوبيكاً اليوم لا تشتريك أنت فكيف تشتري قبعة!

لقد دفعت ثمانين كوبيكاً ثمناً لها وما ذلك إلا لأنها مستعملة بعض الشيء... إنما بشرط أن يعطوك بدلاً عنها في العام المقبل. قبعة دون مقابل! والآن لنقم بجولة في الأماكن «الواطئة» كما كنا نقول في الجامعة. أعلمك قبل كل شيء أنني فخور بهذه السراويل (ونشر أمامه سروالاً كان في الربطة) لن تجد فيها ثقباً ولا لطخة وهي بلون «الصدارة» وهذه من متطلبات العصر. ولا عيب فيها غير أن تكون أنت الشخص الثاني الذي يلبسها. لكن لا تنسى أن الأشياء المستعملة أحسن من الأشياء الجديدة لأنها تكون أكثر مرونة وانسجاماً... اسمع يا روديا إنني أعتقد أن الإنسان الذي يريد دعم مركزه في الأوساط الاجتماعية مرغم على ملاحة متطلبات الفصول ولما كنا في فصل الصيف فقد اشتريت لك ألبسة صيفية. وفي الخريف سوف يلزمك ثوب من قماش يبعث الدفء لتستطيع نزع هذه الملابس وأنا واثق أنها بانتظار الخريف ستصبح أسمالاً بالية بفضل إهمالك. والآن كم تعتقد أنني دفعت ثمناً لهذا؟ مع العلم أن شرط الاستبدال مجاناً في السنة المقبلة قائم أبداً؟.. روبلين وخمسة وعشرين كوبيكاً! أن فيديا ييف ـ وهو الذي اشتريت من مخزنه هذه الثياب ـ يتعامل دائماً مع زبائنه على أساس استبدال العتيق بجديد مجاناً. ومعنى ذلك أنك ستدفع مرة واحدة فقط. والآن لننتقل إلى الأحذية كيف تراها! صحيح أنها تبدو مستعملة لكنها ستخدمك شهرين كاملين وهي فوق ذلك بضاعة أجنبية كان يحتذيهما أحد كبار الموظفين في السفارة البريطانية

وقد باعهما منذ أسبوع ولم يكن قد استعملهما أكثر من أسبوع أيضاً وكان الدافع على البيع الحاجة إلى المال. والثمن: روبل واحد وخمسين كوبيكاً. فهل تراني أجدت؟

قالت ناستاسيا ملاحظة:

لعلها لا تطابق حجم قدميه.

هتف رازوميخين وكأنه أهين في كرامته وقال وهو يخرج من جيبه حذاء راسكو لنيكوف القديم البالي:

لا تطابق حجم قدميه؟ إذاً ما تسمين هذا (وأشار إلى الحذاء العتيق) أنا أحتاط لكل شيء. لقد عاينوا وراعوا قياس هذه القاذورة التي كانت حذاء وبذلك أبرمت الصفقة بدقة تامة ثم التفت إلى راسكو لنيكوف وقال مردفاً:

ـ أما فيما يتعلق بالألبسة الداخلية فلقد اتفقت حول موضوعها مع صاحبة مسكنك وها هي ذي ثلاثة قمصان من القماش مع ربطات عنق مناسبة. والآن لنجمع النفقات: ثمانون كوبيكاً للقبعة، روبلان وخمسة وعشرون للثوب فيكون المجموع ثلاثة روبلات وخمسة كوبيكات، روبل وخمسون كوبيكاً للأحذية لأنها في حالة جيدة فيصبح المجموع أربعة روبلات وخمسة وخمسين كوبيكاً أما الألبسة الداخلية فقد اشتريتها بالجملة بخمسة روبلات فيبلغ المجموع تسعة روبلات وخمسة وخمسين كوبيكاً وتفضل بقبول الخمسة والأربعين كوبيكاً الباقية... ها أنت الآن يا روديا قد عدت جديداً. أما معطفك فهو مناسب في الوقت الحاضر ويستطيع الاحتمال بعض الزمن. خصوصاً وأنه يحمل علامة «شارمر» وقد تركت لك أمر العناية بالجوارب والأشياء الباقية وتستطيع انتقاءها كيف

شئت. يبقى لديك خمسة وعشرون روبلاً دون أن تنزعج من أجل ياشانكا أو أن تفكر في أجرة السكن لأنني كما قلت لك جعلت لك حساباً جارياً غير محدود. والآن اسمح لي بأن أرجوك باستبدال هذا القميص الذي ترتديه ولن أدهش إذا ما ثبت أن مرضك كله مختبئ فيه.

كان راسكو لنيكوف يسمع هذا الحديث بامتعاض وقد بدت على وجهه دلائل الاشمئزاز وكأن شراء تلك الملابس أساء إليه فقال وهو يلوح بيده:

دعني لا أريد الآن.

فهتف رازوميخين.

ـ هذا لن يكون أيها العجوز! أتعتقد أنني أتلفت حذائي بالمشي لأتلقى هذا الجواب؟ هيا ناستاسيا الشجاعة ساعديني ولسوف نتغلب على مقاومته وسنجعله يبدل ثيابه. وقد فعل!...

ارتمى راسكو لنيكوف بعدئذٍ مستلقياً وهو صامت يفكر منتظراً خروجهما. وسأل بمرارة وأنظاره نحو الجدار:

ـ بأي مال اشتُريت هذه الحاجيات!

بأي مال؟ اسمع هذا الهزر! بمالك! لقد جاء موظف منذ قليل يحمله إليك! ألا تذكر أنّ أمك أرسلته بواسطة فاكروشين؟

ـ نعم لقد بدأت أذكر الآن.

نطق راسكو لنيكوف بتلك العبارة بصورة يقطر ألماً. بينما كان رازوميخين يرقبه بشيء من القلق. وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل رجل طويل القامة عريض المنكبين كان يبدو أنه يعرف راسكو لنيكوف معرفة سطحية فهتف رازوميخين بالقادم قائلاً بلهجة مرحة:

ـ زوسيُموف ها أنت ذا أخيراً.

الفَصلُ الرابعُ

كان «زوسيّموف» طويل القامة ضخم الجثة ذا وجه ممتلئ شاحب نظيف جداً وشعر أشقر مائل إلى البياض منتصب على رأسه يضع على عينيه نظارات أنيقة ويلمع في أصبعه خاتم ذهبي، في السابعة والعشرين من عمره يرتدي معطفاً من الجوخ الخفيف أودع فيه الخياط عنايته وفنه، وسراويل صيفية فاتحة اللون حتى ليحكم الإنسان للوهلة الأولى أنه شديد العناية بهندامه ومظهره. كان قميصه ناصع البياض وصدارته مزينة بسلسلة ذهبية تهبط حتى أسفل بطنه يبدو متثاقل الخطى ثقيل الظل رغم المجهود الذي يبديه ليظهر بمظهر المرخ وكانت العناية التي يحيط بها نفسه واضحة في كل خطوة وكل لحظة حتى أن كل معارفه كانوا يشعرون بأنه إنسان ثقيل ولكنهم يتفقون مع ذلك بأنه خبير في مهنته.

هتف رازوميخين:

ـ يا عزيزي! لقد ذهبت مرتين إلى منزلك فلم أجدك .....ها إن المريض قد استعاد حواسه.

فسأل زوسيّموف مغمغماً!

ـ أرى ذلك أرى ذلك.. والآن كيف حالك يا راسكو لنيكوف؟

ومضى دون أن ينتظر جواباً فجلس على طرف «السرير» باسترخاء وإهمال. قال رازوميخين:

ـ إنه لا يزال ينظر بمنظار أسود إلى الأشياء ولقد اضطررنا منذ لحظة على أن نبدل له ثيابه بالقوة فكاد أن يبكي.

ـ كان يجب إرجاء ذلك إلى ما بعد طالما أنه لم يرق له... أرني نبضك أما زال رأسك يؤلمك؟ همْ؟...

أجاب راسكو لنيكوف بلهجة يشوبها الغضب وقد نهض فجأة ولمعت عيناه ببريق خاطف:

ـ أنا في حالة جيدة... جيدة تماماً. وتهاوى من جديد على الوسادة مستديراً نحو الجدار.

كان «زوسيُموف» يرقبه باهتمام فقال:

ـ حسناً جداً. إنه يتقدم... هل تناول طعاماً؟

فراح رازوميخين يعدد له أنواع الطعام التي تناولها المريض ويسأله عن الألوان التي يجب تقديمها إليه في المستقبل. فقال:

ـ فليطعم ما يشاء... حساء.. شاي باستثناء البصل والقثاء ولحم البقر... واقطعوا عنه الدواء والعلاج وسأعوده لأراه.

قال رازوميخين بلهجة الواثق:

ـ سوف أجعله يتنزه مساء غد وسنمضي إلى حديقة «يوسوبوف» ثم إلى «الباليه دو كريستال».

ـ حسناً لن أعوده غداً ولن تضيره جولة صغيرة وسنرى بعد ذلك...

ـ مما يؤسف له أنني اليوم أقيم حفلة على بعد خطوتين من هنا... كم وددت لو استطاع أن يشاركني فيها حتى ولو كان مستلقياً على سريره! هل تأتي أنت يا زوسيُموف؟ لا تنس أنك وعدتني!

ـ طبعاً لكنني سأكون متأخراً قليلاً. ماذا ستقدم؟

ـ لا شيء أكثر من شاي وعرق وبعض السمك ثم الحلوى أيضاً. هذا كل ما هناك لأن الحفل مقتصر على الأصدقاء.

ـ ومن هم ضيوفك؟

ـ أشخاص من الحي، كلهم حديثو المعرفة بي باستثناء عم عجوز لي ارتبطت به مؤخراً بأسباب معينة لأنه جاء إلى «بطرسبورغ» أمس فقط. إننا لا نلتقي أكثر من مرة كل خمس سنوات.

ـ وماذا يعمل عمك؟

ـ لقد كاد أن يتلف حياته كلها في إحدى المقاطعات كرئيس مركز البريد وهو الآن يتقاضى راتباً تقاعدياً وله من العمر خمسة وستون عاماً وهو معجب بي وسيكون في الحفلة قاضي التحقيق المختص بالحي «بورفير سيميو نوفيتش» وهو رجل قانوني هل تعرفه؟

ـ أهو من أقربائك أيضاً؟

ـ قريب بعيد جداً. لكن لِمَ امتعضت قليلاً؟ ألأنك اختلفت معه ذات يوم تكاد الآن أن تلتهمني بنظرتك الغاضبة؟

ـ أنا لا أعلق أي اهتمام عليه.

ـ ذلك أجدى إذن. وسيكون بين الموجودين طلاب وأستاذ وموظف وموسيقي ثم الضابط «زاميوتوف».

ـ قل لي إذا أمرت ما هي العلاقة التي تربطك أو تربطه (وأشار بأصبعه نحو راسكو لنيكوف) بواحد مثل «زاميوتوف»؟

ـ أوه! يا لك من رجل منعص تهتم بالأسئلة المتعلقة بالمبدأ! إنك تعتمد في حياتك على مثل هذه النظريات وكأنك جبلت عليها وبذلك لا يجرؤ المرء على أن يستغرق في السرور معك! أما بالنسبة إلي فإنني أبحث قبل كل شيء عن الرجل الطيب. تلك هي نظريتي. وزاميوتوف رجل طيب جداً.

ـ نعم! ويأكل من المعالف...

غضب رازوميخين وصاح فجأة.

ـ ليكن! لا يهمني ذلك. هل امتدح نفسه أمامك بمثل هذا القول؟ إن ما يهمني فيه هو أنه رجل طيب. ولو اضطر الإنسان للتدقيق في كل الناس لأخفق ـ ولأعجبه ـ في العثور على شخص ممتاز واحد. أنا أراهن أن المدقق المتعمق لا يدفع ثمناً لشخصي بصلة واحدة ولو أضيف إليّ شخصك!

ـ هذا قليل! أنا أدفع بصلتين...

ـ أما أنا فواحدة فقط. قد يكون زاميوتوف خبيثاً أو سفيهاً، غير أن أستطيع دائماً إيجاد الفرصة التي تمكنني من جذب شعره. إذ ينبغي أن يعمد المرء مع مثله إلى المداراة واللطف وليس إلى العنف، لأنه يصعب إصلاح المرء بالشدة والتنكر له، خصوصاً إذا كان خبيثاً. ينبغي أن يكون الإنسان شديد الدهاء مع الخبيثين. وأنت أيها التقدمي الأحمق، إنك لا تفهم شيئاً من هذا. أنت تحترم الطبيعة البشرية فقط، بل وتنتقد نفسك أيضاً. مع ذلك لا بأس من أن أخبرك بأن بيننا نوعاً من العمل.

ـ يسرني أن أعرف ذلك العمل...

ـ إنها لا زالت قضية الدهان... أقصد دهان البيوت. لكنا سنجد طريقة لإنقاذه من ورطته وأعتقد أن لا خطر عليه الآن فقد وضحت القضية وكل ما نعمله الآن إن هو إلا ضرب عصفورين بحجر واحد.

ـ أي دهان بيوت تعني؟

ـ كيف؟ ألم أخبرك بالأمر؟ كلا؟ حسناً. أعتقد أنني سردت لك البداية فقط!.. أنت تعرف حكاية العجوز المرابية أرملة الموظف... حسناً. إن أحد الدهانين متهم بالقضية الآن.

ـ آه.. نعم. نعم. لقد سمعت شيئاً عن تلك الجريمة. وهي قضية استلفتت انتباهي إلى حدٍّ ما وقد قرأت ما نشرته الصحف... استمر...

كانت ناستاسيا واقفة قرب الباب تتابع الحديث باهتمام فقالت موجهة حديثها إلى راسكو لنيكوف:

ـ لقد قتلوا إليزابيت أيضاً...

فغمغم راسكو لنيكوف بصوت مختنق:

ـ إليزابيت؟

ـ نعم إليزابيت. بائعة الثياب القديمة. أنت تعرفها جيداً. لقد كانت تتردد علينا وقد رتقت ذات مرة قميصك.

أدار راسكو لنيكوف وجهه نحو الجدار وراح يتأمل زهرة بيضاء منقوشة على سجادة الجدار الصفراء القذرة الممزقة ويعد بتلاتها والخطوط التي تحيط بها.

شعر أن أعضاءه قد تصلبت وكأنها لم تعد قطعة من جسمه فلم يحاول القيام بأية حركة بينما ظلت أنظاره معلقة بالزهرة البيضاء. ونظر زوسيِّموف بامتعاض واضح إلى ناستاسيا وقد أزعجه قولها وقال موجهاً حديثه إلى رازوميخين:

ـ حسناً، وماذا وقع لذلك الدهان؟..

أدركت ناستاسيا أنه يطلب إليها السكوت فزفرت وصمتت بينما أجاب رازوميخين بلهجة المتفاخر:

ـ إن ذلك المسكين قد اتهم بالجريمة.

ـ هل أقيمت ضده الدلائل؟ ما هي البراهين؟

ـ مجرد شبهات وظنون. غير أن ما أخذ عليه لا يمكن أن يكون مهماً. ما كان هذا ينبغي شرحه. إنها ظنون كتلك التي أحاطت بالآخرين: كوخ وبيستريا كوف، اللذين أوقفا في حينه. أما كيف وقع ذلك فإن الإنسان ليخجل من ذكره... ومن المنتظر أن يزورني «بيستريا كوف» اليوم! وعلى فكرة يا روديا أنت تعرف هذه القضية. فقد وقعت قبل مرضك أعني قبل أن يغمى عليك في مركز البوليس حينما كانوا يتحدثون عنها هناك!

نظر زوسيُموف إلى راسكو لنيكوف بفضول لكن هذا لم يطرف.

ـ أتدري يا رازوميخين بأنك تبدو مولعاً في التدخل في كل الأمور؟..

ـ المهم أن أستطيع تخليص الدهان المسكين من ورطته.

قال ذلك وهو يهوي بيده على المائدة التي كانت بجانبه وقد استبد به الحماس وصمت قليلاً ثم أردف:

ـ إنه ليس عاراً أن يخطئ المرء... بل إن الخطأ مفيد لأنه يوصل الإنسان إلى الحقيقة! لذلك فأنا لا أنقم على البوليس خطأه بل إن ما يزعجني في الموضوع هو استمساكهم بالخطأ. وأنا أميل إلى يورفير رغم ذلك. والآن لننظر في الأسباب التي جعلت رجال «البوليس» يسلكون طريقاً خاطئاً: إنهم يعتمدون على تناقض يدعون وقوعه في أقوال كوخ وبيستريا كوف. فهما قررا أنهما شاهدا الباب مغلقاً أول الأمر ثم لما

عادا ومعهما الحارس وجداه مفتوحاً. لذلك فقد وجب أن يتهما بالجريمة فتأمل هذا المنطق!

ـ هيا... هيا. لا تندفع! لم يكن لديهم غير ما عملوا. وعلى فكرة كوخ أعتقد أنني أعرف عنه شيئاً... إنه كان يشتري من العجوز «الرهائن» التي يعجز أصحابها عن تسديد ما استلفوه عليها.

ـ نعم إنه لص! وهو يشتري أيضاً السندات المالية! إنه فارس أعمال! ليحمله الشيطان! أنا لا يزعجني هذا ألا تفهم! إن الوتيرة التي يسيرون عليها هي كل ما يثير أعصابي... «الروتين» مع ما فيه من سخف وتضليل... إنني أعتقد أن في مقدورهم في هذه القضية على الأقل أن يتخلوا قليلاً عن أساليبهم البالية وأن يتبعوا نهجاً جديداً خاصاً. إن الملابسات «البسيكولوجية» في هذه القضية تتطلب نهجاً خاصاً غير عادي. إنهم يدعون أن لديهم «حقائق» أو ما يسمونه بالوقائع الثابتة. لكن تلك الوقائع «الثابتة» ليست كل شيء في سياق التحقيق. بل إن نصف الحل يتوقف على الطريقة التي يفهمون بها تلك الوقائع!

ـ يبدو أنك تفهمها خيراً منهم!

ـ طبعاً... طبعاً... اسمع هذه المعجزة التي يتذرعون بها: في صبيحة اليوم التالي للجريمة، كانوا يستجوبون كوخ وبيستريا كوف رغم أنهما أوردا أدلة لا تقبل الجدل، تدعم أقوالهما وتبين تصرفاتهما في ذلك اليوم المشؤوم. فوقع حادث غير منتظر. إذ تقدم شخص يدعى «دوخكين» ـ وهو فلاح يدير حانة تقع مقابل البناء الذي وقعت فيه الجريمة ـ وقدم للرئيس علبة حلي تحوي على قرط للأذن وأدلى بالأقوال التالية:

قال: «إنه أول أمس مساء، بعد الساعة الثانية، ـ لاحظ التاريخ

والوقت ـ جاءه العامل الدهان نيكولا، وهو من رواد حانته، يحمل علبة صغيرة فيها قرط من الذهب بأحجار لامعة صغيرة ورجاه أن يسلفه روبلين عليها. ولما سأله من أين له هذه الحلية؟ أجابه بأنه عثر عليها على الرصيف! فاقتنع بجوابه وأعطاه روبلاً واحداً لأنه قدر أنه إذا رفض تسليفه أي مبلغ فإنه سيمضي إلى سواه. وعلى ذلك فإن من الأفضل والحالة هذه أن يقرضه بعض المال خصوصاً وأنه سينفقه في حانته. وهكذا احتفظ بالحلية الذهبية وأعطاه الروبل وهو عازم على إبلاغ رجال الشرطة إذا اتضح أنها كانت مسروقة!».

لا شك أنت ترى أن تلك الحكاية تجعلك تنام وأنت واقف على قدميك! لأن «دوخكين» كاذب في روايته وأنا أعرفه فهو إذا كان قد «لطش» من نيكولا حلية تساوي قيمتها ثلاثين روبلاً لقاء روبل واحد فليس ذلك ليخبر رجال الشرطة فيما بعد كما صرح! ولم تقف قصته عند هذا الحد بل إنه تابع يقول:

«إن هذا الفلاح «نيكولا ديمانتبيكس» معروف من قبلي... فهو من مقاطعة «ريازان» التابعة لناحية «زارائيسك» وأنا شخصياً من هناك ولذلك أعرفه منذ أن كان طفلاً. فهو يحب الشراب رغم أنه ليس مدمناً. وأنا أعرف أنه يشتغل مع زميله «دميتري» الذي هو كذلك من بلدته. وقد شهدته يجرع كأسين متتالين يدفع ثمنها من الروبل الذي اقترضه مني ثم يطبق على ما بقي له منه ويمضي. لم يكن «دميتري» معه في تلك اللحظة. وفي اليوم التالي سمعنا أن أليونا إيفانوفنا وأختها إليزابيت قد قتلتا بضربات فأس. وكنت أعرف العجوز وأختها فغمرني شك مفاجئ حول مصدر الحلية التي أتاني بها «نيكولا» وذهبت لأرى حيث يشتغل مع «دميتري» في ذلك البناء ورحت أسأل بدهاء وحذر لأعرف شيئاً عن مصدر الحلية وكان أول سؤال وجهته هو:

ـ هل نيكولا هنا؟

فأجابني دميتري أن نيكولا يحتفل اليوم بالشراب لأنه عاد مساء أمس عند الشفق ثملاً مترنحاً ولم يلبث معي أكثر من عشر دقائق في الدار ثم خرج من جديد ولم أره بعد ذلك فصممت على إنهاء العمل وحدي.

ولما كان المسكن الذي يدهنون جدرانه في الطابق الأول وكان يفضي إلى السلم الذي يقود إلى حيث تقطن الضحيتان فقد احتفظت بهذه الملاحظة لنفسي عازماً على الإفادة منها في ربط الحوادث واستقصيت كل المعلومات من الجريمة وعدت إلى داري فريسة للشكوك وفي صباح اليوم التالي شاهدت «نيكولا» داخلاً حانتي وقد خف ثمله وبدا أنه لم يأكل بعد شيئاً وقدرت أنه يستطيع فهم الحديث الذي سأوجهه إليه فلما جلس على مقعد وحيداً ـ ولم يكن في الحانة إلا رجل آخر غريب مدمن كان نائماً في تلك اللحظة على مقعده باستثناء الفلاحين اللذين يقومان بالخدمة ـ اقتربت منه ودار بيننا الحديث التالي. قلت:

ـ هل رأيت دميتري؟

ـ كلا لم أره!

ـ ولم تذهب إلى حيث يشتغل؟

ـ لم أذهب منذ أول أمس.

ـ ولكن أين نمت ليلتك هذه؟

ـ في حي «الرمال» عند آل كولومنا.

ـ ومن أين جئت بذلك القرط أمس؟

فأجاب دون أن ينظر إلي:

ـ عثرت عليه على الرصيف.

ـ هل سمعت أن في ذلك المساء بالذات وفي تلك الساعة أيضاً وقع كذا وكذا على السلم الذي تشتغل في مسكن يطل عليه؟

ـ كلا! لا أعرف شيئاً.

فلما قصصت عليه ما وقع كان يصغي إلي وهو شاحب اللون متسع الحدقتين، وغدا أقرب إلى لون الحكك ورأيته يأخذ قبعته ويحاول النهوض فعملت على استبقائه وقلت:

ـ انتظر يا نيكولا. ألا تشرب قدحاً؟ ثم غمزت إلى أحد الفلاحين مشيراً إلى الباب ليقف عنده وتركت بدوري الخوان الذي كنت أقف وراءه، وفجأة نهض نيكولا دون أن نستطيع اللحاق به وركض نحو الباب وخرج مندفعاً ثم اختفى عند منعطف الطريق!.. فازدادت شكوكي وتأكد لي أنه هو القاتل!».

فقال زوسيُموف بصوت خافت:

ـ ذلك واضح.

ـ انتظر واسمع النهاية: غني عن الذكر أن رجال الشرطة راحوا على قدم وساق يبحثون عن نيكولا وأنهم أوقفوا دوخكين وفتشوا منزله وحانته وكذلك فتشوا مسكن دميتري فجعلوا عاليه سافله ولم ينج منهم آل كولومنا واستطاعوا أمس الأول القبض على نيكولا وسوقه إلى السجن. وجدوه على ما يبدو في «خان» بالقرب من مكان نسيته ويبدو أنه لما بلغ ذلك «الخان» نزع صليبه الفضي من عنقه وطلب استبداله بقدح من العرق شربه. ولم تمض على وجوده بضع دقائق حتى شاهدت امرأة ـ كانت تقصد الإصطبل لتحلب البقرات ـ نطاق نيكولا معقوداً إلى عمود في السقف على شكل عقدة سيالة ورأته يصعد على مقعد محطم ويحاول

إدخال عنقه خلال العقدة فاستطاعت أن تطلق صيحات مذعورة هرع على أثرها عدد من الناس ولما قيل له:

ـ إذاً هذا ما كنت تريد عمله؟

أجاب:

ـ خذوني إلى دائرة البوليس لسوف أعترف بكل شيء.

وهكذا اقتادوه بموكب يليق به دائرة البوليس التي طلب أن يأخذوه إليها وهي التي في هذا الحي. وهناك راحوا يستجوبونه فعرفوا اسمه الكامل وأن له من العمر اثنين وعشرين عاماً فسألوه.

ـ هل شهدت أحداً على السلم خلال الساعة كذا وكذا بينما كنت تشتغل مع دميتري.

فأجاب:

ـ يجوز. لقد مر عدد من الناس. لكننا لم ننتبه إليهم.

س: هل سمعتما حركة ما أو ضجيجاً؟

ج: لم نسمع شيئاً يلفت النظر.

س: لكن أنت يا نيكولا هل قتلت وسلبت في ذلك اليوم وفي ساعة كذا تلك العجوز وأختها؟

ج: لا علم لي بشيء من ذلك بل وما كنت أظن أن هذا سيقع وقد سمعت القصة من آتاناس يا فليتش للمرة الأولى. وكان ذلك في الحانة.

س: ومن أين جئت بذلك القرط الذهبي؟

ج: لقد وجدته ملقى على الرصيف.

س: لِمَ لم تذهب في اليوم التالي إلى عملك كالمعتاد؟

ج: لأنني كنت أسكر.

س: وأين كنت تسكر؟

ج: في أمكنة كذا وكذا.

س: ولِمَ فررت من لدن دوخكين؟

ج: لأنني كنت خائفاً.

س: وممّ كنت خائفاً؟

ج: كنت خائفاً من المحاكمة.

س: ولِمَ تخاف منها طالما أنك لست مجرماً؟...».

وهكذا يا زوسيْموف سواء صدقت أم لم تصدق، ألقي عليه هذا السؤال السطحي وبهذه العبارات بالذات. فما رأيك؟

ـ ليس سخيفاً إذا كانت القرائن موجودة واضحة.

ـ أنا لا أتحدث الآن عن الأدلة بل عن السؤال. عن الطريقة التي يفهم بها. هؤلاء الناس واجباتهم! إلى الشيطان كل هذا! لقد اعتصروه بالأسئلة عصراً حتى اعترف وقال: «كلا لم أجد الحلية على الرصيف بل وجدت العلبة في المسكن الذي نشتغل فيه أنا ودميتري» ولما سألوه: وكيف حدث ذلك أجاب:

ـ كنا دميتري وأنا قد اشتغلنا طوال اليوم وكانت الساعة الثامنة حين هممنا بالانصراف وإذا بدميتري يأخذ فرشاة مغموسة بالدهان فيلطخ وجهي به على سبيل المزاح ويفر. فتبعته غاضباً وأنا أصرخ كالوحش الجريح ولم أكد أبلغ الباحة حتى اصطدمت بالبواب الذي كان يرافقه بعض السادة ولا أذكر عددهم. وهنا راح البواب يسمعني حماقات حتى جاء

البواب الثاني هارعاً وخرجت زوجة الأول من كوخها وراحت تدعم زوجها وتساعده في سبابه وكذلك كان هناك رجل وبرفقته سيدة كانا ينتظران في تلك اللحظة على الباب الخارجي فراحا يوبخاني أيضاً لا لشيء إلا لأننا دميتري وأنا أحدثنا ضجيجاً وسببنا في تأخيرهما عن متابعه السير. والحقيقة أنني كنت في تلك اللحظة قابضاً على فروة رأس دميتري طارحاً إياه أرضاً منهالاً عليه بالضرب وكان دميتري بالمثل قابضاً على شعري يضرب وجهي ويركلني بساقيه دون أن نكون حانقين بل كانت القضية مجرد مزاح فقط. وتخلص مني دميتري وانطلق إلى الشارع فهرعت وراءه لكنني لم أبلغه فعدت إلى المسكن الذي كنا نشتغل فيه لأخذ أدواتي التي تركتها هناك عند لحاقي بدميتري ولأرتب العدة. وعندئذٍ شاهدت في الممشى قرب الباب بمحاذاة الجدار علبة صغيرة تعثرت بها قدمي فلما انحنيت عليها متفحصاً رأيت شيئاً ملفوفاً في ورقة بعناية. وإذا هو قرط ذهبي».

صاح راسكو لنيكوف فجأة وهو يلقي نظرة وجلة شاردة مضطربة إلى رازوميخين ويتناهض على يديه بمجهود عنيف:

ـ وراء الباب؟ كانت وراء الباب؟ وراء الباب؟

فأجاب رازوميخين وهو ينهض عن مقعده بدوره:

ـ نعم! وماذا في ذلك؟ ما بك؟ ماذا أصابك؟

فأجاب راسكو لنيكوف بصوت خافت لم يبلغ مسامعه وهو يتهاوى على الوسادة مستديراً إلى الجدار:

ـ لا شيء.

ران السكوت عليهم جميعاً لحظة طويلة حتى قطعه رازوميخين محدثاً زوسيُموف بعد أن ألقى عليه نظرة استفهام:

ـ لقد عاد يهذي ولا شك. إنه يحلم.

فهز زوسيّموف رأسه نفياً وقال:

ـ تابع حديثك. لا تلق بالاً إليه ماذا بعد؟

ـ ماذا بعد؟ إن الأمر واضح! لم يكد نيكولا يرى الحلية حتى ترك كل شيء: العمل ودميتري، وهرع إلى دوخكين يقدم له الحلية لقاء روبل يستلفه كما أسلفت. لكنه اكتفى بالادعاء بأنه لقيها على الرصيف وراح بعدئذٍ يحتفل بحظه «السعيد». أما فيما يتعلق بالجريمة فهو لا زال متمسكاً بأقواله من أنه لم يسمع عنها مطلقاً إلا في اليوم الثالث لوقوعها، ولما أعيد استجوابه عن سبب اختفائه طيلة ذلك الوقت كان يجيب: ـ كنت خائفاً.

وسئل عن سبب عزمه على الانتحار فقال:

ـ كنت أردد في نفسي شيئاً.

ـ ما هو ذلك الشيء؟

ـ هو أنني «سأحاكم...» وهكذا تعود الأسئلة التي لا تنتهي. والآن ما هي استنتاجاتك مما سمعت؟

ـ وماذا تريدني أن أستنتج؟ هناك قرائن لا يمكن التغاضي عنها مهما بلغت تفاهتها: هناك أمر واقع! لا أعتقد أنك تريد أن يطلق سراح ذلك الدهان.

ـ كلا! لكنهم ألبسوه تلك الجريمة مقتنعين بصدق فراستهم.

ـ إنك تنفعل وتثور. ولكن ذلك القرط؟ إنك ولا شك توافق معي على أن ذلك القرط الذي وقع في يده في ذلك اليوم بالذات وتلك الساعة

بالذات والذي هو واحد من مجموعة من الحلي اختفت كلها من صندوق العجوز، إنك توافقني على أن وجود القرط مع نيكولا أمر مثير وأن التحقيق في هذا الموضوع عادي جداً بل واجب.

هتف رازوميخين حانقاً:

ـ كيف بلغ إليه القرط؟ غريب ألا ترى في هذه الأقوال ـ وأنت الطبيب الذي تهتم قبل كل شيء بالطبيعة الإنسانية ولك من عملك ما يتيح لك ذلك بسهولة ـ صورة عن طبيعة نيكولا؟ ألا تلمس بوضوح أن كل ما صرح به خلال استجوابه كان الحقيقة الناصعة المطلقة؟ ثق أن القرط قد بلغ إليه بالطريقة التي أوردها: تعثرت قدمه بالعلبة فأخذها.

ـ الحقيقة الناصعة المطلقة؟ مع ذلك ألم يعترف بأنه كذب في المرة الأولى؟

ـ اصغ إلي بانتباه: إن البواب و«كوخ» و«بيستريا كوف» والبواب الآخر وزوجة البواب الأول والبائعة التي كانت في الكوخ والمستشار القضائي «كريو كوف» الذي كان يترجل في تلك اللحظة من عربته ويجتاز عتبة المدخل مع سيدة، كل هؤلاء وأعني ثمانية أو عشرة شهود يصرحون بصوت واحد أن «نيكولا» كان ملقياً «دميتري» إلى الأرض مرتمياً عليه يعاركه ويضربه بينما كان الآخر يجذب شعره ويركله بشدة، وأنهما كانا مستلقين أمام الباب يعرقلان المرور وأنهما استهدفا لسباب واستنكار من كل الجهات بينما ظلا «كطفلين» ـ كما قال الشهود تماماً ـ يتعاركان ويتضاربان ويتضاحكان ويتلاحقان كالأطفال الذين يلعبون في الشارع. فهل سمعت هذا؟ والآن انتبه إلى هذه الملاحظة: كل هذا بينما وفي الطبقة الرابعة جثتان لا زالتا دافئتين لامرأتين يتهم في قتلهما وسلبهما نيكولا بالذات، فلو أنه ارتكب أمراً كهذا ألا يقوم أمامنا سؤال

بسيط وهو: كيف كانت تلك الضحكات والصيحات وذلك العبث الصبياني أمام الباب الرئيسي لذلك البناء تصدر عنه؟ وهل تتفق مع الفأس والدم والحيلة والوحشية والمكر البادية على الجريمة نفسها؟ كيف يقتل امرؤ منذ خمس دقائق على الأكثر ثم يمضي تاركاً وراءه جثتين ساخنتين مهمشتي الرأس وهو يعلم أن الناس سوف يكتشفون الأمر بين لحظة وأخرى وبدلاً من التواري والاختفاء يلعب مع شريكه في الجريمة ـ ولا بد أن يكون دميتري شريكه على أساس ذلك الافتراض ـ كالطفل الذي لا يحمل وزراً على ضميره ويجتذب بذلك أنظار عشرة من الشهود ليتحققوا من شخصيته ويجمعوا على رُؤيته.

ـ لا شك أن ذلك غريب إنه غير معقول بالطبع. لكن...

ـ لا يوجد «لكن» أيها العزيز... إذا كان القرط الذهبي الذي وجد في تلك الساعة وفي ذلك اليوم في حوزة نيكولا يشكل قرينة جدية استناداً إلى أقوال المتهم التي اعتبرت «موضع النقد والاعتراض» فإنه ينبغي الأخذ بعين الاعتبار الوقائع المؤبدة والتي تقول: «إنه من العبث نقض الأقوال» مع ذلك هل ينتظر من القضاء عندنا، وهو على ما نعهد به من اتجاه، هل يمكن لهذا القضاء أن يعتبر هذا الدليل الذي يقوم على استحالة نفسانية «بسيكولوجية» وعلى «الاستعداد الفكري»، هل يمكن أن يعتبره أمراً مسلماً به تنهار أمامه الوقائع المادية مهما كان نوعها؟ كلا! لا أعتقد أن رجلاً سيشنق لمجرد عثورهم معه على حلية تخص امرأة قتيلاً. خصوصاً وأنه ما كان ليعرض تلك الحلية لو أنه كان الفاعل وهنا القضية الرئيسية في الموضوع وهذا هو سبب حماسي فهل تفهم؟

ـ نعم.. أرى أنك متحمس. انتظر لحظة، لقد سها عني سؤال أريد طرحه عليك: ماذا يثبت أن ذلك القرط جاء من صندوق العجوز؟

بأن الانزعاج على وجه رازوميخين وقال بشيء من الامتعاض:

ـ لقد بُرهن على ذلك. لأن «كوخ» الذي تعرف على القرط دل على صاحبه الذي استلف من العجوز وأكد هذا صدق قوله.

ـ ليكن، بقي سؤال: ألم يشاهد أحد نيكولا في الوقت الذي كان فيه كوخ وبيستريا كوف يصعدان السلم؟ وهل لا يمكن التدليل على ذلك بطريقة ما؟

فأجاب رازوميخين بأسف:

ـ المؤسف أن أحداً لم يره حتى ولا كوخ وبيستريا كوف. فهما لم يلاحظا العمال عندما صعدا إلى مسكن العجوز رغم أن شهادتهما لم تعد الآن ذات موضوع. لقد قالا: «شهدنا باب مسكن مفتوحاً ولا شك أن أعمالاً وترميمات كانت تجري فيه! فلم نعر ذلك التفاتاً ولسنا متأكدين تماماً ما إذا كان العمال موجودين فيه في تلك اللحظة أم لا».

ـ همْ! وعلى ذلك فإن كل ما يمكن الاستشهاد به لإظهار براءته هو ذلك العراك وتلك الضحكات التي كان يرددها وهو يصارع دميتري. ليكن. إنه دليل قوي ولكن اسمح لي من جديد أن أطرح عليك سؤالاً:

ـ كيف تفسر الأمر بنفسك؟ أقصد كيف تفسر وجود القرط في المسكن الخالي إذا كان ما قاله نيكولا بصدد عثوره عليه صحيحاً؟

ـ كيف أفسر؟ وما الذي يدعو للتفسير هنا؟ إن الأمر واضح. أو على الأقل إن الطريق التي ينبغي على التحقيق أن يسير عليها واضحة تماماً. بل ويوضحها القرط نفسه: لقد ترك القاتل الحقيقي ذلك القرط يسقط منه. فقد كان في مسكن القتيل عندما قرع «كوخ وبيستريا كوف» الباب وكان

قد أوصده من الداخل. وارتكب «كوخ» حماقة بمغادرته مكانه مما أتاح للقاتل فرصة التسلل من المسكن والهبوط على السلم خصوصاً وأنه لم يكن أمامه طريق آخر للفرار. وعلى السلم اضطر أن يحتجب عن أنظار كوخ وبيستريا كوف والبواب بالاختفاء في المسكن الخالي الذي كان دميتري ونيكولا قد تركاه منذ حين. ولا شك أنه توارى وراء الباب عندما كان البواب والزائرون يصعدون إلى الطبقة الرابعة وعندئذٍ نزل بهدوء في اللحظة التي كان دميتري ونيكولا يتتابعان في الشارع والباب العمومي خالياً بعيداً عن الرقابة. ولا شك أن ذلك القرط قد سقط منه حينما كان متوارياً وراء الباب دون أن ينتبه له لأنه كان منصرفاً إلى نواحٍ أخرى. تلك هي القضية كلها.

ـ لعمري يا عزيزي إنه تصوير بارع ومناقشة وجيهة.

ـ ولكن لمَ إذاً؟ لِمَ إذاً؟

ـ لأن ذلك كله مرتب ببراعة ودهاء حتى ليظن أنه قصة مسرحية موضوعة.

كان رازوميخين على وشك الرد على تلك الملاحظة حينما فتح الباب ودخل إنسان جديد لم يكن يعرفه أحد من الثلاثة الموجودين في الغرفة.

الفَصلُ الخَامِسُ

كان الداخل رجلاً متصنعاً في حركاته، متعجرفاً لا يمكن تحديد سنه على الضبط ذا سحنة متحفظة صارمة... وقف على العتبة وسرح طرفه فيما حوله وبدت على وجهه أمارات الدهشة العميقة المهينة وتمتم:

في أية بؤرة أرى نفسي؟

كان يتلفظ بتلك الكلمات بنوع من الحذر المقترن بالخوف والغضب وراح يتأمل «الجحر» المنخفض الضيق الذي يأوي إليه راسكو لنيكوف، ثم استدار دون أن تتبدل نظرة القلق والترفع المرتسمة في عينه، ونظر إلى راسكو لنيكوف وهو مسجى دون حراك على ذلك «الديوان» الحقير وهو شبه عار من الثياب، أشعث الشعر، قذر الوجه طويل اللحية... وانتقل بعدئذٍ إلى معاينة وجه «رازوميخين» المهمَل الشعر واللحية الذي راح يحملق فيه بدوره بفضول مثير دون أن يتحرك من مكانه، وران السكون دقيقة أعقبه تبدل في المشهد: ذلك أن الغريب شعر من «حرارة اللقاء الذي استقبل به في ذلك «الجحر» أنه لن يتقدم قيد أنملة في الغاية التي ينشدها إذا استمر على أسلوبه المترفع الشامخ المبالغ فيه، لذلك فقد عدَّل خطته بما يتناسب و«المقام» وقال بلهجة مهذبة خالية من التصلب، موجهاً حديثه إلى زوسيموف وهو يتمهل في نطق الكلمات.

ـ روديون رامونوفيتس راسكو لنيكوف، سيدٌ كان طالباً أو على الأصح طالباً سابقاً؟

وتحرك زوسيُموف ببطء وكاد أن يجيب لولا أن تدخل رازوميخين فجأة ـ وهو الذي لم يوجه الغريب إليه الحديث ـ وقال:

ـ خذ، إنه مستلق على «الديوان» ولكن أنت ماذا «ينبغي لك»؟

وإزاء عبارة «ماذا ينبغي لك» التي تدل على رفع الكلفة بين المتكلمين، كاد السيد ذي المظهر المتكلف أن يفقد وقاره ويستدير نحو المتحدث زري الهيئة لولا أن تمالك نفسه آخر الأمر فاستمر يوجه الحديث إلى زوسيُموف الذي قال وهو يشير إلى المريض:

ـ هذا راسكو لنيكوف!

ثم تثاءب فاغراً فاه حتى ظهرت آخر أضراسه وبحث في جيب «صدارته» عن ساعته المحدودبة فأخرجها وفتح غلافها ثم أعادها إلى جيبه بعد أن نظر إليها وعاد يتثاءب بأشد مما كان يفعل من قبل.

أما راسكو لنيكوف فكان خلال هذا الوقت لا يزال مستلقياً في مكانه دون أن ينطق بحرف واحد. كانت نظراته معلقة بوجه الغريب رغم خلوها من أي معنى! كان قد تخلى منذ حين عن النظر إلى تلك الزهرة البيضاء على السجادة المهلهلة البالية فبدا وجهه شديد الشحوب تفضح أمارات وجهه عذاباً داخلياً أليماً حتى ليخيل للناظر إليه أنه أخرج تواً من غرفة العمليات حيث أجريت له عملية جراحية استنفدت الجانب الأكبر من دمه. غير أن الوافد الجديد بدأ تدريجياً يثير انتباهه ثم دهشته وأخيراً حذره بل خوفه. فلما نطق «زوسيُموف» بعبارة: هذا راسكو لنيكوف، نهض فجأة كمن يجذبه «رفاص» وجلس على الديوان وقال بصوت خافت متقطع عامرٍ بالتحدي:

ـ نعم أنا راسكو لنيكوف! ماذا تريد؟

ـ أنا بيير بيتروفيتش لوجين وأميل إلى الاعتقاد بأن اسمي ليس مجهولاً منك تماماً!

غير أن راسكو لنيكوف الذي كان ينتظر أمراً مختلفاً كل الاختلاف عما وقع، نظر إليه ـ دون أن يجيب ـ نظرة ملؤها التبلد والشرود وكأنه لم يسمع بهذا الاسم إلا للمرة الأولى... فأعقب بيير بيتروفيتش بشيء من القلق:

ـ كيف؟ هل يعقل أنك لم تتلق حتى الآن أي نبأ؟!

فكان جواب راسكو لنيكوف... كل جوابه، أن عاد إلى الاستلقاء بتمهل جاعلاً يديه أسفل رأسه ومحدقاً في السقف! فبدا على وجه «لوجين» شيء من الانزعاج والحزن بينما كان زوسيّموف ورازوميخين يتأملانه بفضول متزايد حتى اشتدت حيرته وبدت واضحة! غمغم قائلاً:

ـ كنت أعتقد وأتوقع أن تكون الرسالة التي وضعت في البريد منذ عشرة أيام بل خمسة عشر يوماً قد...

فقاطعه رازوميخين فجأة بقوله:

ـ اسمع! لِمَ تبقى واقفاً هكذا بالقرب من الباب؟ إذا كان لديك شيئاً تفسره فاجلس!... وأنت يا ناستاسيا إنك تقفين هكذا على العتبة الضيقة! تنحي يا فتاة ودعي السيد يدخل! تقدم... هذا مقعد لك «فتسلل» لتصل إليه!

وأزاح مقعداً فأبعده عن المائدة تاركاً فراغاً يسيراً بين المائدة وركبتيه وانتظر وهو في تلك الوضعية المربكة أن «يتسلل» الزائر في ذلك الفراغ القليل ليجلس على المقعد! كان الموقف من الدقة بحيث تعذر عليه أن يرفض العرض فبادر إلى المقعد وهو ينسل في ذلك الممر الضيق ويتعثر حتى إذا ما بلغ المقعد جلس عليه بعد أن ألقى نظرة مستريبة على رازوميخين الذي قال بصوت أشبه بالنباح:

ـ لِمَ ترتبك؟ إن روديا مريض منذ خمسة أيام وقد كان يهذي خلال ثلاثة أيام كاملة أما الآن قد استعاد وعيه بل وأكل بشهية. وهذا هو طبيب يعوده وأنا صديق روديا وطالب سابق كذلك؛ وأنا أقوم الآن بدور المربية بالنسبة إليه فلا تلق بالاً إلينا ولا يزعجك وجودنا بل استمر وتحدث بما لديك!

فقال الزائر محدثاً زوسيِّموف دائماً:

ـ أشكركم! ولكن ألا أضجر مريضك بحضوري وحديثي؟

ـ على العكس بل إنك قد تسليه وترفه عنه! وعاد يتثاءب من جديد!

كان رازوميخين يتحدث بلهجة مؤنسة صريحة محببة حتى أن بيير بيتروفيتش أبدل أخيراً سلوكه وشعر بارتياح إليه بعد انقباض. ولعل ما أكده ذلك «الصعلوك» من أن هو الآخر طالب سابق، أحدث أثراً طيباً في نفس الضيف لذلك فقد استمع إليه حين قال:

ـ آه... لقد استعاد شعوره وامتلك حواسه منذ صباح هذا اليوم!

فقال الضيف:

ـ إن أمك...

وأفلتت حنجرة رازوميخين صوتاً «هم!» صدر عنها بصخب حتى أن لوجين لم يتماسك أن نظر إليه متفحصاً مستفسراً فقال هذا:

ـ إن ذلك صدر عني بشكل لا إرادي فاستمر!

فهز لوجين كتفيه وقال متابعاً:

ـ إن والدتك كانت قد بدأت في كتابة رسالة إليك عندما كنت أقيم معها في المدينة هناك، فلما وصلت إلى هنا، تعمدت التريث كل هذه

الأيام لأتأكد من أنك خلالها ستكون قد اطلعت على كل شيء... وها إنني لدهشتي البالغة...

فقاطعه راسكو لنيكوف فجأة وبلهجة مفعمة بروح التحدي:

ـ أنا أعرف... أعرف! إنك أنت «المقبل»! أنا أعرف ذلك وهذا يكفي!

شعر بيير بيتروفيتش بالمهانة لهذا الجواب فصمت وحار في معرفة مسبباته فاستغرق في الصمت دقيقة طويلة.

كان راسكو لنيكوف ـ الذي استدار نحو الزائر قليلاً ليجيب على سؤاله ـ قد عاد فجأة يتفحصه بعينيه بفضول بيّن كما لو أنه لم يُتَحْ له ذلك في المرة الأولى أو أن شيئاً جديداً في شخصية الضيف قد أثار انتباهه. لذلك فقد رفع رأسه عن الوسادة ليتسنى له القيام بمهمة التأمل والتفحص. والواقع أن مظهر بيير بيتروفيتش العام لم يكن فيه ما يؤخذ عليه أو يستوجب إطلاق كلمة «المقبل» التي نعته بها راسكو لنيكوف خلال تصرفه البعيد عن التهذيب. كان يبدو أن بيتروفيتش لم يدع أيامه في العاصمة تمضي دون أن يستفيد منها في تجميل نفسه وإصلاح شكله بانتظار خطيبته، الأمر الذي لم يكن غريباً بل على العكس منطقياً ومنتظراً. ولعله «هو» اعتقد أن مظهره غير مبالغ فيه لولا أن موقفه «كخطيب» على وشك الزواج جعله هدفاً للنقد والتفحص. كانت ثيابه تبدو حديثة العهد بأيدي الخياط وقد انسجمت وبدت كاملة رغم أنها لم تكن جديدة كل الجدة فلم تكن والحالة هذه لتعني أو لتفضح الهدف الذي يرمي إليه صاحبها، لكن القبعة الأنيقة المستديرة الجديدة كل الجدة كانت تفضح تلك الغاية، إذ كان ممسكاً بها في يده بعناية ملحوظة وقد وضع فيها زوجاً من القفازات بدا أنه يستعملها للزينة لأنها من ذلك النوع الذي يُكتفى بحمله دون

تغييب اليدين فيه. أما الثوب فكانت الألوان الزاهية تغلب فيه وتجعل لابسه يبدو أصغر سناً مما هو عليه. «فالسترة» كانت ذات لون رمادي فاتح والسراويل الصيفية زاهية وكذلك «صدارته». أما القميص فكان ثميناً وقد تدلت منه ربطة من «الباتيست» الفاخر. كانت تلك الألبسة تبدو متفقة مع وجه بيير بيتروفيتش وقامته، إذ كان وجهه نضراً رغم سنواته الخمس والأربعين يعطي صاحبه سناً أصغر وقد زينه سالفان كستناويان طويلان يتكاثفان عند أسفل الفكين ويبرزان ذقناً نظيفة محلوقة بعناية. وكان شعره مرجلاً ومجعداً بعناية ليس فيه ما يبعث على النقد على عكس ما يلاحظ عند ذوي الشعر المجعد عادة وكان يكسبه شكل العروس الألماني الصميم. أما إذا كان هناك شيء مزعج يؤذي البصر في ذلك الوجه الصارم الذي لا يخلو من جمال وخطورة فإنه شيء آخر لا علاقة له بالقسمات. ولما انتهى راسكو لنيكوف من معاينة وجه السيد لوجين هوى برأسه على الوسادة من جديد بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة. لم يتراجع السيد لوجين إزاء هذا التصرف المهين، بل تمالك نفسه عازماً على التغاضي عن ذلك الشذوذ فقال يبدد السكون الذي غمر الحجرة:

ـ إنني شديد الأسف إذ أراك على هذه الحال ولو أنني علمت أنك مريض لجئت قبل الآن ولكنك تدرك أن متطلبات العمل تشغل المرء: فلدي الآن قضية مهمة جداً أراني مضطراً بصفتي محامياً إلى عرضها على مجلس الشيوخ. هذا بصرف النظر عن المشاغل الكثيرة التي تدركها وإنني أنتظر أسرتك وأقصد والدتك وأختك بين لحظة وأخرى...

أبدى راسكو لنيكوف حركة تشير إلى أنه يريد قول شيء لأن وجهه عبر عن انفعال معين فصمت بيير بيتروفيتش تاركاً له الفرصة للكلام ولما لم يتكلم أردف معقباً:

ـ... من آن إلى آخر. ولقد بحثت لهما عن مسكن.

فقال راسكو لنيكوف بصوت ضعيف:

ـ أين؟

ـ غير بعيد من هنا، في دار «يا كاليبف».

فقاطعه رازوميخين قائلاً:

ـ إنه في شارع «آسانسيون» «شارع الصعود» إن طبقتين منه مأجورتان لتاجر اسمه إيوستين... لقد ذهبت إلى هناك.

ـ نعم. وقد أخلاهما التاجر.

ـ إنما المزعج فيهما والذي يثير الاشمئزاز أن حجراته قذرة كريهة تشبه الأكواخ وغير متناسقة وقد وقعت فيه أمور غريبة. والشيطان وحده يعرف من يسكن فيها. وقد ذهبت ذات مرة إلى هناك إثر مغامرة مريبة والميزة الوحيدة هي أن الأجور فيه رخيصة.

ـ بالطبع. إنني لم أستطع الحصول على هذه المعلومات بسبب حداثة عهدي في المدينة غير أني استأجرت فيه غرفتين نظيفتين جداً. خصوصاً وأن إشغالهما المكان لن يدوم طويلاً لأنني وجدت مسكننا... أقصد مسكننا المقبل يا راسكو لنيكوف، والاستعدادات تجري الآن فيه لترميمه وإدخال التجديد عليه. فإنني أقطن في الوقت الحاضر على شكل ما في غرفة مؤثثة على بعد خطوتين من هنا عند السيدة «ليبيويشسل» في مسكن صديق شاب، اسمه آندريه سيميو نوفيتش ليبيزيا تنيكوف وهو الذي دلني على بيت باكاليبف.

نطق لوجين العبارات تبريراً للملاحظات التي ساقها رازوميخين في تعريضه بالمسكن الذي أعده لأم راسكو لنيكوف وأخته، وشعر بامتعاض

لتدخل ذلك الشاب الماجن المستهتر. أما راسكو لنيكوف فإنه لدى سماعه اسم صديق خطيب أخته غمغم وكأنه تذكر شيئاً:

ـ ليبيزيا تنيكوف؟

ـ نعم. أندريه سيميو نوفيتش ليبيزيا تنيكوف وهو موظف في إحدى الوزارات. فهل تعرفه؟

فأجاب راسكو لنيكوف:

ـ نعم... لا...!

ـ عفواً خيل إلي من سؤالك أنك تعرفه. لقد كنت ذات يوم وصياً عليه وهو شاب لطيف جداً ومنطلق في الحياة الاجتماعية ثم إنني أحب معاشرة الشباب لأن المرء يتعلم منهم أشياء جديدة.

وانتظر بيير بيتروفيتش موافقة الموجودين على ملاحظته الأخيرة فراح يجيل الطرف بينهم. سأله راسكو لنيكوف:

ـ ما هو الدافع على ما تقول؟

ـ إنه من أكثر الدوافع أهمية. فأنا مثلاً لم أزر بطرسبورغ منذ أكثر من عشر سنين لذلك فإن كل التبديلات التي حصلت والتجديدات التي أدخلت وتلك الفكر النيرة الجديدة، كل ذلك لم يبلغ المقاطعات الأخرى حتى الآن وفي رأيي أن الإنسان الذي يريد أن يتعلم وأن يساير العصر يجب عليه الاحتكاك بالجيل الجديد وأنه ليسرني أن أعترف بهذه الحقيقة.

بدا السرور على وجه بيير بيتروفيتش للسؤال الذي ألقاه عليه راسكو لنيكوف وظن أنه وفق لإرضائه بالجواب. غير أن هذا عاد يقول:

ـ لا زلت أسأل عن الدافع والعلاقة الموجبة له.

ـ إن سؤالك غير محدود فإذا لم أكن مخطئاً أستطيع القول أنني أكتشف وجهات نظر أكثر وضوحاً بل واتجاهات دقيقة وتفاهم عملي أوسع.

فقال زوسيُموف:

ـ هذا صحيح.

أما رازوميخين فصاح مكذباً:

ـ أنت تكذب! لا يوجد هنا تفاهم عملي لأن مثل هذا التفاهم يكتسب بصعوبة ولا يسقط عفواً من السماء. إننا منذ مئتي عام تقريباً فقدنا عادة الأعمال. والأفكار التي تروج في الشوارع والرغبة في العمل الصالح موجودة حقيقة ولكنها ما زالت في طور التكوين. صحيح أن الإنسان ليصادف بعض النبل رغم أن نظرية «إذا لم أرَ لا أكون قد أخذت» تعتبر قاعدة بين النشالين واللصوص ولكن لا يوجد تفاهم عملي في كل الأحيان لأن هذه «المعرفة» لا تسير عارية القدمين بل يلزم لها زوج من الأحذية وأنت تفهم ما أعني.

فأجاب بيير بيتروفيتش بسرور واضح:

ـ أنا لست من رأيك أبداً. نعم لا أنكر وجود بعض الفوضى والتطرف في الآراء إنما ينبغي للمرء أن يكون عادلاً... إن هذا التطرف يشهد بأن القضية أخذت بحماسة وإن الظروف الخارجية ليست تماماً كما ينبغي أن تكون. فإذا كنا لا نعمل إلا قليلاً فذلك لأننا لم نجد بعد الوقت الكافي وأنا طبعاً لا أتكلم عن الوسائل. إنني أعتقد شخصياً بأن هناك بعض ما يمكن أن يقال عنه بأنه صنع أو «كان»: ذلك أن الأفكار الجديدة النافعة قد انتشرت كما انتشرت بعض المؤلفات الجديدة النافعة فحلت محل الأحلام والخيالات التي كنا نعيش فيها وتضج الأدب وتبخر عدد كبير من

الاعتقادات السقيمة المضرة وبالاختصار فقد انفصلنا نهائياً عن الماضي وباعتقادي أن ذلك ليس بالشيء القليل!

فغمغم راسكو لنيكوف قائلاً:

ـ استمر... تبجح... استمر في تبجحك.

فقال بيير بيتروفيتش الذي لم يسمع قول راسكو لنيكوف:

ـ ماذا قلت؟

غير أن راسكو لنيكوف لم يجب. وبادر زوسيُموف متدخلاً يقول:

ـ إن ما قلته لعين الصواب.

فاسترسل بيير بيتروفيتش بعد أن ألقى نظرة ودية على زوسيُموف:

ـ أليس كذلك؟

ثم استدار إلى رازوميخين وأردف بلهجة انتصار:

ـ وأنت نفسك! ألا توافقني على أن هناك خطوات إلى الأمام أو كما يقال «مجهوداً» حتى ولو اقتصر ذلك على العلم والحقائق الاقتصادية؟

فأجاب رازوميخين:

ـ إنها أفكار مكررة مبتذلة!

ـ كلا! أنها ليست أشياء مبتذلة. خذ مثلاً: لقد قيل لي حتى اليوم: «أحبب مستقبلك» فأحببته. فماذا نجم عن ذلك؟ لقد نجم عنه حتى الآن أنني مزقت معطفي إلى جزأين فأصبحنا كلانا عاريين عملاً بالمثل الروسي القائل: «عندما يطارد المرء عدة أرانب معاً لا يصطاد واحداً منها». أما العلم فإنه يقول: «أحبب نفسك قبل الآخرين لأن العالم كله مرتكز على النفعية الشخصية فعندما لا تحبب إلا نفسك فقط تقوم بأعمالك كما

ينبغي ويبقى معطفك كاملاً» والاقتصاد السياسي يضيف أنه كلما أكثر المرء من ابتكار أعمال خاصة في المجتمع أو بمعنى أوضح: كلما ازدادت المعاطف الكاملة، كلما كانت المنشآت أقوى والأعمال العامة أكثر ترتيباً ونظاماً. إذن عندما أقتني ممتلكات شخصية تماماً فإنني أقتنيها في نفس الوقت للجميع وينتج عن ذلك أن يفوز مستقبلي بأكثر من معطف ممزق وليس ذلك بفضل السعة الخاصة الشخصية إنما بنتيجة المجهود العام. فالفكرة إذاً سهلة ولكنها وللأسف استغرقت زمناً طويلاً حتى وصلت رغم ما يبدو عليها من أنها لا تستوجب لفهمها وهضمها ذكاءً خاصاً...

فقاطعه رازوميخين قائلاً بشيء من الجفوة:

ـ عفواً... إنه ينقصني الذكاء أنا أيضاً لذلك أفضل أن نتوقف عند هذا الحد. وقد كان لي هدف عندما بدأت هذه المناقشة وبالتالي هذه الثرثرة التي تبعث على الغثيان. إن كل هذه الأفكار المبتذلة الموضوعية تثير اشمئزازي منذ ثلاث سنين حتى أنني أخجل ليس فقط من التحدث عنها بل ومن سماع الآخرين يتحدثون فيها. ولا شك أنك استصوبت اطلاعنا على مدى معرفتك وأنا لا ألومك على ذلك بل أجد لك العذر. إنما الغاية كانت محاولة معرفة من تكون لأن في هذه الأيام الأخيرة أغري عدد كبير من فرسان المال والأعمال بهذه الفكرة ـ ولا شك أنك تعلم ـ حتى أنهم أفسدوا كل ما مدوا إليه أيديهم لاستثماره فدنسوا بذلك كل شيء! وفي هذا الكفاية...

احتج السيد لوجين وقال مستنكراً وهو يتصنع الإصابة بجرح في كرامته:

ـ سيدي لعلك لا تريد التلميح بأنني...

فقاطعه رازوميخين بلهجة حاسمة:

ـ آه... العفو... العفوا... هل يمكن أن أكون فكرت في هذا؟ هيا كفى!...

وهكذا شعر بيير بيتروفيتش أن من الخير له أن يتقبل هذا الرد على علاته وأن يعمل بمغادرة الغرفة فقال محدثاً راسكو لنيكوف:

ـ آمل أن يصبح التعارف الذي تم بيننا الآن أكثر توثقاً في المستقبل بعد أن تكون قد أبللت من مرضك وإنني أتمنى لك صحة جيدة لتكون متمتعاً بقواك استعداداً للمناسبة التي لا تجهلها.

ولما لم يلتفت راسكو لنيكوف إليه همّ بالنهوض بينما كان زوسيُموف يتحدث إلى رازوميخين وكأن بيير بيتروفيتش غير موجود في الغرفة:

ـ أعتقد جازماً أن واحداً من زبائن العجوز قد قتلها.

فأجاب رازوميخين موافقاً:

ـ لا شك! صحيح أن بورفير لا يصرح بآرائه غير أنه يستجوب كل من أودع العجوز رهينة.

فقال راسكو لنيكوف بصوت مرتفع:

ـ يستجوبهم؟

ـ نعم وماذا في ذلك؟

ـ لا شيء.

واستتلى زوسيُموف مستفسراً:

ـ ولكن كيف يعرفهم؟

ـ لقد دل كوخ على بعضهم. أما الآخرون فإن أسماءهم مكتوبة على الأوراق التي لفت فيها رهائنهم. وهناك أشخاص جاؤوا من تلقاء أنفسهم حينما بلغهم النبأ.

ـ على هذا فإن الذي قام بهذا العمل يكون ولا شك عديم التجربة سافلاً! يا لها من عملية!

ـ أنا واثق أنه ليس كما تقول وأن هذه هي النقطة التي تخدعكم جميعاً! إنني أعتقد، رغم ما أنا عليه من جهل وقلة تجربة، بأنه ليس من الحاذقين ولا من العريقين في الإجرام وإن هذه الجريمة هي أولى جرائمه. فلو أنه كان مجرماً عريقاً ماهراً لكانت هذه النتائج غير قابلة للتصديق. أما وأن المجرم غير خبير، فإننا نستنتج أن الصدفة وحدها هي التي أخرجته من ورطته، والصدف شديدة التأثير في الحياة! فكر بأنه لم يكن قد تصور وجود عوائق ثم لاحظ كيف أتم الأمر: لقد أخذ أشياء تتراوح قيمتها بين عشرين وثلاثين روبلاً حشا بها جيوبه بينما كانت في الدرج العلوي من الخزانة علبة صغيرة تحوي على ألف وخمسمائة روبل من النقد الفضي باستثناء الأوراق النقدية. فهو إذاً لم يحسن إلا القتل وأخفق في السرقة، ومن ذلك يستدل على أنه مبتدئ فق أعصابه ثم انسحب، أي أن الأمر تم بمحض الصدفة وليس بناء على تصميم وحساب دقيق!

قال بيير بيتروفيتش مخاطباً زوسيُموف بقصد الاشتراك في الحديث:

ـ إنكم تتحدثون على ما أعتقد عن مقتل العجوز أرملة الموظف. أليس كذلك؟

طرح هذا السؤال وهو واقف وقبعته وقفازاته في يده وكأنه أراد قبل أن يبارح الحجرة أن يلقي ببضع كلمات حكيمة ليخلف واره أثراً طيباً بعد أن تغلب فيه الغرور على العقل... فأجابه:

ـ نعم هل سمعت عنها شيئاً؟

ـ كيف لا؟ لقد سمعت من الجيران.

ـ هل تعرف التفاصيل؟

ـ لا أعتقد. إن ما يثير اهتمامي في هذه القضية ما يعتريها من ملابسات وما سيعقب عنها من نتائج وكذلك المعضلة التي تتمثل في الجريمة نفسها. إنني ألاحظ أن الجرائم في السنوات الخمس الأخيرة قد ازدادت بين الأوساط الدنيا، كما وأن السلب والحرائق تكاثرت في كل مكان وأصبحت تقع دون انقطاع، ومما يزيدني دهشة أن الإجرام بين الطبقات العليا أخذ يزداد بنسبة مماثلة حتى لكأنه يسير مع ما يحدث في الأوساط الدنيا على خطين متوازيين. فهنا مثلاً طالب سابق يداهم عربة بريد على الطريق العام، وهناك أشخاص من النيرين الواعين البارزين في الهيئة الاجتماعية يزورون الأوراق النقدية. وقد أوقفوا في موسكو مؤخراً عصابة من المزورين كانوا يعملون في يانصيب القرض الأخير. حتى أن واحداً من المتهمين الرئيسيين يحتل كرسي التاريخ العام في الجامعة، وفي أمكنة أخرى اغتيل أحد أمناء سر سفاراتنا في الخارج لسلبه ما معه من نقود ولأسباب أخرى سرية. فإذا كانت هذه المرابية قد قتلت بيد واحد من الطبقة العليا ـ لأنني أعتقد أن أبناء الطبقة الفقيرة لا يمتلكون أشياء ذهبية يرهنونها لديها ـ فكيف نفسر هذا الفساد الجامح الذي يسيطر على جزء كبير من محيطنا المثقف؟

أجاب زوسيموف:

ـ أعتقد أن للانقلابات الاقتصادية تأثيراً كبيراً.

وقال رازوميخين معقباً:

ـ كيف نفسرها؟ الواقع أنها تفسر تماماً بانعدام التفاهم العملي... ذلك الانعدام المزمن.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ حسناً، ماذا أجاب في موسكو أستاذك الجامعي عندما سئل عن سبب إصداره نقداً مزوراً؟ أعتقد أنه قال: «إن الناس كلهم يتهافتون على الثروة والغنى بكل الوسائل وإنني أنا كذلك أردت أن أثرى بسرعة». أنا لا أذكر كلماته على الضبط لكن فكرة الثراء العاجل بأقل التكاليف وأقل العناء هي التي تذرع بها. فقد درجت العادة بل أقول لقد اعتاد الناس حتى اليوم على لون من الحياة يقتصر على الكفاف بل إن بعضهم يعيش عالة على غيره. فلما دقت الساعة أظهر كل منهم ما يستطيع عمله وما يختزنه من إمكانيات...

ـ ولكن هناك دائماً الأخلاق؟.. القوانين! و..

وهنا فقط تدخل راسكو لنيكوف بشكل غير منتظر وقال:

ـ ولكن ماذا يزعجك؟ إن ذلك إلا نظريتك في حالة التطبيق!

ـ كيف؟ نظريتي؟

ـ اشرح نتائج ما تحدثت عنه منذ حين كمبدأ وناقشه تجد أنه ينجم عنه جواز قتل الناس..

فهتف لوجين:

ـ رحماك يا رب!

بينما قال زوسيُموف:

ـ كلا إن الأمر ليس كذلك.

أما راسكو لنيكوف فقد كان شاحباً وقد راحت شفته العليا ترتعش وهو يتنفس بصعوبة زائدة بينما تابع لوجين بلهجة متعالية قائلاً:

ـ إن هناك حدوداً لكل شيء، فالفكرة الاقتصادية ليست دعوة للقتل حتى أنه لو افترض فقط...

فقاطعه راسكو لنيكوف بصوت يهزه الغضب ويشوبه لون من السرور الأثيم:

ـ أصحيح أنك قلت لخطيبتك في اللحظة التي أعربت لك عن قبولها بك أنك سعيد لأنها فقيرة وأنه من الأفضل والأصوب أن يتزوج المرء امرأة لا تملك نقيراً ليحتفظ الزوج لنفسه بالغلبة والتفوق؟ أي أنك بذلك تستطيع دائماً التغني بفضلك عليها؟

فصاح لوجين بصوت مضطرب وقد أعماه الغضب:

ـ سيدي... سيدي... أنت تشوه فكرتي. ولكن اسمح لي أن أقول بأن الشائعات التي تناهت إليك ليس لها ظل من الحقيقة وإنني أخمن أن... بكلمة واحدة أن هذا السهم... بكلمة واحدة أنها أمسك. وإلى جانب ذلك فقد بدت لي رغم صفاتها الممتازة صغيرة العقلية مبالغة وخيالية في أفكارها. رغم ذلك فإنني ما كنت أنتظر أو أظن أن باستطاعتها النظر إلى قولي ذاك خلال منظار كهذا.

فزمجر راسكو لنيكوف وهو يتناهض بمجهود عنيف وفي عينيه نظرة متوعدة وقال:

ـ هل تعلم؟ هل تعلم؟

ـ ماذا؟ ماذا؟

كان في عيني لوجين وهو ينطق بهذه الكلمة معنى الاستنكار والتحدي وانتظر الجواب وهو واقف وران الصمت.

فأجابه راسكو لنيكوف.

ـ اعلم أنه إذا وجدت في نفسك مرة أخرى الجرأة على التلفظ بكلمة واحدة تمس بأمي فإنني سألقيك أسفل السلم ورأسك في المقدمة!

وهتف رازوميخين:

ـ ماذا دهاك؟

بينما كان لوجين ممتقع الوجه بعض شفته حنقاً ويقول:

ـ إذاً هكذا. اسمع يا سيد ـ وتمالك نفسه برهة رغم أن الغضب كان يخنق صوته ـ اسمع: منذ حين لما دخلت لاحظت استقبالك البارد فجلست عامداً لأعرف إلى أي مدى تبلغ بك القحة. وقد كنت مستعداً للصفح عن كثير مما يصدر عن مريض وقريب بنفس الوقت أما الآن فإنني لن أصفح أبداً.

فصرخ راسكو لنيكوف محنقاً:

ـ أنا لست مريضاً.

ـ ذلك أسوأ.

ـ اذهب إلى الشيطان.

لكن لوجين كان قد خرج دون أن ينتظر هذا الوداع وقد خرج «متسللاً» بين الطاولة والمقعد كما دخل بينما كان رازوميخين قد تراجع قليلاً ليسمح له قبل رحيله بمصافحة زوسيُموف الذي كان يشير إليه بترك المريض دون إثارة، وهكذا انسحب لوجين رافعاً بعناية قبعته إلى ارتفاع كتفه في اللحظة التي كان ينحني فيها ليجتاز عتبة الغرفة وقد بدا عليه أنه محنق جداً.

قال رازوميخين وقد بدا الارتباك على وجهه:

ـ كيف تصرفت على هذا الشكل؟

فأجابه راسكو لنيكوف صارخاً:

ـ دعوني، دعوني جميعاً... اخرجوا أيها السفاحون أنا لا أخاف منكم.. أنا لا أخاف أحداً... أحداً... اخرجوا من هنا... أريد أن أبقى وحيداً! وحيداً! وحيداً!.

فقال زوسيُموف وهو يشير برأسه إلى رازوميخين:

ـ هيا بنا!

ـ لكن... هل يمكن أن ندعه هكذا.

فكرر زوسيُموف بإلحاح:

ـ هيا بنا..!

ولم ينتظر بل خرج وبقي رازوميخين برهة يفكر ثم ركض يتبعه.

وبينما كان زوسيُموف يهبط السلم قال لرازوميخين:

ـ لو أننا لم نخرج نزولاً عند رغبته لبلغ به الأمر أسوأ من ذلك إذ ينبغي أن لا نثيره.

ـ لكن ماذا دهاه؟

ـ ينبغي أن يتلقى نبأ ساراً. هذا كل ما يلزمه. منذ لحظة كان متمالكاً قواه ولعلك لاحظت أن في رأسه فكرة معينة تعذبه وهذا ما أخشاه. نعم إنني أخشى ذلك.

ـ يبدو أن هذا السيد بيير بيتروفيتش سيتزوج أخت راسكو لنيكوف كما استنتجت من الحديث الذي دار بينهما وأن روديا قد اطلع قبل مرضه على هذا الأمر بواسطة رسالة.

ـ نعم. وهو الشيطان الذي أتى به ولا شك في هذه اللحظة. أخشى أن يكون قد أفسد كل شيء. لكن ألم تلاحظ أنه لم يكن يبالي بشيء باستثناء أمر واحد كان يخرجه من ذهوله وهو هذه الجريمة؟

ـ نعم! نعم! لقد لاحظت ذلك بوضوح! إنه يهتم بهذه الجريمة ويفكر فيها وأعتقد أن السبب راجع إلى أنه في ذات اليوم الذي مرض فيه أرهبوه قليلاً في دائرة البوليس وقد أغمي عليه هناك.

ـ سوف تقص علي ذلك بالتفصيل هذا المساء. وسأقول لك بعدئذٍ شيئاً. إنه ليثير اهتمامي كثيراً ولسوف أعود لأستعلم عنه بعد ساعة. على كل حال لن يحدث ارتفاع في الحرارة.

ـ أشكرك وخلال هذا الوقت سأنتظرك عند باشانكا وسأراقبه بواسطة ناستاسيا.

ألقى راسكو لنيكوف نظرة ملتهبة تفيض بالانزعاج على الخادمة التي بقيت في الغرفة. وأدركت هذه أنه يرغب إليها أن ترحل فقالت تسأله:

ـ هل تأخذ جرعة من الشاي الآن؟

ـ كلا! دعيني الآن أريد أن أنام...

وبحركة تشنجية، استدار إلى الجدار بينما انسحبت ناستاسيا من الحجرة.

الفَصلُ السَّادِسُ

لم تكد تخرج ناستاسيا من الحجرة حتى نهض واقفاً وهرع إلى الباب يدفع المزلاج وراءه ثم عاد إلى الرزمة التي أتى بها رازوميخين ففتحها وراح يرتدي الملابس التي كانت فيها. كان هادئاً جداً حتى ليخيل إلى الناظر إليه أنه لم يكن منذ لحظات فريسة هذيان ورعب قاتلين لم يبارحاه طيلة الأيام الأخيرة. شعر في تلك اللحظة بهدوء وراحة بال عجيبين فكانت حركاته دقيقة وثابتة وكأنه اتخذ فجأة قراراً حاسماً. كان يدمدم «اليوم! اليوم بالذات...» وهو يعرف أنه ضعيف. لكن قوة روحية جبارة كانت تجعله في صحو فكري تام وتعطيه قوة وثقة.. كان يرجو أن يستطيع الصمود خوف السقوط!

ارتدى الملابس الجديدة التي أتاه بها صديقه وحدق برهة في المال الموضوع على الطاولة وهو يفكر ثم أودعه جيبه! كان يملك خمسة وعشرين روبلاً إلى جانب «الكوبيكات» التي بقيت له من قيمة الملابس التي اشتراها رازوميخين. رفع المزلاج بهدوء وخرج من الحجرة وراح يهبط السلم حتى إذا ما بلغ باب المطبخ «العتيد» الذي كان أبداً مفتوحاً ألقى عليه نظرة سريعة. كانت ناستاسيا واقفة هناك محنية الظهر في «سماوَرْ» سيدتها فلم تسمع صوت خطاه خصوصاً وأن فكرة فراره لم تكن لتخالج رأس أحد وهكذا لم تمض دقيقة ثانية حتى كان في الشارع.

كانت الساعة الثامنة مساء والشمس على وشك المغيب والجو خانق كأمس تماماً. لكنه راح يتنفس بشوق ولهفة وكأنه كان محروماً من الهواء، راح يتنفس ذلك الهواء العامر بالغبار والمرض الذي ترزح تحت وطئتهما أجواء المدينة الكبرى. شعر بدوار خفيف في رأسه لكن لوناً من الحيوية الوحشية تجاوبت في أعماقه فالتمعت بها عيناه الملتهبتين وظهرت واضحة على وجهه الناحل الهضيم. كان لا يعرف أين يتجه بل إنه لم يفكر في ذلك مطلقاً. كان كل ما يهمه في تلك اللحظة هو تنفيذ الرغبة التي تصطخب في رأسه: «الفرار والانتهاء» اليوم بالذات ودفعة واحدة... فوراً وإلا فإنه لن يعود إلى مسكنه لأنه «ما كان يريد أن يحيى على ذلك المنوال!». لكن كيف «ينتهي» وبأية وسيلة؟ ذلك ما لم يكن لديه أية فكرة عنه بل إنه ما كان يفكر في ذلك أبداً! كانت تلك الفكرة تعذبه لذلك فقد كان يبعدها دائماً كلما خطرت له. إنما كان يحس بأن الأمور ينبغي لها أن تنتهي على شكل من الأشكال، مهما وقع! كان يردد ذلك بيأس وتأكيد وثقة!

تبع الطريق التي كان يتبعها في نزهاته السابقة مدفوعاً بحكم العادة واتجه نحو «سوق العلف»! وقبل أن يصل إلى السوق، شاهد على الرصيف أمام دكان بائع عاديات، شاباً أسود الشعر يعزف على آلة موسيقية تنبعث منها ألحاناً عاطفية شجية ترافقه فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها مرتدية ثياباً رشيقة: «تنورة» من قماش رخيص و«شال» خفيف، وفي يديها زوج من القفازات وعلى رأسها قبعة كبيرة من القش تزينها ريشة بلون اللهب تبدو في مجموعها خلقة بالية. كانت تغني أمام الدكان بصوت متصدع يشبه صرير المدأب، منتظرة إحسانه الذي لا يتجاوز «الكوبيكين» بحال فتوقف راسكو لنيكوف ينصت إلى غنائها منضماً إلى مستمعين أو ثلاثة مستمعين كانوا هناك ثم أخرج من جيبه قطعة من

ذات الخمسة كوبيكات أودعها راحة الفتاة... وفجأة قطعت هذه غناءها ـ وكانت قد بلغت طبقة مرتفعة جداً شديدة الحساسية مفعمة بالعاطفة ـ وهتفت بالعازف قائلة: «كفى!». ثم مضت ترافقه بخطى متمايلة لتقف أمام الدكان التالية!

سأل راسكو لنيكوف فجأة أحد المارة وكان واقفاً بالقرب منه ينصت إلى المغنية المتسولة وعليه سمات المتسكعين:

ـ أتحب أغاني الشارع؟

فبوغت الرجل لهذا السؤال بينما استرسل راسكو لنيكوف يقول وكأن الأمر لا يتعلق إلا بأغاني الشوارع وأثرها في النفوس:

ـ أما أنا فأحبها! إنني أحب الاستماع إلى الغناء على نغم هذه الآلة الموسيقية التي يحملها هذا الموسيقي المتجول خصوصاً في ليالي الخريف المعتمة الرطبة الباردة حيث تكون وجه المارة مخضرة مريضة. كما ازداد حباً للاستمتاع بهذا الغناء عندما تتساقط الثلوج دون أن يصحبها زفيف الرياح فتلتمع مشاعل النور خلال الثلج. أتُرى هل تتمثل الصورة التي أصفها؟

غمغم السيد مذعوراً وقد أزعجه السؤال والمظهر الغريب الذي كان راسكو لنيكوف يبدو فيه وقال:

ـ لست أدري... عذراً... ثم انسحب إلى الجانب الآخر من الشارع.

استمر راسكو لنيكوف ماشياً دون أن يلتفت حوله حتى وصل إلى زاوية «شارع العلف» حيث كان البائع وزوجه يتحدثان مع إليزابيت منذ أيام. لكنه لم يشهدهما في تلك اللحظة. توقف برهة في المكان الذي كان البائع وزوجه يقفان فيه ذلك اليوم وراح ينظر حوله فإذا بفتى يلبس قميصاً أحمر يتثاءب أمام فكان تاجر حبوب فسأله:

ـ أتعرف الرجل الذي يقف هنا وزوجه ويتعاطيان بيع الحاجيات المستعملة إنه «بورجوازي» أليس كذلك؟

فأجاب الفتى وهو يحدج راسكو لنيكوف بنظرة استغراب:

ـ إن الوسط التجاري يضم عدداً كبيراً من الأشخاص.

ـ ماذا يسمونه؟

ـ ينادونه باسمه!

ـ لكن أنت! ألست من زارائيك؟ من أية مقاطعة أنت؟

فعاد الفتى ينظر إلى راسكو لنيكوف باستغراب وقال:

ـ إنني حيث أقيم يا صاحب السعادة نطلق على المنطقة اسم إقليم وليس مقاطعة! وأخي يقيم فيه أما أنا فقد بارحته منذ زمن ولا أعرف عن أخباره شيئاً فأرجو سعادتكم أن تتفضلوا بقبول عذري!

ـ أهي دكان شواء هذه التي في الأعلى؟

ـ بل إنها حانة وفيها منضدة «بليارد» وقد يرى الإنسان فيها بعض «الأميرات».

اتجه راسكو لنيكوف نحو القسم الآخر من الساحة فشاهد بالقرب من منعطف هناك جماعة من «الموجيك» كبيرة العدد، فراح يحشر نفسه بين الصفوف يتفحص الوجوه. كان يشعر بدافع يحبب إليه تبادل الحديث مع الناس. لكن أولئك «الموجيك» ما كانوا يلقون بالاً إليه بل كانوا مجتمعين جماعات جماعات يتداولون في أعمالهم. توقف برهة ثم قرر المضي نحو شارع «ف...» مخلفاً وراءه «سوق العلف» ماراً بزقاق جانبي.

كان ذلك الاتجاه مألوفاً لديه فهو يعرف تماماً أن ذلك الزقاق الذي يجتازه ينعطف في نهايته ويؤدي إلى شارع الحدائق... وكان يشعر في

الأيام الأخيرة برغبة تجتذبه إلى تلك الأمكنة كلما امتلكه الاشمئزاز «ليزيد في اشمئزازه» كما كان يقول!

أما في تلك اللحظة فقد كان خالي الذهن تماماً. كان هناك بناء كبير يحوي على عدد كبير من الحانات والمطاعم ودكاكين الشواء، وكان بعض النسوة يخرجن بين الحين والحين يغمرهن الهناء وهن في أبهى زينة يرفلن في الثياب الغالية. كن يجتمعن في أمكنة معينة على الرصيف جماعات جماعات قرب مداخل بيوتات مرحة تشغل بعض الأقبية! وكان يتصاعد من واحد من تلك الأمكنة صخب لطيف كان يعم وينتشر في الشارع كله وكانت أصوات القيثارة تعلو ترافقها أنغام غناء جميل والجو مفعم بالبهجة والمرح. شاهد هناك عدداً من النسوة يتهافتن على المدخل مسرعات حتى أن بعضهن كن جالسات على درجات السلم واقفات على الرصيف يتحدثن... وعلى مقربة منهن كان جندي ثمل واضعاً سيجارته في فمه يمشي مترنحاً بخطوات متمايلة وهو يصرخ شاتماً وكأنه خرج من مكان ثم نسي طريق العودة إليه. وفي الزاوية الأخرى كان صعلوك يتبادل السباب القبيحة مع آخر من طرازه بينما كان رجل مستلقياً على أرض الشارع فاقد الرشد من شدة الثمل.

توقف راسكو لنيكوف أمام الجمع الأكبر من النساء وكن يتحدثن بأصوات مرتفعة وهن مرتديات أثواباً من الحرير الهندي الفاخر وفي أقدامهن أحذية من جلد الماعز وكلهن عاريات الرؤوس! كان لبعضهن أكثر من أربعين عاماً وأخريات لا يتجاوزن السابعة عشرة لكنهن كن منتفخات العيون!

كان الغناء والصخب المنبعثين من ذلك المكان يجذبان لغير ما سبب واضح انتباه راسكو لنيكوف. فانحنى على المدخل وهو في مكانه على الرصيف وراح يصغي حالماً متجهاً إلى صوت يغني:

إن عملاقي الجميل الصغير

لا يضربني لغير ما سبب!

وكان هناك وسط الضحكات والصيحات المرحة، وقع خطى موزون كذلك الذي يصدر عن الراقصين والراقصات على الحلبة عندما يرقصون على إيقاع لحن مثير... وكان صوت المغني لا يزال يردد تلك الأغنية وراسكو لنيكوف يحس في قرارة نفسه برغبة عنيفة لسماعها وكأنها كانت غايته التي يسعى وراءها! تمتم يخاطب نفسه: «ماذا لو دخلت؟ إنهم يصخبون ويضحكون وهم سكارى فلِمَ لا أحذو حذوهم وأثمل كخنزير!

سمع صوت سيدة تقول له:

ـ ألا تدخل يا سيدي العزيز؟

كان الصوت موسيقياً عذباً وكانت المتكلمة شابة فتية تفوق صويحباتها جمالاً.. فصعدها بنظرة متفرسة وهتف مجيباً:

ـ آه ما أجملك!

ابتسمت الفتاة وقد أطربها الإطراء وقالت:

ـ وأنت شاب جميل!

وهتفت سيدة بصوت كريه معقبة:

ـ جميل؟ إنه لا يملك إلا العظام والجلد كمن خرج من المستشفى اليوم ولعله صحيح!

وتدخل أحد الفلاحين «الموجيك» وقال وهو يقترب:

ـ يبدو أنهن من بنات «الجنرالات» رغم ذلك فإنهن لا يترفعن عن حشر أنوفهن في هذه البؤر!

وقالت الفتاة:

ـ هيا ادخل طالما أنت هنا!

ـ سأدخل يا جميلتي!

وهبط الدرجات إلى مدخل المرقص بينما هتفت الفتاة بصوت يتجلى فيه الخجل:

ـ اسمع! سأكون سعيدة يا سيدي اللطيف في قضاء بضع ساعات معك لكنني الآن أشعر بشيء من الارتباك في حضرتك فلو أعطيتني يا فارسي الجميل ستة كوبيكات لشربت كأساً في صحتك.

مد راسكو لنيكوف يده إلى جيبه وأخرجها حاملة خمسة عشر كوبيكاً أعطاها للفتاة فقالت:

ـ يا لك من رجل طيب!

ـ ما اسمك؟

إنني أدعى دوكليدا:

وهتفت واحدة من النسوة قائلة:

ـ يا له من أسلوب مزرٍ! كيف تتسولين يا دوكليدا بهذا الشكل؟ إنه ليملؤني خجلاً مميتاً.

رفع راسكو لنيكوف عينيه بفضول وحدج المتكلمة بنظرة صارمة. كانت سيدة في الثلاثين من عمرها ذات وجه مشوه بالجدري تشوبه بقع زرقاء وشفتها العليا منتفخة. كان يبدو عليها الهدوء والجد وهي تتلفظ بتلك العبارة.

ابتعد راسكو لنيكوف ومضى يفكر في موقفه وتصرفه ويغمغم:

ـ أين قرأت يا ترى أن أحد المحكومين بالإعدام قال قبل تنفيذ

الحكم فيه: «إذا أتيح لي أن أعيش في مكان ما على قمة صخرة دون أن يكون أمامي أكثر من قدمين من المحال الحيوي الذي يفصلني عن الهاوية أو على نتوء وسط محيط خضم وظلمات أبدية تهددني العواصف العاتية حتى أنه يستحيل العيش إلا في مساحة لا تزيد على قدم مربعة واحدة، ولو أن الحياة كانت مع ذلك ألف عام أو أبدية لا تنتهي فإنني لأفضل أن أعيش بتلك الشروط القاسية على أن أموت فوراً! الحياة! ولا شيء إلا الحياة! الحياة وعلى أية صورة كانت! الحياة وحسب!؟». إنها حقيقة هائلة يا إلهي! إن الإنسان نذل، ونذل أيضاً ذلك الذي يصمه بالنذالة من أجل هذا.

بلغ في مسيره باليه ده كريستال وراح يحدث نفسه قائلاً:

ـ هيه! قصر البلور! منذ حين كان رازوميخين يحدثني عنه. ولكن ماذا كنت أريد؟ نعم، صحيح، القراءة! لقد قال زوسيّموف: إنه قرأ التفصيلات في الصحف.

دخل مشرباً وسأل:

ـ هل لديكم صحف؟ وسرح طرفه فيما حوله: كان المشرب أنيقاً جداً متسعاً مؤلفاً من خمس غرف تكاد تكون خالية من الزبائن وكان في أحد الأركان ثلاثة رجال يحتسون الشاي وفي غرفة ثانية أربعة أشخاص جالسين إلى مائدة يحتسون «الشامبانيا» خيل لراسكو لنيكوف أن أحدهم هو زاميوتوف لكنه لم يكن متأكداً نظراً لبعد المسافة مع ذلك فقد تمتم يشجع نفسه:

ـ وماذا يهمني أن يكون؟

سأله النادل:

ـ أتريد عرقاً؟

ـ كلا! بل كأساً من الشاي. ثم ائتني بالصحف القديمة. الصحف التي صدرت منذ خمسة أيام وسأعطيك مكافأة صغيرة.

ـ ليكن! ها هي ذي صحف اليوم! أتريد كذلك قدحاً من العرق.

رفض راسكو لنيكوف العرض واكتفى بالشاي والصحف وراح يبحث بينها هذه صحيفة: «إيزلر.. الآزنيك.. الآزتيك.. إيزلر.. بارتولا.. ماسيمو.. الآزتيك... إيزلر... يا لجهنم! آه هذه أخيراً الأخبار المتفرقة: امرأة سقطت من أعلى السلم... تاجر اعتنق بسبب الإدمان على تعاطي الكحول، حريق في «شارع الرمال»... حريق في حي بطرسبورغ... حريق آخر في حي بطرسبورغ أيضاً... إيزلر، إيزلر، إيزلر، إيزلر... ماسيمو... وأخيراً... آه:

وجد ما كان يبحث عنه فراح يقرأ بينما كانت السطور تتراقص أمام عينيه واستطاع أن يقرأ الشرح حتى النهاية ثم أخذ يبحث كالمحموم عن الأخبار الأخيرة في العدد التالي. كانت حركاته توحي بالسرعة التي تتلهف إليها نفسه. وبينما هو يتصفح الصحف شعر بشخص يجلس بجانبه إلى المائدة فلما نظر إليه وجد أنه زاميوتوف! زاميوتوف بلحمه ودمه وبمظهره المعهود: الخواتم الذهبية، والسلاسل والشعر الأسود المجعد المضمخ المفروق من الوسط و«صدارته» الأنيقة و«الرودنجوت» المتناسق!...

كان وديعاً أو على الأقل باسماً بشيء كثير من الوداعة. ملتمع العينين من تأثير «الشامبانيا» هتف وكأنه دهش للقاء صديق قديم:

ـ كيف؟ أنت هنا؟ لقد أكد لي رازوميخين البارحة أيضاً أنك فاقد الوعي! غريب! أتدري أنني قد زرتك مرة في حجرتك؟

كان راسكو لنيكوف متأكداً من أن زاميوتوف سيتصل به. لذلك فقد ترك الصحف واستدار نحوه وعلى ثغره ابتسامة هادئة تحمل معنى من معاني التبرم وقال:

ـ لقد أبلغت أنك زرتني وأنك حملت إلي قطعة حذائي. ولعلك لا تدري أن رازوميخين كلف بك منذ أن ترافقتما للذهاب إلى سكن لويز إيفانوفنا التي كنت تسعى للدفاع عنها ذلك اليوم. لقد كنت تغمز بعينك إلى «الملازم البارود» دون أن يفهم غايتك. هل تذكر؟ كان الأمر واضحاً ومفهوماً تماماً! أليس كذلك؟

ـ يا له من مسل!

ـ «البارود»؟

ـ كلا بل صديقك رازوميخين.

ـ لكنك يا سيد زاميوتوف تعيش عيشة مرحة ولا يفوتك ارتياد مثل هذه الأمكنة الكثيرة النفقات. وعلى فكرة. من الذي دفع عنك ثمن الشامبانيا منذ حين.

ـ إنني أتمتع بالخيرات الكافية فلمَ تعتقد أن هناك من يدفع عني ثمن الشراب؟

ـ إذن فهو يقدم إليك بدون مقابل! إنك تستغل كل شيء ثم ضحك وأردف:

ـ لا بأس عليك أيها الفتى الشجاع! لا بأس. أنا لم أقل ذلك لأثير حفيظتك إنه لمجرد «الدعابة فقط» كما كان يقول الدهان عندما كان يتحف ميتكا أي «دميتري» بالكلمات. أتذكر ذلك؟ إنها حادثة العجوز.

ـ لكن أنت كيف عرفت هذا؟

ـ قد أكون عارفاً بأكثر مما تظن.

ـ يا لك من رجل تتصنع الغموض! لا شك أنك لا زلت مريضاً. لقد أخطأت بالخروج من غرفتك.

ـ هل أبدو لك غريباً غامضاً؟

ـ نعم! ماذا كنت تبحث في الصحف؟

ـ في الصحف؟

ـ توجد حوادث حريق كثيرة.

ـ كلا! أنا لا أهتم بحوادث الحريق!

نظر إلى زاميوتوف نظرة غامضة وعادة الابتسامة الهازئة تقلص شفتيه، ثم أضاف وهو يغمز له بعينه:

ـ كلا! ليست الحرائق هي التي تهمني. لكن اعترف أيها الشاب الشجاع بأنك تتمزق شوقاً لمعرفة ما كنت أقرأ.

ـ أبداً! لم أفكر في هذا مطلقاً. ولقد سألتك ذلك لمجرد السؤال. ثم هل لا يحق لي أن أطرح عليك مثل هذا السؤال؟ هل لا زلت ذلك الـ ـ ...

ـ اسمع أنت رجل مثقف متعلم. هِمْ؟

ـ إنني أدرس لنيل الشهادة الثانية في المعهد.

نطق زاميوتوف بهذا الجواب في شيء من البلاهة.

ـ آه الشهادة الثانية. وانفجر راسكو لنيكوف ضاحكاً ضحكة مجنونة وهتف معقباً:

ـ الشهادة الثانية ومع ذلك لا يخلو من الخواتم والأبهة والشعر المعنى به. يا لك من «شحرور» جميل!

ذهل زاميوتوف وشعر بشيء من المهانة فتراجع قليلاً وقد سيطرت عليه دهشة بالغة وقال بصوت صارم:

ـ كم أنت غريب! أراهن على أنك لا زلت تهذي!

ـ أنا؟ أهذي؟ أنت واهم أيها «الشحرور» الجميل.. إذاً فأنا أبدو شاذاً هذه هي الكلمة التي يجب أن تقولها.

ـ شاذاً.

ـ الخلاصة أنك تريد معرفة ما كنت أبحث عنه! انظر هذا العدد الكبير من الصحف التي طلبتها. إنها تحمل الإنسان على الشك. أليس كذلك؟

ـ حسناً! لنقل ذلك.

ـ وهذا ما يجعل أذنيك تنتصبان!

ـ ينتصب؟ ماذا؟ كيف؟

ـ سأقول لك ذلك مستقبلاً. أما الآن يا عزيزي العزيز: أصرح أو بالأحرى «أعترف». كلا ليست هذه الكلمة الفنية أيضاً لنقل «أفيد» وأنت تسجل! تلك هي العبارة الصحيحة وعلى هذا «أفيد» أنني قرأت أو أنني شعرت بفضول للقراءة بل إنني كنت أبحث وإنني وجدت... وإنني جئت خصيصاً من أجل ذلك... كنت أبحث عن التفاصيل المتعلقة بمقتل العجوز أرملة الموظف!

واقترب بوجهه حتى كاد أن يلمس وجه زاميوتوف وهو لا يفتأ ينظر إليه تلك النظرة المجنونة، أما زاميوتوف فقد راح يحدق في وجهه بدوره دون أن يتحرك أو أن يبتعد بوجهه عنه وبدا كل ذلك غريباً في نظره ودام الصمت بينهما دقيقة طويلة لم يفتآ خلالها يتبادلان النظر، وفجأة هتف زاميو توف وقد نفد صبره وأعياه السكوت:

ـ حسناً وماذا يجديني أن تكون قرأت؟ ماذا في ذلك؟

فأردف راسكو لنيكوف بصوته الهامس دون أن يتأثر بجواب زاميوتوف:

ـ ذلك لأنني مهتم بهذه العجوز التي بسببها أغمي علي وأنا في دائرة الشرطة عندما سمعتكم تتحدثون عنها. فهل فهمت الآن؟

ـ وماذا بعد؟ ماذا تريد بكلمة «هل فهمت»؟

كان صوت زاميوتوف قد بدأ يتسم بطابع الغضب. أما راسكو لنيكوف فكان وجهه جامداً صارماً وفجأة انفجر ضاحكاً ضحكة عصبية. وفي لمحة خاطفة تذكر بوضوح وجلاء الشعور الذي أحس به عندما كان واقفاً وراء ذلك الباب والفأس في يده والرتاج يهتز والزائران يصيحان ويحاولان فتح الباب وهما يشتمان. تذكر كيف أحس برغبته في شتمهما وإهانتهما بل وفي إخراج لسانه لهما استهزاء والرغبة التي استولت عليه بالضحك... الضحك... الضحك المقهقهة الساخر. كانت ضحكته في تلك اللحظة صورة عن تلك التي كان يرغب في إطلاقها لما كان وراء ذلك الباب. ولم يتمالك زاميوتوف نفسه فهتف:

ـ إما أن تكون مجنوناً وإما...

ثم توقف عن متابعة الجملة وقد خطرت له فكرة ملأت رأسه:

ـ وإما ماذا؟ وإما... هيا... قل...

فأجاب زاميوتوف غاضباً:

ـ لا شيء إن كل هذا سخيف. ثم صمتا كلاهما. وعاد راسكو لنيكوف بعد تلك الضحكة المدوية ساهماً مغموماً وانحنى على المائدة جاعلاً رأسه على يده وبدا كأنه نسي زاميو توف فران الصمت فترة طويلة قطعه هذا قائلاً:

ـ لِمَ لا تشرب الشاي؟ لقد برد.

ـ همْ؟ ماذا؟ الشاي؟ ليكن!

رفع راسكو لنيكوف القدح إلى شفتيه وتناول قطعة من الخبز وبعد أن ألقى على زاميوتوف نظرة بدا كأنه عاد إلى الحقيقة واستعاد هدوءه فعاد إلى وجهه ذلك التعبير الساخر ومضى يجرع الشاي.

قال زاميوتوف:

ـ إن الانحطاط الذي من هذا النوع أخذ يتزايد هذه الأيام وقد قرأت مؤخراً في «غازيت وموسكو» أن كل عصابة المزورين قد ألقي عليها القبض في موسكو. لقد كان أفرادها من علية الناس وكانوا يزورون الأوراق النقدية.

ـ آه وقع ذلك منذ زمن قديم وقد قرأت الحادثة منذ أكثر من شهر في الصحف وفي رأيك إذاً أن هؤلاء الناس هم لصوص محتالون أليس كذلك؟

ـ كيف؟ أليسوا إذاً محتالين؟

ـ هُمْ؟ بل إنهم أطفال مبتدئون وليسوا محتالين. تصور أن خمسين شخصاً يجتمعون لعمل من هذا النوع! هل هذا منطقي؟ إن ثلاثة أشخاص في قضية مثل هذه القضية لعدد كبير لأن طبيعة العملية تقتضي أن يكون كل منهم واثقاً وأميناً على مستقبله من نفسه. فكيف إذاً يأمن ألا يسترسل في الثرثرة بفعل الشراب؟ إن كلمة واحدة تكفي عندئذٍ لإشعال النار في البارود. إنهم مبتدئون لأنهم عهدوا إلى أشخاص غير مأمونين بتصريف الأوراق النقدية المزورة فهل يعقل أن يكلف الإنسان أول من يصادفه بمثل هذه المهمة؟ هيا! لنفرض أن هؤلاء المبتدئين قد نجحوا وأن كل واحد منهم قد توصل إلى تصريف مليون روبل ثم بعد؟ هل سيستمر على ذلك مدى الحياة؟ كلا! ومع ذلك فإن مستقبل كل واحد منهم مربوط بالآخرين. إن الانتحار أفضل من هذه النتيجة! والأغرب من ذلك أن هؤلاء المزورين

لم يستطيعوا إبدال ورقة واحدة لأن أول واحد منهم عندما استبدل الخمسة آلاف روبل كان يرتعد خوفاً. حتى أنه عد الأربعة آلاف الأولى فقط أما الألف الخامسة فقد تقبلها دون عدٍّ متلهفاً على الانسحاب وساعياً فقط إلى حشرها في جيوبه وبذلك أيقظ الشبهات والشكوك فافتضحت القضية بسبب ذلك السخيف. فهل هذا مقبول؟

فقال زاميوتوف:

ـ أما أن تكون يداه قد ارتجفتا فهو لعمري صحيح وهو يشاهدَ كثيراً. هناك حالات يعجز المرء عن ضبط شعوره فيها.

ـ ماذا تفهم من ذلك؟

ـ بل قل لي أنت هل كنت تستطيع السيطرة على أعصابك؟ لو أنني كنت في هذا الموقف لما استطعت ذلك! كيف يخاطر المرء مستهدفاً لكل تلك النتائج من أجل مائة روبل وأن يتقدم بورقته المزورة إلى المصرف. تصور إلى المصرف ليستبدلها! كلا! لو كنت في ذلك الموقف لأضعت رشدي. وأنت. أما كنت تشعر بمثل ذلك الشعور؟

شعر راسكو لنيكوف من جديد برغبة عاتبة تدفعه إلى السخرية من محدثه وأحس بقشعريرة باردة تكتسح ظهره. غير أنه تمالك نفسه وقال:

ـ ما كنت لأتصرف على هذا النمط! لو كنت في ذلك الموقف وكان علي أن أبدل ورقة مزورة لتصرفت على النحو التالي: كنت أعد الألف الأولى أكثر من مرة وأنا أعاين العلامات المميزة فيها ثم كنت أبدأ بالألف الثانية فأعدها بعناية وأسحب من وسط الرزمة ورقة من ذات العشرة روبلات لأعاينها على نور الشمس لأتأكد من أنها ليست مزورة ولكنت أقول معتذراً عن سلوكي: «إنني لا أثق بعد أن أضاعت إحدى قريباتي خمسة وعشرين

روبلاً كانت عملة زائفة ولم تنته إليها» ولكنت لفقت قصة كاملة حول هذا الموضوع. وعندما أبلغ الألف الثالثة كنت أهتف: «انتظر لقد أخطأت في عد المائة السابعة من الرزمة وأعتقد أني وقعت بمثل هذا الخطأ في الألف الثانية» وعندئذٍ كنت أترك الألف الثالثة لأعود إلى الثانية فأعد المائة السابعة منها وكنت أسحب أول ورقة منها تقع في يدي فأعاينها ثم أعيدها إليه قائلاً: «أرجو أن تبدل لي هذه! حتى أجعل أمين الصندوق يسبح في عرق غرير ويحار كيف يتخلص مني. وبالطبع كنت آخر الأمر سأذهب بعد أن أفتح الباب وأستدير إليه لأعتذر، ثم أنسحب!» هكذا كنت أتصرف لو كنت في ذلك الوضع.

قال زاميو توف وهو يضحك:

ـ ها ها... يا له من أمر بغيض! لكن هذه ليست سوى أقوال. أما عند التنفيذ فثق أنه كان حرياً بك أن تصطدم بعثرة! دعني أقول لك رأيي: «إن أي سفاح» وليس أنت وأنا، لا يمكن أن يضبط أعصابه. خذ مثلاً حادثة قريبة: لقد قتلت العجوز في حيّنا ويبدو أن القاتل وحش مخيف ارتكب جريمته في وضح النهار واستطاع الإفلات بمعجزة مع ذلك فقد ارتعدت يداه حتى إنه لم يحسن السرقة ولم يستطع الاستمرار حتى النهاية: إن الوقائع تدل عليه».

بدا راسكو لنيكوف مزعوجاً بهذا القول وصاح وهو ينظر إلى زاميوتوف نظرة خبيثة:

ـ تدل عليه: إذاً حاولوا القبض عليه إن استطعتم. طاردوه.

ـ لا تخف سوف يقبض عليه.

ـ من؟ أنتم؟ أنتم الذين ستلقون القبض عليه؟ همْ! لكم أن تخدعوا

أنفسكم إن شئتم! إن ما يهمكم هو أن تعرفوا ما إذا كان القاتل ينفق الآن من المال الذي سرقه أم لا. وعندئذٍ تقولون لأنفسكم: «كان فلان من قبل بائساً فكيف ينفق الآن عن سعة؟ لا بد وأن يكون القاتل!» وعلى ذلك فإن أي طفل يستطيع أن يخدعكم إذا شاء.

فأجاب زاميوتوف:

ـ الواقع أن كل المجرمين يتصرفون على هذا الشكل. أما من حيث القتل فإنهم ينجزونه بمهارة ثم يقعون في أيدينا عند دخولهم أو مشرب ولا شك أن الشرطة تقبض عليهم عندما يبعثرون المال الذي سرقوه! لا يمكن أن يكونوا جميعاً دهاة مثلك! من الواضح أنك لو كنت أنت لما ذهبت إلى حانة أبداً.

قطب راسكو لنيكوف حاجبيه وحدق في وجه زاميوتوف ثم سأل بوجه متجهم:

ـ يبدو أنك تتوق لمعرفة الأسلوب الذي كنت أتبعه في مثل هذه الحال.

فأجاب زاميوتوف بلهجة خطيرة وصوت ثابت حتى ليخيل للناظر إليه أن وجهه اتسم كذلك بميسم الخطورة المتزايدة:

ـ إني أود ذلك حقاً.

ـ وهل تعلق عليه أهمية كبرى؟

ـ جداً.

ـ حسناً. إليك ما كنت أعمله!

ودنا راسكو لنيكوف بوجهه ثانية من وجه زاميو توف وراح يحدق فيه ويتكلم بهمس جعل الآخر يشعر برعدة تسري في أوصاله. قال:

ـ «كنت أستولي على المال والحلي ثم أخرج من المكان ودون أن أضيع دقيقة واحدة أو أن أضرب في الأرض باحثاً، كنت أقصد مكاناً منعزلاً كبستان يحيط به سور أو أي شيء من هذا القبيل بعد أن أكون متأكداً من وجود حجر ضخم يزن ثلاثين رطلاً مثلاً في زاوية ما أو قرب الجدار في ذلك البستان أو الباحة، حجر يكون ملقى هناك منذ أن شيدت الدار أو الجدران، كنت أرفع ذلك الحجر الذي ينبغي أن تكون تحته حفرة صغيرة وأودع الحلي والمال في تلك الحفرة ثم أطمرها وأعيد الحجر إلى مكانه بعد أن أسوي الأرض دفعاً لكل تغيير يحدث وأنصرف! وكنت سأنتظر عاماً أو عامين أو ربما ثلاثة أعوام ممتنعاً عن الاقتراب من تلك الأشياء وبعدئذٍ تستطيع أن تبحث لأن العصفور يكون بذلك قد طار.

صاح زاميو توف بصوت قريب من الهمس وهو يبتعد فجأة عن راسكو لنيكوف:

ـ أنت مجنون.

كانت عينا راسكو لنيكوف تلتمعان ووجهه شاحباً مخيفاً وشفته العليا ترقص بعنف وكان منحنياً انحناءً شديداً نحو زاميو توف وهو يحرك شفتيه دون أن يصدر عنهما صوت ما. وهكذا انقضت نصف دقيقة وهو يعقل ما يعمل لكنه لا يستطيع الكف عن ذلك العمل. كانت الكلمة الرهيبة ـ كما كان الرتاج، رتاج ذلك الباب من قبل ـ على وشك الإفلات من شفتيه، كانت تحاول الخروج، لكنه استطاع أخيراً أن يحولها بالشكل التالي حين قال:

ـ هذا لو كنت أنا الذي قتلت العجوز وإليزابيت!

أما زاميو توف فكان ينظر إليه نظرة مروعة وقد شحب وجهه حتى

حاكى لون غطاء المائدة بينما كان شبح ابتسامة يلوح على شفتيه. قال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ لكن هل هذا ممكن؟

فألقى عليه راسكو لنيكوف نظرة شيطانية وقال بصوت بارد حازم بعد أن استعاد نشاطه الذهني:

ـ اعترف، اعترف بأنك ظننت أنني القاتل. نعم. أليس كذلك؟

فبادر زاميو توف إلى القول:

ـ أبداً. بل إنني الآن أبعد الناس عن الظن أو الشك.

ـ ها قد ضبطتك الآن! لقد اقتنص «الشحرور»! إنك إذاً ظننت ذلك من قبل طالما أنك تقول: «إنك الآن أبعد الناس عن الشك».

فصاح زاميو توف وقد بدا عليه الانزعاج لهذه الهفوة:

ـ إطلاقاً... أبداً... إنك أنت الذي روعتني حتى جعلتني أتلفظ بهذه الكلمات.

ـ إذاً إنك لم تكن تشك في أمري! لكن عن أي شيء إذاً كنت تتحدث لما غادرت ـ أنا ـ دائرة البوليس؟ ولمَ راح «الملازم البارود» يستجوبني بعد أن استفقت من إغمائي؟

نهض واقفاً وصاح بالندل قائلاً:

ـ ما هو حسابك؟

ـ ثلاثون كوبيكاً بمجموعه...

ـ حسناً إليك عشرين كوبيكاً مكافأة. ثم التفت إلى زاميو توف وقال وهو يمد له يداً مرتجفة ملأى بالأوراق المالية:

ـ أترى كم عندي من النقود؟ إن بينها أوراقاً حمراء وزرقاء مجموعها خمسة وعشرون روبلاً. فمن أين أتتني؟ ثم. ثوبي الجديد؟ من أين جاء؟ أنت تعرف مع ذلك أنني لا أملك دانقاً! إنني أراهن على أنك قد استنطقت صاحبة الدار التي أسكنها. هيا؟ هذا يكفي. لقد تحدثنا كثيراً فإلى اللقاء وبسرور.

خرج يهزه شعور غريب، لون من «الهيستريا» الممزوجة باللذة العميقة كان وجهه مربداً شديد الهزال متشنجاً كأنه أصيب بنوبة حادة وازداد إعياؤه شدة فقد شعر عقب هذه الصدمة الأولى أن قواه التي عادت إليه مثارة جداً قد وهنت فجأة بانتهاء الصدمة وأصبحت أشد ما تكون خوراً.. ولما أصبح زاميو توف وحده لبث جالساً في مكانه فترة غارقاً في التفكير. ذلك أن راسكو لنيكوف ـ دون أن يعي ـ قلب له نظرياته رأساً على عقب وجعله يتخذ قراراً نهائياً ويقول متمتماً: «إن إيليا بيتروفيتش وحش سمج».

ما كاد راسكو لنيكوف يفتح الباب المؤدي إلى الشارع حتى التقى برازوميخين داخلاً. فتوقف كل منهما على بعد خطوة من الآخر وأخذا يتبادلان النظر. بدا على رازوميخين الذهول وأعقبه غضب عنيف اشتعل في وجهه والتمعت عيناه ببريق متوعد وصاح ملء فيه:

ـ أنت هنا إذاً! ويحك لقد فررت من السرير! أيها الخبيث. لقد جعلتني أبحث عنك تحت السرير وفي غرفة الغلال حتى أنني كدت أن أضرب ناستاسيا لإهمالها. ثم أين أجدك! روديا يا معنى هذا؟ قل لي الحقيقة! اعترف هل تسمع؟

أجاب راسكو لنيكوف بهدوء.

ـ معنى ذلك أنكم تزعجوني إزعاجاً مميتاً وأريد أن أكون وحيداً...

ـ وحيداً! وأنت الذي لا تستطيع السير؟ ووجهك أشد شحوباً من قطعة القماش؟ وصدرك لا يستطيع التنفس؟ أيها الغبي! ماذا فعلت في «قصر البلور»؟ اعترف فوراً.

غير أن راسكو لنيكوف حاول الابتعاد وهو يقول:

ـ دعني أمر...

جن جنون رازوميخين وأطبق على كتف راسكو لنيكوف بعنف وصاح:

ـ ادعك؟ ادعك؟ أنت تجرؤ على قول «دعني أمر» بعد ما فعلته حتى الآن؟ أتعرف ماذا سأفعل بك فوراً؟ سوف أضعك تحت إبطي وأربطك كحزمة محترمة ثم أحملك إلى مسكنك وسأغلق عليك الباب بالمفتاح.

قال راسكو لنيكوف بهدوء وبصوت ساكن:

ـ اسمع يا رازوميخين. ألا ترى أنني عازف عن خدماتك؟ أي شيء أشد صعوبة على المرء من صنع المعروف مع من لا يبالي به مطلقاً! مع من يزعجه أن يعمل من أجله ذلك المعروف، هيا لماذا جئت تعني بي منذ بدء مرضي؟ ما يدريك أنه كان يسعدني أن أموت! ألم أفهمك ما فيه الكفاية اليوم؟ إنك تؤلمني وتزعجني وتعذبني؟ ثق بأن ذلك يؤخر شفائي. لأنه يجعلني في حال دائم من الثورة والغضب. فدعني إذاً بربك. بأي حق تستوقفني عنوة؟ ألا ترى أنني محتفظ بكل قواي الفكرية وأنا أتحدث معك؟ كيف أستطيع أن أحصل منك على وعد بأنك لن تفرض وجودك علي وأنك ستكف عن العناية بي؟ أنا عاق. ليكن! أنا مخلوق خشن، سمج، فظ، ولكن بربكم، بربكم دعوني هادئاً، دعوني، دعوني.

كان يتكلم بصوت هادئ وهو يخمن سلفاً نوع السم الذي كان ينثره بأقواله ولم ينته من حديثه إلا وقد بلغ به الحال مبلغاً من الضعف كاد أن يكتم أنفاسه تماماً كما وقع له من قبل مع لوجين. أما رازوميخين فقد فكر لحظة ثم أفلت ذراع راسكو لنيكوف وهو يقول بصوت حالم:

ـ حسناً. اذهب إلى الشيطان.

وفجأة انتابه غضب عنيف فصاح:

ـ انتظر، اسمع: أصرح لك: بأنكم جميعاً ـ أنت ومن هم على مذهبك ـ ثرثارون مساكين أدعياء حقيرون حتى إنكم إذا أصبتم بألم تصرفتم تصرف الدجاجة التي وضعت بيضة للتو! إنكم تسرقون الكتّاب الأجانب حتى في هذه الأمور لأنكم لا تملكون في أنفسكم شيئاً من الحياة الخاصة المستقلة. إن لحمكم أبيض كلحم الحوت وما يجري في عروقكم إن هو إلا حليب وليس بدم! أنا لا أصدق أحداً منكم لأن همكم الأول في كل المناسبات هو تحاشي الظهور بمظهر الرجال! اسمع قبل أن ترتحل، اسمع ما أقول حتى النهاية. أنت تعرف أن لدي الليلة أصدقاء مجتمعين في حفلة سمر أقيمها بمناسبة انتقالي للمنزل الجديد ولعلهم وصلوا الآن إلى داري وقد تركت عمي هناك ليستقبلهم. فإذا كنت لست سخيفاً عريقاً في السخف، أو ترجمة للغة أجنبية ما، فإن من الأفضل لك أن تقضي أمسيتك عندي بدلاً من أن تتشرد هكذا في الشوارع. اسمع يا روديا! أنا أعرف أنك ذكي وذكاؤك لا يمنع أن تكون لطيفاً وعليه إذا لم تكن سخيفاً فخير ما تعمله أن تأتي إلى مسكني الليلة ولسوف أجد لك مقعداً مريحاً جداً بل وسأضعك في سرير فاخر إذا اقتضى الأمر وسيكون هناك عدد من الأصدقاء على ذلك يرفه عنك! وسيحض زوسيّموف كذلك. فهل تحضر؟

ـ كلا.

فصاح رازوميخين وقد نفد صبره:

ـ إنك مخطئ بذلك! وما يدريك؟ لا يمكن للمرء أن يعرف ما سيكون؟ لقد وقع لي شخصياً إن كنت أبصق في وجه بعضهم ثم أسارع للاتصال بمن بصقت في وجهه. إنك تصاب بالخجل ولكنك بذلك تعود إلى حظيرة بني الإنسان. لذلك لا تنسى يا روديا عنواني: دار بوتشينكوف، الطبقة الثالثة.

ـ يخيل إلي يا سيد رازوميخين أنك على استعداد لتحمل كل إهانة في سبيل خدمة شخص ومساعدته.

ـ أنا؟ مجنون: لا تنسى منزل بوتشينكوف رقم (47) دار الموظف بابو خكين.

ـ لن أحضر يا رازوميخين.

ـ بل أراهن على أنك ستحضر. وإلا فإنك تتنكر لنفسك.

وبينما كان راسكو لنيكوف يهمّ بمغادرة المكان دون أن يجيب وقعت عينا رازوميخين على زاميو توف فهتف:

ـ هيه! إن زاميو توف هنا.

ـ نعم.

ـ هل رآك؟

ـ لقد رآني.

ـ وتحدث معك؟

ـ وتحدث معي.

ـ عن أي شيء؟ هيا لتذهب إلى الشيطان. لا تقل إذا كان لا يرضيك... تذكر منزل بوتشنيكوف رقم (47) مسكن بابو خكين.

خرج راسكو لنيكوف إلى الشاعر فبلغ شارع «البساتين» ودار حوله. وكان رازوميخين يتابعه بنظرات قلقة. ثم لوح بيديه دلالة على عدم الاكتراث ودخل المشرب. غير أنه توقف على السلم مفكراً وغمغم:

ـ «ليحملني الشيطان»! إنه كان يتكلم دون وعي. لكنه كان يبدو مالكاً قواه. كم أنا سخيف. ألا يتكلم المجانين بلهجة مماثلة للهجة العقلاء؟ إن زوسيموف نفسه يشك في ذلك على ما يبدو.

ثم ضرب جبهته بيده وقال:

ـ ولكن... كيف أدعه وحيداً في هذه اللحظة؟ لا يبعد أن يلقي بنفسه إلى النهر ليغرق! لا شك أنني ارتكبت خطيئة حين تركته يذهب. وعاد أدراجه يلحق براسكو لنيكوف. لكن هذا كان قد اختفى. فلما أعياه البحث عاد إلى «قصر البلور» ليستفسر من زاميو توف عما وقع له معه.

اتجه راسكو لنيكوف نحو جسر «ايكس»... ووقف في منتصفه مستنداً إلى الحاجز وراح ينظر إلى الأفق البعيد. شعر بعد مبارحته لرازوميخين أنه شديد الضعف وأنه استنفد كل قواه حتى استطاع بلوغ هذا المكان. أحس بحاجته إلى الراحة. إلى النوم في الشارع وأخذ يرمق متأملاً دون وعي إشعاع الشمس الأحمر الأخير الذي يلتمع على صفحة الماء والبيوت الغارقة في العتمة الداهمة. وهناك على الشاطئ الأيسر كان إشعاع الشمس الغاربة ينعكس على زجاج نافذة في أعلى منزل فيجعلها تبدو ملتهبة وكأنها قطعة من الجحيم. وكانت المياه في القتال تبدو قاتمة اللون فبدأ على وجهه اهتمام خاص بالماء وأخيراً شعر بحلقات حمراء

تدور أمام عينيه وخيل إليه أن المنازل والمارة والرصيف وكل من عليه ومن حوله بدأوا يدورون وكأنهم يرقصون ثم انتفض فجأة وكأنه تخلص بصعوبة ومجهود من الإغماء الذي كاد أن يدهمه وشعر بشخص يقترب منه ويقف إلى يمينه. كانت سيدة طويلة القامة تحجب رأسها بشال ولها وجه أصفر هزيل تلتمع في محجريها العميقين عينان حمراوان. كانت تحدق فيه دون أن تراه لأنها كانت في حالة لا تسمح لها بتمييز الأشخاص. اقتربت تلك المرأة من الحاجز فجأة ووضعت مرفقها عليه ثم طوحت بساقها اليمنى أولاً وأعقبتها باليسرى وألقت بنفسها إلى الماء فانبعث من الماء الكدر صدى ارتطام جسدها فيه وسرعان ما ابتلعت المياه الفريسة لتلفظها بعد قليل وتجتذبها مع التيار ورأسها وساقاها مغموران وبدا ثوبها منتفخاً وكأنه فراش صغير. انبعثت في تلك اللحظة عشرات الأصوات صائحة:

«امرأة تختنق، امرأة تختنق» وتهافت الناس فحشر راسكو لنيكوف نفسه بينهم وسمع أحدهم يقول:

ـ رباه إنها آفروسينيوشكا!

وضاح بعضهم:

ـ إلينا بزورق... بزورق...

وفي تلك اللحظة كان أحد الرتباء قد هبط السلم المؤدي إلى شاطئ القناة ونزع معطفه وحذاءه ثم ارتمى في الماء ولحق بالمرأة الغارقة فأطبق على ثوبها بيده اليمنى بينما تعلق باليسرى بالحبل الذي ألقاه إليه زميل له. وهكذا أخرجت اليائسة المنتحرة من القناة وألقيت على أرض الرصيف لتجرى لها الإسعافات. ولم يمض وقت قليل حتى استعادت رشدها ففتحت عينيها وتناهضت ثم جلست وأخذت تزيل عن ثيابها ما

علق بها من الطمي بحركة لاإرادية دون أن تنبت بكلمة وتهافت الناس حولها وهتفت امرأة تقول:

ـ لقد ركبها ألف شيطان! نعم ألف شيطان.

وراحت المتحدثة تفسر ما حدث بقولها:

ـ لقد حاولت في المرة الأولى شنق نفسها لولا أن أنقذت في آخر لحظة. إنها جارتنا ونحن نقطن في المنزل الثاني قريباً من هنا على هذه الناصية. وقد خرجت لشراء بعض الحاجيات من البقالية وطلبت من الخادم مراقبتها. ومع ذلك فقد وقع المحظور.

لم يلبث المجتمعون أن تصرفوا وبقي «الرقيبان» يعنيان بالبائسة وكان بعضهم قد ألمح إلى وجوب سوقها إلى دائرة الشرطة.

راح راسكو لنيكوف ينظر إلى هذا الصخب بإحساس غريب من اللامبالاة والجود. وشعر بالغثيان وتمتم يحدث نفسه قائلاً:

ـ كلا؟ إنه بغيض! الماء؟ إنه لا يستحق العناية. خصوصاً وأنه لن يحدث شيء فلِمَ الانتظار؟ ولكن على فكرة، لماذا بارح زاميو توف عمله في دائرة الشرطة رغم أن الدوام يستمر حتى الساعة التاسعة؟

أدار ظهره إلى الحاجز بعد أن كانت فكرة الانتحار تراوده وألقى نظرة حوله ثم خاطب نفسه وكأنه اتخذ قراراً حاسماً:

ـ هيا بنا! لِمَ لا؟

ثم غادر الجسر واتجه نحو دائرة الشرطة بقلب جامد لا إحساس فيه. كان يمقت التفكير في تلك اللحظة حتى ليقال إن قلقه قد غادره وإن تلك الانتفاضة التي خلقت فيه بعض النشاط فأخرجته من حجرته «لينهي كل شيء» قد حل محلها فتور ووهن كاملان. استمر يحدث نفسه بقوله:

ـ حسناً. إن ذلك أيضاً يعتبر مخرجاً. ثم إنني أريد الانتهاء لذلك فسأنتهي أليس ذلك بالمخرج المناسب؟ ماذا بهم! سيكون لي دائماً «قدوم مربعة» في المساحة. مع ذلك يا لها من نهاية! هل يمكن أن تكون تلك هي «النهاية» يا للشيطان! إنني تعب وأود بجدع الأنف لو أنام أو أجلس والمخجل في الموضوع ما فيه من سخف. مع ذلك، لأنسَ كل هذا. إنني أحياناً أترك الحماقات تعصف في رأسي.

كان عليه كي يصل إلى دائرة البوليس أن يسير بخط مستقيم ثم ينعطف إلى اليسار عند بلوغه الشارع الثاني. لكنه قبل أن يصل إلى المنعطف الأول توقف برهة وراح يفكر ثم ما لبث أن سار في زقاق وانعطف بعد أن قطع شارعين ثم توقف دون أن يشعر بما يعمل ولعله أراد بتوقفه استجماع آرائه واكتساب الوقت! كان يمشي مطرقاً ببصره إلى الأرض. وفجأة شعر كأنما يهمس بعضهم في أذنه. ولما رفع رأسه وجد أنه قد بلغ باب ذلك «البناء» ووقف تماماً أمام الباب! كان يتحاشى منذ تلك «الليلة العتيدة» المرور بذلك المكان غير أن رغبة لا تقاوم يصعب تفسيرها استبدت به فدخل البناء بعد أن اجتاز المدخل ثم انحرف إلى السلم الأول إلى اليمين وراح يصعد الدرجات المعروفة لديه والتي تقود إلى الطبقة الرابعة. كان الظلام حالكاً والسلم ضيقاً يصعب سلوكه فكان راسكو لنيكوف يتوقف على كل «بسطة» وينظر حوله بفضول. شاهد على «بسطة» الطبقة الأولى عارضة جديدة لم تكن موجودة من قبل بينما كان مسكن الطبقة الثانية مجدداً تماماً وقد طلي بابه الموصد بالدهان فاستنتج أنه قد أجر وأشغل وأن نيكولا وديمتري قد فرغا من العمل فيه. ولما بلغ الطبقة الرابعة حدث نفسه قائلاً: «هنا»!

شعر بتردد ولون من الخوف: كان باب المسكن مفتوحاً على

مصراعيه وكانت أصوات تنبعث من الداخل فتأكد من وجود أشخاص فيه، الأمر الذي لم يكن يتوقعه: لم يتردد طويلاً بل دخل المسكن بقدم ثابتة.

كان بعض العمال يرممونه ويجددون ما تلف منه فأذهله ذلك لأنه ـ على ما يبدو ـ كان يتوقع أن يراه على حاله الذي تركه عليه آخر مرة بل لعله كان ينتظر أن تكون الجثتان مسجاتين في مكانهما المعهود فإذا به تطالعه الآن غرفة ذات جدران عارية خالية من الأثاث فبدا له المشهد غريباً. تقدم نحو النافذة فجلس على حافتها.

كان في المسكن عاملان يشتغلان. أحدهما أكبر سناً من الآخر وكلاهما لم يتجاوز طور الشباب. كانا يلصقان على الجدران أوراقاً بيضاء مزينة بأزهار البنفسج وهما ينزعان الأوراق الصفراء القذرة الممزقة التي كانت تكسوها من قبل. شعر راسكو لنيكوف بغضب عنيف يستولي عليه وراح ينظر إلى تلك الأوراق الجديدة نظرة عدائية وكأنه يأسف لكل تلك التغييرات المحدثة.

وكان العاملان على وشك الانتهاء من عملهما فكانا يرتبان معداتهما ويتأهبان لمغادرة البناء. لذلك لم يزعجهما دخول راسكو لنيكوف بل استمرا يتحدثان. كان أحدهما يقول:

ـ جاءت تزورني صباح ذات يوم تتصنع عطف الكبير على الصغير وكان الوقت مبكراً جداً وهي في أبهى زينتها فسألتها: ماذا بك؟ لمَ تظهرين هكذا؟ فأجابت:

ـ يا «تيت فاسيليتش» أريد أن أكون اعتباراً من اليوم لك وحدك!.. ولكي أصفها لك أكتفي بالقول: إنها تشبه «جورنال» الموضة تماماً! فأجابه الآخر:

ـ «جورنالات الموضة»! إنها كما تعلم عبارة عن صور ملونة تصل كل يوم سبت بالبريد من الخارج. إنها تصلح لتعليم النساء كيفية ارتداء الملابس وصنعها وكذلك الرجال. إنها رسوم فالرجال يصورون فيها وعليهم أجمل الثياب أما فيما يتعلق «بجناح» النساء فحدث! إنهم يصورونها بشكل جذاب جميل أولئك الماكرون حتى إنك لو أردت التضحية بكل ما تملك لما أمكنك دفع أثمان ما هو مصور فيها.

فصاح الفتى الأصغر سناً وقد أعجبه الحديث:

ـ ما هو الشيء الذي لا تراه في ذلك «الشيء» إنه حلو على كل شيء.

ـ نعم حتى والأشياء «الأخرى». لا تخلو منها.

نهض راسكو لنيكوف ومضى إلى غرفة النوم التي كانت تضم صندوق العجوز والخزانة. فبدت له الغرفة صغيرة الحجم وهي فارغة ولم يكن العاملان قد نزعا بعد ما كان على جدرانها من أوراق وكانت هناك آثار في أحد أركانها تخلفت عن دولاب «الأيقونات». نظر حوله وعاد إلى النافذة. فحدجه أكبر العاملين سناً بنظرة وسأله:

ـ ماذا تبحث هنا؟

لم يجب راسكو لنيكوف بل نهض واقفاً ومضى إلى المدخل حيث حبل الجرس فأطبق بيده عليه وجذبه فدوى صوت الجرس... الصوت «إياه» الذي سمعه، صوت «التنك». كرر القرع ثانية وثالثة، وعادت إلى مخيلته صورة تلك اللحظة الرهيبة التي قضاها في هذا المكان فكان يرتعد كلما دوى صوت الجرس ويشعر بلون من السرور!

صرخ العامل في وجهه منفعلاً:

ـ لكن ماذا تريد؟ من أنت؟

عاد راسكو لنيكوف إلى الغرفة الداخلية وهو يقول:

ـ أنا أبحث عن مسكن أقطنه وقد جئت أعاين هذا!

ـ لا يزور الناس المساكن الخالية ليلاً! ثم إنه كان عليك أن تصحب معك البواب!

سأل راسكو لنيكوف وهو يتجاهل ملاحظة العامل:

ـ لقد نظفوا الأرض كما يبدو. هل سيدهنونها؟ ألا توجد آثار دماء؟

ـ أية دماء؟

ـ لكن العجوز وأختها قتلتا هنا وكانت هنا بحيرة من الدم!

بان الانزعاج على وجه العامل وهتف:

ـ أي نوع من الناس أنت؟

ـ أنا؟

ـ نعم!

ـ أتريد أن تعرف أي نوع من الرجال أنا؟ لنذهب إلى دائرة الشرطة وسأعلمك هناك!

نظر العاملان إلى بعضهما بخوف فقال الأكبر سناً:

ـ هيا... لقد أزف وقت رحيلنا بل إننا قد تأخرنا. هيا يا «آليوشا» لنذهب وينبغي أن نغلق الباب.

فقال راسكو لنيكوف بلا مبالاة:

ـ حسناً لنذهب.

وخرج أولاً وراح يهبط السلم ببطء فلما بلغ الباب الخارجي هتف منادياً البواب:

ـ هه! «دفورفيك»!

كان عدد من الأشخاص بينهم البوابان وإحدى الفلاحات وأحد الصناع بثوب منزلي، واقفين أمام الباب يتأملون المارة. قصد راسكو لنيكوف إليهم فسأله أحد البوابين:

ـ ماذا تريد؟

ـ هل كنت في دائرة البويس؟

ـ لقد جئت للتو من هناك. ماذا تريد؟

ـ هل هم هناك حتى الآن؟

ـ نعم إنهم هناك.

ـ وهل مساعد رئيس البوليس هناك أيضاً!

ـ لقد كان هناك منذ لحظات. ماذا تريد؟

لم يجد راسكو لنيكوف بل لبث واقفاً بين الجماعة ساهم الفكر بينما قال أكبر العاملين سناً:

ـ لقد جاء يتفقد المسكن الذي يشتغل فيه!

ـ أي مسكن؟

ـ ذلك الذي نشتغل فيه وكان يسأل: لمَ غسلوا الدم؟ لقد وقعت جريمة قتل هنا وقد جئت أستأجر هذا المسكن! ثم راح يقرع الجرس حتى كاد أن يقطع حبل الجرس. ثم طلب إلينا أن نذهب معه إلى دائرة البوليس ليتحدث بكل شيء!

شعر البواب بشيء من القلق وراح يصعد راسكو لنيكوف ببصره وقد قطب حاجبيه ثم قال وقد اكتسب صوته طابع التهديد:

ـ من أنت؟

ـ أنا روديون رومانيتش راسكو لنيكوف، طالب سابق وأقطن في دار «سشيل» بالقرب من هنا في الزقاق المجاور رقم 14. اسألوا البواب إنه يعرفني!

نطق راسكو لنيكوف بتلك الأقوال وهو شارد الذهن ينظر إلى الشارع الذي بدأت الظلمة تكتسحه نظرات ساهمة بلهاء.

ـ وماذا جئت تعمل في هذا المسكن؟

ـ أردت أن أراه!

ـ وماذا فيه حتى تهتم برؤيته؟

وهنا تدخل الصانع ذي الثوب المنزلي وقال:

ـ ماذا لو استقناه إلى مركز البوليس؟

نظر إليه راسكو لنيكوف نظرة متعالية وتأمله برهة باهتمام ثم قال بهدوء:

ـ هيا بنا!

بينما عاد الرجل يقول مؤكداً:

ـ ينبغي أن نذهب به إلى هناك طالما أنه جاء «لهذا السبب» ينبغي أن تكون في رأسه فكرة ما!

بينما غمغم العامل:

ـ الله يعلم إذا كان ثملاً أم لا؟

وعاد البواب يسأل وقد علا وجهه الغضب:

ـ ماذا تريد بالضبط؟ لماذا جئت تزعجنا؟

فأجاب راسكو لنيكوف بسخرية:

ـ إنك ترتعد خوفاً من الذهاب إلى دائرة البوليس!

ـ ولِمَ أرتعد من الخوف؟ لِمَ جئت تزعجنا؟

وصاحت القروية:

ـ إنه نشال حقير!

بينما قال البواب الآخر وكان رجلاً ضخم الجثة يحمل في يده حلقة مفاتيح كبيرة:

ـ إنه متسكع حتماً فلمَ تتناقش معه؟ هيا غادرنا... «انقلع»!

وأمسك بكتف راسكو لنيكوف ثم دفعه إلى الشارع فكاد أن يسقط على الأرض لكنه تحامل على نفسه ونظر بإمعان إلى أولئك الذين كانوا مجتمعين وابتعد!

قال العامل بدهشة:

ـ إنه مخلوق غريب!

فأجابت القروية:

ـ صحيح! لقد أصبح «العالم» في هذه الأيام شديد الغرابة.

وقال الصانع:

ـ كان يجب سوقه إلى «القسم».

فأجاب البواب الضخم:

ـ وما فائدة ذلك؟ إنه متسكع نشال كما بدا لنا فلو أخذناه لسقط في الفخ ولما استطاع الخروج...

راح راسكو لنيكوف يناجي نفسه قائلاً: أأذهب أم لا أذهب؟» وكان واقفاً على الرصيف عند المنعطف ينظر حوله وكأنه ينتظر الجواب من أحد. غير أن الجواب ظل معلقاً! كان كل شيء ميتاً لا يحس ولا يشعر بآلامه وعذابه! كان كل شيء ميتاً بالنسبة إليه فقط! وفجأة لمح على بعد مئتي خطوة من مكانه، جمهرة من الناس، يزداد عددها في ذلك الظلام الوافد وسمع صرخات وصيحات وأصوات متنافرة. وفي وسط الجمهرة وقفت عربة يشع منها ضوء باهت. أثار المنظر راسكو لنيكوف فانعطف يميناً وراح يحث خطاه متجهاً نحو المتجمهرين. كان يبدو عليه أنه يريد الاتصال بأيٍّ كان لأنه كان اتخذ قراره النهائي: لسوف يذهب إلى مركز البوليس بعد لحظات فلِمَ لا يملأ عينيه من المشاهد «المبهجة» حتى ذلك الحين!

الفَصْلُ السَّابعُ

كانت عربة أنيقة واقعة وسط الشارع وقد شد إليها حصانان أشعلان حرونان... وكانت العربة خالية والسائق واقفاً بجانبها وقد تخلى عن مكانه... وكان بعضهم ممسكاً بمقاود الحصانين بينما تجمع نفر من الناس حولها فراحت شرذمة من رجال البوليس تمنعهم من الاقتراب!... وكان أحد رجال الشرطة ممسكاً بمصباح في يده يلقي ضوءه على شيء ملقى على الرصيف قرب العجلات؛ وبد السائق مرتبكاً قلقاً إذا كان يهتف بين حين وآخر:

ـ يا للتعاسة! رباه يا للتعاسة!

شق راسكولنيكوف طريقاً لنفسه وسط الازدحام حتى استطاع أن يبلغ مكاناً استطاع فيه معرفة سبت هذا الحشد الصاخب المضطرب، كان على الأرض، رجل ملقى على الرصيف فاقد الصواب والدم يغمر كل جسمه وقد سحقته العجلات منذ حين. كانت ثيابه بالية قديمة ولكنها تدل رغم ذلك على أن صاحبها «سيد» أو أنه كان «سيداً» وليس صعلوكاً وكان الدم يتفجر من جمجمته ووجهه المهشمين حتى اختلطت معالمها. كان الحادث مؤلماً وكان مقدراً لضحيته الموت!

عاد السائق يصيح ذاهلاً:

ـ رباه! كيف كان يمكنني معرفة ماذا سيحدث؟ فلو أن خيولي كانت تسير هدباً أو أنني لم أحذره صائحاً بكل قواي لكان الأمر ممكناً. لكني كنت أسير ببطء وتمهل وبسرعة عادية تماماً وقد شهد الناس كلهم ذلك هل أصدق ويكذب الآخرون؟ لكن الرجل الثمل يرى «الدنيا» مشومة في وضح النهار! لقد رأيته يجتاز الشارع مترنماً حتى أنه كاد أن يستلقي في منتصف الطريق، فهتفت به محذراً ثلاث مرات وخففت سرعة الجياد لكنه جاء يصطدم بهم بخط مستقيم! إنني أعتقد أنه تعمد ذلك، والجوادان فتيان نشيطان فكانت صيحاتي المحذرة تزيد في هياجهما وهكذا وقع الحادث المؤلم.

وصاح شاهد عيان بين المتجمهرين يقول:

ـ إنه يقول الحق!

وأيده ثانٍ وثالث:

ـ لعمري أن ما قاله هو الصدق! لقد صرخ ينبهه ثلاث مرات متتالية!

ـ ثلاث مرات، ثلاث مرات، كلنا سمعنا ذلك!

وكان يبدو على السائق أنه غير وجل لما حدث فقد كانت أعصابه هادئة باستثناء تلك العبارات التي لا تخلو من قلق والتي كان يرددها بين الحين والآخر مشفقاً على مصير الضحية، وقد بدا أن العربة تخص بعض الأغنياء وأن صاحبها ينتظر قدومها في مكان معين وكان رجال الشرطة مدركين تلك الحقيقة وقد أعاروها كل اهتمامهم. فلم يبق عليهم إلا نقل المدهوس إلى مركز البوليس ثم إلى المستشفى دون أن يعرف اسمه. وكان راسكولنيكوف قد تسلل خلال ذلك الوقت حق بات في عداد أقرب الناس إلى الضحية وفجأة أضاء مصباح الشرطي وجه التعس فعرفه وهتف وهو يزيح الناس عن طريقه ليصل إلى الصف الأول:

ـ أنا أعرفه... أنا أعرفه! إنه موظف متقاعد، المستشار مارميلادوف وهو يقطن بالقرب من هنا في دار كوزل! عليَّ بطبيب وأنا أدفع الأتعاب!

وأخرج نقوده من جيبه وعرضها على أنظار رجل البوليس وهو في أعلى درجات الانفعال والاضطراب.

سُرَّ رجال الشرطة لمعرفة اسم الضحية أما راسكولنيكوف فقد أعلن عن اسمه وعنوانه مجهداً نفسه كما لو كان الرجل أخاه الأكبر ساعياً إلى نقله بسرعة إلى داره وهو فاقد الوعي. وكان يهتف:

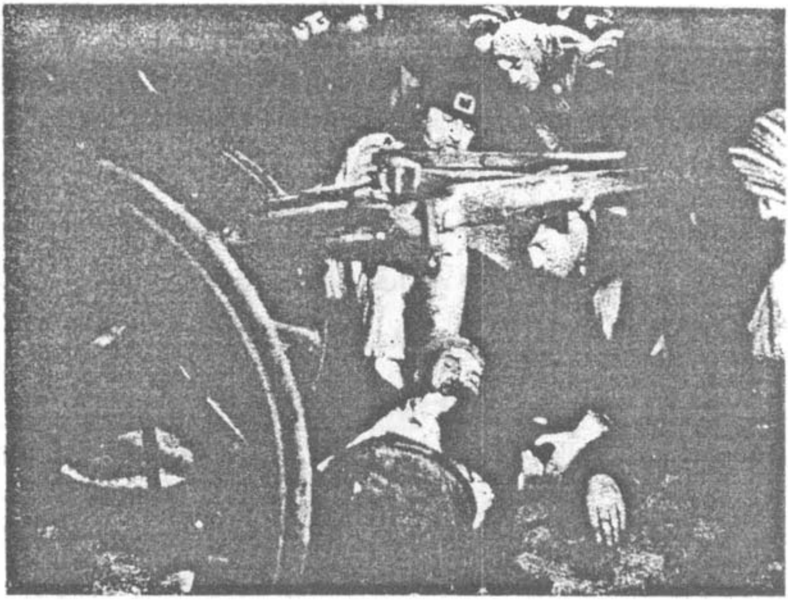

راسكولنيكوف يهرع لنجدة مارميلادوف

ـ إنه يقطن هناك على بعد ثلاثة منازل من هنا وصاحب منزله ألماني غني: «كوزل». لقد كان ثملاً حتماً وكان قاصداً مسكنه. أنا أعرفه... إنه مدمن وله عائلة كبيرة العدد: زوجة وأولاد بين بنين وبنات. كم يلزم

من الوقت لنقله إلى المستشفى؟ سأدفع للطبيب سأدفع! يجب أن يلقى العناية الكافية وإلا فإنه سيموت قبل أن يبلغ المستشفى.

انتهز فرصة مؤاتية فدس في يد أحد رجال الشرطة قطعة من النقود ولما كانت تلك الإجراءات قانونية وليس فيها ما يستوجب اللوم فقد وافق على نقل الجريح إلى منزله. وهكذا سمح لبعض المتحمسين أن يساهموا في حمله وكان بناء «كوزل» على بعد ثلاثين خطوة من مكان الحادث فراحت الجماعة تشق طريقها إليه يتبعها راسكولينكوف وهو رافع رأس الجريح بعناية دون أن يغفل عن القيام بدور الدليل.

ـ من هنا... اصعدوا هذا السلم... ينبغي أن يبقى رأسه مرفوعاً... هكذا حسناً سأدفع وسأشكركم لجميلكم!

كانت زوجة «مارميلادوف» على جري عادتها كلما أتيحت لها فترة راحة تذرع غرفتها جيئة وذهاباً من النافذة إلى المدفأة ومن المدفأة إلى النافذة وذراعاها معقودتان على صدرها وهي تحدث نفسها كلما سنحت لها الفرصة وتخلصت من نوبات السعال. وكانت منذ حين قد أصبحت تبحث مع ابنتها البكر بوليا أحاديث تزداد عمقاً مع الزمن. وعلى الرغم من سن الفتاة المبكرة وعدم فهمها عديداً من الأشياء فإنها بدأت تفهم تماماً ما تريده أمها منها. لذلك فقد كانت تصغي إلى أحاديثها بعناية فائقة، وتتابعها بعينيها الكبيرتين اللتين تشعان ذكاءً ساعية إلى فهم كل كلمة تتلفظ أمها وإدراك كل تلميح إذا خانها التصريح!

وفي تلك الأثناء. كانت بوليا تخلع ثياب أخيها قبل أن تودعه سريره فقد كان ذلك الصغير مريضاً طيلة ذلك النهار. وكان في تلك اللحظة جالساً بهدوء على مقعد منتصب الجذع صامتاً منتظراً أن يخلع عنه قميصه

الذي سيغسل أثناء الليل. وكانت قدماه متجهتين نحو الباب وعلى جانبه جورباه إحداهما إلى يمينه والثانية إلى يساره. كان يصغي إلى حديث أمه متسع العينين منتفخ الخدين ككل الأطفال الصغار الذين تنزع عنهم أمهاتهم ثيابهم قبل النوم، أما الفتاة الأخرى فكانت ترتدي أسمالاً ممزقة تماماً وكانت تقف قرب الستارة منتظرة دورها. كان الباب المؤدي إلى السلم مفتوحاً لأن ذلك كان الوسيلة الوحيدة للتخلص من دخان اللفائف الذي ينبعث من الغرف الأخرى ويسبب لكاترين إيفانوفنا سعالاً قوياً طويلاً يتداعى له صدرها المريض. وكانت كاترين إيفانوفنا قد أصبحت منذ أسبوع أكثر نحولاً من السابق وازدادت البقع الحمراء ظهوراً على خديها.

كانت تقول لابنتها بوليا وهي تروح وتجيء في الغرفة:

ـ لن تصدقي بل ولن تستطيعي التصور كم كانت حياتنا سعيدة ومرموقة لما كنا لدى «بابا» أما هذا المدمن فقد سبب لنا تعاسة لحقت بكم أكثر من سواكم لقد كان «بابا» يحمل لقباً يعادل رتبة «كولونيل» لقباً يشبه حاكم مقاطعة فلم يكن باقياً عليه إلا أن يخطو خطوة أخرى حتى يصبح حاكماً حقيقياً حتى أن الناس كانوا يهرعون إلى دارنا ويقولون!: «إننا نعتبرك يا إيفان ميخائيليتش حاكماً لنا!» وعندما كنت... (وهنا انتابتها موجة سعال فراحت تعاني منها حتى مرت بسلام وقالت متبرمة: إن هذه لعنة أيامي!»)... عندما كنت في آخر حفلة راقصة أقيمت لدى ماريشال الإشراف لمحتني الأميرة «بيريسميلني» وهي التي باركتني فيما بعد عندما تزوجت أباك يا بوليا، قالت لي: «ألست أنت تلك الشابة التي رقصت «بالشال» عند تخرجها من المدرسة؟»...

وقطعت كاترين إيفانوفنا حديثها وقالت ملاحظة:

ـ ... ينبغي أن ترتقي هذا الخرق... فلو أخذت إبرة وقمت بتجربة كما علمتك أمس! إنك إذا أهملتيه الآن ازداد اتساعاً غداً... وعادت تسعل سعالاً عنيفاً ثم رجعت بأفكارها إلى حديثها الأول وأردفت:

ـ وقد أمّ العاصمة أحد الأمراء وهو الأمير ستشيكولزكي وكان قد رقص معي مرة رقصة «مازوركا» فأراد في اليوم التالي أن يتقدم إلي بعروضه لكنني أفهمته بأجمل العبارات وأكثرها نعومة بأن قلبي ملك رجل آخر منذ بعيد!أما ذلك «الآخر» فكان أباك يا بوليا! وقد غضب أبوك حتى احمر عنقه لما سمع النبأ...

وتغيرت لهجتهما قليلاً وهي تقول لابنتها الكبرى:

هيا... هل أنت مستعدة؟ إذاً أعطني القميص والجوارب... هيا أنت «يا ليدا» ـ البنت الأصغر ـ لعمري سوف تنامين هذه الليلة دون قميص... ضعي جواربك جانباً سأغسلها أيضاً... رباه هذا الرجل... صعلوك الرجال... إنه لن يعود الليلة كما يبدو... السكير؟ إن قميصه لم يتبدل منذ زمن ثم إنه مزقها أيضاً... وددت لو عاد ليخلعها حتى أغسل كل هذه الثياب دفعة واحدة... إنني لا أستطيع أن أغسل ليلتين متتاليتين! رباه! (وعاد إليها السعال على أشد ما يكون)... ما هذا؟...

كان هذا السؤال الأخير مبعثه الازدحام الذي شهدته فجأة في الممشى أمام باب غرفتها، ثم ما لبثت أن رأت جماعة يدخلون الغرفة بحملهم! هتفت:

ـ ماذا حدث؟ ماذا تحملون؟ جثة يا إله السماء!

سأل أحد رجال الشرطة الذي كان يتقدم الحشد:

ـ أين نضعه؟ وراح يتلفت حوله باحثاً... بينما دخلت الجماعة التي تحمل الجثة، جثة، مارميلادوف وهي تقطر دماً...

هتف راسكولينكوف بلهجة المروع الحزين:

ـ ضعوه هنا على هذا الديوان! ترفقوا بالله!

وصاح بعضهم:

ـ لقد دُهس في الشارع، وكان ثملاً...

تسمرت كاترين إيفانوفنا في مكانها برهة وشحب لونها حتى حاكى وجوه الأموات وراحت تتنفس بصعوبة بالغة. أما ليدا الصغيرة فقد صرخت صرخة مكتومة وهرعت إلى أختها الكبرى بوليا تحيطها بساعديها الصغيرين مخفية رأسها وهي ترتجف واقترب راسكولنيكوف من كاترين إيفانوفنا وقال:

ـ ناشدتك الله أن تهدئي! ألا يصعقنك الأمر! لقد كان يجتاز الشارع حينما دهسته عربة. لكن اطمئني فلسوف يعود إلى وعيه... لقد عنيت بنقله إلى هنا وقد جئت معه قبل هذه المرة تذكري... لسوف يستعيد قواه وسأدفع النفقات!

هتفت كاترين إيفانوفنا يائسة:

ـ كنت أتوقع شيئاً كهذا! واندفعت نحو زوجها تُعنى به!

لاحظ راسكولينكوف أن تلك المرأة لم تكن من أولئك النسوة اللواتي يفقدن الوعي إزاء المصائب، رآها ترفع رأس زوجها وتضع تحته وسادة ـ الأمر الذي لم يخطر على بال أحد ـ وتحاول نزع ثيابه! كانت تعمل دون أن تفقد جأشها أو تضيع الوقت بالالتفات والتحسر حتى ليقال أنها نسيت نفسها في تلك اللحظة كان كل همها محصوراً في زوجها التعس فكانت تعمل وقد عضت على شفتها السفلى لتمنع الصرخات التي تحاول الإفلات من فمها. أما راسكولنيكوف فقد استطاع انتداب أحدهم للإتيان

بطبيب! ويشاء الحظ أن يكون في البناء ذاته طبيب عجوز يقطن في الطبقة السفلى... فراح بانتظار وصوله يقوم للاستعدادات المبدئية قال يطمئن كاترين إيفانوفنا:

- لقد أرسلت أستدعي طبيباً... سأدفع أجوره! هل لديك بعض الماء؟... حسناً... أعطني كذلك فوطة... منديلاً... أي شيء... اسرعي... لست أدري بعد إذا كانت جراحه خطيرة... لكنه لم يمت... تأكدي من ذلك... سنرى ما سيقوله الطبيب!

هرعت كاترين إيفانوفنا إلى النافذة وكان هناك على كرسي تحطمت قاعدته وعاء من الفخار مملوء بالماء استعداداً للمهمة التي كانت ستقوم بها في تلك الليلة: أكثر من مرتين كل أسبوع لأن الثياب التي تلبسها هي وأبناؤها حتى وزوجها هي كل ما يملكون فكان من الضروري إذاً غسلها كل ما اتسخت... واختيار الليل لتلك المهمة حتى تجف صباحاً وترتديها أصحابها! ولما كانت كاترين إيفانوفنا شديدة الميل للنظافة فإنها كانت تقوم بذلك العمل المرهق ليلاً بعد نهار طويل من السعي والعمل الشاق. وكانت تلك الأعمال ترهق قواها وتدينها بخطى سريعة من نهايتها المرتقبة فكانت تحتملها في سبيل الإبقاء على نظافة أفراد الأسرة!

عزمت على حمل الإناء الكبير استجابة لرغبة راسكو لنيكوف فكادت أن تنوء بثقله، غمس راسكولنيكوف في الماء قطعة قماش وجدها وراح يغسل وجه التعس ليزيل عنه آثار الدماء... كانت المهمة شاقة عسيرة والدماء لا تنقطع وكانت كاترين إيفانوفنا تقف على مقربة منه تتنفس بصعوبة وتضغط صدرها بيديها... كان أشد حاجة إلى الإسعاف والعلاج بدورها! وفجأة هتفت:

ـ بوليا... اركضي إلى حيث تقيم سونيا... فإذا لم تجديها فاتركي لها خبراً كي تحضر سريعاً حال وصولها! قولي «لها» إن أباها قد دهسته عربة وإن عليها أن تحضر إلى هنا فوراً... اسرعي... خذي هذا المنديل واستري به جسدك على قدر المستطاع!

وصاح أخوها الصغير ببراءة بلغته المتعثرة:

ـ «لوحي مثل التيل التايل» (روحي مثل الطير الطائر!)

كان ذلك الغلام لا يزال جالساً على كرسيه وقد عبّر عن عواطفه بتلك العبارة الساذجة ثم عاد إلى سكونه وجموده وراح ينظر محدقاً في أصابع قدميه الممددتين!

وخلال هذا الوقت، اكتظت الغرفة بالناس حتى أن تفاحة إذا ألقيت فوقهم ما كانت لتجد سبيلها إلى الأرض. أما رجال الشرطة فقد انسحبوا باستثناء واحد منهم فقد ظل هناك ليمنع تدفق المتجمهرين إلى الغرفة. غير أن هذا التدبير لم يمنع اشتداد الزحام حتى ليقال أن كل المقيمين في ذلك البناء قد حضروا في تلك اللحظة مستطلعين. وقفوا بادئ ذي بدء أمام المدخل في الممشى غير أنهم لم يلبثوا حتى داهموا الحجرة الحقيرة... فصرخت كاترين إيفانوفنا غاضبة:

ـ دعوه على الأقل يموت بسلام! أنتم تعتبرون المسألة مشهداً ينبغي التملي منه وقد احتفظ بعضكم بلفافاتهم في «مناقيرهم» (... نوبة سعال...) لم يبق عليكم إلا أن تدخلوا إلى هنا دون أن تنزعوا قبعاتكم... هه... هذا واحد قبعته على رأسه! هيا اخرجوا... لتحترموا الموت على الأقل!

عادت نوبة السعال تخنق صوت المسكينة بينما لبث «المتفرجون»

حيث هم لم يؤثر فيهم «استقبال» السيدة لهم. صحيح إنهم كانوا يرهبون بعض الشيء كاترين إيفانوفنا فإنهم بسبب تلك الرهبة تراجعوا قليلاً عن مدخل الغرفة لكنهم كانوا يشعرون جميعاً بذلك الإحساس الغريب: الإحساس بالسرور للنكبة التي تصيب بعض الناس! ذلك السرور العجيب الذي يغمر قلوب أقرب الناس إلى المنكوب والذي لا تخلو منه نفس بشرية مهما بلغ إخلاصها وشعور الأسف والأسى الذي يعتلج فيها! وعلت أصوات من الجانب الآخر للباب تتحدث عن المستشفى وأنه ليس من اللائق إقلاق السكان وتعكير صفو بناء كامل لغير ما سبب! وبلغت تلك العبارات مسامع كاترين إيفانوفنا فهتفت محتدمة:

ـ ماذا؟ أليس من اللائق أن يموت المرء!

وهرعت إلى الباب لتصب جام غضبها على المتجمهرين حينما اصطدمت فجأة بالسيدة «ليبيويشسل» صاحبة البناء التي بلغها النبأ فجاءت تعيد النظام إلى نصابه. كانت تلك المرأة ألمانية مشاكسة محبة للعراك. هتفت بلغتها المحطمة وهي تضرب كفاً بكف:

ـ آه يا إلهي! إن «زوجك» كان ثملاً فدهس تحت حوافر الخيل! فإلى المستشفى ينبغي أن يذهب! أنا صاحبة البناء!

صاحت كاترين إيفانوفنا بلهجة الاحتقار تقول:

ـ إميلي لودفيكوفنا... أرجو أن تفكري قبل الكلام!

كانت لهجة كاترين إيفانوفنا مشوبة دائماً بالاحتقار عندما تتحدث إلى صاحبة البناء وقد نجحت باستعمالها تلك اللهجة على جعلها تقف غالباً عند حدودها فلا تحاول فرض سلطتها الخرقاء عليها. وكانت صاحبة البناء تكره أن يناديها إنسان باسم إميلي لودفيكوفنا بينما كانت تلك

التسمية تبهج كاترين إيفانوفنا التي لم يكن في يدها أي سلاح ينال من تلك المتغطرسة إلا ذلك الاسم! قالت صاحبة البناء:

ـ قلت لك إن اسمي ليس إميلي لودفيكوفنا، وإنما إميلي إيفانوفنا!

ـ أنت لست إميلي إيفانوفنا بل إميلي لودفيكوفنا. وبما أنني لست من المتقربين إليك مثل السيد ليبيزياتنيكوف الذي أسمعه يضحك الآن وراء الباب (والحقيقة أن هناك ضحكة علت في تلك اللحظة وراء الباب أثر هذه الحوار ضحكة من يتوقع أن تتعود المرأتان إلى «تجاذب الشعر»!) أقول: لما كنت لست من المتقربين منك فسأستمر على تسميتك بهذا الاسم رغم أنني لا أعرف سبب مقتك له... إنك ترين بنفسك ما أصاب «سيميون زاخاروفيتش» إنه على وشك الموت فأرجوك أن تغلقي الباب وتمنعي هؤلاء المتطفلين من الدخول... اعملي على أن يموت بسلام! وإلا فإنني أقسم لك بأنني سأشكوك غداً تماماً إلى الحاكم العام. إن الأمير يعرفني منذ طفولتي وهو يذكر سيميون زاخاروفيتش وكان يغمره دائماً بعنايته! كل الناس يعرفون أن زوجي كان ينعم بعدد كبير من الأصدقاء الذين يستطيعون حمايته لكنه هو نفسه بكبريائه وصوناً لكرامته لما بلغت به الحال أن أصبح عبداً لتلك العادة المشؤومة! خذي مثلاً هذا السيد ـ وأشارت إلى راسكولنيكوف ـ إنه تطوع لمساعدتنا من تلقاء نفسه وهو غني وكثير المعارف وكان سيميون زاخاروفيتش يعرفه منذ طفولته... هل اقتنعت الآن يا إميلي لودفيكوفنا!

كانت كاترين إيفانوفنا تلقي هذا «الخطاب» بطلاقة متزايدة، غير أن السعال فوت عليها غرضها في الاستمرار... وفي تلك اللحظة عاد المحتضر إلى صوابه وأطلق غمغمة فهرعت إليه فإذا به قد فتح عينيه اللتين لم يكن للحياة ظل فيهما ورفعهما إلى راسكولنيكوف الذي كان واقفاً بجانبه.

كان يتنفس بصعوبة شديدة تنفساً متقطعاً صادراً من أعماق صدره ولما لم يتعرف على راسكولنيكوف بان في نظرته القلق بينما كانت كاترين إيفانوفنا تنظر إليه بحزن عميق لا يخلو من صرامة والدموع تنهمر من عينيها! صاحت يائسة:

ـ رباه! إن صدره مهشم... يا للدم الغزير... إن الدم يتدفق منه! ينبغي أن نخلع عنه ثيابه الداخلية! استدر قليلاً يا سيميون زاخاروفيتش إذا كنت تستطيع!

عرفها مارميلادوف وغمغم بصوت خافت ضعيف:

ـ قسيس!

انسحبت كاترين إيفانوفنا إلى النافذة وضغطت جبهتها على إطارها الخشبي وهتفت في يأس مرير:

ـ أيتها الحياة المضاعفة اللعنة!

وعاد المحتضر يدمدم بعد لحظة سكون:

ـ قسيس!

فصاحت به كاترين إيفانوفنا:

ـ هلاّ تنتهي من هذا الكلام!...

فأطاع وصمت وفي عينيه نظرة قلقة خجلى راح يصعدها بها فعادت إلى جانبه وأمسكت بيده فهدأ قليلاً غير أن عينيه صافحتا هيكل ابنته المفضلة «ليدي» التي كانت ترتجف مقرورة في أحد الأركان وكأنها فريسة للحمى تنظر إليه بعيني الطفل الساذج وقد أدهشته المفاجأة! غمغم يريد النطق ولكن لم يصدر عن شفتيه إلا صوت أجش:

ـ آ... آ...

كان يحاول الكلام ولكنه لا يستطيع فهتف بلوعة:

ـ ماذا بعد؟

وعاد نظره الساهم يتعلق بابنته وغمغم باذلاً جهداً جباراً:

ـ عارية الأقدام... عارية الأقدام!...

فأجابت كاترين إيفانوفنا بلهجة غاضبة:

ـ اصمت! أنت أدرى من غيرك بسبب بقائها عارية القدمين!

وهتف راسكولنيكوف متنفساً الصعداء:

ـ حمداً لله! لقد جاء الطبيب!

دخل الطبيب وكان عجوزاً ألمانياً دقيق الجسم بادي الوساوس، ينظر حوله بحذر وحرص. اقترب من المريض وجس نبضه ثم عاين رأسه بعناية ورفع القميص الملوث بالدم بمساعدة كاترين إيفانوفنا عن صدره. كان صدره محطماً ببشاعة وقد سحق سحقاً ومزق تمزيقاً وكان عدد من أضلاعه قد تحطم وبدت لطخة كبيرة زرقاء أو سوداء مائلة للصفرة مترجرجة هي علامة خلفتها حوافر الجياد! قطب الطبيب جبينه بينما كان رجل البوليس يقص عليه كيف وقع الحادث وكيف انتشلوه بعد أن التف ثوبه على محمور الدولاب فجره معه مسافة ثلاثين خطوة. ولم يلبث أن قال بصوت منخفض موجهاً حديثه إلى راسكولنيكوف:

ـ إن ما يدهشني هو استعادته الرشد بعد كل هذا!

ـ ما رأيك يا سيدي؟

ـ سوف يموت تواً!

ـ أليس من أمل لإنقاذه؟

ـ أي أمل! إنه يجود بآخر أنفاسه! ثم إن جراح رأسه خطيرة كذلك هم! نستطيع مثلاً أن نقوم بعملية فصد مثلاً لكنني واثق من عدم جدواها. سوف يموت حتماً خلال دقائق قليلة!

ـ لنجرب مع ذلك عملية الفصد!

ـ ليكن! لكنني أعلمك سلفاً بعدم جدواها!

وارتفع صوت خطوات في تلك اللحظة بينما راح المجتمعون يفسحون المجال لدخول القادم، وظهر على الباب قسيس عجوز أبيض الشعر يحمل قطعة «المناولة»[1] رمز جسد السيد المسيح. كان أحد رجال البوليس قد اصطحبه من الشارع فترك له الطبيب مكانه بعد أن تبادل معه نظرة فارغة. وراح راسكولنيكوف يرجو الطبيب بالبقاء فترة أخرى فهز هذا كتفيه وانتظر.

انسحب «النظارة» كلهم ولم يستغرق الاعتراف وقتاً طويلاً بل إنه كان من المشكوك فيه أن المحتضر قد فهم شيئاً مذكوراً إذ لم يكن يستطيع النطق إلا بصوت متقطع غير مفهوم. أما كاترين إيفانوفنا فقد حملت ابنتها «ليدي» وابنها الطفل وجثت معهما في أحد الأركان. كانت الطفلة لا تزال ترتعد والطفل عاري الجسد جاثياً على ركبتيه على الأرض العارية يرفع يده اليمنى مقلداً أمه وراسماً إشارة الصليب. وكانوا جميعاً يسجدون فتصطدم جباههم بالأرض وكان الطفل يجد بهذه الحركة ما يسره! وكانت كاترين إيفانوفنا تذرف دمعاً سخياً مسترسلة في صلاة حارة راحت تستر عري طفلها وطفلتها بشال وجدته في دولاب قريب دون أن تنقطع عن الصلاة.

---

(1) Saints Espéces ظاهرة الخمرة والخبز اللذين تحولا إلى «جسد السيد المسيح» بحسب التعاليم الكاثوليكية. (المترجم).

وخلال تلك اللحظة عاد الفضوليون يفتحون الباب المؤدي إلى الغرفتين الأخريين اللتين يسكنهما جماعة من الفقراء! وبلغ من تزايد عددهم أن امتلأ بهم الممشى وقد بدا سكان البناء كله قد اجتمعوا هناك. وكان يضيء المكان نور ضعيف خافت.

عادت بوليا ـ وقد كانت تستدعي أختها الكبرى ـ عادت بعد أن شقت لنفسها الطريق بصعوبة وسط الزحام. كانت شديدة التعب نظراً للسرعة التي أنجزت بها مهمتها فأزالت الشال الذي كانت تستر به جسمها وبحثت بعينيها عن أمها حتى وجدتها فاتجهت نحوها وقالت:

ـ سوف تحضر فوراً... لقد صادفتها في الشارع!

فدعتها الأم إلى الركوع والصلاة. وبعد برهة راحت فتاة شابة تتسلل بخجل بين المتجمهرين فكان لظهورها في تلك الغرفة المفعمة بمظاهر البؤس دهشة بالغة. صحيح أنها لم تكن شديدة الأناقة كما يقتضي بذلك الوسط الذي تعيش فيه: وسط الرذيلة، لكنها كانت إذا ـ قورنت ـ بتلك الأطمار والأسمال المهلهلة التي تبدو في كل مكان...

توقفت سونيا عند المدخل قليلاً دون أن تجرؤ على تخطيه. كانت تنظر بعينين ساهمتين لا تبدو فيها مخايل الإدراك. نسيت ثوبها الحريري ذي اللون الصارخ الذي اشترته مستعملاً والذي كان طوله يسترسل وراءها منتفخاً حتى ليملأ مدخل الباب، وأحذيتها البيضاء ومظلتها التي لا نفع لوجودها في ذلك الليل وتلك القبعة المضحكة الكبيرة المصنوعة من القش المزينة بريشة بلون اللهب التي كانت تظلل وجهاً نحيلاً شاحباً مروعاً وفماً مفتوحاً وعينين اتسعتا من الرعب!

كانت سونيا في الثامنة عشرة من عمرها قصيرة القامة هزيلة الجسم

تمتاز بجمال الشقراوات ذوات العيون الزرق التي كانت منهن وكانت تنظر محدقة في الفراش الذي سُجّي أبوها عليه وفي القسيس الواقف بالقرب منه. كانت هي الأخرى منهوكة لكثرة ما جرت...

لم تلبث أن علت همهمة بين المحتشدين وبلغ أذن سونيا بعضاً مما يقولون فأطرقت برأسها واجتازت المدخل مستجمعة شجاعتها ودخلت الغرفة دون أن تقترب من المحتضر. وانتهى الاعتراف و«التناول» فعادت كاترين إيفانوفنا إلى قرب زوجها. فأراد القسيس قبل أن يخرج أن يلقي بكلمات من الزاد الديني على سبيل تعزية كاترين إيفانوفنا. غير أن هذه قاطعته باحتداد وهي تشير إلى أطفالها الصغار وقالت بجفاء:

ـ وهؤلاء؟ ماذا سأعمل بهم؟

فقال القس:

ـ إن اللّه رحيم... فتأملي بعون العلي الأعلى...

ـ آه آه... إنه رحيم ولكن ليس بالنسبة إلينا!

... سيدتي! هذه خطيئة قاتلة!

فصرخت كاترين إيفانوفنا وهي تشير إلى المحتضر:

ـ وهذا... أليس خطيئة؟

... لعلَّ أولئك الذين تسببوا بهذا البلاء غير عامدين يعوضونك شيئاً عن فقدانك معيلك!

فصاحت كاترين إيفانوفنا بصوت خشن وهي تلوح بيدها:

ـ إنك لم تفهم قصدي! لِمَ يعطونني تعويضاً؟ إنه هو الذي ألقى بنفسه إلى العجلات... هو السكير! نعم... معيلي! إنه لم يسبب لي إلا الألم والعناء... لقد كان يحول كل شيء إلى شراب... كان يعرينا ليشرب!

كان ينفق في الحانة المال اللازم لإعالته أطفالنا وإعالتنا! وها هو يموت! فحمداً لله لقد تخلصنا!

ـ من الواجب يا سيدتي أن تغفري في مثل هذه اللحظة أمام الموت! إن مثل هذه المشاعر التي تبدينها تعتبر خطيئة، خطيئة كبرى!

استمرت كاترين إيفانوفنا تعتني بالمريض فتسقيه وتمسح العرق المتصبب على جسده والدم المتدفق من جراحه الذي كان يغسل وجهه أو تسوي الوسائد تحت رأسه ثم تتحدث مع القس خلال هذه الأعمال فلما سمعت عبارته الأخيرة قفزت من مكانها واتجهت نحوه وفي عينيها بريق الغضب وقالت:

ـ آه يا أبي! إنها ليست إلا كلمات! مجرد كلمات! الغفران! لو لم تدهسه العربة اليوم لعاد إلى البيت مخموراً. ولما كان لا يملك إلا القميص المتسخ القذر الذي يلبسه فإن عليَّ أن أغسل طوال الليل لتجف الملابس صباحاً بينما هو «يشخر» ناعماً بالنوم! كان علي أن أغسل قميصه مع قمصان الأطفال وألبستهم وكنت سأجفف تلك الملابس أمام النافذة لأنهض عند الفجر وأعمل على رتق هذا وإصلاح ذاك. كذلك أمضي الليالي... فماذا ينفع الكلام عن الغفران؟ مع ذلك لقد غفرت!

وقطع حديثها سعال فظيع ولما هدأت أزمة السعال بصقت في منديلها ودفعته أمام عيني القس بينما ظلت يدها اليسرى قابضة على صدرها تضغط عليه بشدة. كان المنديل ملوثاً بالدماء! أما الراهب فقد أحنى رأسه وسكت!

كان مارميلادوف خلال احتضاره لا يرفع بصره عن وجه كاترين إيفانوفنا التي عادت من جديد تنحني عليه مواساية مخففة. كان يبدو عليه

أنه يريد التحدث بشيء فكان يبذل جهداً كبيراً ويحرك لسانه فيصدر عن شفتيه كلام غير مفهوم. فهمت كاترين إيفانوفنا أنه كان يطلب إليها الصفح فهتف بصوت لا يقبل الجدل:

ـ اصمت... لا فائدة! لقد أدركت ماذا تريد أن تقول.

فصمت المريض المحتضر ولكنه في تلك اللحظة وقع بصره على الباب حيث كانت تقف سونيا! كان حتى تلك اللحظة لم يلتفت إلى ذلك الركن لذلك فلم يكن قد رآها.

وكانت الفتاة لا تزال واقفة حيث هي. فغمغم بصوت مختنق وهو يشير بعينيه إلى حيث وقفت سونيا وقد بان الذعر في نظراته وهو يحاول النهوض!

ـ من هذه؟ من هذه؟...

فصاحت كاترين إيفانوفنا:

ـ ابق مستلقياً... استلق مكانك!

لكنه بذل جهداً خارقاً وتوصل إلى الاعتماد على ذراعيه والنهوض قليلاً وظل لحظات يحدق في وجه ابنته بنظرة غريبة ثابتة كما لو كان لا يعرفها خصوصاً وأنه لم يكن قد شاهدها من قبل في مثل تلك الملابس. وفجأة بدا على وجهه أنه فهم وعرف أما هي، فقد اعتراها الخجل والوهن وهي في ملابسها اللامعة البهيجة اللون. كان تنتظر بإشفاق بالغ وحنان أن يحل دورها لوداع أبيها المحتضر. وانبعثت من صدر مارميلادوف أنة عميقة وعلا وجهه ألم شديد وهتف بأعجوبة:

ـ سونيا... ابنتي... اغفري لي!

وأراد أن يمد لها يده لكنه تخاذل وهوى على «الديوان» وأحدثت تلك الحركة الفجائية هزةً كان من تأثيرها أن تدحرج المسكين على الأرض منكفئاً على وجهه. وهرع المجتمعون فحملوه وأعادوه إلى الفراش لكنه كان قد مات!

أطلقت سونيا صرخة ضعيفة وارتمت على أبيها وراحت تضمه إلى صدرها بحنان فكانت آخر لحظاته بين ذراعيها. بينما راحت كاترين إيفانوفنا تقول:

ـ لقد انتهى هو! ولكن ما العمل الآن؟ كيف سأواريه التراب؟ وأطفالي كيف سأطعمهم غداً؟

فاقترب راسكولنيكوف وقال:

ـ أيا كاترين إيفانوفنا، لقد قص علي المرحوم في الأسبوع المنصرم تفاصيل عن حياته. ثقي أنه كان يتحدث عنك باحترام بالغ. وقد علمت منذ ذلك المساء كم كان متفانياً في حبكم جميعاً وكم كان يحبك أنت يا كاترين إيفانوفنا رغم عادته التعيسة ولقد أمسينا أصدقاء منذ تلك الليلة. فاسمحي لي الآن أن أساهم... أن أقدم واجباتي الأخيرة نحو صديق راحل. هذه عشرون روبلاً وأعتقد إذا كان الأمر لن يزعجك... إنني... سأمر... سأمر غداً حتماً فالوداع!

وخرج من الحجرة بخطى مسرعة وهو يشق لنفسه طريقاً حتى وصل إلى السلم. وهنا اصطدم بـ : نيكوديم فوميتش الذي بلغه الحادث فأراد أن يقوم بالتحقيق بنفسه. وكان راسكولنيكوف منذ حادثة البوليس لم يلتق به غير أن نيكوديم فوميتش عرفه للوهلة الأولى! فهتف:

ـ ماذا؟ أهذا أنت؟

فأجاب راسكولنيكوف:

ـ لقد مات وقد جاء الطبيب والقس وانتهى الأمر! لا تعذب المرأة المسكينة فهي مصدورة. طيب خاطرها إذا أمكن... وأنت ـ بعد كل هذا ـ رجل طيب.

نطق بتلك الجملة الأخيرة بلهجة ساخرة وهو ينظر في عيني رئيس البوليس! فقال هذا ملاحظاً!

ـ لكن كم أنت ملطخ بالدماء؟

فأجاب هذا بلهجة غريبة:

ـ نعم لقد اتسخت! إنني مغطى بالدماء!

ثم تابع طريقه وراح يهبط السلم بحركات محمومة غير مبال بحاله وقد امتلأت نفسه بإحساس استمد منه قوة غامضة... إن ذلك الإحساس يمكن أن يكون مشابهاً لذلك الذي يعتمر عادة في نفس المحكوم عليه بالإعدام الذي يبلغه فجأة نبأ العفو عنه! وقد التقى عند منتصف السلم بالقس الذي كان عائداً إلى واجباته. فتنحى راسكولينكوف ليفسح له مجال تخطيه وتبادل معه تحية صامتة. ولم يلبث أن سمع وراءه صوت خطوات متلاحقة سريعة، فالتفت مسرعاً ليجد الصغيرة بوليا تركض على آثاره تصيح:

ـ اصغ! اصغ!

توقف منتظراً وصول الطفلة التي وقفت تلهث تفصلها عنه درجة واحدة من درجات السلم، وكان ضوء خافت شاحب يتسلل من الباحة إلى حيث وقفا. راح راسكولنيكوف يتأمل وجه الطفلة الجميل النحيل فكانت تبتسم له وهي تنظر في وجهه بمرح بريء ساذج. جاءت على ما يبدو لتنجز مهمة كانت ولا بدّ تحدث في نفسه أثراً بليغاً.

قالت الفتاة اللاهثة بصوت مختنق:

ـ اسمع يا سيد! ما اسمك وأين تقطن؟

فوضع راسكولينكوف ذراعيه على كتفي الطفلة وراح يتأملها معجباً بها دون أن يدرك السبب وقال:

ـ من أرسلك؟

فأجابت الفتاة وهي تبتسم ابتسامة ملائكية:

ـ أختي الكبيرة سونيا.

ـ كنت أعرف أنها هي التي أرسلتك!

ـ لقد أرسلتني أمي أيضاً. إذ عندما طلبت إلي أختي أن أتبعك قالت أمي وهي تقترب منا: اسرعي يا بوليا!

ـ هل تحبين أختك سونيا كثيراً؟

فقالت الطفلة بصوت يشوبه انفعال ملحوظ وقد أصبحت ابتسامتها ذات طابع جدي:

ـ أحبها أكثر من كل شيء في الحياة!

ـ وأنا هل ستحبينني؟

فقربت الفتاة وجهها البريء من وجهه ومدت له شفتيها المكتنزتين بقبلة ساذجة ثم ضمته بذراعيها الناحلين بشدة بينما أسندت رأسها إلى كتف راسكولنيكوف وراحت تبكي بهدوء وهي تضغط وجهها على كتفه ضغطاً متزايداً! وراحت تغمغم:

ـ يا لأبي المسكين!

ثم رفعت رأسها بعد برهة وراحت تمسح دموعها بظهر يدها وأضافت:

ـ يا للبلاء الذي وقع اليوم!

كانت تتحدث بتلك اللهجة الخاصة التي يعمد إليها الأطفال لما يرغبون في تقليد «الكبار» فقال راسكولنيكوف:

ـ هل كان أبوك يحبك؟

فأجابت بتلك اللهجة الجدية دون أن تبتسم تماماً كما يتحدث الكبار:

ـ إنه كان يحب أختي الصغرى «ليدي» أكثر منا جميعاً. كان يحبها لأنها صغيرة ولأنها مريضة فكان يأتيها بالهدايا، أما نحن فكان يعلمنا القراءة وكان يعلمني «القواعد» و«الديانة» وكانت ماما لا تقول شيئاً لكننا كنا نعرف أنها مسرورة لذلك وبابا الصغير كان يعرف ذلك بالمثل. إن أمي تريد أن تعلمني الفرنسية لأن الوقت قد أزف بالنسبة إلي لأبدأ ثقافتي!

ـ وهل تعرفين الصلاة؟

ـ طبعاً... كيف لا؟ أعرف الصلاة منذ بعيد، وبما أنني لست صغيرة فإنني أصلي لوحدي. أما لوكيا وليدي فهما يصليان بصوت عال مع أمي ويستظهرون «أحييك يا ماري» وصلاة أخرى: «رباه بارك أختنا سونيا» وثالثة: «رباه اصفح عن أبينا الآخر وباركه»... لأن أبانا الأول قد مات وكان هذا أبونا الثاني لذلك فنحن نصلي كذلك من أجل الأول!

ـ يا بوليا الصغيرة، إن اسمي هو روديون فصلي أحياناً من أجلي وقولي: «من أجل روديون المسكين» وليس أكثر!

فعادت الطفلة تقول بحماس وهي تعانقه بشدة بذراعيها وتضحك بحبور:

ـ سأصلي من أجلك طيلة عمري!

أعطاها راسكولنيكوف اسمه وعنوانه ووعد بزيارتهم غداً دون تأخير فعادت الطفلة متحمسة قريرة العين، ولما بلغ الشارع كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة فلم تمض خمس دقائق حتى كان واقفاً على الجسر في المكان الذي ألقت به العجوز بنفسها إلى الماء بالذات! غمغم منتصراً:

ـ كفى! كفى!... إلى الوراء أيها السراب، إلى الوراء أيتها المخاوف الخرقاء! إلى الوراء أيتها التصورات والخيالات! إن الحياة موجودة! ألست حياً في هذه اللحظة؟ إن حياتي لم تمت بموت العجوز... لقد أصبحت ـ هي ـ في العالم الآخر، يكفيك أيتها العجوز! دعي الآخرين بسلام! لقد اكتسبت الآن العقل والنور! الإرادة! القوة!... ولسوف نرى! لنا نحن الاثنين الآن! ألم أقرر الإبقاء على حياتي في فراغ مساحته قدمان؟

فسكت برهة ثم أردف بلهجة متعالية كما لو أن قوة خفية كانت تتحداه:

ـ إنني الآن ضعيف جداً لكنني أعتقد بأن الارتباك قد انقضى! كنت أعرف أنه سوف يذهب عني منذ أن خرجت هذه الليلة من حجرتي. وعلى فكرة: إن بيت بوتشينكوف على قيد خطوتين من هنا وإني ما كنت لأتردد عن الذهاب إلى منزل رازوميخين لما أن كان يقطن بعيداً من هنا... فليربح رهانه! ليضحك قليلاً وليهزأ مني! إن القوة ضرورية وبدونها لا يصل المرء إلى أي شيء! ولا يمكن اكتساب القوة إلا بالقوة! ذلك ما يجهله الناس!

كان يحدث نفسه بكبرياء وثقة! ولم يلبث أن اجتاز الجسر بخطى حثيثة. كانت الكبرياء والثقة تنميان في نفسه باطراد دقيقة فدقيقة حتى أن كل دقيقة كانت كفيلة بأن تجعل منه إنساناً آخر! كان يجهل السبب الذي أدخل هذا التبديل الكلي على نفسه؟ كان يرى أنه يستطيع أن يعيش

وأن الحياة لا زالت ممكنة بالنسبة إليه ـ شأن الغريق الذي يتعلق بالقشة مؤملاً بالنجاة ـ كان يرى أن حياته لم تمت بموت العجوز! فهل كان يتوق إلى اتخاذ مثل هذا القرار؟ يجوز ولكنه لم يفكر في ذلك!

تابع يقول بعد قليل:

ـ ومع ذلك لقد طلبت إلى الطفلة أن تصلي من أجلي! هه! إنها الصدفة وحدها! ولما تذكر تلك الطفلة ابتسم رغم إرادته وشعر بصفاء ذهن عميق!

عثر على منزل رازوميخين بسهولة في بناء «بوتشنكوف» إذ كان السكان هناك يعرفون جميعهم المستأجر الجديد وتطوع البواب بإرشاده إلى المسكن وكانت الضحية تنبعث فتبلغ منتصف السلم مما يدل على أن النقاش كان حامي الوطيس بين عدد كبير من الأشخاص. وكان المفضي إلى «بسطه» السلم مفتوحاً على مصراعيه فكانت الأصوات تسمع بوضوح كلما زاد المرء دنواً.

كانت غرفة رازوميخين واسعة كبيرة اجتمع فيها عدد من الأشخاص يناهز الخمسة عشر. فلما بلغ راسكولنيكوف المدخل توقف قليلاً وراح يراقب خادمتين منصرفتين إلى «سماورين» كبيرين وعدد من الزجاجات والأطباق المملوءة بالحلوى والمقبلات! كانت تلك الأواني كلها مقدمة من قبل صاحبة البناء إمعاناً منها في إكرام النزيل الجديد...

استقدم راسكولنيكوف رازوميخين فأقبل هذا مسرعاً. كان يبدو عليه أنه أسرف في الشراب وأنه ـ على الرغم من شهرته في مقاومة تأثير الشراب ـ كان في تلك اللحظة واقعاً تحت تأثيره! قال له راسكولنيكوف موجزاً:

ـ اسمع! لقد جئت لأقول لك: إنك ربحت الرهان وإن المرء لا يعرف

في الحقيقة ما سيقع له. أما الدخول فلن أستطيعه لأنني ضعيف جداً وأكاد أن أسقط على الأرض لذلك أقول لك مرحباً وإلى اللقاء بآن واحد زرني غداً.

ـ سوف أقودك بنفسي بعد اعترافك بأنك ضعيف خائر القوى!

ـ وضيوفك؟ من هو هذا الرجل ذو الشعر الأجعد الذي ينظر نحونا؟

ـ من؟ ذاك؟ علمه عند الشيطان! لعله صديق لعمي أو لعله دعا نفسه بنفسه. هيا سأترك عمي مع الضيوف... إنه رجل ثمين جداً... ويؤسفني ألا تستطيع التعرف إليه اليوم. نم ليأخذهم الشيطان جميعاً لقد لبثت حتى الآن أعني بهم ويلزمني الآن بعض الهواء! لقد جئت في حينك لأنني كنت سأتعارك معهم بعد دقيقتين! إنهم لا ينطقون إلا بالحماقات لن تستطيع أن تتصور مدى قدرة كل منهم على حشو رؤوس سامعيه بالأكاذيب! بل أعتقد أنك تستطيع أن تتصور ذلك. لأننا جميعاً نكذب أحياناً. وبما أننا نكذب نحن فليكذبوا هم أيضاً! خصوصاً وأننا لن نكذب «بعدئذٍ»!... اجلس قليلاً سأستدعي لك زوسيموف!

هرع زوسيموف إلى راسكولنيكوف بنوع من اللهفة تفضح ما في نفسه من الفضول الخاص غير أن وجهه ما لبث أن عاد طبيعياً مشرقاً. وبعد أن فحصه قال له:

ـ ينبغي أن تنام فوراً... ومن الأنسب أن تأخذ شيئاً هذا المساء، شيئاً هيأته منذ قليل... «برشامة».

فقال راسكولنيكوف:

ـ أعطني اثنتين إذا كانتا لازمتين!

وشرب المريض العلاج على الفور بينما قال زوسيموف لرازوميخين:

ـ من الخير أن تصحبه إلى حجرته. وسنرى ماذا يكون غداً أما اليوم فالأمر مشجع لا بأس به. لقد حدث تغيير كلي! كلما عاش الإنسان كلما ازداد علماً!...

قال رازوميخين لصديقه وهما يخرجان:

أتدري ماذا قال زوسيموف عندما استدعيته منذ حين؟ لسوف أقوله لك بحذافيره لأنهم كلهم سخفاء! كان زوسيموف يوصيني بالتحدث إليك خلال الطريق لأطلق لسانك وأحمل له كل ما تنطق به من عبارات لأنه يعتقد... إنه يعتقد أنك مجنون أو على الأقل أنك على وشك الجنون! فهل تتصور هذا؟

أولاً: إنني أعتقد أنك أكثر ذكاءً منه بثلاث مرات على الأقل!.

وثانياً: إذا لم تكن مجنوناً فليس عليك إلا أن تستهزئ بالنزوات التي تعصف في رأسه.

وثالثاً: إن هذه «الكتلة من اللحم» مختصة بالتشريح والجراحة وهو مأفون بالأمراض العقلية حتى إن الحديث الذي دار بينك وبين زاميوتوف قد قلبه رأساً على عقب!

ـ هل قص عليك زاميوتوف الحديث كله؟

ـ كله! وقد أحسن صنعاً فقد فهمت كل الأسباب والدوافع في القضية وكذلك فهم زاميوتوف... والخلاصة يا روديا... الواقع هو أنني في هذه اللحظة ثمل بعض الشيء لكن لا بأس! الواقع هو أن هذه الفكرة... أنت تفهم! إن تلك الفكرة كانت مغروسة في نفوسهم... أتفهم؟ أي أن أحداً ما كان ليجرؤ على التصريح بها علانية لأن الحماقة فيها شديدة جداً

وخصوصاً منذ أن أوقفوا ذلك الدهان... فقد تبخر ذلك كفقاعة الصابون وتبدد نهائياً. لكن لِمَ هم على مثل هذه الحماقة جميعهم؟ لقد أغلظت القول قليلاً لزاميوتوف ـ وهذا بيننا أيها الصديق أرجو أن لا تتظاهر بمعرفته ـ ! فقد لاحظت أن زوسيموف سريع التأثر والانفعال وقد دار بيننا الحديث الذي نوهت به لك عند لويز! والآن فقد وضح كل شيء... إن السبب الرئيسي في هذه الظنون كان إيليا بيتروفيتش! فقد التقط الكرة «على الطاير» كما يقولون إثر إغمائك في دائرة البوليس ثم عاد وخجل من نفسه بعد ذلك لتفكيره في ذلك الافتراض؛ هذا ما علمته!

كان راسكولنيكوف يصغي بشوقٍ لأن رازوميخين كان متأثراً بالشراب فراح يفضح ما في نفسه، فقال مؤيداً اتجاه صديقه:

ـ لقد أغمي علي ذلك اليوم لأنني كدت أن أختنق بتأثير الحرارة ورائحة الدهان!

ـ إنهم يجدون حتى الآن صعوبة في تفسير تلك البادرة! والحقيقة أنها لم تكن رائحة الدهان وحدها هي السبب! كانت الحرارة مرتفعة لديك منذ أكثر من شهر كما أكد زوسيموف. آه لو علمت كم أصبح هذا الخبيث زاميوتوف متصاغراً الآن... تصور أنه قال لي في معرض الحديث عنك: «إنني لا أبلغ نقطة في بحره!» إنه لا يقدم شعوراً طيباً تختلج به نفسه لكن الدرس، نعم الذي ألقيته عليه اليوم في «قصر الكريستال» كان غاية في الكمال! لقد أخفته بادئ ذي بدء، أترى هذا؟ لقد جعلته يرتعش ويرتعد في البداية! فكر أنك جعلته من جديد يؤمن بنظريته الأولى تلك النظرية الخرقاء البشعة ثم فاجأته دون مقدمات «بضربة من قدمك في أنفه» وأنت تقول: «خذ هذه أيها العجوز!» إنها كانت ضربة معلم! سحقته وأفنته! لقد وجد أخيراً من يستطيع أن يساجله ويتحداه! كم آسف لأنني

لم أكن هناك! كان ينتظرك عندي بقلق وتلهف! ممنياً نفسه بشوق زائد للتعرف إليك!

ـ آه... هذا أيضاً؟... لكن لِمَ يعتبرونني مجنوناً؟

ـ ليس كالمجنون تماماً... أعتقد يا صديقي بأنني تحدثت أكثر مما ينبغي أن ما أذهله منذ حين هو أن ذلك الأمر وحده يهمك! والآن فقد عُرف سبب اهتمامك بعد أن أوضحت كل الملابسات. آه كم كان ذلك يقلقك وبما أن القضية كانت مرتبطة بعد ذلك بمرضك... أنا ثمل قليلاً يا عزيزي... لكن أترى يا للشيطان... إن له رأيه! وأنا أكرر عليك بأن الأمراض العقلية تشغل اهتمامه الكلي وليس عليك أنت إلا أن تهزأ بكل هذا!...

ـ اسمع يا رازوميخين! سأحدثك بصراحة! لقد جئت تواً من دار ميت إنه موظف مات وقد أعطيت أسرته كل ما أملك وعلاوة على ذلك فقد عانقتني مخلوقة... والخلاصة أن هناك مخلوقاً آخر... فتاة تضع ريشه بلون اللهب... لكنني أهذي... أنا شديد الضعف... دعني أستند إليك! أليس هذا هو السلم؟!

فسأل رازوميخين منزعجاً:

ـ ما بك؟ ماذا بك؟

ـ إن رأسي تدور قليلاً... لكن هذا ليس كل ما في الأمر المسألة هي إنني حزين حزين جداً كامرأة... حقيقة... انظر ما هذا... انظر! انظر!

ـ ماذا؟

ـ ألا ترى؟ هناك ضوء في غرفته يظهر خلال الخصاص!

كانا قد بلغا في تلك اللحظة إلى «البسطة» التي تسبق الممشى الذي يقود إلى غرفة راسكولنيكوف قرب باب شقة صاحبة البناء وكان

يمكن لهما أن يشاهدا من مكانهما النور الذي كان يشع من غرفته. فغمغم رازوميخين:

ـ غريب! لعلها ناستاسيا!

ـ إنها لا تحضر إلى غرفتي في مثل هذه الساعة! وفوق ذلك إنها لا شك نائحة منذ زمن! لكن... سيان عندي... الوداع!

ـ ماذا تقول؟ سأرافقك، سندخل كلانا!

ـ أنا أعرف أننا سندخل معاً ولكنني أريد أن أصافحك هنا وأن أفترق عنك هنا... هيا أعطني يدك... الوداع!

ـ ما بك يا روديا؟

ـ لا شيء... هيا ستكون شاهداً بنفسك!

راحا يصعدان السلم ورازوميخين يتخيل أن زوسيموف على حق فيما ذهب إليه! وأعتقد أنه «أزعجه بثرثرته» ولما بلغا باب الحجرة تناهى إلى سمعهما صوت حديث آت من داخلها فصاح رازوميخين:

ـ من هنا؟

دفع راسكولنيكوف الباب أولاً ففتحه على مصراعيه وتوقف على العتبة وقد سحرته المفاجأة.

كانت أمه وأخته جالستين في حجرته على«الديوان» المعهود ينتظرانه منذ ساعة ونصف. كانتا قد أمضتا كل ذلك الوقت في الانتظار وطرح الأسئلة على ناستاسيا التي راحت بدورها تسرد عليهما كل ما عرفته عن راسكولنيكوف! كانا يسألانها.

ـ لِمَ لم يكن ينتظرنا؟ هل كان يفكر فينا أقل من تفكيره في أي شيء آخر رغم ما بلغه ذلك اليوم عن مجيئهما؟

فتعود ناستاسيا لتقص عليهما طرفاً من معلوماتها التي جمعتها بفضل الصدف فإذا فرغت بدت المرأتان وقد أذهلهما الخوف واستولى عليهما الهلع خصوصاً بعد أن عرفتا نبأ فراره اليوم من غرفته دون أن يعرف أحد من وجهته شيئاً. فكانتا تهتفان بين الحين والآخر:

ـ رباه! ماذا وقع له؟!

بكتا طويلاً حزناً وألماً وقد أصيبتا بجرح بليغ في عواطفهما فلما وقف على الباب في تلك اللحظة انبعثت من حناجر النسوة الثلاث صرخات رغم تفاوت الأسباب الموجبة! واندفعت الأم والأخت نحو «الأمل» الوحيد لكنه لبث جامداً في مكانه وكأنه جثة لا روح فيها. لقد صعقته فكرة مفاجئة شديدة الوقع حتى أن ذراعه أصبحت عاجزة عن الحركة. كانت أمه وأخته تعتصرانه إلى صدريهما وتقبلانه بنهم وشغف، تبكيان وتضحكان معاً... فتقدم خطوة إلى الأمام ثم ترنح وسقط على الأرض فاقداً الصواب!

تصاعدت الصيحات ونداءات النجدة والزمجرات! واندفع رازوميخين ـ الذي كان واقفاً على المدخل ـ فأخذ المريض بين ذراعيه القويتين ومدده على السرير. وفجأة فتح هذا عينيه بينما قال رازوميخين مطمئناً الأم والأخت:

ـ لا تبتئسا... لا تخشيا... إنه إغماء بسيط... إنها حماقة! لقد صرح الطبيب منذ قليل أن حاله قد تحسن كثيراً وأنه استعاد قواه تماماً!... أعطوني قدح ماء! هاه... ها قد عاد إلى وعيه... نعم لقد استرد الرشد!

وأخذ بيد دونيا بقسوة كادت تحطم معصمها وراح يدعوها إلى الانحناء لترى بنفسها أن أخاها قد «عاد إليه صوابه». وقد شعرت الأم والأخت بفضل رازوميخين عليهما فنظرتا إليه نظرات كلها شكر وامتنان

وكأنه رسول القدرة الإلهية! كانتا قد علمتا من قبل بواسطة ناستاسيا بمبلغ عناية هذا الفتى بروديا خلال مرضه...

ـ «ذلك الرجل المبدع!» كذلك راحت بولشيري ألكسندروفنا راسكولينكوف تطلق على رازوميخين خلال حديثها الودي مع ابنتها دونيا.

القسم الثالث

الفَصْلُ الأول

استوى راسكولنيكوف جالساً على الديوان وأشار بيده إلى رازوميخين ليكف عن الاسترسال في تعزية أمه وأخته والتخفيف عنهما بذلك السيل من العبارات التي ما انفك يوجهها إليهما ومد إلى كل منهما يداً أطبق بها على يديهما وراح خلال دقيقة كاملة ينظر إليهما بسكون ويتأملهما دورياً.

روعت الأم من نظرة ابنها لأنها قرأت فيها ذلك الإحساس المقبض الباعث على أشد الألم، إحساساً يرافقه شيء ثابت، شيء أقرب إلى الجنون، فراحت تبكي بحرقة بينما كانت الأخت أفدوتيا رومانوفنا شاحبة ترتعد يدها في يد أخيها.

قال راسكولنيكوف بصوت متقطع هامس وهو ينظر إلى رازوميخين:

ـ عودا إلى مسكنكما وإلى الغد! غداً كل شيء... هل وصلتما منذ زمن طويل؟

فأجابت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ هذا المساء... لقد حصل تأخير أعاق القطار، لكن يا روديا، لن أتركك الآن مهما كان السبب... سأمضي الليلة هنا... إلى جانبك!

فلوح راسكولنيكوف بيده بغضب وقال:

ـ لا تعذبيني!

وهتف رازوميخين:

ـ سأبقى بالقرب منه، لن أتركه دقيقة واحدة وليحمل الشيطان ضيوفي! ليصخبوا وليشتموا ما راق لهم إن عمي هناك يرأس الحفل!

فقالت بولشيري ألكسندروفنا وهي تضغط على يديه بامتنان:

ـ كيف أستطيع أن أشكرك؟

غير أن راسكولنيكوف قاطعها قائلاً بشيء من الانفعال:

ـ لا أريد... لا أريد... لا تزعجوا أنفسكم... كفى! اخرجوا!... لن أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك.

غمغمت دونيا مروعة:

ـ هيا بنا يا أمي الصغيرة! لنخرج من الحجرة الآن على الأقل! إننا نقضي عليه إذا بقينا، ذلك واضح!

فقالت بولشيري ألكسندروفنا باكية:

ـ لكن هل لن يتاح لي أن ألقي عليه نظرة أطول بعد فراق ثلاث سنوات؟

عاد راسكولنيكوف يقول:

ـ انتظروا... إنكما تقاطعانني بينما الأفكار تتزاحم في رأسي... هل رأيتما لوجين؟

فأجابت بولشيري ألكسندروفنا بصوت لم يخل من مسحة من الخجل!

ـ كلا يا روديا. لكنه يعرف أننا وصلنا... لقد علمنا يا روديا أن بيير بيتروفيتش قد تفضل بزيارتك اليوم!

ـ نعم! لقد غمرني بهذا الفضل! دونيا... لقد صرحت للوجين منذ بضع ساعات بأنني سألقي به إلى أسفل السلم وطردته شر طردة!

هتفت بولشيري ألكسندروفنا مرتاعة:

ـ روديا... ماذا تقول؟ هل حقيقة... هل تقول جدياً؟...

ثم توقفت عن متابعة الحديث بعد أن ألقت نظرة إلى دونيا!

كانت أفدوتيا رومانوفنا تنظر إلى أخيها محدقة في وجهه تنتظر نتيجة كلامه! فقد علمت هي كما علمت أمها كذلك من ناستاسيا بعضاً مما دار بين راسكولنيكوف ولوجين بقدر ما سمحت به معلومات هذه الأخيرة فكانتا غير مصدقتين وأمضتا الوقت متلهفتين لسماع التفاصيل وهما تشعران بانفعال عنيف.

تابع راسكولنيكوف حديثه بجهد واضح قائلاً:

ـ دونيا! لا أريد هذا الزواج! ولهذا عليك أن تنتهي من لوجين غداً ولننسى اسمه نهائياً بعد ذلك!

هتفت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ رباه!

بينما قالت أفدوتيا رومانوفنا بصوت منفعل:

ـ أخي! فكر فيما تقول...

بَيْدَ أنها تمالكت نفسها بعدئذٍ واسترسلت بصوت حانٍ تقول:

ـ إنك لست في وضع مناسب الآن... إنك متعب!

ـ تعتقدين بأنني أهذي أليس كذلك؟ اعلمي أنك مخطئة!...

إنك تتزوجين وجين من أجلي... «بسببي أنا» وأنا لا أقبل هذه التضحية الرهيبة... لذلك فلسوف تكتبين إليه غداً تعلمينه بفسخ الخطوبة... سوف تقرئين لي تلك الرسالة صباحاً وسينتهي كل شيء!

صاحت الفتاة وقد شعرت بجرح في كرامتها:

ـ لا أستطيع عمل ذلك! ثم بأي حق!

غير أن أمها استدارت نحوها مقاطعة وقد بان الرعب في عيونها:

ـ دونيا، أنت أيضاً تنفعلين! آه... لنذهب ذلك أجدى!

وهتف رازوميخين قائلاً بصوت المخمور:

ـ إنه يهذي وإلا لما كان سمح لنفسه... غداً ستنتهي هذه الأزمة... أما اليوم... ففي الحقيقة إنه طرده تماماً كما قال! ولا شك أن الآخر انزعج لهذا التصرف، لقد كان «يخطب» هنا وينشر معلوماته مع ذلك فقد مضى وذنبه بين ساقيه!

فصاحت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ إذاً... إنه صحيح تماماً...

بينما هتفت صونيا بصوت يذوب حناناً:

ـ إلى الغد يا أخي... هيا يا أماه... الوداع يا روديا!

فكرر هذا قائلاً بجهد عنيف:

ـ أتسمعين يا أختاه! أنا لا أهذي... إن هذا الزواج فضيحة ورذيلة! وإذا كنت نذلاً أنا فلا ينبغي لك على الأقل أن تكونيه... يكفي نذل واحد! لكن مهما بلغت نذالتي فإنني سأكف عن اعتبارك أختاً لي... إما أنا وإما لوجين... انسحبي!

فزمجر رازوميخين:

ـ لكنك فقدت صوابك أيها الظالم!

لم يجب راسكولنيكوف ولعله لم يكن يملك القوة على الجواب واستلقى على «الديوان» مستديراً نحو الجدار منهوك القوى! وراحت أفدوتيا رومانوفنا تتطلع إلى رازوميخين بفضول وعيناها السوداوان تلتمعان حتى أن رازوميخين نفسه ارتعد تحت وطأة تلك النظرة أما بولشيري ألكسندروفنا فقد كانت شديدة الاضطراب فغمغمت تهمس إلى رازوميخين قائلة بيأس:

ـ لن أستطيع مبارحة المكان لأي سبب في الدنيا! سأبقى هنا في أي مكان... أصحب دونيا!

فأجابها بهمس كذلك وقد فقد السيطرة على أعصابه:

ـ نعم... بينما تفسدين أنت الأمر كله! لنخرج على الأقل من الحجرة...

أضيئي سبيلنا يا ناستاسيا... ولما أصبحوا على السلم أضاف قائلاً بصوت منخفض:

ـ أقسم لك أنه كاد منذ حين أن يضربني ويضرب الطبيب فهل تفهمين معنى هذا؟ الطبيب بالذات! وقد خرج هذا لكي لا يسبب له انفعالاً عنيفاً. فلما خرجنا استطاع ـ هو ـ أن يرتدي ثيابه وأن يتسلل بينما كنت في شقة صاحبة الدار أراقب... والآن، لسوف يتسلل هارباً من جديد إذا أثرتماه ولعله سيحاول أن ينزل بنفسه مصيبة!

ـ آه... ماذا تقول؟

ـ طبعاً... ثم لا تنسى أن أدفوتيا رومانوفنا لا يمكنها أن تبقى وحيدة في بيت من ذلك النوع! فكرا قليلاً في المكان الذي نزلتما فيه! هل لم يكن ذلك «القذر» مستطيعاً حقيقة أن يجد لكما مسكناً أفضل... على كل حال إنكما تعرفان بأنني ثمل قليلاً ولهذا السبب تلفظت بكلمات نابية فلا تلقيا بالاً إليها!

فقالت بولشيري ألكسندروفنا بإلحاح:

ـ سأذهب إلى صاحبة المسكن. توسل إليها أن تعطيني أنا ودونيا زاوية نمضي فيها ليلتنا هذه. لا أستطيع تركه على هذه الحال... لا أستطيع.

كانوا قد بلغوا شقة صاحب البناء وكانت ناستاسيا تنير لهم الدرجة التالية... وكان رازوميخين منفعلاً جداً... فقد كان منذ نصف ساعة، ـ عندما كان يصحب راسكولنيكوف ـ يثرثر كثيراً كما شعر بذلك بنفسه لكنه كان مع ذلك يشعر بطلاقة وبصفاء ذهن رغم كمية الكحول الهائلة التي استهلكها. أما الآن فقد كان يشعر بأنه غارق في لون من الذهول وكأن أبخرة الكحول راحت تصعد إلى رأسه محدثة تأثيراً مضاعفاً. كان واقفاً بين السدتين مطبقاً على يد كل منهما ساعياً لإقناعهما بشتى الوسائل والحجج بلغة مدهشة فكان ـ بعد كل كلمة ـ يضغط على يديهما بعنف لعله راجع إلى رغبته في مضاعفة إقناعهما أو التأثير عليهما. وكان بين الحين والآخر يكاد أن يفترس أفدوتيا رومانوفنا بنظراته دون أن يشعر بأي حرج. وكانت السيدتان تخلصان يديهما أحياناً لشدة تألمهما من إطباق تلك القبضة القوية الجبارة على أصابعهما لكنه سرعان ما كان يستعيدهما ليضغط عليهما بشدة أكثر من ذي قبل. ولو أنهما طلبتا إليه في تلك اللحظة أن يلقي بنفسه من أعلى السلم ورأسه إلى الأمام لفعل على الفور دون أن تطرف له عين!

كانت بولشيري ألكسندروفنا شديدة القلق على ابنها لكنه لم يفتها برغم ذلك أن تلاحظ أن ذلك «الفتى» يقوم بأعمال مستهجنة ويضغط على يديها بقوة تشعرها بالألم، غير أنها لبثت تتغاضى عن هفواته البسيطة تلك ولا تنفك تعتبره «الملاك» الحارس!

أما أفدوتيا رومانوفنا فعلى الرغم من أنها لم تكن ذات عقلية منطوية وجلة، فإنها كانت مندهشة لتصرف ذلك الشاب بل وخائفة منه كلما التمعت نظرات صديق أخيها هذا لتقف على وجهها! ولولا الثقة العمياء التي زرعتها ناستاسيا في نفسها عندما تحدثت عنه وعن خدماته لأخيها، لفرت مذعورة تجذب معها أمها لتنجو منه! وكانت تعرف أنه يتعذر عليها في تلك اللحظة الإفلات منه. غير أنه لم تمض عشر دقائق حتى وجدت الفتاة نفسها مطمئنة تماماً إلى هذا «الرجل الرهيب».

كان رازوميخين يمتاز بموهبة فذة في تعريف نفسه وإظهارها على حقيقتها منذ اللحظة الأولى وفي أي موقف كان، فكان يقوم بذلك التعريف بشكل يجعل الآخرين يدركون فوراً نوع الرجل الذي يتعاملون معه. لذلك فقد راح يقول محاولاً إقناع بولشيري ألكسندروفنا:

ـ محال أن تتصلي بصاحبة البناء إنها ستكون حماقة كبرى! صحيح أنك أمه، وأنك أم مثالية لكنك إذا بقيت فلسوف تثيرين غضبه والله يعلم ما سيحدث اسمعي... سأحدثك عما سأعمل: «ستبقى ناستاسيا في الوقت الحاضر بالقرب منه بينما سأصحبكما إلى مسكنكما لأنه من غير اللائق أن تبدوا وحدكما في الطريق هنا في بطرسبورغ... هيا... ثم عندما أرجع من مسكنكما «سأقفز» إلى هنا وأعدكما بأنني سأبلغكما خلال ربع ساعة بالجديد من أنبائه. سأقول لكما كيف حاله وهو نائم أو مستيقظ إلخ أو بعدئذٍ... استمعا... وبعدئذٍ سأعود فوراً إلى منزلي لأن لدي بعض المدعوين

وكلهم مخمورون وسأصحب زوسيموف ـ وهو الطبيب الذي اعتنى به ـ وهو الآن في منزلي وهو ليس ثملاً إنه لم يثمل قط لأنه لا يشرب! سأعود به إلى أوروبا ومن هناك سنحضر إلى مسكنكما! أي أنكما ستتلقيان خلال ساعة واحدة أخباراً عنه وستتلقيانها مني أولاً ثم من طبيب، الأمر الذي يختلف تماماً عن رأيي الشخصي. وإنني أقسم لكما أن أحملكما إليه فوراً إذا كانت حالته سيئة. أما إذا كانت حالته مرضية فلسوف تنامان! وسأقضي الليل كله هنا في الممشى ولن أجعله يشعر بوجودي وسأجعل زوسيموف ينام عند صاحبة البناء ليكون في متناول يدي إذا احتجت إليه! فمن يكون أكثر نفعاً بالنسبة إليه في هذه اللحظة: أنت أم الطبيب؟ من رأيي إنه الطبيب! إذاً... عودا إلى مسكنكما... أما البقاء لدى صاحبة البناء فهو مستحيل إنه ولن يكون كذلك بالنسبة إلي أما أنتما فلا... وهي لن تقبل إيواءكما لأنها... لأنها بلهاء... وهي غيور تغار من أدفوتيازونوفا إذا شئت معرفة ذلك ومنك أيضاً... ولكن من أدفوتيا رومانوفنا بشكل مؤكد. إنها مخلوق جامح عنيد كأشد ما يكون الإنسان عناداً... على كل حال إنني سخيف أنا الآخر... فلندع كل هذا تعالياً... هل تثقان بي؟ قولا هل تثقان بي؟ نعم أم لا؟

فقالت أفدوتيا رومانوفنا:

ـ لنذهب يا أماه، لسوف يتصرف كما وعد... لا تنسي أنه أعاد أخي إلى الحياة من قبل وإذا قبل الطبيب حقيقة فليقض ليلة هنا فإننا لن نأمل خيراً من هذا...

هتف رازوميخين منفعلاً من الحماس:

ـ هكذا... أنت... أنت تفهمينني لأنك ملك... لنذهب. ناستاسيا

اصعدي إلى أعلى فوراً والبثي بالقرب منه مع الضوء... سأعود في غضون ربع ساعة!

لم تمانع بولشيري ألكسندروفنا رغم أنها لم تقتنع تماماً وهكذا أحاط رازوميخين كلاً من رفيقتيه بذراعه وراح يجرهما هابطاً بهما. بينما كانت الأم تتساءل قلقة:

ـ لقد كان مدبراً وخدوماً حقاً ولكن هل هو في حال «تساعده على الاستمساك بوعوده؟ لو حكمنا على المظهر!...».

وفجأة عاد رازوميخين يقول وكأنه قرأ أفكار الأم القلقة:

ـ إني أفهم ما في نفسك! إنك تفكرين بأنني أبدو ثملاً...

كان يمشي بخطى سريعة واسعة حتى أن السيدتين كانتا تلاقيان صعوبة في مجاراته في المشي. غير أنه لم يلاحظ ذلك بل راح يتابع حديثه قائلاً:

ـ نعم... إنها حماقة! أقصد أنني ثمل كالخنزير... لكن ليس بفعل الكحول! نعم ليست الكحول التي أسكرتني... إنني منذ أن رأيتكما «ضرب» ذلك على رأسي. لكن هيا لا تباليا بأقوالي... إنني أهذي... فأنا لست جديراً بكما... بل إنني في أحط درجات الجدارة بالنسبة إليكما!... لكنني بعد أن أوصلكما إلى مسكنكما سأذهب فوراً إلى «القناة» وسأصب على رأسي دلوين كبيرين من الماء فيذهب كل هذا! آه لو عرفتما كلاكما كم أحبكما... لا تضحكا ولا تغضبا مني! اغضبا من كل الناس إلا مني أنا... فأنا صديقه وبالتالي صديقكما... إنني أريد أن أكون صديقكما... لقد شعرت بذلك شعوراً مسبقاً... شعرت به في العام الفائت خلال ومن ما... كلا... لم أشعر بشيء شعوراً مسبقاً... لقد هبطتما إلي من السماء! من المؤكد أنني لن

أنام هذه الليلة مطلقاً... إن هذا «الزوسيموف» كان يخشى منذ قليل أن يكون روديا مجنوناً... ولهذا السبب لا ينبغي إغضابه!

فصرخت الأم:

ـ ماذا تقول؟

وهتفت أفدوتيا رومانوفنا وقد عصف بها القلق:

ـ هل يعقل أن يكون الطبيب نفسه قد قال ذلك؟

ـ نعم لقد قاله؟ ولكنه ليس صحيحاً مطلقاً. لقد أعطاه دواء... مسحوقاً... وقد رأيته وفي هذه الأثناء جئتما! آه كان من الأفضل لو لم تصلا اليوم لقد أحسنا صنعاً بمغادرته ولسوف يطمئنكما زوسيموف في غضون ساعة واحدة. إنه ليس ثملاً مثلي... وكذلك لن أكون ثملاً بعد ساعة. ولكن لم حشرت أنفي بكل هذه الشدة؟ لأنهم اجتذبوني بمناقشاتهم! يا للأوغاد! وأنا الذي كنت قد أقسمت على عدم الدخول في مناقشات! نعم كانوا يسردون على بعضهم الأكاذيب ولولا قليل لرحت ضربهم... وقد تركت عمي هناك كرئيس هل تصدقان؟ إنهم جميعاً عديمو الشخصية تماماً! إنهم جميعاً كالأطفال هدفهم أن يكونوا هم «أنفسهم» وأن لا يشبهوا واقعهم على أضيق نطاق ممكن! هذا ما يعتبرونه أقصى درجات «المجهود» وهكذا راح كل منهم يهذي على هواه...

فقالت بولشيري ألكسندروفنا وهي تقاطعه بخجل:

ـ اسمع!...

لكن تلك الملاحظة ضاعفت انفعاله فهتف بصوت عالٍ:

ـ هم! ماذا فيمَ تفكرين؟ أتعتقدين أنني أنفعل وأثور لأنهم يقصون

على بعضهم أقوالاً سخيفة فارغة؟ أبداً... بل إنني أحب أن يفعلوا ذلك. إن السخافات الكاذبة هي كل ميزة الإنسان على بقية الحيوانات! لأن الإنسان يصل إلى الحقيقة عن طريق الكذب. فإذا كنت إنساناً فذلك لأنني أكذب. لم يحدث أن اكتشفت حقيقة واحدة دون أن تكون قد سبقت بالكذب أربع عشرة مرة! بل مائة وأربع عشرة مرة! وليس في ذلك بالذات ما يشرف لأننا لا نعرف أن نكذب حسب ذكائنا وعقليتنا! الصقي لي كذبات شريطة أن تكون صادرة عنك تماماً فأقبلك! لأن الكذب حسب طابع الإنسان وأسلوبه أجمل من الحقيقة التي ينفخها فم أجنبي في رؤوسنا! لأننا في الحالة الأولى نكون رجالاً أما في الحالة الثانية فنكون ببغاوات فحسب. إن الحقيقة لا تختفي بل الحياة هي التي تختفي! ولقد رأينا وشاهدنا كيف يمكن طعن الحياة! أين نحن الآن؟ كلنا دون استثناء! أين نحن جميعاً فيما يتعلق بالعلوم والثقافة والفكر والعقلية الإبداعية والمثل العليا والرغبات التحررية، والمنطق والتجربة وكل شيء آخر... إننا لا زلنا نتبع الدروس الإعدادية في المدرسة الابتدائية! إننا نستأنس ونعجب بالمعارف التي تُملأ بها أفواهنا ممضوغة خالصة! أليس كذلك؟ أليس ما أقوله حقيقة؟

كان يصيح منفعلاً وهو يضغط بشدة على يدي السيدتين حتى أن بولشيري ألكسندروفنا المسكينة قالت بحيرة:

ـ آه رباه... لا أدري!

بينما قالت أفدوتيا رومانوفنا بلهجة جدية:

ـ نعم إنه لكذلك على الرغم من أنني لا أوافقك على كل النقاط دون استثناء!

وفجأة صرخت من الألم لشدة ما كان رازوميخين يضغط على يدها وهو يقول في ذهوله:

ـ نعم؟ تقولين نعم؟ لكنك أنت... أنت... أنت نبع الصلاح! نبع النقاء والعقل والكمال... أعطني يدك أعطنيها... وأنت أعطني يدك كذلك! أريد أن أقبّل هاتين اليدين هنا وأنا راكع على ركبتي وفي هذه اللحظة!

ثم جثا في منتصف الرصيف الذي كان لحسن الحظ خالياً من الناس في تلك اللحظة.

صرخت بولشيري ألكسندروفنا بانزعاج:

ـ ماذا تعمل؟ أرجوك دع هذا!

وأردفت دونيا التي تضحك ولكن دون انزعاج:

ـ انهض... انهض!

ـ لن أنهض بأي ثمن إلا إذا أعطيتماني يديكما... هكذا... تماماً. والآن كفى... لنذهب؟ أنا سمج تعس غير جدير بكما وثمل! إنني أحمر خجلاً إذ إنني لست جديراً بأن أحبكما. أما أن أنحني أمامكما خاضعاً فإنه واجب علي إلا إذا كنت وحشاً حقيقياً. ولذا فقد ركعت وانحنيت! هذا هو مسكنكما وبسبب هذا وحده، أعترف بأن روديون كان على صواب تماماً حينما طرد صاحبكما بيير بيتروفيتش كيف سمح لنفسه أن يجعلكما تسكنان في منزل كهذا؟ إنها فضيحة! أتعرفان أي نوع من الناس يأوون إلى هنا؟ مع ذلك فأنت خطيبته! لأنك خطيبته أليس كذلك؟ إذن سأصرح لك رغم ذلك بأن زوجك المقبل ليس إلا «قذراً»!

فقالت بولشيري ألكسندروفنا محتجة:

ـ اسمع يا سيد رازوميخين... إنك تنسى نفسك...

فتمالك رازوميخين نفسه وقال:

ـ نعم نعم... إنك على حق! لقد نسيت نفسي ولكنكما لن تلوماني على ما قلته منذ حين لأنني تحدثت إليكما بكل صراحة وليس لأنني... هم... إنها كانت تكون نذالة، وبالاختصار ليس لأنني... هم... ليكن... لن يكون ذلك ولن أقوله لأنني لا أجرؤ، لكنه منذ حين... لما دخل إلى حجرة روديون فهمنا للوهلة الأولى أن هذا الرجل ليس من عالمنا، ليس لأنه دخل علينا برأس خرجت تواً من بين يدي الحلاق وليس لأنه بادر إلى نشر ما يعرف من معلومات بل لأنه جاسوس بكل معنى الكلمة... لأنه مدقق ولأنه يهودي ومشعوذ دعي، ذلك واضح عليه، وأنتما تعتقدان أنه ذكي، لكنه حيوان، هيا هل حقيقة يمكن أن يكون «صفقة» جديرة بكما؟ آه رباه، انظري يا سيدتي... إن الأصدقاء المدعوين عندي سكارى لكنهم شرفاء، ولقد تحدثنا بكل الترهات والسخافات لأنني أنا أيضاً أحسن التحدث بهذه الأشياء، لسوف نتوصل يوماً إلى معرفة الحقيقة لأننا في الطريق القويم، الأمر الذي لا يبدو على بيير بيتروفيتش لأنه لا يتبع الطريق القويم... إنني أحب أولئك الذين دعوتهم الليلة إلى داري رغم أننا تناقشنا بحدة وأغلظت لهم القول بعد ذلك... وزاميوتوف نفسه الذي أحبه دون أن أميل إليه لأنه حيوان فضولي، نعم. حتى ذلك الوحش زاميوتوف فإنني أحبه لأنه نزيه شريف يعرف مهنته... لكن كفاني كلاماً وقد صفح عن كل شيء قيل... أليس صحيحاً أنكما صفحتما عما قلت؟ هيا... لنمش...

كانوا قد بلغوا المسكن المعد للسيدتين وراحوا يرقون السلم وهو يثرثر. ولما بلغوا أمام باب أحد المساكن هتف:

ـ هنا... في رقم ثلاثة وقعت فضيحة!... لقد جئت من قبل إلى هذا المكان وأنا أعرفه حق المعرفة... أين تنزلان؟... في المسكن الثامن؟حسناً! أغلقا عليكما الباب بالمفتاح ولا تدعا أحداً يدخل عليكما ليلاً... سأعود في

غضون ربع ساعة لأحمل لكما الأنباء الجديدة... وبعد نصف ساعة على الأكثر سأعود مرة ثانية مع زوسيموف... سوف تريان! الوداع... ينبغي أن أغادركما!

ولما أصبحتا وحيدتين هتفت بولشيري ألكسندروفنا بقلق واضح:

ـ يا إلهي يا دونيا... ماذا سيحدث؟

فأجابت دونيا وهي تنزع قبعتها ورداءها:

ـ لا تقلقي يا أماه! إن اللّه نفسه قيض لنا هذا السيد. ثقي بأنه يمكن الاعتماد عليه رغم أنه ثمل! وكل ما قاله وعمله من أجل أخي...

ـ آه يا دونيا! اللّه يعلم إذا كان سيعود! كيف قبلت مغادرة روديا! رباه! وإنني ما كنت أنتظر أن أراه على هذا الشكل... لقد بدا مخيفاً... وكأنه غير راضٍ عن مشاهدتنا...

وانهمرت دموع المسكينة على خديها!

ـ كلا! إن الأمر ليس كما تتوهمين يا أماه! إنك لم تمعني النظر لأنك كنت تبكين! لقد زعزعه مرض خطير وهذا هو السبب في كل ما حدث!

ـ آه ذلك المرض! إن في الأمر شيئاً... رباه كيف تحدث معك يا دونيا!

كانت الأم تنطق بالعبارة الأخيرة وهي تحاول قراءة أفكار ابنتها في عينيها وقد سُرت بعض السرور لأن دونيا كانت تدافع عن أخيها مما يدل على أنها صفحت عما صدر عنه! وأردفت معقبة وهي تحاول بحث الموضوع إلى النهاية:

ـ أنا واثقة من أنه سيبدل رأيه غداً...

فقاطعتها أدفوتيا رومانوفنا بقولها:

- بل إنني واثقة من أنه غداً سيقول ما قاله اليوم...

قطعت بهذه الجملة على بولشيري ألكسندروفنا طريق الخوض في الموضوع الذي كانت تتهيب من الخوض فيه ثم اتجهت نحوها فعانقتها بقوة وعادت تجلس على مقعد منتظرة بقلق عودة رازوميخين! وكانت الأم ترقب ابنتها بصمت وقد عقدت ذراعيها منتظرة الأخبار الجديدة. ولم تلبث هذه أن نهضت واقفة وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً مستغرقة في أفكارها. تلك كانت عادتها كلما كانت تتردد في اتخاذ قرار معين وكانت أمها في مثل تلك الظروف تتجنب إزعاجها وقطع حبل تفكيرها.

كان رازوميخين ولا شك مضحكاً في نزوته الطارئة التي استبدت به فراح يعبّر عنها وهو في حالة السكر... تلك النزوة التي أحس بها حيال أفدوتيا رومانوفنا. لكن من يتأمل في تلك الفتاة وخصوصاً في تلك اللحظة وهي عاقدة ذراعيها تتجول حزينة ساهمة في فراغ حجرتها له العذر حتى ولو لم يكن ثملاً. كانت أدفوتيا شخصية جذابة حسنة التكوين طويلة القوام متينة البنية واثقة من نفسها كما كان يبدو من كل حركة من حركاتها الأمر الذي كان يزيدها رقة ووداعة. كانت تشبه أخاها في تقاطيع وجهها لكن ذلك ما كان ليمنع أن تكون ذات جمال خارق. كان شعرها كستنائياً كشعر أخيها مع اختلاف طفيف، وعيناها سوداوان لامعتان مطبوعتان بالكبرياء تنبعث منهما في كثير من الأحيان رقة خارقة، وكانت شاحبة بغير مرض تعكس وجهها آيات العافية والإشراق. وكان فمها صغيراً وشفتها السفلى بلون أحمر صارخ تبرز قليلاً مع بروز ذقنها، وكان ذلك «البروز» الطفيف العيب الوحيد في ذلك الوجه البديع. لكنه كان يضفي عليه لوناً من الصرامة والترفع... وكانت أمارات وجهها تدل على الرزانة والتفكير أكثر

منها على البشاشة لكن الضحكة التي كانت ترتسم على ذلك الفم الجميل كانت غاية في الجمال لأنه فم يليق به الابتسام فإذا ضحكت كانت ضحكة هادئة مرحة طافحة بالحيوية! فكان منتظراً إذاً أن يفقد رازومخين المتقد حيوية، الشديد الإخلاص، رازوميخين البسيط، النبيل القوي قوة الأبطال القدماء. الذي كان ثملاً والذي لم يسبق له أن رأى مثل هذا الجمال، كان منتظراً أن يفقد رجل كهذا عقله! ثم إن الصدفة شاءت ـ وكأن ذلك كان بحسب خطة مرسومة ـ أن تريه دونيا في الوقت الذي كانت فيه تطفح بالحب والفرح للقيا أخيها ولقد وجدها بعد ذلك مرتجفة الشفاه ثائرة لكرامتها إزاء إهانات أخيها فلم يبدل ذلك من الأمر شيئاً.

وكان صادقاً عندما قال ـ بينما كانوا يهبطون من حجرة راسكولنيكوف ـ إن صاحبة منزل ذلك الأخير براسكوفي إيفانوفنا ستغار ليس فقط من أدفوتيا رومانوفنا بل كذلك من بولشيري ألكسندروفنا نفسها. إذ إن هذه رغم أنها كانت قد تجاوزت الثالثة والأربعين من عمرها إلا أنها كانت تبدو أصغر سناً كما هو الحال عند النساء اللاتي يحتفظن حتى أرذل العمر بصفاء ذهنهن وبإحساساتهن وحرارة أجسادهن الطاهرة! طبعاً... إن المرأة لا يمكنها أن تحافظ على جمالها حتى سن الشيخوخة إذا لم تكن محافظة على ذلك المبدأ الوحيد.

كان شعرها قد أصبح قليلاً يغزوه اللون الأبيض وقد ارتسمت على أطراف عينيها تجعدات خفيفة وضمر خداها ونحلا تحت وطأة الأحزان والآلام أما فيما عدا ذلك فإن وجهها لبث جميلاً. إنه صورة دونيا مضافاً إليها عشرون عاماً باستثناء بروز الشفة السفلى الذي لم يكن موجوداً فيها.

كانت بولشيري ألكسندروفنا سيدة حساسة إلى حدٍّ ما خجول شديد التسامح حتى في حالات النيل من معتقداتها وآرائها، لكنها كانت أبداً

تعرف الحد الذي يجعل شرفها أو واجبها أو معتقداتها الخاصة التي تؤمن بها بشدة في منجاة من كل اجتراء مهما كانت الظروف والمناسبات.

لم تنقض عشرون دقيقة على ذهاب رازوميخين حتى سمعتا طرقتين خفيفتين على بابهما... ولما فتحتا الباب وجدتا أنه قد عاد، ابتدرها قائلاً بعجلة:

ـ لن أدخل لأن لا وقت لدي، إنه ينام كأسعد السعداء. نوماً هادئاً وديعاً وإن شاء الله سينام على هذه الصورة طيلة عشر شاعات! إن ناستاسيا بالقرب منه وقد أفهمتها بأن لا تبارحه حتى عودتي سأذهب الآن لأقود زوسيموف وسيحدثكما بنفسه عند عودته وبعد ذلك سوف تستلقيان لتأخذا قسطكما من الراحة لأنكما مرهقتان بالتعب. إنه باد عليكما!

ثم غادرهما مسرعاً بينما هتفت بولشيري ألكسندروفنا بحبور:

يا له من فتى! حاذق!

فأجابت أفدوتيا رومانوفنا بشيء من اللهفة وهي تعود إلى تجوالها وسط الغرفة:

ـ يبدو عليه أنه من طينة ممتازة!

لم تمض ساعة على مجيء رازوميخين حتى علت أصوات خطوات في الممشى وقرع الباب من جديد. كانت السيدتان تنتظران لأنهما بدأتا تثقان بوعود رازوميخين وقد وجدتاه في هذه المرة قد نجح في اصطحاب زوسيموف معه وبدا أن هذا الأخير قد وافق بكل طيبة خاطر على ترك الحفلة ليعود راسكولنيكوف لكنه لم يحضر إلى مسكن السيدتين بمثل هذه السهولة لولا إلحاح رازوميخين وخشية الطبيب منه وهو على تلك

الحال. على أنه سرعان ما بدا الارتياح على وجهه بعد أن لمس بنفسه مبلغ اللهفة التي اعتلجت في نفس السيدتين الفاضلتين وهما بانتظاره. وقد أمضى لديهما عشر دقائق بالضبط استطاع خلالها أن يقنع بولشيري ألكسندورفنا ويطيب خاطرها. كانت كلماته تشهد بحسن حال المريض لكنها لم تكن خالية من بعض الحيطة متسمة بطابع الأهمية الواجب إخفاؤها على أقوال طبيب في السابعة والعشرين من عمره يُسأل في حالة خطيرة. لم يلفظ خلال حديثه أية كلمة خارجة عن الموضوع ولم يبد أية رغبة في تدعيم علاقات شخصية وثيقة مع السيدتين وعلى الرغم من أنه لاحظ منذ دخوله حسن أدفوتيا رومانوفنا الباهر فقد عمل فوراً على أن لا يلقي أية عناية إليها لذلك فإنه راح يوجه الحديث ـ كل الوقت الذي استغرقته الزيارة ـ إلى بولشيري ألكسندروفنا وحدها. وكان ذلك التصرف يشعره بارتياح داخلي بالغ.

صرح ـ بأن المريض كان ـ في تلك الأثناء بحالة مُرضية وأن ما يعانيه ـ حسب تشخيصه للمرض ـ ليس فقط من العوامل المرضية المادية التي رافقت جسده خلال الأشهر الأخيرة بل أيضاً بسبب عقلي خاص يمكن إيجازه بالقلق الذي ينجم عن أفكار معينة. ولما لاحظ أن أدفوتيا رومانوفنا كانت تستمع إليه باهتمام خاص راح يشرح بتبسط نظريته. ولما سألته بولشيري ألكسندروفنا بصوتها القلق الخجول عما إذا كان ولدها يعاني من حالة معينة من حالات الجنون أجاب بضحكة هادئة صريحة بأن ذلك يعتبر مبالغاً فيه وأن المريض تسيطر عليه فكرة خاصة ثابتة تسبب له نوعاً من الجنون المتصل بسبب واحد حتى أنه راح يدرس هذا الفرع المهم من الطب دراسة خاصة وأضاف بأنه ينبغي ألا يُغفلَ عن أن المريض كان حتى ذلك اليوم في حالة من الذهول وإن وصول أسرته سيخلق في نفسه قوة

ويجلب له تسرية تسبب شفاءه شريطة أن يتجنب اضطرابات جديدة من نوع معين. ثم نهض بعد ذلك وحيا بشكل جمع بين الخطورة والدعة ثم خرج معرباً عن سروره بتلك الزيارة ترافقه الدعوات الصالحة التي غمرته بها السيدتان اعترافاً منهما بجميله وقبل أن يغادرها قال رازوميخين وهو يتأبط ذراع زوسيموف.

ـ لسوف نتحدث غداً حديثاً أطول. أما الآن فيجب أن تناما دون تأخير ولسوف أمر بكما باكراً لأقدم لكما تقريراً جديداً.

وفي الطريق قال زوسيموف بلهجة بعيدة عن الإطراء الرخيص:

ـ يا لها من فتاة ساحرة تلك الـ«أفدوتيا رومانوفنا».

فزمجر رازوميخين بانفعال وقبض على عنق زوسيموف بشدة وقال:

ـ ساحرة؟ تقول ساحرة؟ لو سمحت لنفسك مرة أخرى أن تعيد هذا القول مرة أخرى... أتفهم؟ أتفهم؟ وراح يهزه بقوة وانفعال فهتف زوسيموف يحاول التخلص من يده:

ـ دعني أيها الشيطان الثمل!

ولما تخلص منه راح يحدق في عينيه برهة ثم انفجر ضاحكاً ضحكة جنونية ذلك أن رازوميخين كان لا يزال واقفاً أمامه منفرج الذراعين غارقاً في أفكاره السوداء وفجأة أدرك حماقة عمله بلهجة كئيبة.

ـ إنني حمار بالتأكيد. ولكنك أنت أيضاً تبدو حماراً!...

ـ لعمري! كلا يا صديقي أنا لست حماراً ـ لأنني لا أحلم بالحماقات!

وراحا يمشيان دون أن يتفوها بكلمة حتى بلغا مدخل منزل راسكولنيكوف وعندئذٍ قطع رازوميخين الصمت وقال:

ـ إنك رجل ممتاز ولكنك ـ إضافة إلى خطيئاتك الكثيرة ـ زير نساء بل ومن أكثرهم نذالة. إنك تفكر في قرارة نفسك «بقذارة» تهدهدها وتنميها لأنك لا تستطيع أن ترفض لنفسك رغبة وإنني أدعو هذا التصرف بالقذارة لأنه أصدق وصف له. لقد بلغت من التخنث وحب الجنس مبلغاً لا أفهم بعده كيف تستطيع على الرغم منه أن تكون طبيباً ممتازاً مخلصاً. إن كلمة طبيب تسطر بالقلم فتبدو مستلقية على الورق لكنها تنهض ليلاً لتعود مريضاً... وأرى أنك بعد ثلاث سنوات لن تنهض مطلقاً لعيادة مريض. على كل حال إن الأمر ليس هذا لقد أردت أن أقول: سوف تمضي ليلتك في مسكن صاحبة البناء ولقد أقنعتها بعد لأي بقبول إيوائك. وبذلك يتاح لك فرصة جديدة لعقد صداقات أمتن! أليس هذا ما تفكر فيه؟ كلا يا صديقي لا يوجد ظل من هذا. أليس كذلك؟

ـ لكنني لم أفكر مطلقاً في ذلك.

ـ ستجد هنا يا صديقي تظاهراً بالحشمة ورصانة وخجلاً وتعففاً مصطنعاً ترافقه تنهدات وحسرات ولوعة! أنقذني منها أتوسل إليك! أستحلفك بكل شياطين العالم. إنها مضياف بشكل عجيب وإنك لتؤدي لي خدمة جلى لن أنساها لك.

ازداد إغراق زوسيموف بالضحك وقال:

ـ حسناً إنك لست ثملاً!... لكن ماذا أعمل؟!

ـ ثق أنك لست في حاجة إلى إعطائها شيئاً كثيراً من نفسك، يكفي أن تقذف في وجهها ببعض الكلمات، أية كلمات تخطر ببالك، يكفي أن تجلس بالقرب منها وأن تتحدث! ثم لا تنسى أنك طبيب. فابدأ معها مثلاً بأن تصف لها علاجاً معيناً وأقسم لك على أنك لن تندم. إن لديها غيتاراً

صغيراً وأنت تعرف أنني أغني قليلاً وقد غنيت لها أغنية روسية تاريخية تلك التي مطلعها: «إنني أبكي بدموع حارة...» ثم إنها تعبد الأغاني التاريخية ولقد بدأنا من هذه النقطة. أما أنت فإنك عازف بارع، أستاذ شبيه «روبستن» هيا ثق بأنك لن تندم.

ـ لكن ألا تكون قد وعدتها بعض الوعود؟ وعداً خطياً مثلاً؟ ألم تعدها بالزواج منك؟

ـ كلا! أبداً، أبداً، لا شيء مطلقاً من كل ذلك، إنها ليست كما تظن. لقد ظن تشيباروف...

ـ في هذه الحالة عليك أن تتركها.

ـ ولكن ليس من سبيل إلى كرمها هكذا.

ـ ولِمَ لا؟

ـ لأنه ليس من سبيل، هذا كل ما في الأمر. إن فيها يا عزيزي لوناً من الجاذبية.

ـ إذاً لِمَ استهويتها؟

ـ إنني لم أقصد استهواءها. بل لعلني وقعت فريسة لها بحماقة. أما هي فلا فرق لديها أن أكون أنا أو أن تكون أنت طالما أنها تستطيع أن تنعم برفيق بالقرب منها. لست أدري كيف أشرح لك ذلك يا صديقي! على فكرة أنت قوي في الرياضيات ولا زلت مهتماً بهذا العلم في الوقت الحاضر. فابدأ إذا شئت بتعليمها قواعد الحساب المتممة. أنا لا أمزح أؤكد لك بأن ذلك سيان لديها ولسوف تراها تتأملك وتتأوه بحسرة. خذ مثلاً: إنني استبقيتها يومين متتاليين في «مخدع» الأمراء البروسيين! لأنني كنت مرغماً على التحدث بأي شيء. أتدري ماذا كانت تعمل خلال هذا الوقت؟ لقد كانت

تذوب وتتحسر! إنما تجنب التحدث إليها عن الحب لأنها متعففة لدرجة التطرف. يكفي أن تبدو أمامها بمظهر الذي لا يطيق الابتعاد عنها وسيكون في ذلك ما يكفي! إن مسكنها حاوٍ على شروط الراحة حتى لتظن أنك في بيتك تماماً: تقرأ أو تجلس أو تستلقي أو تكتب بل وتستطيع أن تعانقها إذا شئت على أن تبدأ بحكمة.

ـ ولكن ماذا أعمل بها؟

ـ الحقيقة أنني لا أعرف كيف أفسر لك الموضوع لكنك سترى بنفسك أنكما صنعتما الواحد للآخر. وقد كنت فكرت فيك من قبل لأنني أعرف أنك تحب الانتهاء من علاقتك بانتهاء زيارتك ولا يزعجك أن تكون هذه النتيجة متأخرة أو متقدمة. وهنا يا عزيزي سينطبق مبدأ فراش الريش عليك؟ ها إن مصيرك يناديك. إن نهاية العالم بالنسبة إليك، المرساة، مرفأ الأمان، قواعد العالم واستقراره! إنك ستجد الطيور المحمرة والأفاويه و«السماور» مساءً والخدمة وأنت في السرير. ستكون كالميت رغم أنك حي! وبذلك ستضرب عصفورين بحجر...! أف! يا صديقي كم أثرثر! لقد آن أن تنام أما أنا فقد وقع لي من قبل أن أمضيت الليل ساهراً لذلك فسأذهب لإلقاء نظرة عليه فلا تبتئس ولا تقلق مما كنت أقول لقد كانت حماقات فحسب! ولك إن أردت أن تصعد معي أو أن تصعد بعدي لتلقي نظرة عليه شريطة أن توقظني حالاً إذا لاح لك أنه يعاني من الهذيان أو الحمى.

الفَصْلُ الثّاني

استيقظ رازوميخين بعيد الساعة السابعة قلقاً كئيباً فقد شعر ذلك الصباح بأسباب عديدة تجعله يكتئب دون أن يدرك علة ذلك. لم يكن يتصور أبداً أن يستيقظ يوماً على ذلك النحو! تذكر يوم أمس تفاصيله وفهم أنه قد وقع له فيه شيء غير طبيعي وأنه أحس بشعور كان يجهله حتى تلك اللحظة، شعور لم يكن له مثيل من قبل. كذلك فقد تأكد لديه أن الحلم الذي التمع في خياله لم يكن ممكن التحقيق بل إنه كان على أقصى درجة من الاستمالة حتى أن مجرد التفكير فيه كان يبعث الخجل في نفسه لذلك فقد اتجه بفكره وعقله إلى الأعمال العادية التي يزاولها كل يوم لينسى ذلك الأمس «مضاعف اللعنات».

كانت تعذبه ذكريات أمس وبصورة خاصة تلك الذكرى التي تتعلق بتصرفه حيال تينك السيدتين فأطلق على ذلك التصرف اسم «تصرف الرجل الخشن القذر» ولم تكن سبب تلك التسمية حالة السكر التي كان عليها بل لأنه أهان بحماقة وعنف خطيب الفتاة أمامها منتهزاً الحاجة التي كانت فيها دون أن يعرف طبيعة العلاقات التي تربط بينها وبين ذلك الرجل. وقد سمح لنفسه أن يحكم عليه بذلك الشكل السريع الأحمق دون أن يسأله أحد رأيه فهل يمكن لفتاة مثل أدفوتيا رومانوفنا أن تربط مصيرها بمصير رجل غير جدير لمجرد حب الكسب والربح؟ لا شك أنه ليس محروماً من

المواهب! أما قضية المسكن المؤثث فإنه لم يكن ولا شك يعرف نوعه خصوصاً وأنه كان يبحث عن مسكن للسيدتين دون سابق معرفة فحكمه إذاً كان بشعاً أما حجته التي أراد أن يبرر بها تصرفه والتي تصب اللوم كله على الثمل فإنها تزيد موقفه بشاعة ولا شك. لأن الحقيقة كلها كانت كامنة في الخمر هذه الحقيقة سطعت أمامه في تلك اللحظة واضحة جلية لقد أوضحت الخمرة حقيقته وبمعنى أدق «عن قذارة قلبه الغليظ الحسود».

هل يجوز له أن يفكر بمثل ذلك الحلم، هو، رازوميخين؟ من هو إذا قورن بتلك الفتاة الشابة؟ أو لا يكون ذلك السكير العربيد المتبجح؟ هل يمكن التفكير في إيجاد تقارب أكثر شذوذاً ووقاحة من هذا؟

كان رازوميخين يحمر خجلاً ويأساً من تلك الفكرة. وتذكر فجأة أنه عندما هبط أمس مع السيدتين من حجرة راسكولينكوف قال لهما: إن صاحبة المسكن تحبه وتغار من أفدوتيا رومانوفنا! فكان مجرد تفكيره بهذه العبارة يقضي عليه قضاء مبرماً لذلك فقد راح يضرب بقبضته موقد المطبخ ضربات عنيفة حتى أدمى يديه وحطم قرميده. راح يغمغم وهو فريسة شعور بالخجل:

ـ طبعاً. طبعاً ليس من وسيلة لمحو هذه الحماقات ولا للتبرؤ منها وعلى ذلك فإنه لم يبق لدي مجال للتفكير... ولسوف أمثل بين يديهما دون أن أتفوه بكلمة وسأتقبل كل شيء دون منة وبسكون ولن أعتذر بالطبع لأن كل شيء قد ضاع!

مع ذلك فإنه لما أخذ يرتدي ملابسه صرف جل عنايته إليها. لم يكن لديه أكثر من ثوب واحد حتى ولو أنه كان يملك ثوباً آخر لما ارتداه عامداً. مع ذلك فإنه إزاء حالة ثوبه الراهنة لم يكن يستسيغ جرح شعور

الآخرين بمظهره المزري خصوصاً وأن أولئك «الآخرين» كانوا في حاجة إليه وأنهم دعوه من تلقاء أنفسهم لزيارتهم لذلك فقد مرّ بالفرشاة على ثيابه بعناية أما القميص فكان غاية في النظافة لأن طبيعة رازوميخين كانت تأبى قذارة الجسد.

نهض ذلك الصباح وهو مرتبك وأخذ يغسل شعره وعنقه ويديه بقطعة من الصابون انتزعها من ناستاسيا ولما مر بيده على لحيته وأحس بها نامية تذكر أن براسكوفي بافلوفنا (صاحبة المنزل) تملك أمواس حلاقة ممتازة احتفظت بها منذ وفاة المرحوم زوجها زارنيستين وأنه يستطيع استعمال واحد منها. غير أنه سرعان ما استبعد الفكرة بوحشية وهو يغمغم:

ـ ستبقى لحيتي كما هي لأنهما ستفكران بأنني ما أزلتها إلا... طبعاً ذلك ما سوف تفكران فيه وعلى ذلك فلن أزيلها لأي سبب في الوجود! خصوصاً وأنني أنا ذلك القذر الخشن الذي تفوح مني رائحة الحانات ولنفترض... ـ لأنني في الواقع أعترف بنبلي كرجل ـ لنفترض أن ذلك النبل هو ما أتغنى به فإنه في الحقيقة ليس جديراً بمثل هذا التفاخر لأن كل امرئ يجب أن يكون نبيلاً بل يجب أن يكون أكثر من ذلك. ثم... ألست أنا كذلك مصاباً بعدد من الخطيئات لا أقول الخطيئات القذرة ولكنها خطيئات وكفى. إذاً لا يمكن أن أعاود البحث في الآمال خصوصاً وأنني لا أملك شيئاً أضعه في الكفة الأخرى لأساوي به أدفوتيا رومانوفنا... فيا للشيطان! إن الواقع هو أنني سأبقى كما أنا قذراً خنزيراً عربيداً ولن أبالي بل سوف أتصرف تصرفاً أسوأ...

بمثل هذه الأقوال أمضى رازوميخين الوقت حتى التقى بزوسيموف الذي كان قد أمضى ليلته في مسكن براسكوفي بافلوفنا. لقد جاء هذا

يلقي نظرة أخيرة على المريض فأنبأه رازوميخين بأنه نائم كحيوان «اللوار» فأوصى زوسيموف أن يترك في نومه ووعد أن يعود عند الساعة الحادية عشرة تقريباً وأضاف:

ـ المهم أن أراه في حجرته عندما أعود. إنه مؤلم أن لا يكون للطبيب حرية التصرف بالمريض لأن شفاءه يصبح معجزة. فتُرى هل تعرف إذا كان عليه أن يذهب إليهما أو أنهما سيأتيان إليه؟

فأجاب رازوميخين وقد فهم الغاية من هذا السؤال:

ـ لسوف تحضران على ما أظن لأنهما ستتحدثان معه عن شؤونهم العائلية ولسوف أنسحب أنا أما أنت فبوصفك طبيباً فإن لك ولا شك حقوقاً أكثرر.

ـ إنني لست طبيب الضمائر لذلك فسأحضر وأنصرف لأنني أكتفي بالعناية بالجسد.

قال رازوميخين متجهماً:

ـ هناك قضية تزعجني: لقد ذكرت البارحة وأنا في حالة الثمل... لقد تحدثت بعدد كبير من الحماقات من بينها أنك تخاف أن يكون راسكولينكوف متجهاً نحو الجنون.

ـ لقد قلت ذلك أيضاً للسيدتين مساء البارحة.

ـ أنا أعرف أنني ارتكبت حماقة كبيرة فاضربني إذا شئت ولكن قل لي هل هذه الفكرة ثابتة في ذهنك؟

ـ فكرة ثابتة؟ ويحك! إنك أنت بنفسك صورته لي بصورة المتشائم بل بصورة المهووس عندما استدعيتني لعيادته أول مرة. والبارحة عملنا

على تعكير مزاجه بل لأقل إنك أنت الذي سبب ذلك بأحاديثك وقصصك المتعلقة بذلك الدهان الذي ألقي عليه القبض متهماً بقتل العجوز... يا له من موضوع مناسب للحديث مع شخص فقد الرشد بسبب مثله... لو أنني كنت أعرف تماماً ما وقع له في دائرة البوليس في ذلك الحين وإن أحد السفلة وجه إليه إهانة الاشتباه به. هم... لما تلفظت البارحة بحديث كالذي سمعته. إن هؤلاء المهووسين يجعلون من النقطة بحراً حتى أن كل الخيالات تبدو لهم حقائق وعلى قدر ما أذكر فقد اتضحت لي نصف القضية من الحديث الذي قصه علي زاميوتوف البارحة... إنني أذكر حالة أحد المصابين بهذا المرض وهو رجل في الأربعين من عمره كان لا يستطيع احتمال السخرية التي كان يتفوه فيها طفل في الثامنة من عمره كان معه على المائدة، فذبحه! ولدينا هنا تعس بأسمال بالية ينهش المرض جسمه يصاب بإهانة من قبل شرطي فظ ثم يصبح هدفاً لشكوك مريعة. لذلك فإن هوساً من هذا النوع كان مصدره كرامته المجروحة المهدورة وهذا هو ولا شك محور الألم. وعلى فكرة. إنك على حق في أن زاميوتوف شاب لطيف لكنه، ماذا أقول؟ لكنه أخطأ في التحدث بمثل ذلك الحديث البارحة. إنها ثرثرة مروعة.

ـ ولكن لمن تحدث بها؟ أليس لي ولك؟

ـ بل لبورفير أيضاً.

ـ وماذا في الأمر إذا تحدث به لبورفير؟

ـ على فكرة هل لك بعض التأثير على الأم والأخت؟ إنني أفضل أن تكونا متحفظتين في الحديث معه اليوم؟

فأجاب رازوميخين بشيء من التردد:

ـ سيكون كل شيء على ما يرام.

ـ لست أدري ما الذي يحفظه ضد لوجين، السيد ذي الغنى؟ يبدو أنه يروق في عيني الفتاة. خصوصاً وأنهما لا تمتلكان نقيراً أم لا؟ أليس كذلك؟

هتف رازوميخين بصوت غاضب منفعل:

ـ هل يهمك هذا الأمر؟ كيف أعرف إذا كانتا تملكان نقيراً أم لا؟ سلهما إذا شئت معرفة ذلك...

ـ كم تبدو سخيفاً أحياناً!... لا شك أنك متألم في عواطفك. إلى اللقاء. اشكرْ عني براسكوفي بافلونا لحسن وفادتها، لأنني ألقيت عليها تحية الصباح من وراء باب حجرتها إذ إنها كانت متحجبة فيها رغم أنها كانت مستيقظة منذ الساعة السابعة لكنها لم «تتنازل» بالظهور!...

كانت الساعة التاسعة تماماً حين دخل رازوميخين بناء باكالييف وكانت السيدتان بانتظاره على أحر من الجمر فقد نهضتا قبل الساعة السابعة ولبثتا بانتظاره قلقتين. دخل عليهما مربد الوجه وحياهما بارتباك. الأمر الذي جعله بعد لحظات يلوم نفسه ويتهمها بألف حماقة لأنه ما كان ينتظر اللقاء الذي حصل: فقد هرعت إليه بولشيري ألكسندروفنا وأمسكت بيديه الاثنتين في يديها ولولا قليل لأكبت عليهما تقبّلهما بينما نظر ـ هو ـ إلى أدفوتيا رومانوفنا بخجل وخوف فرأى على ذلك الوجه المعتز علامات من الصداقة والاعتراف بالجميل والاحترام العميق حتى أنه ذهل تماماً وفوجئ بما لم يكن يتوقعه. كان ينتظر أن يكون هدفاً لنظرات السخرية والاشمئزاز الواضحة والتي كان قد أعد نفسه لاحتمالها نظراً لشدة خجله، غير أن مواضيع الحديث كانت كثيرة حتى أنه نسي خجله وحنقه على نفسه وعاد على سجيته.

علمت بولشيري ألكسندروفنا من رازوميخين بأن ابنها لم ينهض من نومه بعد وأن كل شيء كان على ما يرام. فأعربت عن ارتياحها للنبأ لأنها كانت في حاجة قصوى، حاجة ملحة للبحث مع رازوميخين حول هذا الموضوع. وفجأة أثيرت مسألة الإفطار وعرف من ذلك أن تينك السيدتين قد انتظرتاه حتى تلك الساعة ليشاركهما الطعام، ولما قرعت أفدوتيا رومانوفنا الجرس مثل أمامها خادم قذر فأوصته بتحضير الشاي. وكما قدمه كان من القذارة بحيث يثير التقزز حتى أن السيدتين اشمأزتا منه وأثار ذلك حفيظة رازوميخين فراح يحتج بشدة على تلك المعاملة في ذلك المسكن المؤثث أنه لما تذكر لوجين صمت مكرهاً وشعر بارتباك حتى أنه تنفس الصعداء حينما هاجمته بولشيري ألكسندروفنا بسيل جارف من الأسئلة.

لبث رازوميخين يتحدث ثلاثة أرباع الساعة مجيباً على أسئلة السيدة واستفاراتها ووفق ـ استناداً إلى المعلومات التي يعرفها ـ في أن يسرد على أمه وأخته الوقائع الرئيسية المهمة التي تتعلق بحياة روديون منذ عام مضى. ثم أنهى حديثه بسرد تفاصيل مرضه الأخير وغني عن الذكر أنه أغفل عامداً عدداً من الوقائع التي اعتبرها غير ذات موضوع ومنها حادثة دائرة البوليس وأسباب الاستدعاء وما تم بعدئذٍ. وكانت السيدتان مصغيتين إليه بإقبال وتلهف حتى إنه عندما انتهى من حديثه أخطأ عندما ظن أنهما قد أروى غليلهما لأنه بدا عليهما أن استجوابهما له لمّا يبدأ بعد!

قالت بولشيري ألكسندروفنا بلهفة:

ـ قل لي... قل لي، ماذا تفكر يا... آه عفواً فلست أعرف اسمك حتى الآن!

ـ دميتري بروكوفيتش!

ـ حسناً يا دميتري بروكوفيتش أريد أن أعرف كيف ينظر الآن إلى

الأمور بصورة عامة؟ أقصد وأرجو أن تفهمني ما العمل لأفسر لك السؤال أو لأحسن التعبير... أقصد ماذا يحب وماذا يكره؟ هل هو دائماً سريع الغضب؟ ما هي رغائبه بل إذا أردت القول ما هي أحلامه إذا أمكنني طرح مثل هذا السؤال. ما هو العامل الذي يؤثر عليه تأثيراً خاصاً؟ وباختصار أريد أن أعرف...

فقاطعتها دونيا ملاحظة:

ـ آه يا أمي الصغيرة، كيف يمكن الجواب على هذه الأسئلة دفعة واحدة؟

ـ رباه! ذلك لأنني ما كنت أنتظر أن أراه على هذه الصورة... كلا أبداً ما كنت أنتظر ذلك يا ديميتري بروكوفيتش.

فأجاب رازوميخين:

ـ إن ذلك طبيعي ولا شك! أنا شخصياً لم تعد لي أم بل عم يأتي لزيارتي كل عام وفي كل مرة لا يتوصل إلى معرفتي حتى ولا معرفة ظواهري، مع ذلك فهو رجل ذكي. وإني قد فارقت روديون منذ ثلاث سنوات وقد مرت خلالها مياه كثيرة تحت الجسور! ماذا أقول لك! إنني أعرف روديون منذ ثمانية عشر شهراً. إنه كئيب شرس متعجرف متكبر. وملذ هذه الأيام الأخيرة ـ ولعله من قبل أيضاً ـ أصبح كثير الظنون كثير الهواجس. إنه كبير النفس طيب القلب. إنه لا يحب التصريح بعواطفه وإحساساته بل قد يرتكب أية حماقة أو أي عمل خبيث إذا كان ينجيه الإفضاء بمشاعره. مع ذلك فإنه ليس دائماً مهووساً لكنه بارد الطبع عديم الإحساس أحياناً لدرجة التجرد عن إنسانيته حتى ليقال أن في جسده عقليتين متناقضتين تظهران على التوالي فهو أحياناً شديد الصمت والانطواء فترينه يبرم بأي

شيء يزعج خلوته رغم أنه يكون خلال تلك الخلوة مستلقياً فقط ولا شيء غير ذلك! وهو لا يميل للدعابة ليس بسبب افتقاره إلى البديهة بل يبدو عليه أن وقته لا يتسع لمثل هذه «الحماقات» وهو لا يصغي أبداً إلى ما يقال له حتى النهاية. إنه أحياناً يعزف عن أشياء تبدو شديدة الأهمية بل وتثير اهتمام كل الناس. إنه شديد الاعتداد بنفسه وأعتقد أنه على حق في ذلك الاعتداد. ثم ماذا بعد؟... أعتقد أن مجيئكما سوف يكون ذا تأثير إيجابي يسهل شفاءه!

هتفت بولشيري ألكسندروفنا التي كانت تشعر بإيلام عنيف إثر تلك المعلومات التي راح رازوميخين يسردها على مسامعها.

ـ يا إلهي... إن شاء الله سيشفيه وجودنا!

وأخيراً وجد رازوميخين في نفسه الشجاعة لينظر بصراحة إلى وجه أفدوتيا رومانوفنا. كان ينظر إليها خلال حديثه نظرات سريعة خاطفة ثم يرتد طرفه إليه. كانت تجلس حيناً إلى المائدة مصغية إليه بانتباه ثم تعود حيناً آخر إلى ذرع الغرفة على جري عادتها وهي عاقدة ذراعيها متقلصة الشفتين، ملقية بين فينة وفينة سؤالاً دون أن تتوقف أو أن تنقطع عن التفكير كان من عادتها هي الأخرى أن تصغي إلى ما يقال لها حتى النهاية!...

كانت مرتدية ثوباً خفيفاً وقد عقدت حول عنقها منديلاً أبيض من قماش شفاف. وقد أتيح لرازوميخين أن يلحظ أن تينك السيدتين تعيشان في فقر مدقع بدلالة العديد من الشواهد! ولو أن أفدوتيا رومانوفنا كانت رافلة بثياب الملكات لما أقلقه ذلك أو أفزعه أما الآن فقد داهم قلبه خوف حقيقي لعل سببه راجع إلى أنها كانت مكتسبة ثياباً تدل

على فقرها الشديد وأنه قد فهم حقيقة حالها. لذلك فقد كان يخاف أتفه عباراته ويهاب أصغر حركاته الأمر الذي زاده ارتباكاً وهو الذي لم يكن واثقاً من نفسه.

قالت أفدوتيا رومانوفنا باسمة:

ـ لقد أطلعتنا على عدد من التفاصيل المثيرة المتعلقة بعقلية أخي ولقد تحدثت بنزاهة. حسناً... كنت أظن أنك حائر في فهمه!

ثم أضافت بعد شيء من التردد:

ـ أعتقد أنه ينبغي أن تكون حوله امرأة ما!...

ـ أنا لم أقل ذلك لكن ليس من المستبعد أن تكوني على صواب لولا...

ـ لولا ماذا؟

فأجاب رازوميخين بلهجة حاسمة:

ـ لولا أنه لا يحب أحداً ولعله لن يحب أحداً أبداً.

ـ أيكون عاجزاً عن الشعور بالحب؟

فأجابها فجأة دون تروٍّ:

ـ هل تعرفين يا أفدوتيا رومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبهاً مخيفاً في كل شيء؟ غير أنه تذكر فجأة ما قاله عن أخيها واحمر وجهه واضطرب بينما لم تتمالك أفدوتيا رومانوفنا عن الضحك وهي تنظر إليه. وقالت بولشيري ألكسندروفنا منزعجة بعض الشيء:

ـ قد تكونا كلاكما مخطئين في حق روديا. أنا لا أتكلم عن الحاضر يا دونيا... إن ما كتب بيير بيتروفيتش في هذه الرسالة وما اعتبرنا ـ أنت وأنا

ـ أنه قد لا يكون حقيقياً لن تستطيع أن تتصور يا «دميتري بروكوفيتش» كم هو غريب أو ماذا أقول: مفرط في الشطط! إنني لم أستطع أبداً أن أطمئن إلى عقليته منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره ولا زلت أعتقد أنه قادر على المغامرة بما لا يخطر على بال أي آخر من الناس. لن أذهب بعيداً في البحث... أتدري أنه منذ ثمانية عشر شهراً سبب لي عذاباً وألماً كادا أن يوديا بي عندما قرر الزواج من تلك الامرأة ما اسمها؟... ابنة تلك الـ«زارنيستين» صاحبة البناء الذي يقطن فيه؟

وسألته أفدوتيا رومانوفنا:

ـ هل لديك تفاصيل عن هذه القضية؟

بينما تابعت بولشيري ألكسندروفنا تقول:

ـ أتعتقد أنه كان سيجد من دموعي وتوسلاتي ومرضي بل ولعل من قولي حافزاً يرجعه عن عزمه؟ وأن بؤسنا كان سيؤثر فيه؟ كان قميناً بتخطي كل العقبات كأهدأ ما يكون المرء. لكن هل من الممكن أن يكون لا يحبنا؟

فأجاب رازوميخين بتحفظ:

ـ لم يحدثني أبداً بشيء عن هذه القضية. غير أنني سمعت نتفاً من مدام زارنيستين نفسها التي تعتبر كذلك ميالة للصمت وما علمته في الحقيقة من اعتبار الأمر على شيء من الغرابة؟

فسألتا معاً:

ـ حسناً... ماذا علمت؟

ـ إن ما علمته ليس مهماً. أنا أعرف أن السيدة «زارنيستين» كانت غير راضية عن هذا الزواج الذي كان أمراً مفروغاً منه لولا أن موت الخطيبة

وحده وقف دون تنفيذه ومن جهة أخرى كان يقال: إن العروس المنتظرة لم تكن على شيء من الجمال بل إنها كانت كما يؤكدون قبيحة وعليلة ومضحكة غريبة لكنها لم تكن عديمة المزايا محرومة من المواهب وإلا فإن ذلك العزم يكون غير مفهوم خصوصاً وأنها لم تكن تملك بائنة رغم أن «زوريون» ليس ممن يعلقون أهمية على البائنة. أما كيف تم الاتفاق على ذلك الزواج فإن من العسير الحكم عليه...

فقالت «أفدوتيا رومانوفنا» ملاحظة:

ـ أنا قانعة بأن تلك الفتاة كانت ذات أهلية وميزات!

وأعقبت بولشيري ألكسندروفنا مقررة:

ـ ليغفر لي الله. لكنني سررت لموتها دون أن أعرف أيهما كان سيكون أكثر إيلاماً للآخر لو تم ذلك الزواج!

ثم راحت تسأل رازوميخين عن الحادث الذي وقع بين روديا ولوجين أمس وكانت لا تفتأ تصوب إلى دونيا نظرات خفية ولا تخلو من تحفظ الأمر الذي أزعج هذه إزعاجاً واضحاً.

كان يبدو أن تلك الحادثة تشغل بالها أكثر من كل شيء حتى أنها كانت ترعبها وتجعلها تقشعر لهولها. فعاد رازوميخين يسرد عليها القصة بحذافيرها ولكنه أضاف إليها رأيه الشخصي فاتهم راسكولنيكوف بصراحة بأنه أهان بيتروفيتش إهانة مبيتة ولم يلح كثيراً على تبرير فعلته بواقع المرض وقال:

ـ لقد هيأ الأمر قبل أن يسقط فريسة المرض!

فقالت بولشيري ألكسندروفنا بصوت خافت وقد أدهشها أن يعبر

رازوميخين هذا عن رأيه حيال بيير بيتروفيتش بمثل تلك العبارات المتزنة التي يشوبها لون من الاحترام كما أدهش أفدوتيا رومانوفنا نفسها:

ـ وأنا أظن ذلك أيضاً.

ثم أردفت دون أن تستطيع كتم دهشتها:

ـ ذلك إذاً هو رأيك عن بيير بيتروفيتش!

ـ فأجاب رازوميخين بلهجة قوية متحمسة:

ـ لا أستطيع أن أكون رأياً آخر عن الزواج المقبل لابنتك. إلا أنني لا أتحدث بمثل هذا الكلام عن تأدب رخيص بل لأنني... لأن... ماذا أقول؟... يكفي أن أفدوتيا رومانوفنا قد وقع اختيارها على هذا الرجل... إذا كنت قد حطت من قيمته أمس فلأنني كنت ثملاً بشكل كريه وكنت كذلك فاقد العقل... نعم كنت فاقد العقل... كنت مجنوناً تماماً واليوم أنا في خجل شديد!

واحمر وجهه خجلاً وصمت وكذلك كان شأن أفدوتيا رومانوفنا ولكنها لم تقطع حبل الصمت. فقد لبثت صامتة لا تنطق بكلمة واحدة منذ أن بحث في أمر لوجين!

وكانت بولشيري ألكسندروفنا في حالة من التردد الظاهر بعد أن فقدت سندها حيال قضية لوجين. وأخيراً صرحت بعد تردد دون أن تنقطع عن إرسال نظرات مستفسرة إلى ابنتها، بأنها في تلك اللحظة مشغولة الفكر بحادثة هامة جداً وشرعت تقول:

ـ اصغ يا دميتري بروكوفيتش... سأكون صريحة تماماً مع دميتري بروكوفيتش أليس كذلك يا دونيا؟

فقالت أفدوتيا رومانوفنا بلهجة القانعة:

ـ طبعاً يا أماه!

فبادرت بولشيري ألكسندروفنا تقول وكأن حملاً ثقيلاً سيزاح عن صدرها بعد اطلاع رازوميخين على أحزانها:

ـ هذا هو موجز الأمر: لقد تلقينا اليوم في ساعة مبكرة كلمة من بيير بيتروفيتش جواباً على إخطارنا إياه بوصولنا. اعلم أنه كان عليه أن يحضر إلى المحطة ليستقبلنا كما وعد. لكنه بدلاً من حضوره بالذات أرسل لنا خادماً ومعه عنوان هذا المسكن ليدلنا على الطريق أما هو ـ بيير بيتروفيتش ـ فقد أبلغنا على لسان الخادم أنه سيزورنا اليوم صباحاً. وبدلاً من مجيئه، وصلتنا كلمة منه هذا الصباح... خذ... من الأفضل أن تقرأها بنفسك. إن فيها نقطة تشغل بالي كثيراً ولسوف ترى بنفسك تلك النقطة و... قل لي بصراحة يا دميتري بروكوفيتش، إنك تعرف عقلية روديا أكثر من أي كان وتستطيع على ذلك أن تسدينا النصح أكثر من أي كان. إنني أخطرك بأن دونيا قد اتخذت قراراتها منذ اللحظة الأولى لكنني لست أدري إلى أي صف يجب أن أنحاز وقد كنت أنتظرك!

فض رازوميخين الرسالة المؤرخة في اليوم السابق وقرأ فيها ما يأتي:

«حضرة السيدة بولشيري ألكسندروفنا العزيزة، لي الشرف بأن أعلم حضرتكم بأنه على أثر موانع غير متوقعة، استحال علي الذهاب للقياكم عند هبوطكم المدينة لذلك فقد أرسلت لهذه الغاية رجلاً حاذقاً وأراني كذلك محروماً من شرف زيارتكم غداً صباحاً بسبب أعمال مستعجلة تستوجب وجودي في مجلس الشيوخ ولكي لا أقلق خلوتكم العائلية مع ابنكم وخلوة أفدوتيا رومانوفنا مع أخيها. وسيكون لي غداً مساء في تمام الساعة

الثامنة شرف زيارتكم والمثول لتقديم احترامي وتمنياتي لكم في مسكنكم. وبهذه المناسبة أسمح لنفسي أن أتوجه إليكم برجاء وأقول برجاء حار وهو أن لا يكون روديون رومانوفيتش حاضراً اجتماعنا المشترك نظراً لأنه أهانني بشكل خشن ودون مسببات خلال الزيارة التي قمت بها إليه أثناء مرضه وأنه عندي ـ علاوة على ذلك ـ ما أتباحث به معكم حول موضوع معين أرغب معرفة تفسيركم الشخصي له. ولي الشرف بأن أخطركم سلفاً بأنه إذا حصل ـ رغم طلبي ـ وقابلت روديون رومانوفيتش فإنني سأجد نفسي مضطراً للانسحاب فوراً وسيكون لكم شأنكم! إنني أكتب هذا تلافياً لاحتمال وجوده لأن روديون رومانوفيتش الذي كاد يبدو مريضاً عند زيارتي له والذي استعاد صحته بعد ساعتين من ذلك، يمكنه والحالة هذه ـ طالما أنه خرج من حجرته ـ أن يأتي لزيارتكم. ولقد تأكد لي خروجه شخصياً فقد شهدته في مسكن أحد السكارى الذي دهسته خيول عربة فمات على أثر ذلك وقد أعطى ابنة ذلك الثمل ـ وهي فتاة مشهود لها بسوء الأخلاق في كل الأوساط ـ خمسة وعشرين روبلاً بحجة دفع تكاليف المأتم الأمر الذي أدهشني جداً لعلمي بما كابدتم من عناء حتى جمعت ذلك المبلغ... وعلى هذا، ومع إعرابي عن ميلي الخاص نحو المحترمة أفدوتيا رومانوفنا، أرجوكم أن تتقبلوا توكيدات إخلاصي واحترامي العميق».

خادمكم المتواضع

«ب. لوجين»

ولما فرغ من تلاوتها سألته بولشيري ألكسندروفنا وهي على وشك البكاء:

ـ ماذا أعمل الآن يا دميتري بروكوفيتش؟ ما العمل؟ كيف أستطيع أن أطلب إلى روديا التخلف عن الحضور؟ لقد كان البارحة يلح بقوة على

فسخ الخطوبة وها أنه يُطلب إليّ اليوم أن لا أستقبل ابني! ولسوف يحضر عامداً إذا بلغه الأمر... فماذا سيحدث عندئذٍ؟

فأجاب رازوميخين بهدوء:

ـ اعملي بما قررته أفدوتيا رومانوفنا!

ـ رباه! إنها تقول... الله أعلم بكل ما تقوله دون أن تفسر لي نواياها... بحسب قولها إنه أجدى، كلا ليس أنه أجدى بل إنه ينبغي حتماً أن يأتي روديا هذا المساء في الساعة الثامنة وأن يلتقيا كلاهما!... أما أنا فلم أرغب في اطلاعه على هذه الرسالة، كنت أفضل أن أستعمل اللباقة والاستعانة بك لمنعه عن الحضور. لأنه سريع الغضب... ثم إنني لست أفهم ماذا يعني بذلك «السكير الميت» ولا أدري عن أية فتاة يبحث ولا كيف أعطى تلك الفتاة كل ماله الذي...

فأضافت أفدوتيا رومانوفنا متممةً:

ـ الذي سبب لك تدبيره منتهى العناء يا أماه!

فأجاب رازوميخين بصوت حالم:

ـ لم يكن البارحة متمالكاً نفسه! لو أنك علمت «اللعبة» التي شرع فيها البارحة في أحد المشارب رغم أنه انتهى منها على خير ما يرام... هم!... لقد حدثني مساء البارحة بينما كنا عائدين إلى داره عن ثمل ميت وعن فتاة... لكنني لم أفهم شيئاً من حديثه. والحقيقة أنني كنت البارحة...

ـ الأفضل يا أماه أن تذهبي بنفسك إليه! وهناك أؤكد لك سنرى على الفور ماذا ينبغي أن نعمل.

ثم ألقت نظرة على ساعة ذهبية جميلة ذات ميناء لامع معلقة إلى سلسلة دقيقة من الذهب من صنع «فينا» تحيط بعنقها، وهتفت:

ـ رباه! لقد أزف الوقت... إنها قد تجاوزت العاشرة.

قدر رازوميخين في سرّه أن تلك الساعة قد تكون «هدية الخطوبة» لأنها كانت على تناقض فظيع مع الثياب والزينة!

وهتفت بولشيري ألكسندروفنا بروع:

ـ آه... لقد أزف الوقت... لقد أزف الوقت! سوف يظن أننا غاضبتان منذ أمس! إذا وجد أننا لم نصل بعد! آه يا إلهي!

كانت قد أخذت «لفحتها» الطويلة فألقتها على كتفيها ووضعت قبعتها على رأسها متعجلة بينما كانت دونيا تعد نفسها كذلك. كانت قفازاتها القديمة مثقوبة ولاحظ رازوميخين ذلك. غير أن الفقر البين الذي كان يبدو على ثيابهما كان يعطيهما طابعاً خاصاً من الكرامة كما يحدث غالباً لأولئك الذين يعرفون كيف يلبسون الثياب الرخيصة. كان رازوميخين يشمل دونيا بنظرة إعجاب ويحس بالكبرياء لمجرد تفكيره في مرافقة تلك الفتاة. كان يفكر: «إن هذه الملكة التي اضطرت إلى رتق جوربها في سجنها لا تبدو أقل روعة وعظمة منها في أجمل أيام مجدها وتتويجها!».

هتفت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ رباه... هل كان يخطر لي ببال أبداً أن أتهيب لقاء ولدي وعزيزي الأعز روديا كما أتهيب في هذه اللحظة؟ إنني خائفة يادميتري بروكوفيتش!

فقالت الفتاة وهي تعانقها:

ـ لا تخشي شيئاً يا أماه! اتكلي عليه! إنني أثق به أنا!

فصاحت المسكينة ملتاعة:

ـ رباه! وأنا أيضاً أثق به مع ذلك فإنني لم أنم الليل كله!

وخرج ثلاثتهم من المنزل! وتابعت الأم:

ـ أتعرفين يا دونيا أنني ما كدت أغمض عيني هذا الصباح حتى حلمت فجأة «بمارت بيتروفنا»! كانت مرتدية ثياباً بيضاء من رأسها إلى قدميها وقد اقتربت مني وأخذت بيدي وراحت تهز رأسها وهي ترمقني بنظرات صارمة كما لو كانت توجه إلي لوماً... هل هو فأل خير؟ آه يا إلهي يا دميتري بروكوفيتش إنك لا تعرف بعد أن «مارت بيتروفنا» قد ماتت!

ـ كلا... لم أكن أعرف ذلك! من هي مارت بيتروفنا؟

ـ لقد ماتت فجأة... وتصور أن...

فقاطعتها دونيا قائلة:

ـ فيما بعد يا أماه! إنه لا يعرف من هي تلك الـ: مارت بيتروفنا!

ـ آه! إنك لا تعرفها... كنت أظن أنك على علم بسياق الأمر... اعذرني يا دميتري بروكوفيتش إن عقلي في هذين اليومين مضطرب تماماً! حقيقة إنني أعتبرك ملكاً سماوياً أرسل لمساعدتنا! ولهذا السبب عملت على أن تطلع على كل مشاكلنا... إنني أعتبرك كواحد من الأسرة فلا تنزعج إذا كنت أتكلم هكذا. رباه! ماذا أصاب يدك اليمنى؟ إنها مجروحة!

فأجاب رازوميخين وهو يشعر بالسعادة تغمره:

ـ نعم... لقد تسببت لها بهذا الألم!

ـ إنني أتحدث بصراحة أكثر من المعتاد حتى أن دونيا تنبهني أحياناً... لكن يا إلهي... أي حجر هذا يقطن فيه! هل هو مستيقظ الآن؟ وهذه المرأة، صاحبة مسكنه تعتبر ذلك حجرة! اسمع... إنك تقول بأنه لا يحب الإفصاح عن مشاعره ولعلني أزعجه بضعفي وتلهفي، ألا تبين لي يا

دميتري بروكوفيتش السبيل الذي أسلكه حياله؟ كيف أعامله؟ أنت تدري بأنني أسير كالضائعة!

ـ لا تكثري عليه بالأسئلة إذا رأيته يقطب حاجبيه! وعلى الأخص لا تسأليه كثيراً عن صحته إن ذلك يؤذيه!

ـ آه يا دميتري بروكوفيتش! إن مركز الأم عسير جداً! ها وقد وصلنا إلى هذا السلم... السلم الرهيب!

فقالت دونيا وهي تلاطف أمها وفي عينيها بريق يضيء وجهها:

ـ أماه إنك شاحبة، هدئي نفسك يا عزيزتي... إنها لسعادة بالنسبة إليه أن يراك مع ذلك فإنك تعذبين نفسك!

وقال رازوميخين:

ـ سأرى أولاً إذا كان قد استيقظ!

راحت السيدتان تصعدان بهدوء ورازوميخين في المقدمة حتى إذا بلغوا الممشى الذي تطل عليه شقة صاحبة البناء لاحظتا أن بابها موارب وأن عينين سوداوين لامعتين ترقبانهما في الظلام. فلما التقت النظرات، أغلق الباب بعنف شديد حتى أن بولشيري ألكسندروفنا كادت أن تلقي صيحة رعب!.

الفصل الثالث

هتف زوسيموف بمرح وهو يرى السيدتين:

ـ إنه على ما يرام... على ما يرام!

كان زوسيموف جالساً في المكان الذي جلس فيه أمس: على ركن الديوان، بينما كان راسكولنيكوف جالساً على الركن الآخر قبالته، في كامل ثيابه وقد اغتسل ورجل شعره بعناية الأمر الذي لم يشرع بمثله منذ زمن بعيد! وامتلأت الحجرة فجأة فاستطوعت ناستاسيا أن تتسلل في أثر السيدتين فلبثت هناك لتصغي إلى الحديث. كان راسكولنيكوف في حالة حسنة إذا قورنت بحالته أمس ـ لكنه كان شاحباً جداً تكسو وجهه مسحة من العبوس والشرور حتى يخيل إلى من يراه لأول وهلة أنه جريح عانى منذ حين ألماً جسمانياً عنيفاً. كان شعره منتصباً وشفتاه متقلصتين ونظراته ملتهبة. وبدا قليل الكلام عبوساً وكأنه يعتزم مرغماً أداء دور أسند إليه... وكان لون من الاكتئاب يرافق أحياناً حركاته فلم يكن ينقصه في حالته تلك إلا عصابة تحيط بذراعه أو رباط من «التافتا» على إصبعه ليتم له التشابه مع رجل مصاب «بدحاس» مؤلم جداً أو بجرح في يده أو أي شيء من هذا القبيل.

أضاء وجهه العبوس الشاحب لحظة لدى دخول أمه وأخته فأضاف

ذلك الضياء على وجهه مسحة من الألم تركزت في الشرور الكئيب الذي كان يلاحظ بوضوح على محياه! لكن البريق ما لبث أن خبأ فوراً وبقي الألم وحده حيث كان. ولاحظ زوسيموف الذي كان يسهر على مريضه بانتباه عظيم لا يستطيعه إلا الطبيب الشاب، أن لوناً من العزم الخفي الشاق ارتسم في عيني المريض لدى دخول أمه وأخته وكأنه مقدم على احتمال عذاب جديد، بدلاً من الابتهاج الذي كان ينبغي أن يشعر به عادة في مثل تلك الحال.

كذلك لاحظ أثناء الحديث الذي تبودل بين المريض وذويه أن كل كلمة كانت كفيلة بإثارته ونكء جراحه. لكنه دهش بذات الوقت لرؤية مريضه مسيطراً على أعصابه ضابطاً عواطفه بينما كان بالأمس ـ وهو المريض بالهوس ـ على استعداد طيب للانفعال والغضب لأتفه كلمة!

قال راسكولنيكوف وهو يعانق أمه وأخته بود ـ الأمر الذي تهللت له أسارير بولشيري ألكسندروفنا ـ:

ـ نعم... إنني أشعر الآن بأنني شفيت تقريباً ولست أقول هذا «كأمس».

ونظر إلى رازوميخين وحياه بأن ضغط على يده بحرارة قلبية!

شرع زوسيموف يقول وقد أرضاه وصول الزائرين لأنه خلال الدقائق العشر الفائتة استنفد كل الموضوعات التي يمكنه أن يتحدث بها إلى المريض:

ـ لقد دهشت بنفسي عندما وجدته على هذا الحال وإذا استمر الأمر كذلك أربعة أيام أخرى فسيعود تماماً إلى سابق عهده كما كان منذ شهر أو اثنين أو ثلاثة أشهر أيضاً. لأن هذا المرض الذي يعاني منه، كان كامناً فيه منذ زمن بعيد!

ثم أضاف مبتسماً ابتسامة متحفظة كما لو كان يخشى إثارة المريض:

ـ ألا توافقني على أنك ساهمت في زيادة مرضك بخطئك؟

فأجاب راسكولنيكوف ببرود:

ـ يجوز أن يكون كذلك!

وتابع زوسيموف حديثه فقال:

ـ أقول ذلك لأن شفاءك حالياً بات الجانب الأوفى منه متوقفاً على تصرفك الشخصي. وبما أن الحديث قد أصبح ممكناً معك الآن فإنني أود أن ألفت نظرك إلى ضرورة معاينة الأسباب المبدئية أو على الأصح الأسباب الموجبة التي سببت حالتك المرضية وعندئذٍ ستشفى وإلا فإن المرض سيكون باطراد وازدياد! أما ما هي تلك الأسباب الأولية فذلك ما أجهله لكنك تعرفها تماماً. ولا أشك ـ وأنت الذكي ـ في أنك لاحظت نفسك ودرست حالتك. وإنني أظن بأن بداية مرضك تتفق مع خروجك من الجامعة لذلك لا يجب أن تظل دون عمل يشغلك وسيكون للعمل الذي يهدف إلى غاية معينة موضوعة شأن بعيد في شفائك.

ـ نعم... نعم... إنك على حق تماماً... ولسوف أعود بأسرع ما يمكن إلى الجامعة وعندئذٍ يسير كل شيء على ما يرام تماماً كما لو كان على عجلات...!

كان زوسيموف يهدف من وراء إلقاء ذلك النصح الحكيم إلى إحداث بعض الأثر في نفس السيدتين. لذلك فإنه دهش حينما لاحظ على وجه محدثه عندما رفع بصره إليه لوناً من السخرية الواضحة لم يدم إلا لحظة!. أما بولشيري ألكسندروفنا فقد راحت تشكر زوسيموف بصورة خاصة على زيارته التي قام بها إلى مسكنهما مساء أمس، فسأل راسكولنيكوف مكتئباً:

هل ذهبت إليكما البارحة؟ إنكما إذاً لم تناما رغم سفركما الطويل!

ـ آه يا روديا... لقد وقع كل ذلك قبل الساعة الثانية وإننا ـ دونيا وأنا ـ لا ننام قبل هذه الساعة من كل ليلة.

فأردف راسكولنيكوف وقد عاد فجأة إلى عبوسه وأطرق برأسه إلى الأرض:

ـ وأنا أيضاً لست أدري كيف أشكرك. لأننا إذا أسقطنا من حسابنا قضية الأجر ـ واسمح لي أن ألمح إلى هذا ـ فإنني لست أدري كيف أستحق كل هذه العناية من جانبك... في الحقيقة إنني لا أفهم بل وإنه ليؤلمني أن أجهل سبب هذه العناية لذلك تراني أحدثك بصراحة!

فأجاب زوسيموف بابتسامة مغتصبة:

ـ هيا... لا تثر نفسك! لك أن تفترض أنك أول عميل من عملائي! ثم إن الطبيب لما يكون في بدء حياته العملية فإنه «يدلل» زبائنه الأول وكأنهم أبناؤه بل إنه قد يعجب أحياناً بأحدهم وأنا كما تعلم لم تفسدني كثرة الزبائن!

ـ كذلك أتحدث عن هذا ـ وأشار برأسه إلى رازوميخين ـ رغم أنه لم يلق مني إلا المشاكل والسباب!

فهتف رازوميخين قائلاً:

ـ لعمري إنها حماقات جديدة! أرى أنك اليوم ترزح تحت عبء الإحساسات العاطفية!

ولو أن رازوميخين كان أكثر دقة وحذقاً لعرف أن صديقه لم يكن أبداً تحت تأثير الأحاسيس العاطفية بل على العكس. غير أن هذه الملاحظة التي غابت عنه لم تفلت من «أفدوتيا رومانوفنا» التي كانت ترقب أخاها بقلق!

أردف راسكولنيكوف وكأنه يستظهر درساً حفظه ذلك الصباح:

ـ إنني لا أكاد أجرؤ على التحدث عنك يا أماه! لقد فهمت اليوم مبلغ العذاب الذي سببته لك بانتظار عودتي.

ومد يده فجأة إلى أخته بسكون دون أن ينطق بحرف واحد. وكانت ابتسامته في تلك اللحظة معبرة عن شعور مخلص. فبادرت دونيا إلى يد أخيها الممدودة وضغطت عليها بحرارة وسرور واعتراف بالجميل. كانت تلك المرة الأولى التي توجه بها إلى أخته بالحديث منذ تنافرهما أمس. فطفح وجه الأم بالسعادة وهي ترى ذلك الوفاق الصامت النهائي بين الأخت وأخيها.

وهمس رازوميخين وهو يتحرك بعنف على مقعده وكله استعداد للاسترسال:

ـ آه! هذا ما أحبه فيه! إن لديه من هذه الحركات المؤنسة...!

بينما كانت الأم تناجي نفسها قائلة:

ـ ويا لها من حركة موفقة جميلة! يا له من تصرف نبيل! إنه بذلك قد وضع بلباقة حداً لسوء التفاهم الذي نشب بينه وبين أخته بتلك اليد التي مدها إليها في هذه اللحظة! ولقد نظر إليها محدقاً... يا لهما من عينين جميلتين... بل كم أن وجهه جميل! إنه أفضل من دونيا في مجموع شخصه! لكن يا إلهي... يا له من ثوب ذلك الذي يرتديه! إنه بشع... إن أجير أتاناس إيفانوفيتش أحسن ثياباً منه! آه... كم أتوق إلى الارتماء على عنقه وتقبيله والبكاء من الفرح! لكنني أخاف... إنه مختلف تماماً عما عهدته... رباه! مع ذلك فهو يتكلم بحنان لكنني خائفة! رباه لِمَ أنا خائفة!

وفجأة هتفت تجيب على ملاحظة ابنها:

ـ آه يا روديا! لا يمكن أن تتصور حالنا أنا ودونيا! كنا تعيستين! أما الآن وقد انتهى كل شيء وانتهى تماماً وعدنا سعداء من جديد فإنني أستطيع أن أحدثك بالخبر! تصور أننا فور مبارحتنا للحافلة هرعنا لنعانقك فإذا بتلك المرأة تخبرنا ـ آه... هذا أنت... يا مرحباً يا ناستاسيا ـ أقول فإذا بهذه المرأة تخبرنا بأنك كنت مريضاً بالحمى الساخنة وأنك قد فررت من عناية الطبيب وأنت في بحرانك وإنهم يبحثون عنك في الشارع وفي كل مكان!... لن تستطيع تصور ما سبب لنا هذا الخبر! لقد تصورت فوراً صوت الملازم الأول بوتانتيشكوف وهو من معارفنا القدماء وعلى أصدقاء أبيك. إنك لا تذكره يا روديا! إن ذلك الملازم المسكين كان كذلك مصاباً بالحمى الساخنة وكان قد خرج إلى الباحة حيث سقط في الجب ولم ينتشل منه إلا غداة اليوم التالي. لا شك أننا نبالغ في تصوير خطورة حالتك! ولقد فكرنا في استدعاء بيير بيتروفيتش بأسرع ما يمكن لينجدنا لأنك تعرف بأننا وحيدتان... وحيدتان تماماً!...

لفظت الأم هذه الأقوال بصوت منتحب ضعيف. غير أنها تذكرت فجأة أن موضوع بيير بيتروفيتش كان موضوعاً خطراً لا يجدر الاسترسال فيه رغم أنهم كانوا «جميعاً في تلك اللحظة بسعادة تامة» لذلك فقد توقفت فجأة عن متابعة حديثها. بينما غمغم راسكولنيكوف مجيباً وقد علا وجهه الشرود والذهول حتى أن دونيا نظرت إليه بحيرة بالغة.

قال:

ـ نعم... نعم... إن ذلك كله لا يدعو للأسف ولا شك! آه! ماذا كنت أريد أن أقول كذلك؟

وأبدى مجهوداً كبيراً لجمع شتات ذكرياته ثم أضاف:

ـ آه... نعم... أرجو يا أماه وأنت يا دونيا أن لا يذهب بكما الظن

إلى أنني لم أكن مصمماً على زيارتكما اليوم قبل الآخرين فتعتقدان بأنني كنت أنتظر مجيئكما أولاً...

فهتفت بولشيري ألكسندروفنا دهشة:

ـ لكن يا روديا! لِمَ تقول ذلك؟

بينما راحت دونيا تفكر وتناجي نفسها بقولها: «هل يعتقد أنه مرغم على الإجابة على أسئلتنا؟ إنه يتصنع السلام ويطلب الصفح وكأنه يقوم بسخرة أو يستذكر درساً»!

وعاد راسكولنيكوف يقول:

ـ إنني لم أكد أستيقظ حتى عزمت على الذهاب إليكما لكن موضوع الثياب أعاقني. لأنني كنت قد نسيت أن أطلب إلى ناستاسيا البارحة أن تغسل هذا الدم... ولقد غسلته اليوم ولم أكد أنتهي من ارتداء ملابسي!

سألت بولشيري ألكسندروفنا مذعورة:

ـ الدم؟ أي دم؟

ـ لا شيء يا أماه فلا تقلقي! إن هذا الدم جاءني البارحة بينما كنت أسير شارد الفكر وأنا في بحراني إذ اصطدمت بشخص جريح... إنه موظف!

فقاطعه رازوميخين قائلاً:

ـ في بحرانك؟ ولكنك تتذكر كل شيء!

فأجابه راسكولنيكوف بصوت يتضح فيه القلق:

ـ صحيح أنني أذكر كل شيء بأدق تفاصيله. ولكن لِمَ عملت هذا؟ لِمَ ذهبت إلى هناك؟ لِمَ قلت كذا؟ إنني لا أستطيع تفسير السبب بوضوح!

فتدخل زوسيموف وقال:

ـ إن هذه الحالة معروفة تماماً. إن هذه التصرفات تنجز عادة بشكل شخصي وببراعة مدهشة أما عن سببها وأما عن مبدئها فإنه يبدو غريباً ويتوقف على عدد من الأحاسيس المرضية تشبه الحلم!

بينما كان راسكولنيكوف يحدث نفسه قائلاً: «إنني لمجدد إذ يعتبرونني مجنوناً أو على وشك الجنون»!

وألمحت دونيا وهي تنظر إلى الطبيب بشيء من الكآبة:

ـ ألا تكون الحال كذلك بالنسبة للأشخاص المالكين قواهم وصحتهم؟

فأجابها:

ـ إن ملاحظتك لا تخلو من الدقة لأننا جميعنا تقريباً نكون غالباً مرضى بعقلنا مع الفارق الباقي بأن المرضى هم أشد مرضاً منا وهذا ما لا يمكن التغاضي عن ملاحظته في هذا الموضوع. ولا يمكن إيجاد رجل واحد موزون تماماً إلا بين عشرات أو مئات الألوف من الرجال. مع ذلك ليس هذا الواحد موجوداً دائماً.

وإزاء كلمة «منحرف العقل» التي تلفظ بها زوسيموف وهو يثرثر في موضوعه المفضل، ـ وقد أفلتت منه دون رويه ـ اكفهرت الوجوه. وكان راسكولنيكوف جالساً وغارقاً في تفكير عميق حتى ليبدو أنه لا يلقي بالاً إلى ما حوله وقد علت شفتيه ابتسامة غريبة باهتة. كان مستغرقاً في مناجاة نفسه!

وهتف رازوميخين مبادراً:

ـ لقد قاطعتك في حديثك... ماذا وقع لذلك الرجل المدهوس؟

فأجاب راسكولنيكوف وكأنه استفاق من حلم:

ـ ماذا؟ آه نعم! لقد ساعدت على نقله إلى مسكنه فتلوثت بالدم. وعلى فكرة يا أماه! لقد علمت البارحة أمراً لا يُغتفر والحقيقة أنني لم أكن مالكاً لقواي العقلية! لقد أعطيت البارحة كل المال الذي أرسلتيه إلي إلى زوجته لتنفق على دفنه. إن المرأة المسكينة قد ترملت وهي مصدومة ولها ثلاثة أولاد صغار جياع ولا شيء في منزلهم. ولها أيضاً ابنة... لعلك أنت بنفسك كنت ستعطين ذلك المال إليهم لو علمت بالأمر... على كل حال لم يكن لي أي حق في أن أعمل ما عملت وإنني أعترف بذلك خصوصاً وأنني أعرف مبلغ ما احتملت من عناء لتدبير ذلك المبلغ! إذ إنه لكي يساعد المرء آخر ينبغي قبل كل شيء أن يكون له الحق وإلا: «موتوا أيها الكلاب إذا كنتم غير راضين!»[1].

ثم ابتسم وأضاف:

ـ أليس كذلك يا دونيا؟

فأجابت هذه بلهجة جدية:

ـ كلا إنه ليس كذلك!

فتمتم وهو ينظر إليها بشيء من الضغينة تقريباً وقد ابتسم ابتسامة هادئة:

ـ باه... هاها! أنت أيضاً... لديك بعض النوايا... كان يجب أن أتوقع ذلك... حسناً... إن ذلك يرفع من شأنك وذلك أفضل... وعلى هذا

(1) إن هذا النص موجود باللغة الفرنسية في النص الروسي.

إنك ستمضين في عزمك إلى حدٍّ ما...: إذا لم تتخطيه فأنت تعيسة وإذا تخطيتيه لعلك تصبحين بالمثل تعيسة!

ثم ثار وقد أسف أن أستسلم لانفعاله وعواطفه وقال بلهجة جافة مضطربة:

ـ كنت أريد أن أقول فقط بأنني أطلب صفحك يا أماه...

فقالت الأم تغمرها السعادة:

ـ دعك من هذا يا روديا أنا واثقة من أن كل ما تعمله إن هؤلاء أفضل ما يعمل!

فأجابها وهو يبتسم ابتسامة باهتة:

ـ لا تكوني مطلقة الثقة بهذا الصدد!

وأعقب ذلك صمت... كانت المحادثة كلها واضحة الهدف كذلك الحال في ذلك التفاهم الصامت وطلب الصفح. كان الموجودون يشعرون بأن المحادثة لم تبلغ هدفها. وكان راسكولنيكوف يخاطب بقوله: «يعتقد أنهم يخافونني حقيقة» وينظر إلى أمه وأخته نظرات مختلسة. والحقيقة أن بولشيري ألكسندروفنا كلما أمعنت في الصمت كلما كانت تبدو أشد خوفاً وهلعاً وخطرت له فكرة فغمغم يناجي نفسه قائلاً: «يمكن القول إنني كنت أحبهم غيابياً»!

صاحت بولشيري ألكسندروفنا وهي تنهض من مكانها بانفعال:

ـ هل تعرف يا روديا؟ لقد ماتت مارت بيتروفنا!

ـ أية مارت بيتروفنا؟

ـ آه يا إلهي مارت بيتروفنا السيدة سفيدريكايلوف، لقد حدثتك عنها مطولاً في رسالتي الأخيرة!

ـ آه... آه... نعم لقد تذكرت... إذن لقد ماتت!

ثم أضاف بعد أن انتفض فجأة وكأنه استيقظ من غفلته:

ـ صحيح هل يعقل أن تكون ماتت؟ مم ماتت؟

وشجع فضوله بولشيري ألكسندروفنا فقالت مسترسلة:

ـ تصور إنها ماتت ميتة مفاجئة! تماماً في ذلك اليوم الذي أرسلت لك فيه رسالتي الأخيرة... تصور ذلك الرجل المخيف، إنه على ما يبدو كان سبب موتها! يقال إنه كان يضربها بوحشية!

فسأل أخته قائلاً:

ـ هل كانا يعيشان هكذا؟

ـ كلا على العكس كان يظهر إزاءها بمظهر الصبر والمهذب وأحياناً كان كثير التسامح حيال عقلية زوجته. ولقد استمر هذا الحال سبع سنين! لعله أخيراً فقد الصبر!

ـ إنه إذن لم يكن مخيفاً بهذه الصورة طالما أن الأمر دام سبع سنين؟ يبدو يا دونيا أنك تعذرينه!

ـ كلا إنه شخص كريه بغيض حتى إنني لا أستطيع أن أتصور مخلوقاً أكثر بغضاً منه!

نطقت دونيا بهذه الجملة وهي مضطربة ولم تلبث أن قطبت حاجبيها واستغرقت في تفكير عميق! بينما بادرت بولشيري ألكسندروفنا حديثها قائلة:

ـ لقد وقع لهما ذلك في صبيحة ذلك اليوم وبعده أمرت أن تجهز عربتها لتذهب إلى المدينة بعد الطعام كما كانت عادتها في مثل تلك الأحوال. ثم تناولت طعامها بشهية زائدة كما قيل!

ـ شهية زائدة بعد «علقة» ساخنة!

إنها عادة عندها! وبعد أن انتهت من طعامها ذهبت فوراً لتأخذ حماماً كي لا تؤخر رحلتها. إنك تلاحظ أنها كانت تعتني بنفسها كثيراً بالاغتسال. إن لديهم نبعاً من الماء البارد كانوا يغتسلون فيه يومياً. لكنها في ذلك اليوم لم تكد تدخل في الماء حتى صعقت بالسكتة القلبية!

فقال زوسيموف:

ـ إن ذلك لا يدهش مطلقاً!

ـ وهل ضربها بعنف؟

فقالت دونيا:

إن هذا عديم الأهمية!

وفجأة قال راسكولنيكوف بعد أن تنحنح قليلاً وبدا الانفعال على صوته:

ـ هم!... ما فائدة نقل مثل هذه الأقاصيص؟...

فأجابته المسكينة ببساطة:

ـ ذلك لأنني يا عزيز ما كنت أعرف عم أتحدث!

فقال بابتسامة عريضة:

ـ ماذا؟ هل تخافون مني كلكم؟ حتى أنتم!

فقالت دونيا وهي تنظر في عينيه بصرامة:

ـ الواقع أنه كذلك. إن أمي كانت وهي تصعد السلم لا تفتأ ترسم إشارة الصليب لشدة رعبها!

فتقلص وجه الشاب كما لو كان فريسة للتشنجات العصبية بينما تمتمت بولشيري ألكسندروفنا باضطراب:

ـ آه... ماذا تقولين يا دونيا؟ لا تغضب أرجوك يا روديا! لم قلت هذا يا دونيا؟ آه يا روديا إنني وأنا في القطار في طريقي إلى هنا كنت أحدث نفسي بأننا سنجد أشياء كثيرة نتحدث بها إلى بعضنا عندما نلتقي. وكنت شديدة السعادة حتى أنني لم أشعر بمسافة الطريق... إنني سعيدة الآن أيضاً... لست على حق يا دونيا... إنني سعيدة يا روديا ومجرد رؤيتك تكفي لكي أكون سعيدة!

فغمغم مضطرباً:

ـ كفى يا أماه!

ودون أن ينظر إليها ضغط على يدها وقال:

ـ سيكون لنا الوقت لنتحدث!

لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى شحب لونه واضطرب وشعر من جديد بذلك الإحساس المريع تلك البرودة القاتلة تكتسح نفسه. وقد شعر من جديد بأنه نطق منذ حين بكذبة بشعة مخيفة! ليس لأنه لن يجد مستقبلاً مجالاً للتحدث بصراحة كما قال لأنه لن يستطيع أبداً أن «يتكلم» عن أي شيء ومع أي كان! وكان لتأثير هذه الفكرة الأليمة أثر عنيف حتى أنه كاد أن ينسى نفسه تماماً. فنهض من مكانه ومضى نحو الباب دون أن ينظر إلى أحد! فهتف رازوميخين وهو يقبض على ذراعه:

ـ ماذا تعمل؟

فعاد إلى مكانه وراح ينظر حوله بسكون! كان الجميع ينظرون إليه مأخوذين! هتف فجأة:

ـ آه... إنكم مملون جميعكم... قولوا لي شيئاً! لمَ تلبثون هكذا؟ هيا تحدثوا سوف نتحدث... لقد اجتمعنا ومع ذلك فلا نقول شيئاً... هيا قولوا شيئاً على الأقل...

فقالت بولشيري ألكسندروفنا وهي ترسم إشارة الصليب على صدرها:

ـ حمداً لله؟ لقد ظننت أن ما حدث البارحة سيتكرر اليوم!

وسألت أفدوتيا رومانوفنا بشيء من التحفظ:

ـ ماذا بك يا روديا؟

فأجاب:

ـ لا شيء... لقد تذكرت حماقة! ثم انفجر ضاحكاً فجأة!

غمغم زوسيموف بعد أن نهض واقفاً:

ـ حسناً إذا كانت حماقة فإنها أفضل لأنني كنت على وشك الافتراض... وعليه... إنني يجب أن أذهب ولعلني أعود إذا وجدتك!

ثم حيا وخرج فقالت بولشيري ألكسندروفنا ملاحظة:

ـ يا له من رجل ممتاز!

فأمن راسكولنيكوف على قولها فجأة بلهجة حماسية لم تكن معهودة فيه:

ـ نعم إنه رجل كريم ممتاز مثقف مهذب ذكي! لم أعد أذكر أين قابلته قبل مرضي... أعتقد بأنني قابلته في مكان ما...

ثم أشار إلى رازوميخين وأضاف وهو يوجه الحديث إلى أخته مبتسماً:

ـ وهذا أيضاً رجل ممتاز! هل يروق لك يا دونيا؟

فأجابت هذه:

ـ جداً.

فاحمر وجه رازوميخين من الخجل وهتف وهو ينهض من مكانه بانفعال:

ـ يواه!... يا للـ..

فضحكت بولشيري ألكسندروفنا بهدوء بينما انفجر راسكولنيكوف بضحكة صاخبة!

ـ إلى أين تذهب يا رازوميخين؟...

ـ إنني مشغول أنا الآخر!...

ـ بل إنك غير مشغول فابق! الآن زوسيموف قد ذهب صار ينبغي لك أن تذهب؟ كلا لا تذهب! لكن كم الساعة الآن؟ أهو الظهر؟... آه ما أجمل هذه الساعة يا دونيا! لكن لِمَ أنتم صامتون؟ إنني وحدي أتكلم بينكم!

فقالت دونيا مشيرة إلى الساعة:

ـ إنها هدية من مارت بيتروفنا!

وأضافت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ إنها ثمينة جداً!

ـ آه! آه! إنها أكبر حجماً مما ينبغي أن تكون عليه ساعة سيده!

فصرخت دونيا قائلة:

ـ إنني أحب هذا الشكل!

بينما راح رازوميخين يحدث نفسه وقد استبد به سرور لا يعرف له سبباً:

ـ «إنها ليست إذن هدية من خطيبها!»

وألمح راسكولنيكوف قائلاً:

ـ كنت أعتقد أنها هدية من لوجين!

ـ كلا... إنه لم يقدم بعد أية هدية إلى دونيا!

وقال لأمه فجأة بصوت ينم عن الألم والعذاب حتى أنها تأثرت للهجته تأثيراً كبيراً:

ـ آه أتتذكرين يا أماه أنني كنت عاشقاً أنا الآخر وأنني كنت سأتزوج!

فقالت بولشيري ألكسندروفنا وهي تتبادل نظرة مع دونيا ورازوميخين:

ـ آه يا صديقي! نعم أذكر!

ـ هم!... نعم لكن ماذا كنت أقص عليكم؟ إنني لا أذكر حتى هذا... ثم استعاد لهجته الحالمة وتابع وهو مطرق الرأس بعينيه المتألمتين:

ـ كانت فتاة فريسة المرض تحب الإحسان إلى المعوزين ولا تفكر إلا في الدير! وذات يوم انخرطت في البكاء وهي تتحدث عن هذه الأشياء! نعم. نعم... إنني أذكر ذلك إنني أذكر تماماً... لقد كانت تميل في شكلها إلى القباحة. ولست أدري حقيقة لِمَ تعلقت بها في ذلك الحين وأظن أن

بسبب مرضها الدائم. حتى إنني أعتقد بأنني كنت سأزداد حباً لها ولو أنها كانت عرجاء أو محدودبة الظهر... ثم ابتسم ابتسامة ساهمة وأردف:

ـ إن هذا يشبه هذيان الربيع...

فقالت دونيا بانفعال:

كلا... إن ذلك لم يكن يشبه هذيان الربيع فحسب...

فنظر بانتباه إلى أخته متضايقاً... لكنه لم يسمع كلماتها أو أنه لم يفهمها... ثم نهض وهو في أعمق الشرود واقترب من أمه فعانقها وعاد إلى جلسته!

قالت بولشيري ألكسندروفنا بحنان:

ـ إنك لا زلت تحبها إلى الآن!

ـ من؟ الآن؟ آه نعم... إنك تتحدثين عنها! كلا! كل شيء قد غدا الآن في العالم الآخر بالنسبة إلي... إنه شيء عريق في القدم! وكل ما يحيط بي يبدو وكأنه يقع في مكان آخر غير هذا المكان!

ونظر إليهم بانتباه شديد وقال مسترسلاً:

ـ خذي مثلاً... أنت! إنني أنظر إليك كما لو كنت على بعد ألف مرحلة! لكن الشيطان يعرف لِمَ نتحدث عن كل هذا!...

ثم أضاف بشيء من التحدي:

ـ لكن لِمَ تسألينني؟...

وصمت فجأة وراح يقرض أظافره بأسنانه وقد استغرق في تأملاته من جديد!

قالت بولشيري ألكسندروفنا لتقطع الصمت الذي ران عليهم:

ـ يا له من مسكن لعين يا روديا! قبر حقيقي! أنا واثقة من أن نظيرك يدين بنصف مسبباته إلى هذا المسكن!

فعاد يقول بشرود:

ـ مسكني؟ آه نعم إنه لذو أثر بعيد فيما تذكرين! ولقد فكرت بذلك بنفسي لكنك لو تعلمين قد أعربت عن فكرة غريبة جداً يا أماه!

قال ذلك وهو يتصنع ضحكة غريبة. كاد لولا قليل أن يشعر بأن هذا الاجتماع وهاتين القريبتين اللتين يراهما بعد فراق ثلاث سنوات واللهجة البنوية التي تصطبغ بها هذه المحادثة لعدم وجود حديث عام يتلهون به، كاد أن يشعر بأن هذا كله بات لا يحتمل. لكنه كان يعرف أن هناك أمراً مستعجلاً ينبغي أن ينتهي منه بشكل من الأشكال! لقد فكر في الأمر واتخذ أهبته منذ الصباح عندما استيقظ وقد ابتهج لأن تلك «القضية» قد خطرت على باله فبدت وكأنها وسيلة صالحة للإفلات من هذا الجو الثقيل!

قال مبتدئاً حديثه بلهجة خافتة صارمة:

ـ إليك الأمر الذي أفكر فيه يا دونيا! بالطبع إنني أعتذر إليك عما وقع البارحة لكنني أعتقد أن من واجبي أن أذكرك بأنني لن أبدل خطة مسيري في صددها. فإما أنا وإما لوجين. إنني قد أكون إنساناً مكروهاً بغيضاً لكنك لا ينبغي أن تكوني كذلك. يكفي إنسان واحد من هذا القبيل! فإذا تزوجت من لوجين فإنني سأكف على الفور عن اعتبارك أختاً لي!

هتفت بولشيري ألكسندروفنا بصوت يائس كئيب:

ـ روديا! روديا! ها قد عدنا إلى فصل البارحة بالذات! لم تصف

نفسك دائماً بالشخص البغيض الكريه؟ لا أستطيع احتمال ذلك... البارحة أيضاً تصرفت على هذا النحو!...

وقالت دونيا بلهجة ثابتة رصينة وصوت ليس أقل جفاءً من صوت أخيها:

ـ أخي! إن كل هذا مرده خطيئة من قبلك! وقد فكرت في الأمر البارحة واكتشفت موضع الخطأ! إن كل ذلك مبعثه أنك تعتقد ـ على ما يبدو لي ـ بأنني أضحي بنفسي في سبيل شخص ما. والأمر على عكس ذلك تماماً فأنا أتزوج بكل بساطة لأنني لا أستطيع العيش وحيدة دون عناء كبير وإنه من البديهي أن أكون سعيدة إذا استطعت أن أكون بعد ذلك مفيدة لذوي لكن قراري لم يكن قائماً على هذا السبب ومن أجله!

غمغم راسكولنيكوف يحدث نفسه: «إنها تكذب! يا للمتكبرة! إنها لا تريد الاعتراف بأنها تقوم بدور المحسنة في هذه القضية! آه من العقليات المنحطة أنها تحب كما لو كانت تكره! كم أشمئز من هذه العقليات وأمقتها!».

واسترسلت دونيا تقول:

ـ وبالاختصار إنني أتزوج بيير بيتروفيتش لأنني أفضل أخف الضررين! وأنا على استعداد لتنفيذ كل ما ينتظره مني بكل أمانة لذلك فإنني لا أخدعه! لِمَ تضحك؟

كان وجه دونيا قد اصطبغ بلون الأقحوان وكانت عيناها تلتمعان من الغضب.

سأل راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة مسمومة:

ـ إذن، ستنفذين كل شيء!

ـ إلى حدٍّ ما! إن الطريقة والأسلوب اللذين تبعهما بيير بيتروفيتش لخطوبته دلتاني على ما يريد! صحيح أنه يقدر نفسه تقديراً كبيراً لكنني أعتقد بأنه سوف يقدرني كذلك... لماذا تضحك أيضاً؟

ـ وأنت لماذا تتلونين من جديد؟ أنت تكذبين يا أختاه، إنك تكذبين حسب خطة مرسومة ولمجرد عناد نسائي! إنك ترتبين الأشياء أمامي على طريقتك. إنك لن تستطيعي الميل إلى لوجين. لقد رأيته وتحدثت إليه وعلى ذلك فإنك تبيعين نفسك لقاء بعض المال وإذن فإنك تتصرفين تصرفاً مرذولاً وإنه ليسعدني أن تكوني على الأقل لا زلت تحسنين الاحمرار من الخجل.

صاحت دونيا بانفعال غاضبة:

ـ إن هذا غير صحيح، إنني لا أكذب! لن أتزوجه قبل أن أقتنع بأنه يقدرني ويتمسك بي. لن أتزوجه قبل أن أتأكد بجلاء بأنني أستطيع أن أميل إليه ولحسن الحظ لسوف استطيع قطع الشك باليقين اليوم بالذات. إن هذا الزواج ليس فضيحة كما تدعي ولكن لنفرض جدلاً أنك على صواب وأنني كنت مصممة على ارتكاب مثل هذه الفضيحة ألا تكون قسوة من قبلك إذ تحدثني بهذا الشكل؟ لم تتطلب مني بطولة، لعلك أنت لا تستطيع القيام بمثلها إن هذا لاستبداد إنه لقسوة. وإنني إذا كنت أسبب تعاسة لكائن ما فإنني سأكون أنا ذلك الكائن. إنني لم أقتل إنساناً بعد... ما بك تنظر إلي؟ لماذا اشتد شحوبك إلى هذا الحد؟ روديا ماذا بك؟ روديا عزيزي؟...

صرخت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ رباه! لقد دفعت به إلى أقصى الاحتمال... إلى الإغماء.

ـ كلا كلا... يا للحماقة... إنه لا شيء... لقد شعرت بدوار بسيط في

رأسي إنه ليس إغماء. إنكم لا تفكرون إلا في الإغماءات... هم! نعم... ماذا كنت أريد أن أقول؟ نعم: كيف تستطيعين قطع الشك اليوم ومعرفة ما إذا كنت ستحبينه وكان... سيحبك. أليس هذا ما كنت تتحدثين به؟ لقد قلت على ما أظن اليوم أم تراني أسأت السمع؟.

فقالت دونيا:

ـ أعطيه كتاب بيير بيتروفيتش يا أماه.

مدت بولشيري ألكسندروفنا الرسالة إلى ابنها بيد مرتعشة فأخذها بفضول زائد لكنه قبل أن يفضها حملق في وجه دونيا بدهشة وقال ببطء كمن خطرت بباله فكرة جديدة:

ـ غريب إنني أتساءل لِمَ أنفعل! لِمَ كل هذا الاحتجاج! تزوجي بمن تشائين.

نطق بهذه الكلمات وكأنه يخاطب نفسه غير أنه تفوه بها بصوت مرتفع حتى أنه استمر لحظة طويلة ينظر إلى أخته مرتكباً. وأخيراً فض الرسالة وعلى وجهه مسحة من الدهشة والاستغراب وراح يقرؤها بعناية ويعيد تلاوتها وكانت بولشيري ألكسندروفنا في قلق مقيم حتى أن جميع الحاضرين كانوا يتوقعون انفجاراً مفاجئاً. وبعد لحظة تأمل شرع راسكولنيكوف يقول وهو يعيد الرسالة إلى أمه:

ـ إنه مدهش! إنه محام وله عملاؤه وحديثه نفسه على شيء من التصنع مع ذلك فإنه يكتب كالأميين!

فسرت همهمة عامة واستغراب لأن أحداً لم يكن يتوقع هذا منه. واعترض رازوميخين بلهجة حاسمة يقول:

ـ إنهم جميعاً يكتبون على هذا المنوال!

ـ هل قرأت الرسالة؟

ـ نعم!

فقالت بولشيري ألكسندروفنا مفسرة وقد علا وجهها الخجل:

ـ لقد أطلعناه عليها يا روديا... لقد... سألناه النصح منذ قليل...

فقاطعها رازوميخين قائلاً:

ـ إنه إنشاء قضائي! هكذا يحررون حتى الآن المعاملات القضائية!

ـ نعم قضائي! قضائي بالضبط. إنشاء رجال القانون! إنه ليس إنشاء الأميين تماماً لكنه ليس كذلك إنشاءً أدبياً، إنه كتابة رجل أعمال!

فقالت أفدوتيا رومانوفنا ملاحظة قد آلمتها لهجة أخيها في الحديث:

ـ إن بيير بيتروفيتش لا يخفي أنه تلقى ثقافة قليلة بل إنه يفخر لأنه شق طريقه لوحده.

ـ حسناً إنه إذا كان فخوراً فلا شك أن هناك ما يستحق الافتخار وأنا لا أقول العكس! لقد غضبت على ما يبدو يا أختاه لأنني لم أستخلص من هذه الرسالة كلها إلا ملاحظة طائشة وتعتقدين بأنني أتعمد التحدث بهذه السخافات لإيلامك إلا فاعلمي بأنه على العكس! فقد بدت لي هذه الملاحظة المتعلقة بالأسلوب وأعتقد أن هذه الملاحظة ليست غير ذات موضوع في وضعنا الحاضر. لأن هناك العبارة: «وسيكون لكم شأنكم» الواردة في هذا الكتاب والتي تعتبر غنية جداً بالمعاني والوضوح. ثم هناك التهديد بانسحابه فوراً إذا أنا جئت. إن هذا التهديد بالذهاب يعادل التهديد بهجركم فوراً رغم أنه هو الذي استدعاكما إلى بطرسبورغ. فماذا

تقولين؟ هل لهذه العبارة المهينة الصادرة عن لوجين وقع مماثل لو أنها صدرت مثلاً عن هذا (وأشار إلى رازوميخين) أو عن زوسيموف أو عن أي كان منا؟

فأجابت دونيا بانفعال:

ـ كلا. لقد فهمت تماماً بأن تلك العبارة إنما صدرت عن حسن نية وسذاجة فحسب. ولعله ليس سيد قلمه! لقد كان تحليلك لأسلوبه صحيحاً بل وإنني لم أكن أتوقع...

ـ إن التعبير راجع إلى الأسلوب لأنه في الأسلوب القضائي لا يستطاع التعبير بشكل آخر. ولعله كان أكثر خشونة مما أراد أن يكون. مع ذلك أظن أنني سأخيب أملك قليلاً: إن في هذه الرسالة تعبيراً آخر، هجاءً بحقي، هجاءً وضيعاً! لقد أعطيت البارحة مالاً إلى أرملة مسلولة رازحة تحت وفر الفاقة لنفقات الدفن وليس «بحجة نفقات الدفن» وأعطيته إلى الأرملة وليس «في يد الفتاة» التي قال عنها: إنها «ذات سلوك شائن معروف». لقد رأيت تلك الفتاة البارحة لأول مرة! إنني أرى في كل هذا حاجة ملحة إلى تشويه مركزي وغمري بالشوائب أمامكما. كل هذا معبر عنه بذلك الأسلوب القضائي أي أنه يفضح بصراحة نواياه ويؤيد لوناً من التهافت الساذج! إنه رجل ذكي لكنه لا يكفي أن يكون المرء ذكياً ليتصرف بذكاء. إن ما أقول يرسم حقيقة الرجل! ولا أعتقد أنه يقدرك كثيراً إنني أقول لك ذلك في مصلحتك فقط لأنني أتمنى لك كل خير...!

لم تجب دونيا، فقد كانت متخذة قرارها منذ الصباح ولا تنتظر إلا حلول المساء. أما بولشيري ألكسندورفنا فقد سألت ابنها بلهجة زادت كآبتها. اللهجة «العملية» التي طغت على الحديث:

ـ إذن يا روديا؟ ماذا قررت؟

ـ ماذا تقصدين بكلمة «ماذا قررت»!؟

ـ أنت ترى أن بيير بيتروفيتش يطلب أن لا تكون حاضراً عندنا هذا المساء وأنه قال بأنه سينسحب إذا جئت. وعلى هذا فهل... ستحضر؟

ـ لا شك أنه ليس لي أن أقرر مثل هذا الأمر. إن القرار لكما في الدرجة الأولى فإذا كان مطلب بيير بيتروفيتش لا يسيء إليكما وبالدرجة الثانية لا يسيء إلى دونيا فلكما شأنكما. وأنا سأنصرف كما يروق لكما!

كانت لهجته مشوبة بالجفاء. لذلك بادرت بولشيري ألكسندروفنا إلى القول:

ـ لقد قررت دونيا وأنا أؤيدها تماماً في قرارها...

وقالت دونيا:

ـ لقد قررت أن أرجوك بإلحاح أن تكون حاضراً عندنا هذا المساء في الموعد المحدد من قبله. فهل ستحضر؟

ـ سأحضر!

ثم استدارت إلى رازوميخين وقالت:

ـ وأنت أيضاً. إنني أرجوك أن تحضر إلينا في الساعة الثامنة... أماه إنني أدعوه بالمثل!

فأضافت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ بديع! يا دونيا. هيا ليكن كما قررت! وسيكون في ذلك راحة لي لأنني لا أحب الكذب والخداع. الخير لنا أن نقول الحقيقة كلها... فاغضب إذا شئت الآن يا بيير بيتروفيتش!

الفَصْلُ الرابعُ

في تلك اللحظة فتح الباب بهدوء ودخلت الحجرة فتاة راحت تجيل الطرف حولها بوجل. فالتفتوا جميعاً نحوها بدهشة وفضول. لم يعرفها راسكولنيكوف أول الأمر. كانت تلك الفتاة هي صوفي سيميونوفنا مارميلادوف. كان قد رآها أمس للمرة الأولى ولكن في لحظة ووسط وثياب معينة حتى انطبعت في خاطره صورة عنها تختلف عما رآها عليه في تلك اللحظة. فقد رأى أمامه فتاة مرتدية ثياباً متواضعة بل فقيرة تبدو صغيرة السن تماماً وكأنها طفلة ذات حركات متحفظة مناسبة ووجه بشوش تبدو عليه أمارات فزع خفيف. كانت مرتدية ثوباً بسيطاً صغيراً يصلح لكل المناسبات، وقبعة فات وقتها وفي يديها ـ كالأمس ـ مظلتها. ولما وجدت الغرفة مليئة بالناس زاد ارتباكها حتى بلغ مرتبة الخجل فأطرقت برأسها بل وحاولت كذلك أن تنسحب!

هتف راسكولنيكوف والدهشة البالغة مرتسمة على وجهه:

ـ آه... أهذا أنت!

وفجأة ارتبك هو الآخر. راح يفكر في تلك اللحظة في أن أمه وأخته ـ بسبب رسالة لوجين ـ كانتا تعرفان وجود فتاة معينة «سمعتها الفاسدة مرموقة علناً» وقد كان منذ حين يحتج على افتراءات لوجين ويصرخ بأنه

شاهد تلك الفتاة للمرة الأولى في ذلك المساء وها هي ذي قد وصلت إلى مسكنه وحيدة، وتذكر كذلك بأنه لم يستنكر عبارة «ذات سلوك سيّئ مشهود»! مرت كل هذه الأفكار في رأسه كلمحة خاطفة وبشكل غامض. لكنه لما تأملها بانتباه وجد أنها فتاة مسكينة مذعورة لدرجة شعر معها بالإشفاق عليها رآها تحاول الانسحاب شعر فجأة بما يقلقه فهتف يقول بعد أن ألقى عليها نظرة أوقفتها:

ـ لم أكن أنتظرك مطلقاً... أرجو أن تتلطفي بالجلوس. إنك تأتين ولا شك من جانب كاترين إيفانوفنا... العفو... ليس هنا بل هنا... اجلسي هنا.

كان رازوميخين عندما دخلت سونيا يشغل قرب الباب واحداً من الكراسي الثلاثة الموجودة في حجرة راسكولنيكوف وكان قد نهض ليفسح لها مجالاً للدخول. فلما دعاها راسكولنيكوف إلى الدخول والجلوس أشار إليها أول الأمر بالجلوس على «الديوان» حيث اعتاد زوسيموف أن يجلس ثم تذكر فجأة أن «الديوان» كان شيئاً أليفاً بعيداً عن الكلفة خصوصاً وأنه يستخدمه بدلاً من السرير، فعاد وأبدل رأيه وأشار إلى «كرسي» رازوميخين ودعاها إلى الجلوس عليه بينما أشار إلى رازوميخين بالجلوس في المكان الذي كان يحتله زوسيموف من قبل. فجلست حيث أشار مضطربة من الفزع ونظرت إلى السيدتين بارتباك. كان يُرى على وجهها بوضوح أنها تستتنكر وجودها إلى جوارهما. ولما فكرت في هذه الناحية امتلكها جزع عنيف حتى أنها نهضت فجأة وقالت بصوت مضطرب تحدث راسكولنيكوف مغمغمة:

ـ أنا... إنني جئت من أجل دقيقة واحدة فاعذروني إذا كنت أزعجتكم. لقد جئت من قبل كاترين إيفانوفنا التي لم يكن لديها أحد ترسله إليّ. لقد كلفتني كاترين إيفانوفنا بأن أرجوك بإلحاح للحضور غداً

صباحاً للمساهمة في الجناز الذي سيقام بعد إقامة القداس في «سانت ميتروفان» ومن ثم أن تأتي إلى دارنا... إلى دارها لتناول قطعة....

إنها تأمل أن توليها هذا الشرف وقد كلفتني بأن أحمل إليك هذه الأقوال!

وصمتت أخيراً بعد أن ازداد ارتباكها. فنهض راسكولنيكوف بدوره ووقف مضطرباً كذلك لا يحير جواباً وأخيراً أجاب:

ـ سأسعى بالطبع... بالطبع... أرجو أن تتفضلي بالجلوس... إن لدي ما أقوله لك. أرجوك. قد تكونين على عجلة من أمرك، لذلك أرجو أن تجلسي وأن تمنحيني دقيقتين.

وقدم إليهما «كرسياً» فجلست وعادت من جديد تلقي نظراتها المفعمة بالخجل، التائهة في التأمل على السيدتين وأخيراً خفضت بصرها فجأة! أما راسكولينكوف فقد غدا وجهه الشاحب أحمر اللون وقد التمعت عيناه ببريق مضيء! بدا كأنه مضطرب تماماً مبلبل الأفكار. وأخيراً قال بلهجة حازمة:

ـ أماه! هذه صوفي سيميونوفنا مارميلادوف ابنة ذلك التعس مارميلادوف الذي دهس مساء أمس أمام عيني والذي حدثتك عنه!

فنظرت بولشيري ألكسندروفنا إلى سونيا ثم أغمضت عينيها قليلاً، لأنها لم تستطع أن تمتنع عن الإتيان بهذه الحركة التي ترضي كبرياءها رغم النظرة الملحة المتحدية التي كان يسلطها ابنها «روديا» عليها. أما دونيا فقد صوبت عينيها إلى وجه الفتاة المسكينة مباشرة وراحت تتأملها باستغراق وجدوا على وجهها أمارات الاستفهام. وحاولت سونيا أن ترفع عينيها إلى السيدتين عند سماعها هذا التقديم لكن ذلك زادها حيرة واضطراباً.

واسترسل راسكولنيكوف موجهاً حديثه إلى سونيا:

ـ وددت أن أسألك كيف مر هذا اليوم عندكم؟ عسى أن لا يكون قد حصل لكم أي أزعاج من قبل رجال الشرطة مثلاً!

ـ كلا... لقد انتهى الأمر بسلام. خصوصاً وأن أسباب الوفاة كانت واضحة جداً لذلك فإنهم لم يزعجونا غير أن المستأجرين غير راضين!

ـ لماذا؟

ـ لأن الجثة باقية وقتاً طويلاً والطقس حار الآن والرائحة... حتى أننا اليوم في ساعة صلاة الغروب سننقلها إلى المدفن بانتظار الغد في الكنيسة! وقد رفضت كاترين إيفانوفنا بادئ الأمر ولكنها بدأت ترى الآن أن لا وسيلة غير هذه!

ـ إذن فإن الدفن سيكون اليوم!

ـ إنها ترجوك أن تشرفها لحضور الطقوس غداً ثم العودة إلى البيت لتناول الطعام الجنائزي!

ـ أتقدم طعاماً أيضاً؟

ـ نعم. طعام خفيف. وقد كلفتني بأن أشكرك جزيل الشكر على المساعدة التي قدمتها لنا البارحة. ولولاك لما كنا نستطيع إيجاد ما يسد نفقات الدفن.

وفجأة بدأ ذقنها وشفتاها ترتجفان لكنها بذلت جهداً كبيراً حتى تمالكت روعها وهي لما تزل شاخصة بأبصارها إلى الأرض!

راح راسكولنيكوف ينظر إليها أثناء الحديث بانتباه. كانت ذات وجه صغير بائس نحيل شاحب وقسمات غير متناسقة. كانت تقاطيع وجهها

قريبة من شكل الزوايا في تدانيها بذلك الأنف المدبب الصغير وذقنها البارزة. ولم يكن يمكن إطلاق لقب جميلة عليها ولكنها بالمقابل كانت ذات عينين زرقاوين صافيتين إذا انفعلتا فإن وجهها يكتسب طابعاً جميلاً طيباً طهوراً حتى ليشعر المرء بانجذابه إليها رغم إرادته. ثم إن وجهها وكذلك شخصها كله ما كان محروماً من بعض الميزات وكانت على الرغم على بلوغها الثامنة عشرة تبدو طفلة أصغر سناً من حقيقتها حتى أن الطفولة كانت لتشاهد بوضوح خلال بعض حركاتها المضحكة!

هتف راسكولنيكوف وهو يتابع الحديث بإلحاح واهتمام:

ـ لكن كيف استطاعت كاترين إيفانوفنا أن تقوم بكل هذا رغم قلة الإمكانيات التي في يدها؟ كيف تقدم مع ذلك وجبة طعام خفيفة؟.

ـ ستكون الجنازة بسيطة وسيكون كل شيء بسيطاً وعلى هذا الشكل لن يكلف كل هذا شيئاً كثيراً. لقد عملنا حساباتنا منذ قليل أنا وكاترين إيفانوفنا وهي تتمسك كثيراً بهذه المسألة خصوصاً وأنه لا يمكن الاستغناء عن ذلك لأنه نوع من العزاء بالنسبة إليها. إنها هكذا، وأنت تعرفها!

ـ إنني أفهم... إنني أفهم! لا شك!... ماذا بك تنظرين هكذا إلى غرفتي؟ إن أمي كانت تقول منذ قليل بأنها تشبه القبر!

ـ لقد أعطيتنا البارحة كل ما تملك!

أفلتت هذه العبارة من شفة الفتاة فجأة وأطلقتها بصوت يشبه همساً مبحوحاً سريعاً وعادت تطرق برأسها إلى الأرض وعادت شفتاها وذقنها إلى الارتجاف... لقد شعرت منذ دخولها بالفقر الذي يخيم على مسكن راسكولنيكوف وقد أدهشتها هذه البادرة لذلك فإن تلك الكلمات

انطلقت من فمها دون وعي فصمتت. بينما التمعت عينا دونيا ونظرات بولشيري ألكسندروفنا إلى سونيا نظرة باشة! وأخيراً قالت الأم وهي تنهض:

ـ روديا... لسوف نتناول الطعام معاً حتماً... لنذهب يا دونيا أما أنت يا روديا فإنك تحسن صنعاً إذا قمت بجولة تستريح بعدها وتعال إلى مسكننا بأسرع ما يمكن أخشى أن نتعبك!

فقال وهو ينهض بحركة متهافتة:

ـ نعم. نعم. سأذهب! ثم عندي بعض العمل!

فهتك رازوميخين وهو ينظر إلى راسكولنيكوف بدهشة:

ـ لكنكم لن تأكلوا كل واحد على حدة! ماذا بـ...

ـ سأحضر نعم سأحضر بالطبع. أما أنت فابق! فابق! ابق دقيقة. إنكما لستما بحاجة إليه الآن أليس كذلك يا أماه؟ أم لعلي أحرمكما منه؟

ـ آه كلا كلا... وأنت يا دميتري بروكوفيتش سوف تحضر لتناول الطعام معنا! أرجو أن تتفضل بالحضور!

وألحقت دونيا تقول:

ـ تعال أرجوك!

فانحنى رازوميخين ووجهه طافحٌ بالبشر! وانقضت فترة شعر الموجودين خلالها بنوع من الارتباك الغريب فقالت الأم تقطع الصمت:

ـ الوداع يا روديا بل إلى اللقاء! لا أحب كلمة الوداع! الوداع ناستاسيا! يا إلهي لقد قلت الوداع مرة أخرى!

همت بولشيري ألكسندروفنا بأن تحيي سونيا كذلك لكنها لم توفق لذلك فقد عجلت بالخروج من الحجرة وكانت سونيا تنتظر دورها للخروج

فمرت أفدوتيا رومانوفنا من أمامها على أثر أنها لكنها انحنت تحييها تحية مؤدبة ارتعدت لها سونيا وسلمت بدورها مذعورة مرتبكة بينما اكتست قسماتها بمسحة من الآلم غمرتها كلها كما لو أن التفاتة أفدوتيا رومانوفنا وتأدبها وقد أحدثا في نفسها تعذيباً أليماً!

وخرج راسكولنيكوف إلى الممشى وهو يقول:

ـ الوداع يا دونيا... أعطني يدك!

فالتفتت دونيا نحوه وقالت بصوت عذب لم يخل من الاضطراب:

ـ لكني أعطيتها لك فهل نسيت؟ لقد صافحتك!

ـ حسناً صافحيني مرة ثانية!

وضغط على أصابعها بشدة بين يديه بينما ابتسمت له واحمرت خجلاً ثم أسرعت تسحب يدها وهي تشعر بسعادة غامرة لا تعرف لها سبباً! وعاد راسكولنيكوف إلى سونيا وقال لها بوجه مشرق:

ـ هيا... هذا حسن! ليرحم الله الأموات وليدع الأحياء يعيشون أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ إنه لكذلك!

ودهشت سونيا للإشراقة المفاجئة التي سطعت على وجه راسكولنيكوف فنظرت إليه لحظات صامتة وتذكر ـ هو ـ خلال هذا الصمت كل ما حدثه به المرحوم أبوها عن هذه الفتاة بصورة مفاجئة!

لما بلغت بولشيري ألكسندروفنا الشارع مع ابنتها هتفت:

ـ رباه يا دونيا... إنني الآن سعيدة جداً لأننا خرجنا حتى ليخيل إلي أن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن صدري هل كنت أظن البارحة وأنا في القطار أن أمراً كهذا سيسرني؟

ـ أذكرك مرة أخرى يا أماه بأنه لا يزال مريضاً. هل يعقل أن لا تكوني قد لاحظت ذلك؟ لعل الحزن لغراقة عنا كل هذه المدة هو الذي أدى به إلى المرض! ينبغي أن يكون المرء متسامحاً وإنه ليستحق أن يصفح عن أشياء كثيرة تصدر عنه!

فأجابت بولشيري ألكسندروفنا بلهجة غاضبة مقاطعة ابنتها:

ـ ولكنك أنت لم تكوني متسامحة يا دونيا! لعلك لا تعرفين يا دونيا بأنني كنت أنظر إليكما كليكما! إنك صورة عن أخيك تماماً بل ولك مثل مزاجه إنكما كلاكما سويداويان، كلاكما شرسان سريعا التأثر والانفعال. شديداً الازدراء نبيلان... كلاكما نعم! لأنه لا يمكن أن يكون أنانياً فماذا ترتئين يا دونيا؟ ما رأيك؟ عندما أفكر أنه سيكون عندي مساء يكف قلبي عن الضرب!

ـ لا تبتئسي يا أماه ولسوف يحدث ما يجب أن يحدث!

فقالت بولشيري ألكسندروفنا برعونة وسذاجة:

ـ دونيا فكري قليلاً في أي موقف نحن؟ ماذا سيحدث إذا انسحب بيير بيتروفيتش؟

فقالت دونيا بلهجة خافتة مشمئزة:

ـ سيكون عندئذٍ عديم الشرف!

وعادت بولشيري ألكسندروفنا تقول متعجلة:

ـ لقد أحسنا صنعاً بخروجنا في هذه اللحظة. إن عملاً مستعجلاً كان يستدعيه! إنه على الأقل سيتحرك قليلاً وسيستنشق قليلاً من الهواء... إن المرء ليختنق في حجرته لكثرة الحرارة! لكن أين يستنشق الإنسان في

هذه المدينة؟ إن الشوارع تشبه غرفاً محرومة من نوافذ يا رباه! يا لها من مدينة! انتظري! احذري... آه حقيقة إننا مبلبلتا الخواطر... إنني أخاف كذلك من تلك الفتاة!

ـ أية فتاة يا أماه؟

ـ لكن رباه... من هذه الـ صوفي سيميونوفنا... تلك التي حضرت إليه منذ لحظات!

ـ لِمَ تخافين منها؟

ـ إنني أشعر شعوراً مسبقاً يا دونيا! ألم تلاحظي ماذا حدث عند دخولها؟ أكاد أعتقد أن النقطة الرئيسية كامنة فيها! ولك أن تصدقيني أم لا!

فهتفت دونيا مستنكرة:

ـ أبداً إنك دائماً تتبعين شعورك المسبق! إنه لا يعرفها إلا منذ البارحة ولم يستطع التعرف عليها للوهلة الأولى منذ قليل عندما دخلت!

ـ حسناً سترين! إنها تقلقني. سترين! كم روعت منها! لقد كانت تنظر إلي بتينك العينين حتى إنني ما كنت أستطيع التمالك إلا بصعوبة. هل تذكرين كيف قدمها إلينا؟ إن الأمر يبدو غريباً ذلك لأنه يقدمها لنا ـ لي ولك ـ بعد أن كتب إلينا بيير بيتروفيتش عنها ما كتب. وعلى هذا فإنه يحبها! أو أنها غالية عليه!

ـ إن المرء يكتب أشياء كثيرة. لقد كتب عنا نحن وحُكي عنا الشيء الكثير أم تراك قد نسيت؟ إنني متأكدة من جانبي بأنها فتاة مدهشة وأن كل ما قيل عنها إن هو إلا لغو!

ـ ليتقبل اللّه!

فأضافت دونيا بلهجة حاسمة:

أما بيير بيتروفيتش فإنه نمام مرذول!

فأحنت بولشيري ألكسندروفنا رأسها وتوقف الحديث عند هذا الحد!

وفي الحجرة قال راسكولنيكوف وهو يقود رازوميخين إلى النافذة:

ـ سأخبرك عن الأمر الذي أردت التحدث به إليك!

بينما بادرت صوفي سيميونوفنا تقول وهي تنحني محاولة الخروج:

ـ سأقول إذن لكاترين إيفانوفنا إنك ستحضر!

ـ سنتكلم بعد قليل يا صوفي سيميونوفنا. ليس لدينا أسرار نخفيها. إنك لا تزعجيننا أحب أن أقول لك كلمتين أخريين...

ثم استدار إلى رازوميخين وقال:

ـ إليك القضية: إنك تعرفه أليس كذلك... ما اسمه؟ بورفير بيتروفيتش.

فأجاب رازوميخين باهتمام بالغ:

ـ لا شك أنه أحد أقربائي. ماذا تريد منه؟

ـ تلك القضية... أنت تعرفها... أقصد الجريمة! كنت تقول البارحة إنه يحقق فيها الآن!

فأجاب رازوميخين وهو يحملق بعينيه:

ـ نعم... ماذا بعد؟

ـ وإنه استجوب الأشخاص الذين أودعوا لدى تلك العجوز بعض الرهائن... حسناً... إنني شخصياً رهنت عندها بعض الحاجات. أشياء غير

ذات قيمة في مجموعها: خاتم صغير قدمته إلي أختي عندما غادرتها إلى بطرسبورغ والساعة الفضية التي كانت لأبي. إن هاتين الحاجتين لا تساويان أكثر من خمسة أو ستة روبلات ولكنني أتمسك بهما لأنهما ذكريات. فماذا ينبغي أن أعمل الآن؟ أنا لا أريد أن تضيع هذه الأشياء وخصوصاً الساعة. إنني كنت أرتعد منذ قليل خشية أن تسألني أمي عنها عندما تحدثنا عن ساعة دونيا. إنها الأثر الوحيد الباقي لأبي ولسوف تمرض أمي إن هي ضاعت! إن النساء دائماً هكذا... فعلمني ماذا أعمل؟ أنا أعرف أنه يجب أن أقدم إفادة ولكن أليس من الأحسن أن نعلم بورفير شخصياً بذلك؟ هم ماذا تعتقد؟ إنني أحب أن أنهي هذه القضية بأسرع ما يمكن. ولسوف ترى أن أمي ستفكر في سؤالي عن أخبار الساعة قبل موعد الطعام!

فهتف رازوميخين وقد أضحى فريسة اضطراب غير طبيعي:

ـ لا لزوم للجوء إلى البوليس إن الذهاب إلى بورفير هو الصواب. آه! كم أنا سعيد! ثم لِمَ لا أكون سعيداً؟ لنذهب فوراً إنه على قيد خطوتين من هنا ولسوف نجده حتماً.

ـ ليكن... لنذهب.

ـ ولسوف يكون مسروراً جداً بالتعرف إليك! لقد حدثته عنك كثيراً وفي مناسبات عديدة. والبارحة كان آخر حديث لنا... وعلى هذا فإنك كنت تعرف العجوز؟ ها ها... كم يرتبط الأمر الآن بشكل مدهش! آه! نعم... صوفي إيفانوفنا...

فصحح راسكولنيكوف قوله:

ـ بل صوفي سيميونوفنا... إنه صديقي رازوميخين يا صوفي سيميونوفنا! إنه شاب ممتاز!

فقالت صوفي دون أن تنظر إلى رازوميخين لشدة خجلها:

ـ إذا كنتما ستخرجان...

فقال راسكولنيكوف:

ـ نعم لنذهب! سأمر بدارك اليوم يا صوفي سيميونوفنا فقط أخبريني أين تقطنين؟.

لم يكن يبدو عليه الارتباك تماماً كان يقول هذه الكلمات بلهجة محمومة وهو يختلس النظر إلى وجه الفتاة. فأعطته سونيا عنوانها وهي تحمر من الخجل. ثم خرجوا ثلاثتهم معاً. سأل رازوميخين:

ـ ألا تغلق بابك بالمفتاح؟

فأجاب راسكولنيكوف:

ـ أبداً... مع العلم بأنني منذ عامين وأنا أفكر أبداً في شراء قفل! سعداء هم الذين لا يملكون ما يخفونه بالمفتاح أليس كذلك؟

كانت جملته الأخيرة هذه موجهة إلى سونيا وكان وجهه هاشاً باشاً. ولما بلغوا الباب الخارجي توقفوا برهة. فقال راسكولنيكوف مخاطباً سونيا بشكل يشعر منه بأنه يريد أن يقول لها شيئاً آخر:

ـ ستذهبين من اليمين أليس كذلك يا صوفي سيميونوفنا؟ ولكن كيف استطعت اكتشافي؟

كان يحاول عبثاً أن ينظر في عينيها الصافيتين الهادئتين... فأجابت:

ـ ولكنك أعطيت عنوانك أمس إلى بوليا!

ـ بوليا؟ آخ نعم! بوليا... إنها تلك الصغيرة... إنها أختك؟ وعلى هذا فقد أعطيتها عنواني!

ـ هل نسيت ذلك؟

ـ كلا إنني أتذكر جيداً!

ـ ثم إنني كنت قد سمعت أبي المرحوم يتحدث عنك ما كنت أعرف اسمك. وهو نفسه كان يجهله. والآن فقد جئت... وعندما علمت اسمك البارحة... سألت اليوم: هل يقطن هنا السيد راسكولنيكوف؟ لأنني ما كنت أعرف أنك أنت كذلك تقطن في غرفة مؤثثة! الوداع لسوف أقول ذلك لكاترين إيفانوفنا!

شعرت بسرور بالغ وهي تبتعد أخيراً... فمضت مطرقة الرأس وهي تحث خطاها لتبلغ المنعطف القريب الذي يبعد عشرين خطوة عن مكان وقوفهما كي تختفي عن أبصارهما ولكي تصبح وحيدة أيضاً! وعندما اتصل إلى المنعطف ستسير مسرعة دون أن تبالي بأحد أو أن تنظر حولها... ولسوف تفكر وتتذكر وتستعيد في ذهنها كل كلمة قيلت! كل مناسبة! إنها لم تشعر من قبل أبداً بشعور من هذا القبيل! لقد شعرت بعالم جديد يخلق فجأة في روحها بشكل غامض غير واضح. وتذكرت فجأة أن راسكولنيكوف يود زيارتها هذا اليوم بالذات بل لعله يحضر تواً. فراحت تغمغم مغمغمة القلب وكأنها تحاول تهدئة طفل صغير!

ـ رباه... المهم أن لا يحضر اليوم! رباه... غرفتي... تلك الغرفة! لسوف يراها! آه يا رب؟

لذلك ونظراً لحالة الاضطراب التي كانت تعانيها فإنها لم تلاحظ طبعاً أن سيداً لم تكن تعرفه، راح يتبعها خطوة فخطوة. لقد رافقها دون أن تشعر منذ أن رآها تخرج من الباب العام عندما كان رازوميخين وراسكولنيكوف واقفين معها يتبادلون بضع كلمات على الرصيف. وقد مرّ ذلك السيد في تلك اللحظة بهم وانتفض فجأة حينما سمع طرفاً من حديث سونيا وكانت

تقول: «لقد سألت: هل يقطن هنا السيد راسكولنيكوف!» فنظر بسرعة ولكن بانتباه إلى الأشخاص الثلاثة وبصورة خاصة إلى راسكولنيكوف الذي كانت تتحدث سونيا إليه. ولم تدم نظرته تلك إلا لحظة خاطفة وقد وقعت دون أن يتوقف عن السير. فلما ابتعد راح يهدئ من خطاه ويبطئ في سيره كما ولو كان ينتظر أحداً. لقد كان ينتظر سونيا وقد شاهد الأشخاص الثلاثة يتبادلون كلمات الوداع ورأى سونيا تسير في اتجاهه لتعود إلى منزلها. فهتف يغمغم محدثاً نفسه:«هه! أين تسكن إذن؟ لقد رأيت هذا الوجه من قبل في مكان ما».

كان يحاول استنهاض ذاكرته لتسعفه بما نسيته. فلما وصل إلى المنعطف مضى إلى الجانب المقابل واستدار إلى الخلف فرأى سونيا تتبعه في ذلك الطريق بالذات دون أن تلحظ شيئاً. ولما تجاوزته راح في أعقابها سائراً على الرصيف المقابل دون أن يدعها تغيب عن ناظريه، واستمر بعيداً عنها حتى قطعا خمسين خطوة تقريباً وعندئذٍ عاد إلى الرصيف الأول حيث كانت تسير فلحق بها وسار وراءها مباشرة مخلفاً بينهما مسافة خطوات فقط.

كان رجلاً في الخمسين من عمره ميالاً إلى الطول متين البنية مرتدياً ثياباً أنيقة ثمينة ومناسبة، له مظهر «البورجوازي» المحترم! وكان يحمل في يمناه عصا جميلة كان يقرع بها الرصيف مع كل خطوة ويلبس قفازات جديدة ولا يبدو على مظهره ولون بشرته أنه من بطرسبورغ. ولم يكن المشيب قد خط بعد سطوراً طويلة على شعره الأشقر الكثيف. أما لحيته فكانت كثة ومشذبة ذات لون أشقر فاتح يشبه لون شعر الرأس! وكانت له عينان زرقاوان ذات نظرة باردة ملحة حالمة وشفتان حمراوان. فكان بمجموعه رجلاً محتفظاً بشبابه احتفاظاً مدهشاً يبدو أصغر سناً من حقيقته.

أشرفت سونيا على القناة وكان الغريب على بعد متساو وعلى رصيف واحد، فنظر إليها متأملاً ولاحظ أنها ساهمة مفكرة. فلما بلغ مسكنه دخلت سونيا من الباب العمومي فحذا حذوها وهو في دهشة من الأمر. وبلغت سونيا الباحة فانعطفت إلى اليمين حيث السلم الذي يؤدي إلى مسكنها فغمغم السيد الغريب بكلمة تشعر بدهشته وراح يصعد السلم على أثرها فلما بلغت الطبقة الثالثة سارت في الممشى وقرعت الباب التاسع وعليه لوحة نقش عليها هذا الاسم: كابرناؤوموف خياط! دهش الغريب لتلك المصادفة العجيبة وراح يقرع بدوره الباب الثامن وكان البابان على بعد ست خطوات الواحد عن الآخر.

نظر إليها الغريب وقال مبتسماً:

ـ إنك تقطنين لدى كابيرناؤوف؟ لقد خاط لي البارحة «صداراً»! إنني أقطن هنا بجانبك عند السيدة رسليش، جرترود كارلوفنا! ما أدهش الصدف!

فنظرت إليه سونيا بانتباه بينما راح يتابع حديثه قائلاً بلهجة مرحة:

ـ إننا جاران. لقد حللت في بطرسبورغ منذ أمس الأول... هيا... يسرني لقاؤك!

لم تجب سونيا كان بابها قد فتح فتسللت إلى حجرتها وقد شعرت بأنها تخجل من شيء ما وترهب منه!

كان رازوميخين شديد الحماس وهو في طريقه مع راسكولنيكوف إلى مسكن بورفير!وكان يهتف مكرراً:

ـ يا صديقي العجوز! إن ذلك عين الكمال! إنني سعيد... إنني سعيد!

وبينما كان راسكولنيكوف يفكر في نفسه قائلاً: «ما الذي يسعدك؟» كان صديقه مستمراً في حديثه يقول:

ـ كنت أجهل أنك أنت أيضاً قد استلفت من تلك العجوز لقاء أشياء رهنتها آه... هل ذهبت إليها أقصد متى ذهبت إليها لآخر مرة؟

غمغم راسكولنيكوف في سره يقول: يا لك من ساذج سخيف! ثم توقف برهة وكأنه يفكر في سؤال صديقه وقال:

ـ متى؟ لقد ذهبت إليها قبل موتها بثلاثة أيام على ما أعتقد. ثم إنني لا أريد أن أستعيد هذه الأشياء الآن لأنني لا أملك إلا روبلاً واحداً تبقى لي بسبب ذلك الهذيان الملعون الذي أصابني أمس!

كان يتحدث عن تلك الأشياء بلهجة تعبر عن عناية خاصة بها. وكذلك فقد نطق بكلمة «الهذيان» بلهجة شديدة الإغراء! فبادر رازوميخين إلى القول:

ـ هيا... نعم... نعم، إذن هو السبب في أنك... لقد أدهشتني على الأكثر أقوالك أثناء هذيانك... إنك ما كنت تفتأ تتحدث عن سلاسل وخواتم! نعم نعم! لقد وضح كل شيء الآن!

راح راسكولنيكوف يناجي نفسه بقوله: «إن تلك الفكرة مغروسة إذن في عقولهم! هذا الرجل مثلاً... إنه على استعداد للتضحية بنفسه من أجلي وهو سعيد لأنه وجد تفسيراً معقولاً للسبب الذي دفعني إلى التحدث عن الخواتم في الحلم! إن الفكرة إذن قد رست في رؤوسهم جميعاً!» ثم سأل صديقه بصوت مرتفع:

ـ لكن هل نجده في مسكنه؟

فأسرع رازوميخين يجيب:

ـ سوف نجده... سوف نجده. إنه شاب ممتاز يا صديقي وسترى! إنه

أخرق بعض الشيء وأقصد أنه يسير مع الدنيا. ولكنني لم أنعته بالأخرق من أجل هذا... إنه فتى ذكي بل إنه شديد الذكاء ولكن لديه اتجاهاً خاصاً في عقله. إنه حذر ماجن ومتشكك... يروق له أن يسخر ولكن ليس لدرجة «التهريج» وأخيراً الأسلوب القديم وأقصد أسلوب الاعتماد على الواقع المادي... لكنه يعرف عمله تماماً بل إنه ضليع فيه... لقد حقق في العام الماضي في قضية قتل كانت كل الآثار فيها ضائعة. وهو يرغب في التعرف إليك بشوق زائد!

ـ ولِمَ يرغب في ذلك إلى هذا الحدّ؟

ـ ليس... لأنه لكن ألا ترى السبب؟ إنني في هذه الأيام الأخيرة ـ بينما كنت مريضاً ـ تحدثت إليه كثيراً عنك ولقد أصغى إلي بانتباه ولما علم بأنك طالب حقوق وأنك لم تتمكن من متابعة دروسك لأسباب خارجة عن طاقتك قال: يا للأسف! ومن ذلك استنتجت... وأقصد من كل الأشياء مجتمعة وليس من هذا فحسب. البارحة زاميوتوف... افهمني يا روديا... قد أكون ثرثرت البارحة كثيراً عندما كنت ثملاً وكنت أرافقك إلى الدار... لذلك فإنني أخشى أن تكون مغالياً...

ـ ماذا تريد أن تقول؟ إنهم يعتبرونني مجنوناً؟ ولكن قد يكون ذلك صحيحاً!

واغتصب ضحكة صامتة.

ـ نعم... نعم! أو بالأحرى لا... بواه! هيا... إن كل ما قلته وما بعده كله كان سخيفاً وبتأثير الشراب!

فصاح راسكولنيكوف يقول وقد همَّ أن يندفع من الغضب:

ـ لكن لِمَ تعتذر؟ إن كل ذلك يقتلني في النهاية!

ـ إنني أعرف... إنني أفهم! ثق بأنني أفهم. حتى إنه من المخجل التحدث فيه!

ـ إذن! طالما أن التحدث فيه مخجل فلنكف!

وصمت الصديقان وكان رازوميخين يفيض حماسة الأمر الذي كان راسكولنيكوف يلاحظه باشمئزاز وكان كذلك مكتئباً مما سمعه للتو من رازوميخين عن بورفير، فراح يناجي نفسه قائلاً وهو يشعر بشحوب وبخفقان شديد في قلبه:

ـ ينبغي أن ألقي الرماد في عيني هذا أيضاً! إن ذلك طبيعي تماماً، ولكن «أن لا ألقي بشيء مطلقاً» سيكون طبيعياً أكثر... نعم أن أرغم نفسي على عدم إلقاء شيء في عينيه! كلا! لأنني إذا أرغمت على ذلك فلن يكون الأمر طبيعياً تماماً حسناً سنرى كيف تسير الأمور... ترى هل أحسن صنعاً بالذهاب إلى هناك أم لا؟ إن الفراشة تطير من تلقاء نفسها نحو الشمعة، إنني أشعر باضطراب في قلبي وإن ذلك لفأل سوء».

قال رازوميخين:

ـ إنه في هذا المنزل الرمادي.

استمر راسكولنيكوف في حديثه مع نفسه:

ـ «هنا أمر حيوي جداً: هل يعرف بورفير بزيارتي إلى منزل تلك الساحرة أمس أم لا..؟ وعن سؤالي عن الدم! ينبغي أن أعرف ذلك بلمحة خاطفة منذ البداية، نعم حال دخولي وإلا... فلسوف أعرف إذا كنت سأخسر نفسي!».

وخاطب رازوميخين فجأة وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة:

ـ على فكرة. لقد لاحظت يا صديقي أنك منذ هذا الصباح في اضطراب غير عادي فهل هذا صحيح!

فقال رازوميخين منكراً:

ـ أي اضطراب؟

ـ هيا... يا عزيزي إن ذلك لا يمكن حجبه! لقد كنت منذ لحظات جالساً على مقعدك كما لم تفعل أبداً من قبل. كنت جالساً على حافة المقعد تماماً وكنت تنتفض من ارتعادة تشنجية فلا يقر لك قرار وكنت تغضب حيناً لتعود فجأة إلى اتخاذ سحنة هادئة. كنت تحمر أحياناً خصوصاً لما دعوك إلى تناول العشاء... لقد احمر لونك حتى جذور شعرك!

ـ إن هذا غير صحيح! إنك تكذب! لِمَ تقول هذا؟

ـ الحقيقة أنك خجول كالتلميذ الصغير! يا للشيطان ها إنك تعود إلى الاحمرار!

ـ يا لك من قذر بعد ذلك!

ـ لكن لِمَ كل هذا الخجل يا روميو! انتظر... لسوف أقوله في مكان ما اليوم هاهاها! لسوف أجعل ماما تضحك اليوم، وشخصاً آخر!

فصاح رازوميخين وقد خرج عن طوره وشعر ببرودة الرعب:

ـ اسمع... اسمع! إنني أتحدث جدياً الآن! ماذا سيحدث بعد ذلك؟ يا للشيطان هل قدرت؟ ماذا ستذكر لهما... أنا؟ يا عزيزي... أوف... يا لك من قذر!

ـ آه لقد أصبحت كوردة في الربيع تماماً... كم يليق بك هذا... لو كنت تدري! روميو بطول ستة أقدام... حسناً لقد اغتسلت اليوم وقلمت أظافرك هم؟ هذه الأشياء لم تشاهد فيك من قبل! يا إلهي العظيم! وقد تطيبت... اخفض رأسك قليلاً!

ـ خنزير!

فانفجر راسكولنيكوف ضاحكاً بعنف كاد أن يفقده السيطرة على أعصابه. وهكذا تخطى عتبة مسكن بورفير بيتروفيتش وهو يضحك. وهذا ما أراده راسكولنيكوف: لقد كان يمكن استماع ضحكته من داخل المسكن وقد امتد ذلك الجذل والحبور إلى داخل الممشى!

وغمغم رازوميخين وهو يقبض على كتف راسكولنيكوف:

ـ ولا كلمة هنا وإلا كسرت لك «بوزك»!

الفَصْلُ الخَامِسُ

كان راسكولنيكوف قد دخل الشقة وعلى وجهه علامات من يبذل جهداً ليمتنع عن الانفجار من الضحك وجاء وراءه رازوميخين منقلب السحنة من الغضب، أحمر كالورد، كالأبله المقنع، وكان وجهه وشكله يحملان طابعاً يثير السخرية في تلك اللحظة، ويفسر تفسيراً معقولاً سبب تهلل رفيقه.

انحنى أمام صاحب المسكن قبل أن يقدّم إليه. ومد يده إليه مبدياً جهداً واضحاً ليكبت عواطفه ويطرد عن نفسه ذلك المرح كي يستطيع على الأقل التلفظ بالكلمتين أو الثلاث كلمات اللازمة في مثل هذه المقابلة. وكان صاحب البيت واقفاً وسط الحجرة يفحص زائريه بنظره... ولم يكد راسكولنيكوف يتخذ شكلاً جدياً ويغمغم ببضع كلمات حتى وقعت عيناه فجأة على رازوميخين وعندئذٍ لم يعد باستطاعته الثبات. وهكذا انطلقت الضحكة الحبيسة بقوة تبررها شدة الكبت الذي كانت تعانيه. وكان للغضب العنيف الذي استقبل به رازوميخين تلك الضحكة أثراً بعيداً في إعطاء ذلك المشهد طابع المرح الطبيعي الحقيقي. ولقد ساهم رازوميخين في ذلك ـ وكأنه كان متعمداً ـ فزمجر وهو يلوح بيده:

ـ آه... إلى الشيطان...

وارتطمت يده بمائدة صغيرة كان عليها قدح من الشاي فطوحت بهما معاً إلى الأرض وأحدث هذا الارتطام فرقعة عالية. فهتف بورفير بيتروفيتش بلهجة وديعة:

ـ لكن لِمَ تحطيم الكراسي أيها السادة إنكم تسببون خسارة للدولة!

كان راسكولنيكوف يضحك ملء رئتيه ناسياً يده في يد صاحب الدار لكنه كان ينتظر الوقت الذي ينبغي له فيه أن يسحبها بسرعة وبشكل طبيعي للغاية. أما رازوميخين فقد اشتد جزعه إثر سقوط المائدة وتحطم القدح فراح يتأمل في أجزائه المتناثرة ثم انسحب مهزوماً حانقاً باتجاه النافذة حيث وقف مستديراً بوجهه إليها ينظر خلالها إلى لا شيء وهو منقلب السحنة. وكان بورفير بيتروفيتش يضحك وهو يتلهف إلى مزيد الضحك ولكنه كان ينتظر تفسيراً لهذه الحالة. وفي ركن من الغرفة كان زاميوتوف يجلس على كرسي فلما دخل الزائران نهض وانتظر فاغر الفم وقد حيره المشهد وجعله متحذراً يرقبه بفضول خاص. وكان لوجود زاميوتوف ـ وهو ما لم يكن يتوقعه ـ وقع مزعج في نقش راسكولنيكوف الذي فكر في نفسه قائلاً: «وهذه مسألة ينبغي أخذها بعين الاعتبار!».

شرع راسكولنيكوف يفسر سبب هذا الموقف مبدياً خجله:

ـ أرجو أو تع[illegible]ني... فإن رازوميخين...

فقاطعه بورفير قائلاً:

ـ العفو لقد أدخلتما السرور على نفسي! ولقد دخلتما بلطف زائد...

ثم أشار إلى رازوميخين وقال:

هه! هل يرفض حتى إلقاء التحية!

ـ عجيبٌ... لست أدري لِمَ غضب مني. لقد قلت له في الطريق إنه يشبه «روميو» ولقد أثبتت له ذلك... ولست أعتقد أن هناك شيئاً آخر!...

فهتف رازوميخين محنقاً دون أن يستدير:

ـ خنزير!

فقال بورفير ضاحكاً:

ـ ينبغي أن تكون لديه المبررات الكافية حتى يغضب من كلمة صغيرة بسيطة!

فصرخ رازوميخين:

ـ ها أنت ذا «تتنفذلك» يا قاضي التحقيق! هيا ليحملكم الشيطان!

ثم استدار وهو يضحك وقد غمر البشر وجهه واقترب نحو بور فيرربيتروفيتش وكأنه شيئاً لم يحدث ومد إليه يده وقال:

ـ أحييك بسرور! والآن إلى العمل. هذا صديقي روديون رومانيتش راسكولنيكوف.

أولاً:باعتباره سمع كثيراً بك فقد أراد أن يتعرف بك ثم إن لديه عملاً صغيراً يود إنهاءه معك. هه! زاميوتوف! أية صدفة جاءت بك إلى هنا؟ إنكما متعارفان إذن؟ منذ متى وأنتما على علاقات...؟

وناجى راسكولنيكوف نفسه متسائلاً: «ما معنى هذا» أما زاميوتوف فكان مرتبكاً قليلاً لكنه تغلب أخيراً على ارتباكه وقال بلهجة وديعة:

ـ البارحة... لقد تعارفنا عندك!

ـ إذن إنها «العناية» التي هيأت كل شيء. لقد كان في الأسبوع الماضي يلح كثيراً ليقدم إليك يا بورفير لكنكما لم تعودا بحاجة إلي لأجري ذلك بينكما!... أين سجائرك؟

كان بورفير بيتروفيتش في ثيابه المنزلية: معطف منزلي، قميص نظيف جداً، وحذاء خفيف مثني الكعب؛ وكان في الخامسة والثلاثين من عمره بقامة فوق الوسط ممتلئ الجسد منتفخ الكرش قليلاً حليق الشارب قصير السالفين، قصير الشعر، ذا رأس كبير مستدير ينتهي بنتوء غريب عند القفا، منتفخ الوجه مدوره، أفطس الأنف قليلاً، أصفر اللون كالمرضى ممتلئاً حيوية ودعابة، تقرأ على قسماته سلامة النفس لولا عينيه السماويتي اللون «كالماء الصافي» المغطاتين بأهداب تكاد أن تكون بيضاء، والليّنة كانتا تطرفان باستمرار وكأنه يشير بهما إشارات معينة إلى شخص ما. كانت نظرة عينيه تتناقض مع مجموع شخصيته التي كانت تختزن لوناً من الأنوثة تقريباً فكانت تلك النظرة تعطيه مظهراً جدياً رزيناً غير ذلك الذي يصافح العين للوهلة الأولى.

ولما علم بأن الزائر يود إنهاء قضيته معه رجاه بإلحاح أن يجلس على الأريكة وجلس هو على الجانب الآخر منها مبدياً اهتماماً زائداً ومنتظراً أن يبدأ الضيف بعرض موضوع القضية. ولعل مثل هذا الاهتمام البالغ من قبل شخص مجهول يبدو مربكاً وفي غير موضعه خصوصاً إذا كان ما يود المرء عرضه تافهاً لا يستحق مثل هذا الاهتمام. غير أن راسكولنيكوف راح ببضع كلمات موجزة ومسبوكة يوضح قضيته بدقة وجلاء أدخلا على نفسه السرور واستطاع خلالها أن يمعن النظر في بورفير. وكان بورفير بيتروفيتش بدوره لا يرفع بصره عن محدثه بينما كان رازوميخين جالساً قبالتهما أمام المائدة الصغيرة «إياها» يتابع بصبر نافذ وانفعال موضوع القضية فكانت أبصاره تنتقل على التناوب من وجه هذا إلى وجه ذاك وبالعكس بشكل يتعدى الحدَّ الطبيعي. حتى أن راسكولنيكوف لم يتمالك نفسه أن قال في سره: «سخيف!».

قال بورفير مجيباً بلهجة ممهدة:

ـ ينبغي أن تتقدم بإفادتك إلى الشرطة. ستقول إنك بعد أن علمت بكذا وكذا وأقصد جريمة القتل، فإنك ترغب بدورك بإعلام قاضي التحقيق المولج بهذه القضية بأن الأشياء كذا وكذا تخصك وأنك تود استعادتها. أو...

فعاد راسكولنيكوف يقول وهو يحاول جاهداً أن يبدو بمظهر شديد الخجل:

ـ الواقع أنني في هذه اللحظة لست غنياً وحتى هذه الأشياء التافهة فإنني لن أستطيع... أقصد... أريد في الوقت الحاضر أن أثبت بأن هذه تخصني لكنني عندما سأحصل على مال...

فأجابه بورفير بيتروفيتش مبدياً بروداً إزاء التصريح المتعلق بالناحية المادية:

ـ لا بأس. ثم إنك تستطيع ـ إذا كنت تريد أن تكتب إلي مباشرة بهذا المعنى: بعد أن علمت بكذا وكذا وباعتبار أن الأشياء كذا وكذا تخصني فأرجو...

سأل راسكولنيكوف بلهجة متهافتة مظهراً بذلك عنايته المجددة بالناحية المالية:

ـ هل يمكن كتابة هذا الطلب على ورق عادي؟

ـ آه... على أي ورقة تريد!

ونظر بورفير بيتروفيتش إليه نظرة فيها سخرية واضحة وطرف بعينه كما لو كان يشير بذلك إلى أن يفهم القصد المستتر! ولعل راسكولنيكوف أخطأ في التصور لأن تلك الحركة كانت سريعة كالبرق... كان على استعداد

ليقسم بأن بورفير غمز له بعينه لسبب يعلمه الشيطان! كان في الأمر شيء! فغمغم يخاطب نفسه: «إنه يعرف!» ومرت هذه الفكرة في خاطره بسرعة الصاعقة! فأردف بشيء من الارتباك:

ـ اعذرني إذا أزعجتك بحماقات كهذه. إن هذه الأشياء تساوي خمسة روبلات في مجموعها لكنها غالية على نفسي بسبب الذكرى التي تحملها وإنني أعترف بأنني روعت عندما علمت...

فقال رازوميخين بلهجة لا تدع مجالاً للشك في براءة نيته:

ها!... إنك من أجل هذا إذن أبديت تلك الدهشة لما تحدث إليك زوسيموف البارحة وهو يثرثر بأن بورفير يستجوب أصحاب الأشياء المرهونة!

كانت الملاحظة شديدة الوقع على راسكولنيكوف فنظر إلى رازوميخين نظرة تشتعل بالغضب لكنه تمالك أعصابه على الفور فقال مجيباً وقد سيطر على غضبه ببراعة:

يا عزيزي أعتقد أنك تسخر مني. إنني أعترف باهتمامي الزائد بهذه الأشياء التي تبدو لعينيك «قذارات» لكن لا محل في هذا لاعتباري أنانياً مهووساً بالأشياء التافهة لأن هذه الأشياء لا تبدو أبداً في نظري «قذارات». لقد قلت منذ لحظة: إن تلك الساعة الفضية التي لا تساوي أكثر من فلسين كانت الأثر الوحيد الذي بقي لي من أبي. اسخر مني كما تشاء...

ثم خاطب بورفير معقباً:

ـ خصوصاً وأن أمي قد وصلت وأنها إذا علمت ـ وعاد هنا يخاطب رازوميخين يحاول أن يظهر صوته مضطرباً ـ نعم إذا علمت بأن تلك الساعة قد فقدت فإنها ستنهار إلى أقصى درجات اليأس وأقسم لك! هكذا النساء!

فقال رازوميخين بحرارة:

ـ لكن الأمر ليس كما تقول! لقد ترجمت فكرتي ترجمة سيئة... لقد أردت أن أقول العكس تماماً.

وكان راسكولنيكوف يخاطب نفسه مغمغماً بقلق: «هل بدوت طبيعياً؟ هل كان ذلك موفقاً؟ ألم أبالغ؟ لماذا قلت «هكذا النساء!»».

سأله بورفير لسبب من الأسباب:

ـ وهكذا إذن فقد وصلت أمك!

ـ نعم!

ـ ومتى كان ذلك؟

ـ البارحة مساء!

صمت بورفير وبدا كأنه يرتب أمراً ثم أضاف بلهجة هادئة باردة:

ـ إن أشياءك لا يمكن أن تضيع بأي حال. أضف إلى ذلك أنني كنت انتظرك منذ وقت طويل.

ومد يده بمنفضة السجائر إلى رازوميخين الذي كان يلقي برماد سيجارته على السجادة دون إشفاق! وبدا كأنه لم يتلفظ بشيء مهم بينما شعر راسكولنيكوف بانتفاضة... غير أن بورفير لم يبد عليه أن ينظر إليه بسبب انشغاله بسيجارة رازوميخين!

هتف رازوميخين:

ـ ماذا؟ كنت تنتظره؟ إنك إذن كنت تعرف بأن له أشياء «هناك».

وفجأة التفت بورفير بيتروفيش إلى راسكولنيكوف وقال.

ـ إن أشياءك كلها: الساعة والخاتم، وجدت «عندها» ملفوفة في الورقة وكان اسمك مكتوباً بوضوح عليها بالقلم وكذلك التاريخ الذي أودعت فيه تلك الأشياء لديها!

فتضاحك راسكولنيكوف بغباوة وقال وهو يجهد أن ينظر بثبات في عينيه:

ـ كيف تسنى لك أن تكون مدققاً بهذا القدر؟

لكن لم يتمالك أن أردف معقباً:

ـ إنني إذ أبدي مثل هذه الملاحظة فذلك لأنني ولا شك كنت واحداً بين عدد كبير من الراهنين مما يجعل تذكرهم جميعاً على شيء من الصعوبة وأرى أنك على العكس تتذكرهم جميعاً في دقة متناهية و... و...

وناجى نفسه بقوله: «حيوان! رعديد! لِمَ أضفت هذا!».

أجاب بورفير بشيء من السخرية:

ـ ذلك لأن كل الراهنين قد أصبحوا الآن معروفين من قبلي حتى إنك الوحيد الذي لم تتقدم بعد بطلب استرداد.

ـ لم أكن متمالكاً صحتي تماماً!

ـ نعم. لقد، سمعتهم يقولون ذلك، بل وقد سمعت أنك تعرضت لبعض المضايقات وأنك تبدو الآن أيضاً شاحباً.

فقاطعته راسكولنيكوف بخشونة وغضب:

ـ أنا لست شاحباً أبداً على العكس إنني على خير ما يرام...

كان يعصف بين جنبيه غضب عنيف لم يكن يستطيع له ضبطاً

وكبتاً. وكان يفكر في سره: «إن هذا الغضب سوف يجعلني أبتلع الطعم! لكن ماذا بين أيديهم حتى يعذبونني على هذا النحو؟».

وعاد رازوميخين يقول:

ـ لست تماماً على خير ما يرام. إنها طريقة للكلام فحسب. لقد كان حتى أمس غائباً عن وعيه تقريباً. هل تصدق يا بورفير إنه كان أمس لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه فلم نكد ندير له ظهورنا ـ زوسيموف وأنا ـ حتى ارتدى ملابسه وتسلل دون ضجة ولا صخب ومضى تائهاً لست أدري إلى أين حتى منتصف الليل وهذا ـ وأكرر القول ـ في كامل الهذيان! فهل تستطيع أن تتصور مثل هذا الأمر؟ إنه أمر يثير الفضول!

فقال بورفير وهو يهز رأسه بحركة نسوية:

ـ باه! هل يكون قد عمل ذلك أثناء «الهذيان الكامل»!

فقال راسكولنيكوف وهو فريسة لغضب متزايد:

ـ إن هذا فظيع... لا تصدق كلمة مما يقول! ثم إنك لا تصدق شيئاً.

لكن بورفير لم يبد عليه أنه أصغى إلى تلك الكلمات الغريبة.

وعاد رازوميخين يقول بحماس فجائي:

ـ كيف إذن استطعت الخروج لو لم تكن تهذي؟ لِمَ خرجت؟ وماذا كانت غايتك؟ ولِمَ خرجت متسللاً؟ هيا... هل تزعم أنك كنت حينئذٍ في كامل قواك؟ إنني أستطيع الآن أن أحدثك بصراحة بعد أن زال كل خطر!

فخاطب راسكولنيكوف بورفير وقد ارتسمت على فمه ابتسامة هازئة فيها تحدٍّ وقح؟

ـ لقد قتلني من الضجر البارحة ولقد فررت لأفتش عن مسكن آخر أستأجره كي لا يستطيع اكتشاف مكاني ولقد أخذت كل ما معي من نقود. ولقد رآها السيد زاميوتوف! هيا... يا سيد زاميوتوف هل كنت متمالكاً قواي البارحة أم أنني كنت أهذي؟ إن لك الآن الكلمة الفصل في هذا الموضوع.

كان يود من صميم قلبه لو فتك في تلك اللحظة بزاميوتوف لأن نظرته وسكوته كانا يسببان له إزعاجاً كبيراً.

فأجاب زاميوتوف مصرحاً بجفاء:

ـ رأيي أنك كنت تتكلم بأسلوب رصين بل وفي منتهى الحذق مع ذلك فقد كنت سريع الغضب مفرطاً فيه!

ورد بورفير بيتروفيتش بلهجة من يفحم خصمه بالرأي فقال:

ـ لقد أبلغني اليوم بيكوديم فوميتش أنه صادفك البارحة في ساعة متأخرة جداً في مسكن موظف دهسته الجياد؟

فهتف رازوميخين:

ـ حتى ولو لم تكن إلا قضية هذا الموظف لكانت كافية! هيا... ألم تتصرف كالمجانين في مسكن ذلك الموظف؟ لقد أعطيت آخر ما معك إلى أرملته لتقوم بدفع نفقات المأتم. فلو كنت تريد مساعدتها بتعقل لأمكنك مثلاً إعطاؤها خمسة عشر أو عشرين روبلاً على الأكثر ولكنت احتفظت بثلاثة لنفسك لكنك قذفت بكل روبلاتك الخمسة والعشرين!

ـ لعلني عثرت على كنز ما إذ ما يدريك أنني استسلمت لمثل هذا السخاء لهذا السبب! خذ مثلاً. إن السيد زاميوتوف لا يجهل أنني عثرت على كنز!

ثم خاطب بورفير بيتروفيتش بشفتين مرتعدتين قائلاً:

ـ أرجو أن تعذرنا لأننا ضيعنا من وقتك نصف ساعة ونحن نحدثك بأشياء على هذا القدر من التفاهة. إننا نزعجك أليس كذلك؟

ـ عفواً أرجوك. بل العكس! ليتك تعلم مبلغ ما تستأثره من اهتمامي! إنه لممتع أن يرقبك المرء وأن يسمعك تتحدث وأعترف بأنني سررت جداً لأنك قررت آخر الأمر أن تتقدم بطلب استرداد!

قال رازوميخين:

ـ لكنك تستطيع على الأقل أن تقدم لنا الشاي! إن حلقي جاف!

ـ فكرة رائعة! ولسوف نشرب الشاي كذلك. لكن ألا تتناول شيئاً آخر قبل الشاي؟

ـ هيا اذهب!...

وخرج بورفير بيتروفيتش ليأمر بإعداد الشاي بينما كانت الأفكار تتزاحم في رأس راسكولنيكوف وتصطخب! لقد كان في حالة هياج وانفعال هائلين! كان يخاطب نفسه قائلاً: «الأدهى في الموضوع أنهم لا يحاولون التستر أو الخداع ولا يرتبكون مطلقاً! كيف يتحدث عني إلى نيكوديم فوميتش وهو لا يعرفني! أرى أنهم لا يحاولون التستر على أنهم ماضون على أثري كالكلاب! إنهم يقذفون في وجهي بما في رؤوسهم بصراحة!... لكن ماذا دهاكم؟ امضوا بصراحة مباشرة بدلاً من اللعب معي لعبة القط والفأر! إنها قلة أدب يا بورفير بيتروفيتش ولعلني أستطيع كذلك أن لا أسمح لك بها! لسوف أنهض وأصفعك بالحقيقة كلها وألقيها في «بوزك» وسترى كم أحتقرك! ثم تمالك بمجهود واسترسل: «ولكن ماذا يكون لو

أنها كانت محض تصورات من قبلي؟ نعم مجرد سراب! ماذا يحدث لو أنني كنت مخدوعاً من الأول حتى الآخر وأنني أنفعل لافتقاري إلى التجربة وحاجتي إلى إمكانية الاضطلاع بهذا الدور الكريه؟ لعله قال كل ذلك دون سوء نية! إن كل مواضعهم ليس فيها شيء غير عادي! لكن لا شك أن هناك شيئاً وراء كل هذا! نعم لا شك. نعم! لِمَ قال مثلاً بكل بساطة «عندها». لماذا أضاف زاميوتوف قائلاً: إنني كنت أتحدث «بدقة» ثم لِمَ يحدثني بتلك اللهجة؟ نعم... إنها اللهجة! إن رازوميخين كان حاضراً معي فلِمَ إذن لا يشك في شيء؟ إنه لا يشك في شيء ذلك الأخرق!... آه... ها هي ذي الحمى من جديد... هل غمز لي بورفيرر بعينه منذ لحظات أم لا؟ لقد كان ذلك ولا شك فظيعاً... لِمَ يغمز لي بعينه؟ هل يريدون إرهاق أعصابي والدفع بي إلى آخر درجات الاحتمال؟ إما أن يكون وهماً وإما أن يكونوا عارفين كل شيء! حتى زاميوتوف نفسه يبدو مهيناً في تصرفه! لكن هل هو مهين حقاً؟ لعله أمضى الليل مفكراً... كنت أعرف أنه سيفكر! إنه هنا كما ولو كان في منزله! مع ذلك فهذه هي المرة الأولى يتقابلان فيها! إن بورفير لا يعتبره كزائر إنه يدير له ظهره وهو جالس. إنهما متفقان! لقد اتفقا على«موضوعي»! لا شك أنهما كانا يتحدثان عني عندما وصلت. لكن هل يعرفان أنني ذهبت إلى ذلك المسكن مؤخراً؟ آه... سوف أعرف ذلك بسرعة. عندما قلت أنني فررت لأفتش عن مسكن جديد لم يعر هذه الجملة التفاتاً... نعم، لقد تصرفت ببراعة إذ حشرت قضية المسكن الجديد لأن ذلك قد يفيدني في المستقبل...! في حالة هذيان... فكر قليلاً هاهاها! إنه لا يجهل شيئاً مما وقع أمسية البارحة ثم يجهل وصول أمي! آه تلك الساحرة! لقد كتبت التاريخ بالقلم! إنك تكذب! لن أستسلم لأن هذه ليست بعد أدلة... إنها سراب، أهذا ما تسمونه «الوقائع» والأدلة؟ إن زيارة

المسكن نفسها ليست دليلاً أنها تفسر بالهذيان، إنني أعرف ماذا يجب أن أقول لهم... لكن هل يعرفون بما تم في ذلك المسكن؟ لن أذهب قبل أن أتأكد من الأمر، لكن لِمَ جئت؟ حسناً... ها إنني على وشك الاسترسال في الغضب، إن ذلك وحده يشكل دليلاً. بوه، كم أنا سريع الغضب، لكن لعل ذلك أفضل... سأبقى في دوري كالمريض!... لسوف يرهقني... ليجعلني أفقد السيطرة على أعصابي... لِمَ جئت؟».

مرت كل هذه الأفكار في رأسه بسرعة البرق الخاطف... وفي تلك اللحظة عاد بورفير بيتروفيتش بادي الانشراح وقال مخاطباً رازوميخين ببشاشة:

ـ يا عزيزي... لقد كان رأسي... بعد حفلتك أمس، ولا زلت حتى الآن مبلبلاً.

ـ طبعاً لأن الأمر كان يستحق الاهتمام. ولقد تركتكم مساء أمس في أدق المواقف، من منكم انتصر أخيراً؟

ـ شخصي الضعيف بالطبع. لقد ركبوا جميعهم آراءهم السخيفة وراحوا يركضون بها مسرعين.

فقال رازوميخين موجهاً حديثه إلى راسكولنيكوف:

ـ تصور يا روديا إنهم بدأوا النقاش حول هذه النقطة: «هل ثمة هناك جرائم أم لا»؟. لقد كانت فظيعة جداً تلك السخافات التي صدرت عنهم في ذلك النقاش.

فقال راسكولنيكوف بصوت حالم:

ـ إنها مع ذلك مسألة اجتماعية من أكثر المسائل شيوعاً.

فاعترض بورفير قائلاً:

ـ إن المسألة لم تكن محدودة على هذه الصورة.

فأبدى رازوميخين موافقته وقد استسلم للتحمس على عادته وقال:

ـ لم تكن تماماً كما قلت، صحيح، انتبه يا روديا... اسمع واعطني رأيك إنني ألح على سماع رأيك، وقد كنت أغلي في جلدي البارحة بانتظار حضورك، وقد أخطرتهم بأنك ستحضر، إن وجهة نظرهم معروفة وهي: الجريمة هي استنكار ضد التنظيم الاجتماعي السيّئ. هذا فقط ولا عذر آخر يقبلونه.

فصاح بورفير بيتروفيتش:

ـ لقد كذبت!

وكان بادي التيقظ لا يني يضحك وهو يرقب رازوميخين الأمر الذي زاد في إثارة هذا الأخير.

فقاطعه رازوميخين وهو يتقد كشعلة نار:

ـ أي عذر آخر غير مقبول!... أنا لا أكذب! لسوف أضع أمام عينك كل كتبهم إنهم لا يعترفون إلا على أن كل شيء يصدر عن «الوجود الفاسد الوسط» ولا شيء غير هذا... تلك هي جملتهم المفضلة ومن ذلك يستنتجون أنه إذا عُمد إلى إعادة المجتمع فإن الجرائم ستختفي! خطوة واحدة فقط... لأنه ليس ينبغي عندئذٍ ما يحتج الإنسان عليه ولسوف يجد الجميع أنفسهم عادلين بمثل لمح البصر! أما الطبيعة فليس لها حساب! إن الطبيعة نفسها قد ألقي بها إلى الباب! لأنهم لا يتقبلونها! إنهم لا يعتقدون أن هذه الأشياء مردها إلى الإنسانية التي تتطور حسب الامتداد التاريخي

«بشكل عنيف حي» بحيث سيمكنها أخيراً من تشكيل مجتمع خاضع للقانون مجتمع طبيعي! بل إنهم يؤمنون بالعكس... يؤمنون بلون أو نظام اجتماعي ينبعث من دماغ رياضي. يستطيع بلهجة واحدة أن ينظم الجنس البشري كله وأن يجعله عادلاً وغير قابل للخطأ وأنه أفضل من أي نظرية تطور حيوي وأفضل من كل النظريات التاريخية والحية. ومن أجل هذا تراهم بغريزتهم يكرهون التاريخ لأنه: «ليس فيه إلا تشويهات وحماقات» على حد قولهم! ولهذا السبب أيضاً يكرهون أعظم الكراهية التطور «الحيوي» للحياة: غذاء الروح «الحية»! إن الروح الحية لها متطلباتها، إن الروح الحية لا تخضع بشكل آلي، إن الروح الحية متشكلة بطبعها، إن الروح الحية مبدعة فإذا ماتت فإنه لا يمكن أن نصنع واحدة من المطاط «كاتشوك» وهي بالطبع لن تكون حية لتكون وديعة تخدم ولا تتمرد! كل هذا لكي نصل إلى حيث قادونا لنؤمن بعدد من القرميد مقسم إلى مماشي وغرف يطلقون عليها اسم «الغالانستري»[1] إن هذا المأوى جاهز عندهم ولم يبق إلا الطبيعة التي لا تتفق وإياه. فهي تريد الحياة: إنها لم تنته بعد من سنة التطور الحيوي وترى أنه لم يحن الوقت بعد لتدفن! إن من المستحيل أن يقوم المرء. بقفزة فوق الطبيعة مستعيناً بالمنطق فقط، إن المنطق يكشف عن ثلاث نقاط بينما هناك الملايين! فلنحذف إذن تلك الملايين من النقاط لنقتصر على مسألة الرفاه وحدها... إنها أسهل الطرق لحل المعضلة! إنه أمر عظيم. الوضوح حتى ليغري المرء بالاستسلام إليه!: لن تكون هناك حاجة إلى التفكير، طبعاً إن الأمر الرئيسي هو أنه لم تعد هناك حاجة إلى التفكير! كل أسرار الطبيعة يمكن أن تحصر وتحشر في ورقتين مطبوعتين!

---

(1) مسكن الوحدة الاشتراكية.

فقال بورفير ضاحكاً:

ـ هاها!... ها هو ذا قد انحل عقاله! بالانفجار! اقبضوا على ذراعه!... تصور يا راسكولنيكوف أنه كان على هذه الحال أمس وكان هذا الانفجار يقع في غرفة وحيدة تدوي فيها خمسة أو ستة أصوات معاً وإلا وهي، إنه كان قبل ذلك قد اغرقنا في الشراب فتصور الموقف الآن! كلا يا صديقي... إنك على خطأ. إن «الوسط» على جانب عظيم في الجرائم: إنني أؤكد لك ذلك!

ـ وأنا أعرف أيضاً أنه ذو تأثير كبير لكن قل لي بربك: ذلك الرجل الذي في الأربعين من عمره والذي ينتهك عرض فتاة في العاشرة من عمرها. هل هو الوسط الذي جعله يميل إلى ذلك؟

فأجاب بورفير بلهجة جدية مدهشة:

ـ بالمعنى الصحيح للكلمة، يجوز أن نقول إنه الوسط. إن انتهاك عرض فتاة يمكن أن يفسر بوضوح تحت تأثير «الوسط».

كاد رازوميخين أن يثور من الغضب فقال مزمجراً:

ـ حسناً... إذا شئت «سأثبت» لك فوراً أنه إذا كانت أهدابك بيضاء فإن ذلك سببه أن برج جرس «سان جان كليماك» يرتفع إلى علو مائتين وثلاثين قدماً. ولسوف أثبت لك ذلك بوضوح ودقة والتدريج بل وبشكل متحرر من المذاهب الدينية. لسوف أستطيع فهل تقبل الرهان؟

ـ أقبل. إنني في شوق إلى معرفة الوسيلة التي ستستخدمهما لتصل إلى ذلك الاستنتاج.

فصرخ رازوميخين:

ـ هيا... إنك لا تحسن إلا التلاعب بالألفاظ يا للشيطان! ثم قفز من مكانه وقام بحركة فيها معنى التحدي وقال:

ـ هل يستأهل التحدث معك كل هذا العناء؟ إنه يلجأ إلى هذا بناء على خطة مرسومة! إنك لا تعرفه بعد يا روديا. لقد كان البارحة يؤيدهم لا لشيء إلا ليزيد في هياجهم وجنونهم. والله يعلم ما هي النقاط التي استخلصها البارحة. أما هم فقد كانوا يهتزون طرباً لسماعه... إنه قادر على السخرية خمسة عشر يوماً متتالية! لقد أوهمنا في العام الماضي بأن في نيته ـ لسبب ما ـ أن يدخل في سلك الكهنوت ولقد استمر شهرين يسخر منا على هذا الشكل. وحديثاً خطر بباله أن يوهمنا بأنه سيتزوج وأن كل شيء قد أعد للحفلة. حتى أنه أوصى على ثوب جديد. ولقد رحنا نهنئه ولم يكن ينقصه إلا... الزوجة الموعودة. كان كل شيء سراباً.

ـ إن هذا غير صحيح! لقد أوصيت على الثوب أولاً. ولقد خطر لي أن أسخر منكم قليلاً عندئذٍ والفكرة نبتت في رأسي من الثوب الجديد.

فسأل راسكولنيكوف بإهمال:

ـ هل حقيقة أنك محب للسخرية إلى هذا الحد؟

ـ هل كنت تعتقد أنني لم أكن ساخراً... حسناً انتظر لسوف أصطادك أنت الآخر. هاهاها...! كلا... لسوف أقول لك الحقيقة وعلى فكرة كل هذه المسائل: الجريمة والوسط والفتيات الصغيرات، لقد تذكرت في هذه اللحظة مقالاً كتبته أنت بعنوان «جريمة» أو أي عنوان آخر مماثل، لا أذكره! إن هذا المقال أثار اهتمامي ولقد كنت مجدوداً إذ قرأته منذ شهرين في جريدة «البارول بيريوديك» (الكلمة الدورية):

ـ مقالي؟ في هذه الجريدة؟ آه صحيح لقد كتبت مقالاً منذ ستة

أشهر عندما خرجت من الجامعة لكنني أرسلته إلى «البارول هيبدومادير»... (الكلمة الأسبوعية).

ـ حسناً ولكنه آل إلى جريدة (الكلمة الدورية):

ـ لكنهم لم ينشروها في ذلك الحين لأن تلك الجريدة قد توقفت عن الصدور...

ـ صحيح لقد توقفت عن الصدور ولكنها انضمت إلى الجريدة الأخرى ولهذا السبب ظهر مقالك منذ شهرين في الجريدة الأخيرة. ألم تكن تدري بذلك؟

كان راسكولنيكوف يجهل هذا التفصيل فاسترسل بورفير بيتروفيتش:

ـ إنك تستطيع استغلال مقالك مادياً... يا للعقلية الغريبة التي عندك! إنك تعيش في وحدة عجيبة حتى أنك لا تلاحظ الأشياء التي تهمك أهمية وثيقة... إن هذه ملاحظة دقيقة!

فهتف رازوميخين:

ـ مرحى يا روديا، وأنا أيضاً كنت أجهله... لسوف أهرع اليوم بالذات إلى مكتب القراءة لأطلب هذا المقال! لقد مضى على ظهوره شهران؟ أي تاريخ على الضبط؟ حسناً هذا لا يهم لسوف أبحث... تلك هي نكتة طيبة! ولا يعترف بها!

ـ ولكن كيف استطعت أن تعرف بأن المقال لي وأنا لم أوقع عليه إلا بالأحرف الأولى؟

ـ مجرد الصدفة! كان ذلك منذ أيام وقد عرفته بواسطة المدير الذي لي به بعض الصلة. لقد اجتذب مقالك كل اهتمامي.

ـ أذكر أنني كنت أحلل فيه الحالة النفسية لقاتل خلال كل مراحل جريمته.

ـ وكيف! لقد كنت تبرهن على أن ارتكاب الجريمة ترافقه دائماً حالة مرضية! إنها وجهة نظر مبتكرة، جديدة تماماً! لكن ليست هذه الناحية من المقال هي التي استلفتت انتباهي... هنالك فكرة ما أوردتها في نهاية المقال ولسوء لحظ أنك لم تعن بإيضاحها عناية جيدة بل اقتصرت على التلميح إليها تلميحاً غامضاً. والخلاصة ـ إذا كنت تذكر ـ فإنه بحسب فكرتك تلك فإنه سيكون هناك بعض الأشخاص الذين يستطيعون أعني لا يستطيعون فحسب بل إن لهم كل الحق في أن يرتكبوا أي لون من الأعمال المخلة ومن الجرائم وأن القانون بالنسبة إليهم لا وجود له!

ابتسم راسكولنيكوف لذلك التفسير الاختياري الغادر لفكرته بينما هتف رازوميخين بشيء من الخوف:

ـ كيف؟ ماذا؟ الحق في ارتكاب الجريمة؟ لعلك تقول إن ذلك أيضاً نتيجة «لتأثير الوسط»؟

فقال بورفير بيتروفيتش:

ـ كلا كلا... إنه ليس هذا تماماً. المسألة هي أنه في مقاله قسم الناس إلى نوعين: مخلوق «عادي» ومخلوق «غير عادي» وفرض على «أولئك» أن يعيشوا مطيعين دون أن يعطيهم الحق في تجاوز القانون وخرقه لأنهم كما ترى مخلوقات عاديون أما الآخرون فإن لهم الحق في ارتكاب كل الجرائم وخرق كل قانون لمجرد كونهم مخلوقات غير عاديين! أليست هذه فكرتك أم تراني مخطئاً؟

فغمغم رازوميخين:

ـ كيف ذلك؟ لا يعقل أن تكون كذلك!

بينما عاد راسكولنيكوف من جديد إلى ضحكته الساخرة. فهم

للوهلة الأولى الهدف الذي يقصده بورفير وعرف ما يريد أن ينتزع منه! كان يذكر مقاله لذلك فقد قبل التحدي. فشرع يقول ببساطة واعتدال:

ـ ليس الأمر كذلك تماماً. غير أنني اعترف على كل حال بأنك فسرت فكرتي «بأمانة» تقريباً بل لنقل إنك فسرتها بأمانة تامة! (لقد كان يسره الاعتراف بأن تلك الفكرة قد فسرت بأمانة). إنما الفرق كل الفرق هو في أنني لا ألح أبداً على أن يكون الأشخاص غير العاديين مدعوين إلى ارتكاب كل الأعمال المخلة وفي كل مناسبة كما فسرت الأمر. لو كان ذلك صحيحاً لحذفت المراقبة المقال ولمنعته! لقد برهنت أو أبرزت ببساطة أن الرجل غير العادي ولنقل المتفوق له الحق ـ ولا أقصد الحق الرسمي ـ بل إنه له الحق شخصياً أن يسمح لوجدانه بتخطي... بعض العقبات وبصورة خاصة في الحالات التي يقتضيها تنفيذ فكرته التي يتوقف عليها إنقاذ الجنس البشري كله.

إنك تزعم أن مقالي كان ينقصه الوضوح وأنا على استعداد لتفسيره لك في حدود الممكن! إنني لا أخطئ إذا افترضت أن تلك هي رغبتك كما يبدو! حسناً... إنني رهن أوامرك:

«إنني أرى أن اكتشافات كيبلر[1] ونيوتن مثلاً إذا قدر لها السبب من الأسباب أن لا تتم إلا بتضحية حياة رجل أو عشرة رجال أو أكثر من المائة رجل الذين أرادوا مثلاً أن يحولوا دون ظهورها أو أن يعترضوا سبيلها، فإن لينوتن عندئذٍ الحق بل إن من واجبه أن «يزيح» هؤلاء العشرة أو المائة من الرجال لينهي اكتشافاته إلى البشرية! غير أن ذلك لا يعني بالمقابل أن

(1) فلكي ألماني ولد عام 1571 وتوفي عام 1630، أخرج عدة مؤلفات هامة أهمها «قوانين كيبلر» التي استطاع نيوتن بفضلها استنباط نظرية الجاذبية. ـ المترجم ـ.

لينوتن ـ بموجب هذا ـ الحق في أن يفتك بكل من يريد أو أن يسرق كل يوم في الأسواق!

ثم إنني أذكر أنني شرحت هذه الفكرة في مقالي بما يلي:

إن كل ـ ولنسمهم ـ المنشئين، البناة، المشرعين لخير الإنسانية، ابتداءً من أقدم القدماء منهم من: ليكرك[1] Lyeurgue وسولون[2] Solon ونابوليون إلخ... كلهم كانوا قتلة رغم أنهم بدون ذلك ما كانوا ليستطيعوا إبداع قانون جديد. فقد عمدوا جميعهم إلى فسخ القوانين القديمة التي كانت مقدسة من قبل المجتمع وموروثة عن الأقدمين. واضطروا لبلوغ غاياتهم أن يهدروا الدم فلم يتراجعوا عندما أصبح ذلك الدم ـ رغم أنه كان دماً بريئاً أحياناً يسفح فداءً للعقيدة السابقة ـ يسهل مهمتهم. وينبغي كذلك أن نلاحظ أن معظم هؤلاء المحسنين وبنات الإنسانية كانوا وحوشاً دمويين بصورة خاصة. ومن هنا نستنتج أنهم جميعاً ـ ولا أقول الكبار منهم ـ كانوا مستعدين بطبيعتهم لأن يكونوا قتلة على شكل ما لمجرد أنهم كانوا أعلى من الوسط أي لمجرد أن أتوا بشيء جديد! كان عسيراً عليهم أن يرتفعوا عن الوسط بغير هذا الأسلوب ولم يكونوا ليرتضوا البقاء فيه وذلك نظراً لاستعدادهم الطبيعي. وإني أرى أنه كان من واجبهم أن لا يبقوا في الوسط. والخلاصة إنك ترى أنه لا يوجد شيء جديد جداً حتى الآن في كل هذا!

أما فيما يتعلق بتقسيمهم إلى أشخاص عاديين وغير عاديين فإنني

---

(1) ليكرك: شخص اعتبر مشرع سبارتا، طاف في بلاد كثيرة وعاد بتجاربه وملاحظاته فوضع قوانين وطنه. عاش ـ بحسب الأسطورة ـ في القرن التاسع قبل الميلاد. ـ المترجم ـ.

(2) مشرع أثينا وواحد من حكماء اليونان السبعة 640 ـ 558 قبل الميلاد. كان ذا فضل عميم على مواطنيه من الناحية التحريرية. ـ المترجم ـ.

أوافقك على أنها فكرة غير مدروسة تماماً لكنني لم أذكر أرقاماً دقيقة. وأنا لا أؤمن إلا بوجهة نظري الرئيسية. وهي تقوم على أساس أن المخلوقات بحسب قوانين الطبيعة ينقسمون «بصورة عامة» إلى قسمين: القسم الأول وهم المرؤوسون، أولئك الذين لا يصلحون إلا ليكونوا «مادة» تصلح فقط للتزاوج وإكثار النسل، أما القسم الثاني، فهم الموهوبون الذين أعطوا ميزة النطق في وسطهم «بكلمة من جريدة». هناك ولا شك تقسيمات ثانوية عديدة جداً ولكن الخطوط الإيضاحية لهذين القسمين حاسمة تماماً. القسم الأول أي قسم «المادة» تضم في عدادها أولئك المحافظين بالفطرة، المطيعين الخاضعين الذين يسرهم أن يحيوا في الطاعة، فهم ـ على ما أرى ـ مدعوون إلى الطاعة لأن ذلك هو مصيرهم الذي لا يجدون أية غضاضة فيه. أما القسم الثاني، المنشئون، فإنهم جميعاً يخرقون القانون، كلهم مدمرون أو أن لديهم استعداداً ليكونوا كذلك، بحسب ميزاتهم واستعداداتهم. فجرائم هؤلاء الرجال هي ولا شك تابعة لآرائهم وأهدافهم متعددة الأشكال، غير أن معظمهم يتطلبون بواسطة وسائل متفرقة متعددة، تهديم الحاضر باسم شيء أفضل. فإذا اقتضى الأمر واحداً منهم أن يمر فوق جثة أو نهر من الدماء فإنه ـ بحسب وجهة نظري ـ أن يقرر بكل راحة ضمير المرور فوق ذلك النهر من الدماء في سبيل فكرته وبموجبها فقط ـ ولاحظ هذا الشرط ـ

لقد قلت في مقالي: إن الرجال لهم الحق في أن يقتلوا على هذا الأساس وفي هذا الاتجاه. إنك تذكر بأننا بدأنا بحثنا من نقطة قضائية (شرعية). ثم إنه ليس هناك من الأسباب ما يدعو إلى كثير من الاستفسار! لأن سواد الشعب ـ غالباً ـ لا يعترف لهؤلاء بهذا الحق بل إنه يعذبهم ويقتلهم ـ على شكل من الأشكال ـ وهو في هذا يعمل استناداً إلى حقه

لأن السواد الأعظم من الشعب ولنقل «المجموعة» تنجز بهذا العمل مهمتها كمجموعة محافظة رغم أن تلك المجموعة بالذات ترفع عادة في الأجيال المقبلة التماثيل لأولئك الذين عذبتهم وقتلتهم، وتحرق البخور أمام تماثيلهم باكية (على شكل من الأشكال أيضاً). رغم هذا كله فإن القسم الأول هو القسم السيد، سيد الحاضر دائماً، وأما القسم الثاني فإنه سيد المستقبل! فأولئك يحافظون على زيادة الكمية العددية في العالم وهؤلاء يحركون العالم ويوجهونه نحو الهدف. ولهؤلاء كل الحق في الحياة. وبكلمة موجزة فإن لكل في نظرياتي حقاً متساوياً وستبقى الحرب سجالاً أبداً، حتى إيجاد أورشليم جديدة! فهل تجد كلامي واضحاً؟

ـ هكذا إذن تؤمن بأورشليم جديدة!

فأجاب راسكولنيكوف بصوت حازم:

ـ إنني أؤمن...

كان راسكولنيكوف خلال الوقت الذي استغرقه شرح نظريته مطرقاً بعينيه إلى الأرض شاخصاً ببصره إلى نقطة ما على السجادة.

ـ و... هل تؤمن بالله؟ اعذرني إذا سألتك هذا السؤال المتطفل...

فكرر راسكولنيكوف قوله وهو يرفع عينيه إلى بورفير:

ـ أؤمن!

ـ وهل تؤمن بقيام إليعازار؟

ـ أنا... إنني أؤمن! لِمَ تطرح علي هذه الأسئلة!

ـ هل تؤمن بذلك حرفياً؟

ـ حرفياً...

ـ اسمح لي أن أعود إذن مجدداً إلى ما كنت تقوله... إنه لمجرد

الفضول. ألا تجد أن هناك بعضاً من السادة لا يرسلون دائماً إلى الموت والعذاب بل على العكس...

ـ تقصد أنهم يشهدون نتيجة أعمالهم في حياتهم؟ آه نعم! إن بعضهم يبلغ هذا الظفر في حياته! لكن في هذه الحالة...

ـ إنهم هم أنفسهم الذين يرسلون الآخرين إلى الموت؟

ـ عندما يقتضي الأمر ذلك فإن غالبيتهم تنهج على هذا الشكل. إن ملاحظتك لا تخلو من الدقة!

ـ أشكرك. لكن قل لي كيف يمكن التمييز بين الرجل العادي والرجل غير العادي؟ هل يلدون وفي أجسادهم علامات مميزة؟ أريد أن أقول: إنه ينبغي هنا بعض التحديد أو على الأقل علامات خارجية مميزة! أرجو أن تعذر هذا الاهتمام الطبيعي في الموضوع لدى رجل عملي حسن القصد. لكن أردت أن أقول: هل ينبغي هنا أن يُلبس مثلاً لون خاص من الثياب أو أن يُحمل طابع خاص مميز؟ لأنه ـ وأعتقد أنك توافقني ـ إذا بقي الأمر مختلطاً فإن أي رجل عادي من هذه الفصيلة سوف يعتقد أنه يمت إلى الفصيلة المفضلة وعندئذٍ لسوف يعمل «حذفاً» و«إزاحة» في العوائق كما شرحت بجلاء وصفاء منذ قليل. وعندئذٍ...

ـ صحيح! إن هذا يحدث غالباً! إن هذه الملاحظة أكثر دقة من الأولى.

ـ أشكرك.

ـ العفو! لكن أرجو أن تلاحظ بأن الخطأ لا يمكن وقوعه في هذه الحالة إلا من فصيلة الرجال العاديين كما أسميتهم إذ إنهم على الرغم من انحرافهم النظري نحو الطاعة فإن عدداً منهم ـ بفعل ميل طبيعي لا تخلو منه حتى البقرة ـ قد يميل إلى اعتبار نفسه من الرجال المتقدمين

«الهدامين» ويستمرون في البحث عن «الكلمة الجديدة» الأمر الذي يؤدونه بإخلاص عميق وإنه ليحدث بينهم غالباً أن لا يلاحظوا أولئك الذين يمكن تسميتهم «بالمبدعين» فيحتقرونهم وكأنهم أشخاص متأخرون ذوو تفكير منحط. لكنني أرى أنه لن يكون في ذلك خطر شديد فلا تبتئس لأنهم غالباً لا يقطعون شوطاً بعيداً! صحيح أنه يجوز في بعض الحالات أن يتعرضوا للجلد بسبب اندفاعهم ليعادوا إلى أمكنتهم، ولكن ليس أكثر من هذا خصوصاً وأنهم ليسوا في حاجة إلى من يتكفل بجلدهم. فهم على استعداد» لإعطاء أنفسهم السوط لأنهم أشخاص شديدو التمسك بالأخلاق والمثل حتى أن بعضهم يؤدي تلك «الخدمة» إلى البعض الآخر هذا إذا لم يقم بها بنفسه. ثم إنهم يحتملون عدا عن هذا عقوبات علنية عديدة تجعلهم متحفظين حذرين والخلاصة لا أجد سبباً لقلقك... ذلك هو القانون.

ـ حسناً. لقد طمأنتني من هذه الناحية على الأقل ولكن هناك بلاءً آخر قل لي أرجوك. أهم عديدون أولئك الذين يحق لهم ذبح الآخرين أقصد أولئك «غير العاديين» إنني بالطبع على استعداد للانحناء أمامهم لكنك لا تستطيع إلا أن توافقني بأن كثرتهم تحدث رعباً في النفس وبرودة في الظهر.

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة مماثلة:

ـ لا تكتب من أجل هذا أيضاً إذ إنه على العموم لا توجد كثرة من الرجال الذين لديهم «فكرة جديدة» أو الذين يستطيعون النطق بشيء «جديد» إنهم قلة بشكل غريب. إنما هناك شيء واحد واضح ذلك هو أن نظام ولادة الأشخاص في كل هذه الفصائل والأقسام ينبغي أن يكون موضحاً بشكل دقيق لا يقبل الخطأ بواسطة قانون طبيعي وهذا القانون ـ كما لا شك يعتقد ـ هو في الوقت الحاضر مجهول. لكنني أؤمن بوجوده وبأنه

سيصبح معروفاً في المستقبل! إن على هذه الأرض كتلة هائلة من الناس لم تخلق إلا لتنجب للعالم رجلاً واحداً يملك شيئاً قليلاً من الاستقلال. وهي ـ هذه الكتلة ـ تجد نفسها في سبيل ذلك بحسب نظام تطوري غامض حتى الآن وبواسطة اشتباك معين في الأصول والأنواع. أما أولئك الرجال الذين هم على درجة عالية من الاستقلال فإنهم لا يخلقون إلا بمعدل واحد إلى عشرة آلاف والنسبة هنا فرضية، أما الأرفع مكانة من هؤلاء فواحد إلى مائة ألف. والعباقرة موزعون بين ملايين من الرجال العاديين أما أولئك العباقرة العظام الذين هم تاج الجنس الإنساني فإنهم واحد إلى ألف مليون بل ولعل العالم ينتهي قبل أن يولد واحد من هذا النوع. والخلاصة إنني لم أنظر في تلك البوتقة التي يصنع فيها كل هؤلاء. لكن هناك ولا شك من هم على هذا الغرار. وينبغي أن يكون هناك قانون محدود وعندئذٍ لن يكون للصدفة وجود.

هتف رازوميخين:

ـ رباه! لا شك أنكما تمزحان! هل أنتما في سبيل الهزء على بعضكما؟ هل تتحدث جدياً يا روديا؟...

ران السكوت ورفع راسكولنيكوف إلى صديقه وجهاً شاحباً حزيناً ولم يجب وإلى جانب ذلك الوجه الهادئ المتألم بدا لرازوميخين أن لهجة بورفير كانت تحمل تحدياً صريحاً واستثارة غريبة و«قلة أدب».

وعاد رازوميخين يقول:

ـ حسناً يا عزيزي. إذا كان كل هذا جدياً فإنك على حق ولا شك إذ تقول أن ليس في هذا شيء جديد وأنه يشبه ما قرأناه وسمعنا ألف مرة بيد أن الجديد كل الجدة في هذا الموضوع والذي لا يمكن أن يكون

لسواك والذي أنظر إليه برهبة هو تقريرك بأنه من الحق إهراق الدم بكل «راحة ضمير». الأمر الذي تقرره ـ واسمح لي أن أقول ـ بكل تعصب إن في ذلك على ما أعتقد الفكرة الرئيسية لمقالك: ذلك السماح بسفك الدمك «بكل راحة ضمير»... يبدو لي أكثر فظاعة مما لو كان سماحاً رسمياً قانونياً.

فأجاب بورفير:

ـ صحيح تماماً. إنه أشد فظاعة.

وصرخ رازوميخين منفعلاً هائجاً:

ـ كلا لقد شططت كثيراً سوف أقرأ... لقد شططت كثيراً لا يمكنك أن تفكر في هذا... لسوف أقرأ المقال...!

فأجاب راسكولنيكوف مهدئاً صديقه:

ـ لا يوجد شيء في المقال من هذا كله. إن ما فيه ليس إلا مجرد تورية.

فقال بورفير على الفور:

ـ نعم نعم. أستطيع الآن تقريباً. أن أرى بوضوح الطريقة التي تتصور بها جريمة... أرجو أن تعذر إلحاحي فإنني أرهقك كثيراً وإنني لجد آسف... لكن أرى أنك منذ قليل طمأنتني كثيراً فيما يتعلق بالاختلاط الذي يمكن أن يقع بين الفئتين لكن هناك مع ذلك بعض الحالات التي تقلقني خشية أن تخرج هي الأخرى إلى الخير العملي. لنفرض مثلاً أن رجلاً أو شاباً تصور أنه ليكرك ـ مستقبلاً بالطبع ـ وأنه راح فوراً يزيل العقبات التي تعترض سبيل القيام بمهمته فيحدث نفسه بقوله: «يجب علي أن أنجز مهمة شاقة طويلة وعليه يجب أن تزود هذه المهمة بالمال» وعندئذٍ يأخذ في تدارك ذلك المال وأنت ولا شك تتصور الآن بأي شكل. فماذا تقول في ذلك؟

لم يكد بورفير يبلغ هذه النقطة من حديثه حتى صدرت عن زاميوتوف وهو في زاويته حركة تلفت النظر غير أن راسكولنيكوف لم يُعنَ حتى بالالتفات إليه بل أجاب بلهجة هادئة:

ـ ينبغي أن أعترف بأن حالات كهذه قابلة الوقوع. إن السخفاء والمغرورين هم غالباً يبتلعون هذا الطعم وبصورة خاصة الفتيان الشباب.

ـ أرى أنك قد فهمت الأمر. وعندئذٍ؟

فتضاحك راسكولنيكوف وقال:

ـ وعندئذٍ؟ إنها ليست خطيئتي. إن ذلك واقع وسيقع دائماً.

ثم أشار إلى رازوميخين وقال:

ـ انظر إلى هذا لقد قال لي منذ قليل بأنني سمحت بإراقة الدم ولكن هل المجتمع غير محمي بالنفي والسجون و«الليمانات» وقضاة التحقيق حماية كافية؟ لِمَ الاكتئاب إذاً؟ «سيروا في أثر السارق»...

ـ وإذا قبضنا عليه؟

ـ يكون قد استحقها عندئذٍ.

ـ إنك منطقي على الأقل. ولكن ماذا بصدد وجدانه؟

ـ وماذا يهمك من هذا؟

ـ إنه سؤال أملاه شعور إنساني.

ـ على ذلك الذي يمتلك وجداناً أن يتعذب إذا كان يعترف بخطئه. إنه عقاب إضافة إلى عقاب الأشغال الشاقة.

فسأل رازوميخين وهو يقطب حاجبيه:

ـ لكن... الرجال العباقرة. أولئك الذين أعطي لهم حق القتل لا ينبغي لهم أن يتألموا مطلقاً حتى ولو أراقوا الدم. أليس كذلك؟

ـ لِمَ هذه الكلمة «لا ينبغي لهم»؟ ليس هناك سماح ولا منع. ليتألم ذلك الذي يشفق على ضحيته! إن الألم إجباري بالنسبة لضمير كبير وقلب عميق. إن على الرجال العظام ـ على ما يبدو ـ أن يتألموا على الأرض ألماً شديداً.

نطق راسكولنيكوف بهذه العبارات الأخيرة وهو ساهم وبلهجة فريدة لم تصدرر منه منذ بدء الحديث. ورفع عينيه ونظر إلى محدثيه وعلى وجهه مسحة من الاستغراق ثم أخذ قبعته في يده. كان هادئاً جداً بالنسبة للطريقة التي دخل بها أول مرة منذ قليل وكان يشعر بذلك شخصياً فنهض الحاضرون جميعاً وقال بورفير بيتروفيتش بلهجة من يختتم حديثاً:

ـ سواء شتمتني أم لم تشتمني وسواء غضبت أو لم تغضب فإن ذلك كان أقوى من أن أستطيع كبته. وإنني ـ إذا سمحت ـ لا زلت أحتفظ بسؤال صغير رغم أنني أضايقك: أحب أن أعرض فكرة صغيرة خشية أن أنساها.

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة خطيرة وهو شاحب الوجه:

ـ حسناً، قل فكرتك الصغيرة... ووقف أمام قاضي التحقيق وقفة المنتظر.

ـ حسناً... الحقيقة أنني لست أدري كيف أعبر عن رأيي بالشكل الأفضل... إنها فكرة قريبة من المجون... فكرة «بسيكولوجية»... أردت أن أقول: عندما كنت تدبج مقالك، ألم يحدث مثلاً أن اعتبرت نفسك رجلاً غير طبيعي تحمل «كلمة جديدة» في المعنى الذي تفهمه؟ ألم يحدث ذلك ولو لفترة وجيزة؟

فأجاب راسكولنيكوف باحتقار:

ـ محتمل جداً.

ولم يتمالك رازوميخين نفسه آنئذٍ من إظهار انفعاله بالحركة بينما أضاف بورفير بيتروفيتش:

ـ لئن كان كذلك. ألا يمكن أن تكون ـ بسبب إصلاح بعض العثرات الشخصية أو التخلص من الارتباك أو مثلاً لزيادة سرعة سير الإنسانية إلى الأمام ـ أردت أن أقول: ألم يحدث لك لهذه الأسباب أن تكون قد قررت تخطي العقبة؟ مثلاً القتل والسرقة؟

وفجأة غمز بعينه اليسرى وضحك ضحكة مكتومة كما وقع منه منذ قليل تماماً. فأجاب راسكولنيكوف بلهجة احتقار متعالية وبتحدٍّ:

ـ لو أنني اجتزت العائق لما كنت أحدثك عن اجتيازي له بالطبع.

ـ طبعاً كلا! إن شيئاً واحداً يثير اهتمامي في كل هذا وهو طريقة تفسير مقالك من وجهة نظر أوروبية بحتة.

راح راسكولنيكوف يخاطب نفسه بقوله: «بوه! إن الغاية واضحة تماماً» ثم أجاب بصوت مرتفع قائلاً:

ـ اسمح لي أن ألفت نظرك إلى أنني لا أعتقد في نفسي أنني نابوليون حتى ولا أي شخص من هذا الطراز وعلى ذلك وبما أنني لست واحداً منهم فإنني لا أستطيع إعطاءك جواباً مقنعاً عن الطريقة التي أسلكها.

فأجابه بورفير بلهجة أليفة جداً:

ـ هيا واسمح لي! مَن منا في روسيا الآن لا يعتقد نفسه نابوليوناً؟

كان في تلك الجملة شيء خاص واضح يمكن إدراكه من اللهجة التي قيلت بها خصوصاً حينما قال زاميوتوف دون أن يبارح زاويته:

ـ أوليس نابوليوناً «مستقبلاً» ذلك الذي ذبح في الأسبوع الماضي أليونا إيفانوفنا؟

صمت راسكولنيكوف وحدق في وجه زاميوتوف بنظرة حازمة ثابتة بينما اشتد انفعال رازوميخين... لقد بدأ هذا يلاحظ منذ لحظة قصيرة أن في الجو شيئاً لذلك فقد أخذ يجيل فيمن حوله نظرة غاضبة وقد خامره الشك فيما ينتوون ومضت دقيقة من سكون مخيف استدار راسكولنيكوف بعدها يحاول الخروج.

هتف بورفير بوداعة وهو يمد يده بتودد عظيم:

ـ أتذهب إذن! لقد كنت سعيداً جداً جداً بالتعرف إليك. أما فيما يتعلق بطلب الاسترداد فلا تشكن في أنه لن يكون ذا نتيجة مرضية. فقط اكتب في المعنى الذي بينه لك أو من الأفضل أن تأتي لزيارتي بنفسك يوماً ما ولنقل غداً مثلاً وسأكون هنا في الساعة الحادية عشرة ولا شك أننا سنرتب كل هذا وسنتحدث... وباعتبارك واحداً من الذين كانوا آخر من ذهبوا إلى «هناك» فلعلك إذاً تستطيع أن تحدثنا بشيء...

كان بورفير يتحدث ببراءة الطفل. لكن الغاية لم تفت على راسكولنيكوف فقال بجفاء:

ـ إنك تريد استجوابي رسمياً متخذاً كل الإجراءات المرعية؟

ـ لِمَ بالله؟ أنا لا أرى داعياً لذلك في الوقت الحاضر. إنك لم تحسن فهمي ألا فاعلم أنني لا أترك فرصة تسنح لي تفلت مني. وإني تحدثت

حتى الآن مع جميع الذين أودعوا أشياء قيد الرهن ولقد استطعت اقتطاف بعض الدلالات من أقوال بعضهم وعلى ذلك فإنك الأخير. وعلى فكرة لقد تذكرت. يا للرأس التي أحملها!

وانفجر ضاحكاً بسرور عميق واستدار نحو رازوميخين وأضاف:

ـ إنك تذكر ذلك الـ«نيكولاشكا» الذي صدعت أذني بشأنه. حسناً إنني أعرف شخصياً بل إنني متأكد (وهنا استدار إلى راسكولنيكوف) أن هذا الفتى بريء لكن ما العمل؟ لقد اضطررنا إلى إزعاج ميتكا أيضاً والآن هذا ما كنت أود أن أقوله: «عندما صعدت السلم آنذاك... اسمح لي... ألم يكن ذلك حوالي الساعة الثامنة؟

ـ حوالي الساعة الثامنة!...

لكن راسكولنيكوف شعر فجأة باستياء من نفسه لأنه كان يستطيع أن لا يجيب بتلك الإجابة.

ـ إذاً عندما كنت تصعد السلم حوالي الساعة الثامنة، ألم تر في الطبقة الثانية وفي مسكن مفتوح الباب، أتذكر؟ ألم تر عاملين أو على الأقل واحداً منهما؟ لقد كانا في ذلك الحين يطليان الجدار، فهل لاحظتهما؟ إن هذا عظيم الأهمية بالنسبة إليهما!

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة من يبحث في ذاكرته:

ـ عمال دهان؟

كان يستجمع كل وجوده ويتألم عظيم الألم وهو يحاول أن يكتشف مكان الفخ المنصوب في هذا السؤال. وفجأة افتضح الشرك فعرفه واسترسل يجيب:

ـ كلا! إنني لم أر أحداً كما أنني لم ألاحظ وجود مسكن مفتوح الباب لكنني شاهدت في الطبقة الرابعة موظفاً يخلي مسكنه. وكان مسكنه قبالة مسكن آليونا إيفانوفنا. نعم إنني أذكر ذلك بشكل واضح جداً. لأن بعض الجنود كانوا ينقلون الأثاث واضطروني إلى الالتصاق بالجدار كي يتاح لهم المرور. أما العمال الذين تتحدث عنهم فإنني لا أذكر وجودهم وأعتقد أنه لم يكن هناك مسكن مفتوح أبداً، كلا! لم يكن...

وهتف رازوميخين كما لو أنه فهم الأمر فجأة:

ـ لكن ماذا دهاك؟ إن العمال كانوا يدهنون في يوم الجريمة بالذات. أما هو فقد كان هناك قبل ذلك! فما هو السؤال الذي تسأله؟

هتف بورفير وهو يضرب جبهته بيده:

ـ هيه! لقد اختلط علي الأمر... ليحملني الشيطان... إن هذه القضية تفقدني العقل.

ثم استدار نحو راسكولنيكوف وقال وكأنه يعتذر:

ـ إننا نهتم جداً بمعرفة ما إذا كان أحد قد شاهد ذينك العاملين حوالي الساعة الثامنة في ذلك المسكن. ولقد أجهدت نفسي في محادثتنا هذه حتى اختلط علي الأمر ولعلك تدرك ذلك.

فأجابه رازوميخين بلهجة ناقمة:

ـ كان ينبغي أن تكون أكثر انتباهاً.

نطق رازوميخين بهذه الكلمات بينما كان وصديقه وراء باب المسكن الخارجي ورافقهما بورفير بيتروفيتش إليه ببشاشة فائقة غير أنهما كانا عابسين منفعلين حتى استمرا يمشيان في الشارع بضع خطوات قبل أن ينبس أحدهما بكلمة وبعدئذٍ فقد تنفس راسكولنيكوف الصعداء...

الفصل السادس

كان رازوميخين قلقاً مشتت الفكر يحاول بكل قواه أن ينقض استنتاجات راسكولنيكوف فكان يقول ويقرر: «لا أظن ذلك، لا أظن ذلك» وكانا في تلك الأثناء قد بلغا منزل باكالييف المؤثث حيث كانت بولشيري ألكسندروفنا تنتظرهما منذ زمن طويل. وكان رازوميخين يتوقف في حمى النقاش بين لحظة وأخرى وهو فريسة اضطراب وانفعال كبيرين سببهما ذلك الحديث الصريح الذي سمعه منذ لحظات والذي لا يخلو من شك قريب من الاتهام. وكان راسكولنيكوف يجيبه بضحكة باردة حائرة:

ـ حسناً! لا تصدق! إنك حسب عادتك لا تلاحظ شيئاً أما أنا فإنني كنت أزن كل كلمة.

ـ ذلك لأنك كثير الشك ولهذا السبب كنت تزن الكلمات. هم! في الحقيقة ـ وأعترف لك ـ أن لهجة بورفير كانت غريبة وعلى الأخص ذلك الصعلوك «زاميوتوف» إنك على حق أما ما هو السبب فذلك ما لا أعلمه لكن لِمَ؟ لِمَ؟

ـ لعله غيّر رأيه أثناء الليل.

ـ لكن على العكس، على العكس،... إذ لو أن هذه العرجاء كانت تحوم في رؤوسهم لكانوا عملوا ما في وسعهم لإخفائها بكل الوسائل...

كانوا أخفوا لعبتهم بانتظار الوقوع على آثار أخرى ولكنهم الآن يمضون في طريقهم بصفاقة ودون أية حيطة!

ـ لو كانت لديهم وقائع، أقصد وقائع حقيقية أو على الأقل شكوك ترتكز على شيء من الصحة لعملوا ما في وسعهم على إخفاء لعبتهم مؤملين الاستزادة من الأدلة بل لعمدوا منذ أمد طويل إلى إجراء تفتيش. لكن ليس لديهم دليل واحد إن كل هذا خيالي بحت لا رأس له ولا ذنب ولا يستند على شيء ولذلك فإنهم يجهدون أنفسهم بالنيل مني بالصفاقة. ولعله هو نفسه ساخط لعدم وجود الأدلة لذلك لم يستطع كبت التحدي فأعلنه. ويجوز أيضاً أن تكون لديه بعض النوايا الخفية فهو رجل ذكي كما يبدو ولعله كذلك أراد أن يخيفني بتصنع المعرفة... إن ذلك عنده مسألة نفسانية يا عزيزي. وإنني لأجد أن التماس التفاسير أمر منافٍ لذلك فلندع الأمر حيث هو...

ـ ولكن ذلك مهين، مهين، إنني أفهمك... لكني سأعترف لك بوضوح طالما أننا نتحدث بصراحة ـ وإنني لسعيد إذ بلغنا هذه المرحلة ـ أعترف لك بأنني منذ زمن طويل لاحظت هذه الفكرة عندهم ولكنها كانت بالطبع لا تقوم على أية قائمة. لقد كانت في دور التلميح. أما وإنها قد رسخت في فكرهم ـ حتى ولو كانت على تلك الصورة البدائية ـ فإن ذلك أكثر مما يطاق! كيف يجرؤون على السماح لأنفسهم بالأخذ بمثل هذه الفكرة؟ وفي أي ركن مظلم كانت مختفية؟ ليتك تعلم درجة الغضب التي بلغتها بسبب ذلك!... هو ذا طالب فقير يثقله العوز والهوس على وشك الانهيار تحت وطأة مرض مؤلم بلغ حد الهذيان، أو لعله كان تحت وطأة المرض فعلاً ـ لاحظ هذا ـ وهو مع ذلك نفور من الناس مملوء بالكراهة ذو وجدان من هذا المستوى، عاش خلال ستة أشهر منعزلاً في حجر لا يرى أحداً، يتقدم

هذا الطالب إلى دائرة البوليس ـ بناء على دعوة ـ مرتدياً أسماله وفي قدميه حذاء سقط نعله وهناك يعرض لإهانات أمام أولئك الرجال القذرين ويحشر تحت أنفه فجأة طلب استعادة مبلغ من المال عليه أن يدفعه إلى المحامي القضائي تشيباروف. وتكون رائحة الدهان الخانقة متصاعدة في الععرفة التي تبلغ حرارتها ثلاثين درجة بميزان ريثيمور والهواء خانق بسبب احتشاد الجمع المزدحم هناك، فيسمعهم يتحدثون عن مصرع شخص كان البارحة عنده، أضف إلى ذلك الجوع الذي كان ينهش أحشاءه فكيف لا يغمى عليه بعد ذلك؟ مع ذلك تراهم يبنون نظريتهم على أساس ذلك الإغماء. ألا ليحملهم الشيطان. إنني أعرف أن هذا مزعج مثير لكنني لو كنت في مكانك يا روديا لانفجرت ضاحكاً رغم أنوفهم جميعاً بل ولعلمت خيراً من ذلك: كنت بصقت في أفواههم واستهزأت بهم لأنه يجب معاملتهم على هذا الشكل وبذلك أنتهي منهم، لنبصق عليهم ولنتشجع! إنه لمخجل.

غمغم راسكولنيكوف يناجي نفسه قائلاً: «إنه يحسن عرض القضية». ثم قال بصوت مرتفع تشوبه المرارة:

ـ البصاق عليهم؟ لكنني سوف أعرض غداً للاستجواب! فهل يجب أن أصل لدرجة تقديم تفاسير إليهم؟ إنني ناقم على نفسي لأنني أسففت البارحة إذ تحدثت إلى زاميوتوف في ذلك المشرب.

ـ ليحملهم الشيطان. سأذهب بنفسي إلى بورفير وثق أنني سأعامله تماماً كما أعامل قريباً. لسوف أجعله يفرغ ما في جعبته. أما زاميوتوف...

قال راسكولنيكوف يخاطب نفسه حينما بلغ صديقه هذه المرحلة: «وأخيراً فهم!» بينما استمر هذا مسترسلاً بانفعال وقد قبض على كتف راسكولنيكوف بيده:

ـ انتظر، انتظر. لقد نطقت بحماقة منذ قليل. نعم لقد فكرت. إنك نطقت بحماقة! أين تجد تلك الخطة الغادرة؟ لقد قلت: إن السؤال المختص بالعاملين كان خطة غادرة ففكر قليلاً وقل لنفسك: إنك لو كنت ارتكبت «هذا» بالفعل فهل كان يعقل أن تسمح لنفسك بالاسترسال لدرجة الاعتراف بمشاهدة أولئك الذين كانوا يشتغلون في المسكن ويدهنونه؟ على العكس. كنت لا تعترف برؤية شيء حتى ولو كنت قد رأيت إذ من الذي يشهد ضد نفسه؟

فقال راسكولنيكوف الذي كان يتابع تلك المحادثة باشمئزاز واضح:

ـ لو أنني قد عملت «هذا» لكنت قلت حتماً بأنني شاهدت العمال والمسكن.

ـ ولكن لِمَ التحدث عن أشياء تعتبر ضد المتحدث؟

ـ ذلك لأن أبناء الشعب وحدهم أو على الأصح المبتدئين تماماً المحرومين من كل تجربة هم أولاء الذين ينكرون دراكاً عندما يُسألون. أما الرجل الذكي المتدبر فإنه لا يتأخر عن الاعتراف ـ ضمن حدود الممكن ـ بكل الوقائع المادية التي لا يمكن إزاحتها غير أنه يفسر تلك الوقائع بشكل ما ويرتبها حسب هواه ثم يعطيها معنى غير منتظر ويقدمها تحت ضوء جديد. وقد كان بورفير ينتظر تماماً أن أسقط في الشرك وأن أجيب بأنني شاهدت العاملين بقصد إعطاء أقوالي لوناً من الحقيقة وأن أرضى عن نفسي بالتفسير الذي أكون قد أعطيته.

ـ لكنه كان سيجيبك فوراً بأن العاملين لم يكونا موجودين في اليوم الأسبق وأنك على هذا الأساس قد ذهبت إلى هناك في يوم الجريمة تماماً ولكان سيوقفك فوراً.

ـ إنه كان يعتمد على أنني لن أجد فسحة من الوقت للتفكير وإذاً علي أن أتهافت على إعطاء جواب يبدو قريباً إلى الحقيقة. كذلك كان ينتظر أن أكون قد نسيت بأن العمال ما كانوا هناك في اليوم الأسبق.

ـ لكن كيف يمكن على النسيان؟

ـ على أسهل وجه... في الواقع إن الأشخاص الأذكياء يسقطون رغم ذكائهم بسبب تفاصيل تافهة كهذه إذ إن المرء كلما ازداد مكراً زاد اعتقاده بأنه لا يمكن لسؤال تافه بسيط أن يسبب سقوطه. إن بورفير ليس غبياً كما تظن.

ـ لعمري! إذا كان قد تعمد ذلك فإنه يكون خبيثاً.

لم يتمالك راسكولنيكوف نفسه من الابتسام، وبدا سروره من تقديم ذلك التفسير وإقباله عليه غريبين في تلك اللحظة وهو الذي كان منذ قليل يشعر باشمئزاز شديد من تلك المحادثة فعزا ذلك الشعور إلى الغاية التي كان يهدف إليها في تلك اللحظة. وراح يسائل نفسه: «هل تذوقت فعلاً بعضاً من هذه الأسئلة؟» ولم يلبث أن شعر فجأة بقلق وكأن فكرة غير منتظرة. فكرة مقلقة بدأت تراوده فراح قلقه يتزايد.

كان في تلك اللحظة قد بلغ منزل باكلييف فقال فجأة لصديقه:

ـ ادخل أنت وسأعود أنا بعد قليل.

ـ إلى أين تمضي؟ ها قد وصلنا!

ـ لدي ما أعمله وإنه لواجب. ولسوف أعود في غضون نصف ساعة. أخبرهم بذلك.

ـ افعل ما تشاء! لكنني سأصحبك.

فهتف راسكولنيكوف بصوت منفعل مفعم بالمرارة:

ـ ماذا؟ أتريد أنت أيضاً أن تعذبني؟

وأشفع قوله هذا بنظرة يائسة جعلت ذراعي رازوميخين اللذين كان قد رفعهما للإمساك به يسقطان إلى جانبه ولبث لحظات واقفاً أمام مدخل الباب ينظر إلى راسكولنيكوف الذي كان يمشي بخطى حثيثة باتجاه الشارع الذي يقطن فيه.

راح رازوميخين يصرف على أسنانه ويقبض يديه بعنف وقوة ويقسم في سره ليعصرن بورفير كما يعصر الليمون ثم صعد إلى حيث بولشيري ألكسندروفنا ـ التي كانت قد بدأت تقلق لغيابهما ـ ليطمئنها.

بلغ راسكولنيكوف منزله وقد غمر العرق صدغيه وهو يتنفس بصعوبة فصعد السلم مسرعاً ودخل غرفته ثم أغلق بابها من الداخل بالمزلاج. وهرع بحركات مروعة إلى لزاوية التي كانت سجادة الجدار تخفي الثغرة الكامنة وراءها والتي كان أودع فيها «الأشياء» من قبل ورفع يده فيها وراح خلال عدة دقائق يبحث فيها بعناية فائقة وينظر بين الشقوق وخلال كل الثنيات. فلما لم يجد شيئاً، نهض مطمئناً. تصور منذ حين حينما بلغ منزل باكالييف، أن أي شيء كقطعة سلسلة أو زر أو الورقة التي كانت تلك الأشياء ملفوفة فيها والتي كانت تحمل تأشيرات مكتوبة بخط يد العجوز، أي شيء من هذا القبيل يمكن أن يكون قد سقط منه أو تخلف في الثغرة كان يشكل ـ إذا وجد خلال التفتيش المرتقب ـ دليلاً جرمياً يدينه بما لا سبيل إلى التملص منه، فلما اطمأن إلى خلو المكان منها، استغرق في لون من الشرود وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة مذعورة وغير إرادية... وأخيراً حمل قبعته وغادر الغرفة.

كانت الأفكار تتزاحم في رأسه وتصطخب وهكذا راح يهبط السلم ساهماً حتى بلغ الباب العمومي. فسمع صوتاً خشناً يقول:

ـ خذ! ها هو ذا!

فرفع رأسه مستطلعاً: كان البواب واقفاً أمام كوخه يشير إلى رجل قصير القامة يبدو عليه أنه صانع متواضع. كان يلبس ثوباً يشبه «الرودنكوت» وصدارة فيخيل للناظر إليه عن بعد أنه قروي. وكان يضع على رأسه قبعة قذرة ويمشي محني الظهر قليلاً حتى لكأنه كان أحدب. ومن النظر إلى وجهه المجعد النحيل، يبدو أنه قد تجاوز الخمسين. كانت عيناه غائرتين في محجريهما فيهما شيء من القسوة والشراسة والاستياء.

اقترب راسكولنيكوف من البواب وسأل:

ـ ماذا هناك؟

فألقى عليه الرجل القصير نظرة من الأسفل وراح يتأمله بعناية وتمهل ثم أدار له ظهره ببطء وابتعد دون أن ينطق بحرف واحد وبلغ الشارع.

هتف راسكولنيكوف:

ـ ما هذا؟ ماذا هناك؟

فأجاب الحارس:

ـ هذا شخص جاء يسألني عما إذا كان طالب ما يقطن في هذا البناء. ولقد نطق باسمك وسأل عن اسم صاحبة مسكنك وعندئذٍ هبطت أنت، فذهب هو، وأنت ترى كيف كان ذهابه!

دهش البواب قليلاً لتصرف الرجل ولبث برهة يفكر ثم استدار هو

الآخر ودخل كوخه. أما راسكولنيكوف فقد اندفع في أثر الرجل فإذا به يمشي في الجانب الآخر من الشارع بخطى متزنة بطيئة بادي التفكير وقد تعلقت نظراته بالأرض. فتبعه وراح خلال بعض الوقت يتأثر خطاه وأخيراً حاذاه ونظر إلى وجهه نظرة جانبية ولحظه الآخر فوراً فألقى عليه نظرة سريعة ثم عاد إلى إطراقه. مشيا هكذا جنباً إلى جنب طيلة دقيقة كاملة دون أن ينطقا بكلمة واحدة وأخيراً غمغم راسكولنيكوف بصوت مكتوم:

ـ لقد سألت عني لدى البواب.

فلم يجب الرجل حتى ولم ينظر إليه وعاد الصمت من جديد فاختنق صوت راسكولنيكوف ووجد صعوبة في إخراج الكلمات وهو يقول:

ـ غريب! لقد جئت تسأل عني ثم إذا بك تصمت فما معنى هذا؟

رفع الرجل رأسه هذه المرة وحدج راسكولنيكوف بنظرة عدائية متوحشة وتمتم بصوت منخفض واضح بيّن المخارج:

ـ قاتل!...

كان راسكولنيكوف يمشي إلى جانب الرجل القصير فشعر فجأة بساقيه تتخاذلان تخاذلاً مريعاً وأحسّ ببرودة تسري في ظهره وقد توقف قلبه عن الخفقان لحظة وكأنه انتزع دفعة واحدة. غير أنه استمر في سيره جنباً إلى جنب مع ذلك الرجل يخيم عليهما الصمت. قطعا كذلك حوالي مائة خطوة لم ينظر الرجل خلالها إليه وأخيراً غمغم راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يسمع:

ـ لكن! ماذا تقول؟ من هو القاتل؟

فأجاب الآخر بصوت واضح وبلهجة أعنف من الأولى:

ـ أنت القاتل!

وومضت على وجهه ابتسامة تفيض بحقد منتصر ثم نظر إلى وجهه الشاحب وعينيه المتبلورتين نظرة ثابتة. كانا قد بلغا ملتقى طرق فسار الرجل في واحد منها دون أن ينظر حوله بينما لبث راسكولنيكوف مسمراً في مكانه يتابعه بعينيه فترة طويلة. فرآه يلتفت وراءه بعد قطعه خمسين خطوة لينظر إليه بينما ظل هو في مكانه جامداً لا يتحرك.

لم يكن راسكولنيكوف في وضع يسمح له بتمييز الأشياء بوضوح لكنه خيل إليه للمرة الثانية أن ذلك الغريب قد التفت من جديد ونظر إليه وابتسم ابتسامته الباردة الحاقدة المنتصرة.

عاد راسكولنيكوف أدراجه بخطى بطيئة متعثرة متخاذل الساقين مرتعداً من الرعب ولما بلغ مسكنه ألقى بقبعته على المائدة ولبث واقفاً بجانبها زهاء عشر دقائق وأخيراً مضى إلى السرير خائر القوى واستلقى عليه وهو يرسل زمجرة أليمة فأغمض عينيه ولبث مستغرقاً في خواطره نصف ساعة كاملة.

لم يكن يفكر في شيء باستثناء بعض الخواطر أو على الأصح نتف الخواطر التي كانت تعرض له دون ترتيب ولا تسلسل. وجوه أشخاص كان قد رآهم في طفولته أو لقيهم في مكان ما مرة واحدة فلم تعد تخطر له بعدها على بال، قبة جرس كنيسة «ب»... منضدة «بليار» في مشرب وبالقرب منها ضابط ما... رائحة سيكار في دكان تبغ في قبو... سلم حانة، سلم مظلم جداً تجري المياه الآسنة عليه وقد انتثرت في أرجائه قشور البيض بينما ارتفع من هناك قرع أجراس ربانية...

كانت هذه الأشياء تتعاقب في مخيلته كالإعصار العنيف فكان بعضها محبباً إلى نفسه يتمسك به لكنه كان سرعان ما يتبخر وعلى العموم

كان في دخيلته شيء يثقل عليه ثقلاً غير شديد وكان يحس أحياناً بشيء من الراحة ولم تكن القشعريرة التي اكتسحت جسمه قد غادرته بعد. لكنها لم تعد بالنسبة إليه شيئاً مزعجاً.

سمع خطوات رازوميخين المتلاحقة فأغمض عينيه وتصنع الإغفاء وفتح رازوميخين الباب وظل واقفاً لحظة على العتبة ثم دخل بهدوء إلى الغرفة واقترب بحذر من «الديوان» وتناهى إلى سمعه همس ناستاسيا وهي تقول:

ـ لا تزعجه. دعه ينام ملء عينيه ولسوف يأكل فيما بعد.

وصوت رازوميخين يجيب:

صحيح!

ثم خرجا بهدوء وأغلقا الباب ومرت على ذلك نصف ساعة أخرى فتح راسكولنيكوف عينيه بعدها وعاد يستلقي على ظهره من جديد عاقداً يديه تحت رأسه:

«من يكون؟ من هو ذلك الرجل الذي ابنعث من تحت الأرض؟ أين كان وماذا رأى؟ لقد رأى كل شيء ما في ذلك شك! أين كان إذاً آنئذٍ ومن أين كان يراقب؟ لِمَ لم يظهر على مسرح الحوادث إلا الآن؟ همْ! وتلك الحلية التي وجدها «نيكولاي» وراء الباب! هل كان ذلك ممكناً أيضاً؟ أدلة جرمية؟ إن نقطة تدرس بعناية يمكن أن تتحول إلى دليل يبلغ في حجمه مبلغ أهرامات مصر. هل يعقل أن تكون ذبابة كانت طائرة هناك فرأت كل شيء؟».

كان راسكولنيكوف يفكر في كل هذا والرعشة الباردة المتجمدة كامنة في جسمه وفجأة أحس بالاشمئزاز العميق من الضعف الجسدي البالغ الذي كان عليه. وتابع تفكيره بابتسامة ويأس مريرين:

«كان ينبغي أن أفكر في ذلك! ثم كيف جرؤت ـ أنا الذي كنت أشعر شعوراً مسبقاً بما سيحل بي ـ كيف جرؤت على أخذ فأس وتلطيخ نفسي بالدم؟ لقد أردت معرفة ذلك مسبقاً! إيه! لكنني كنت أعرفه من قبل».

كان أحياناً يتوقف طويلاً أمام فكرة طارئة ويقول:

إن هؤلاء الناس لم يُصنعوا هكذا. إن «السيد» الحقيقي الذي يسمح له بكل شيء يضرب (طولون) بالمدافع وينظم مذبحة في باريس «وينسى» جيشاً كاملاً في مصر و«ينفق» نصف مليون رجل في معركة موسكو ثم ينسحب من الميدان بلغز في «فيلنا» إن «هذا» عند موته تقام له التماثيل وكل شيء إذاً مسموح له. كلا إن هؤلاء الرجال ليسوا من لحم ودم بل إنهم من «البرونز».

وجاءت فكرة أخرى على هامش هذه المسألة كادت أن تضحكه:

«نابوليون، الأهرامات، واترلو، وعجوز قذرة فانية أرملة مسجل كلية مرابية كريهة، صندوقها مغلف بالجلد الأحمر وموضوع تحت السرير! كيف يمكن أن يبتلع المرء هذا؟ حتى ولو كان بورفير بيتروفيتش؟ كيف سيهضمه؟ إن الذوق السليم ليعترض عليه. فهل كان نابوليون ليزحف تحت سرير امرأة عجوز؟ هيا اصمت أيها القذر!».

كان يشعر تارة أنه فريسة هذيان فأصبح تحت تأثير رعب محموم:

«لنفرض أن العجوز كانت ضحية خطيئة فإن المسألة ليست هنا إذ إنها لم تكن إلا لوناً من التشويش، ولقد أردت أن أجتاز «العائق» بسرعة إنه ليس مخلوقاً بشرياً ذلك الذي قتلته. بل هو المبدأ، المبدأ، ولقد قتلته كما يجب أما عن المرور فوقه فإنني لم استطع. نعم لقد لبثت عاجزاً عن المرور وكل ما استطعت عمله هو القتل وحتى هذا فإنني لم أحسن عمله كما يبدو!

المبدأ؟ لِمَ أهان رازوميخين السخيف الاشتراكيين منذ برهة؟ إنهم رجال أعمال نشيطون. إنهم يهدفون إلى «السعادة العالمية»... كلا. كلا. لقد أعطيت لي الحياة مرة واحدة ولا أريد أن أنظر تلك «السعادة العالمية» أريد أن أعيش بنفسي وإلا فإن من الأفضل ألا أعيش. ماذا بعد؟ كل ما في الأمر أنني لم أرغب في أن أمر أمام أم متلهفة مشوقة قابضاً على روبلي في جيبي بانتظار «السعادة العالمية» إنهم يقولون إنني أحمل حجري للمساهمة في بناء تلك السعادة وذلك كاف لأحصل على هدوء القلب».

هاها! لِمَ إذاً نسيتوني؟ ليس لي إلا حياة واحدة أريد أن أعيشها أنا الآخر؟... ثم انفجر ضاحكاً وقال: لست إلا هواماً في دنيا الجمال الخلقي. نعم هواماً! وعاد يضحك ضحكته المخبولة وبدت له الفكرة جميلة. متمسك بها بسرور حتى يمحصها ويتسلى باستعراضها على مختلف زواياها ويخاطب نفسه قائلاً:

لو أنني ناقشت الموضوع أولاً على اعتباري مثالة فقط أو هواماً، ثم لأنني ثانياً: أزعجت «القدرة» خلال شهر كامل وأنا أشهدها بأنه لن يكون ما قررت الأخذ به من أجل الجسد أو اللذة والسرور بل إنه في سبيل هدف جميل فتان... هاها! وفي المرحلة الثالثة على اعتبار أنني وضعت لنفسي مبدأ التنفيذ بأدق ما يمكن من العدالة ملاحظاً في تنفيذ عملي الوزن والمقياس والرياضيات فإنني انتقيت من كل موبقات العالم أكثرها ضرراً ولما قتلته كنت مقرراً في نفسي أن آخذ منه ما يلزمني للقيام بخطواتي الأولى لا أكثر ولا أقل. (والباقي كان سيذهب إلى الدير طبقاً لما ورد في وصيتها! هاها!) نعم نعم... إنني لست أكثر من هوام!

وصرف على أسنانه وأضاف:

ـ ذلك لأنني قد أكون شيئاً أحقر وأبشع من ذلك ولأنني من قبل كنت أشعر بأنني سأقول ذلك لنفسي عندما أقتلها. فهل هناك شيء يمكن أن يقارن بهذا الرعب؟ آه يا للدناءة ويا للنذالة! آه... آه... كم أفهم «النبي» الممتطي حصاناً الذي يهز بيده سيفاً! الله يريد فاستسلم وأطع أيها المخلوق «الرعديد»! إنه على حق! إنه على حق هو ـ النبي ـ عندما يكون تحت إمرته في مكان ما من الشارع «بطارية» مدفعية ممتازة تضرب الشرير والطيب دون أن يتنازل بإبداء تفسير! أطع أيها المخلوق الرعديد واحترس من أن «تريد» لأن الإرادة ليست من عملك! آه لن أغفر أبداً لتلك العجوز اللعينة!».

اخضل شعره بالعرق وارتجفت شفتاه وفارقهما رواؤهما! وشخص بصره إلى الجامد إلى السقف! وأردف:

«كم كنت أحب أمي وأختي فكيف حدث أن رحت أكرههما الآن؟ نعم! إنني أكرههما حسياً ولا أستطيع احتمالهما قريبتين مني! منذ حين اقتربت من أمي وعانقتها... إنني أذكر ذلك. كنت أعانقها وأفكر في موقفها لو كانت تعلم...! هل أستطيع أن أروي لها الأمر! سيكون عملاً طيباً مني... هم! ينبغي أن تكون مثلي تماماً...».

ثم استجمع أفكاره بمجهود جبار كما لو كان يناضل للتخلص من الهذيان الذي كان يدهمه وأضاف:

«العجوز! أعتقد أنني سأقتلها مرة أخرى إذا عادت! مسكينة إليزابيت! لمَ وجدت هناك؟ غريب! إني لا أكاد أذكرها كما لو أنني لم أقتلها! إليزابيت! سونيا! أيتها الفتيات المسكينات المتواضعات الوداعات ذوات العيون الطافحة بالطيبة والنبل. أيتها المخلوقات الغريزة! لماذا لا

يبكين؟ لِمَ لا يشتكين؟ إنهن يجردن أنفسهن من كل شيء وينظرن بهدوء وعذوبة! سونيا... سونيا... سونيا الهادئة!» وفقد الذاكرة!

وبدا له غريباً أن لا يذكر كيف وجد نفسه في الشارع. كان المساء قد حل وتقدم شوطاً... وتكاثف الظلام والقمر يلتمع بنور يزداد قوة! لكن الجو كان خانقاً بشكل ملحوظ وكانت جماعة من الناس تسير في الشارع والعمال المتعبون المكدودون عائدين إلى دورهم أما الآخرون فكانوا يتنزهون! وكانت هناك رائحة كلس وغبار وماء آسن. وكان راسكولنيكوف يسير حزيناً مشغول الفكر وهو يتذكر أنه خرج من البيت لغاية ما وأن عليه أن يقوم بعمل عاجل لكنه نسي طبيعة ذلك العمل.

وفجأة توقف عن السير إذ رأى في الجانب الآخر من الشارع رجلاً على الرصيف يشير إليه بيده! فاجتاز الطريق ليبلغ إليه لكن الرجل استدار فجأة وعاد يمشي كما لو أنه لم يكن مشغولاً بشيء. كان مطرق الرأس لا ينظر وراءه، ولا يبدو عليه أنه نادى راسكولنيكوف. وتساءل راسكولنيكوف قائلاً: «لكن ماذا؟ لقد ناداني!» وراح يتعقبه! فلم يقطع عشر خطوات حتى عرفه! كان وهو الرجل القصير الذي تحدث معه منذ حين وكان يرتدي ثيابه تلك ويبدو محدودباً كما رآه أول مرة!

تبعه راسكولنيكوف عن بعد وقد ازدادت ضربات قلبه وسلكا شارعاً جانبياً دون أن يلتفت الرجل نحوه! فتساءل راسكولنيكوف قائلاً: «ترى هل يعرف أنني على آثاره؟» وفجأة اجتاز الرجل مدخلاً عمومياً يؤدي إلى بناء كبير. فاتجه راسكولنيكوف بسرعة نحو المدخل وراح يمعن النظر. فهل كان ذلك الرجل ينظر إليه وهل كان يناديه لا شك لأنه عندما تقدمه في الدخول التفت نحوه وأشار له بيده. فتبعه راسكولنيكوف على الفور لكنه لم يجده حيث كان! كان قد اختفى! قدر راسكولنيكوف أنه لا شك

ولج أقرب مدخل إلى حيث كان يقف. وكان هناك سلم قريب يقع إلى اليمين فاندفع راسكولنيكوف صاعداً وما أن ارتقى طبقتين حتى كان صوت الخطوات البطيئة المتزنة يصل إلى أذنيه بوضوح. والغريب في الأمر أن ذلك السلم لم يبد غريباً في عينيه. هذه نافذة الطبقة الأولى. كان ضوء القمر يتسلل خلالها حزيناً غامضاً... وهذه الطبقة الثانية من البناء... هه! هذا هو المسكن الذي كان العاملان يشتغلان فيه! كيف لم يتعرف على المنزل قبل أن يدخله؟

كانت خطوات الرجل قد خفتت في تلك اللحظة فقدر راسكولنيكوف أنه توقف واختبأ في مكان ما وسرعان ما ارتقى السلم وثباً إلى الطبقة الثانية. وراح يسأل نفسه عما إذا كان يجب أن يتابع الصعود!... يا للسكون المخيف! وعاد إلى السلم يرتقيه!

أصبح وقع خطواته الشخصية يخيفه ويرهبه! فهتف:

ـ رباه ما أشد الظلام! إن الغريب ولا شك مختبئ في مكان ما... في إحدى الزوايا! آه إن المسكن الذي يطل على السلم مفتوح الباب!

فكر قليلاً ثم دخل! كان المدخل معتماً جداً وخالياً لا أحد فيه حتى وكأن المسكن كان خالياً. فسار على أطراف قدميه متجنباً إصدار أي صوت ودخل «الصالون» فإذا بضوء القمر يغمر وينيره بشدة. كان كل شيء كما عهده من قبل، المقاعد والمرآة والديوان أصغر والصور في إطاراتها! وكان القمر كبيراً ذا لون أحمر كالنحاس يطل بنوره القوي من النافذة! فكرر راسكولنيكوف «بأن هذا السكون مبعثه القمر لأنه ـ أي القمر ـ كان يحاول حل بعض المعميات»!

توقف برهة وانتظر طويلاً وكان قلبه يزداد اضطراباً كلما ازداد القمر

هدوءاً حتى إنه شعر بألم جسماني من تأثير وجيب قلبه المرتفع. وكان السكون يخيم أبداً... وفجأة تناهت إلى سمعه قرقعة جافة كما لو أن بعضهم قد وطأ غصناً جافاً ثم عاد السكون من جديد! بينما دندنت ذبابة مذعورة وراحت تحوم حتى اصطدمت بزجاج النافذة وهي تطن طنيناً أليماً وفي تلك اللحظة، شاهد في الزاوية بين الخزانة الصغيرة والنافذة، شيئاً يشبه معطفاً نسائياً كان معلقاً إلى الجدار. فراح يفكر قائلاً:

ـ لماذا بقي هذا المعطف هنا؟ إنه لم يكن في هذا المكان من قبل!

واقترب بهدوء وقد خمن أن بعضهم مختبئ وراءه... وفي حذر بالغ، أزاح بيده المعطف فرأى وراءه مقعداً وعلى ذلك المقعد في الزاوية تماماً جلست العجوز منطوية على نفسها منخفضة الرأس لدرجة لم يتمكن معها من تمييز وجهها. ومع ذلك فقد تأكد بأنها هي هي! وهتف يناجي نفسه قائلاً:

ـ إنها خائفة!

وبهدوء زائد خلص فأسه من الأنشوطة التي ربطها بها ثم ضرب العجوز بالفأس على جمجمتها ضربة وكررها ثانية! لكنها ـ ولشديد استغرابه ـ لم تترنح تحت قوة الضربتين. فانحنى عليها يفحصها عن قرب لكنها أحنت رأسها أكثر فأكثر وبعد ذلك انطوت حتى وصل رأسها إلى الأرض ونظرت إليه من قدميه إلى رأسه ونظر هو بدوره إليها ثم تسمر في مكانه!

كانت العجوز جالسة على كرسيها تضحك! كانت تتلوى بضحكة مكتومة تسعى بكل جهدها إلى إخفائها حتى لا يسمعها. وفجأة خيل إليه أن باب غرفة النوم قد فتح وأن هناك وراءه من يضحك ساخراً منه

ويهمس! فامتلكه غضب جامح وراح ينهال على العجوز ضرباً بكل قوته ولكن الضحكات والهمسات كانت تزداد كلما انهال ضرباً بالفأس حتى غدت مسموعة واضحة. وكانت العجوز خلال ذلك تضحك ملء فمها! فأراد أن يفر لكن مدخل المسكن كان قد أصبح مزدحماً بالناس بينما كان الباب المؤدي إلى السلم مفتوحاً على مصراعيه وكان الممشى ودرجات السلم كلها مزدحمة بالأشخاص أيضاً فلم يكن يرى منهم إلا رؤوساً متقاربة! وكانوا جميعاً ينظرون ولكنهم كانوا يحاولون الاحتجاب وينتظرون صامتين!... فانقبض قلبه ورفضت ساقاه الحركة وكأنهما قد اتخذتا جذوراً في الأرض فأراد الصراخ و... استيقظ!

استرد أنفاسه بصعوبة وبدا له ـ لشديد استغرابه ـ أن الحلم لا يزال مستمراً فقد كان باب غرفته مفتوحاً وعلى العتبة وقف رجل لم يكن قدر رآه أو عرفه من قبل وكان الرجل ينظر إليه نظرة ثانية. فلم يكد راسكولنيكوف يفتح عينيه قليلاً حتى عاد وأغمضهما. كان مستلقياً على قفاه دون حراك. فراح يتساءل! «أهو الحلم الذي لا زال مستمراً أم ماذا؟» وعاد من جديد يختلس نظرة خلال أهدابه.

كان الغريب لا يزال واقفاً في مكانه يرقبه. وفجأة اجتاز عتبة الحجرة باحتراس وأغلق الباب وراءه بعناية ثم اقترب من المائدة وانتظر دقيقة دون أن يفارقه بنظره وأخيراً جلس بهدوء على مقعد بالقرب من «السرير» ووضع قبعته إلى جانبه واتكأ بيديه الاثنتين على مقبض عصاه وترك ذقنه ترتكز على يديه. كان يبدو عليه استعداده للانتظار الطويل فراح راسكولنيكوف يرتقبه خلسة بقدر ما سمحت له الظروف بالمراقبة. كان الرجل مسناً قوي البنيان ذا لحية كثيفة شقراء أقرب إلى البياض.

انقضت عشر دقائق وكان ضوء النهار لا يزال يضيء الحجرة غير

أن المساء كان يقترب مسرعاً. وكان السكوت المطبق يخيم على الغرفة فلا حركة على السلم ولا في أي مكان اللهم إلا طنين ذبابة كبيرة كانت ترتطم بزجاج النافذة أثناء طيرانها. فلم يستطع راسكولنيكوف احتمال هذا الموقف أكثر مما احتمل. لذلك فقد نهض فجأة وجلس في مكانه على الديوان وقال:

ـ حسناً! تكلم! ماذا تريد؟

فأجاب الغريب بلهجة مضحكة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وديعة وقال:

ـ لعمري لقد كنت متأكداً من أنك غير نائم واثقاً من أنك تخاتلني فحسب اسمح لي أن أقدم نفسي إليك: أركاد إيفانوفيتش سفيدريكايلوف!

الجريمة والعقاب

أرسل دوستويفسكي رسالة إلى ناشر جريدة الرسول الروسي يقول فيها:

هل آمل في نشر رواية في مجلتك الرسول الروسي ؟

إنها دراسة نفسية لجريمة تقع في أيامنا هذه، بل في هذا العام بالتحديد. شاب من أسرة بورجوازية صغيرة مطرود من الجامعة ويعيش في بؤس قاتل، بدون وعي، بمبادئ مضطربة، متأثراً بأفكار غريبة غير ناضجة، مجالها الخيال، يقرر الإفلات إلى الأبد من وضعه التعس. يصمم على قتل امرأة عجوز، أرملة مستشار مستبد، تقرض المال بالربا، لإسعاد أمه التي تعيش في جنبات العاصمة، وإنقاذ أخته المستخدمة لدى مالك عقار يهدد مستقبلها، ولإنهاء دراسته والسفر إلى الخارج وليحيا سعيداً مستقيماً ملبياً واجب الطيبة مع الآخرين من هذا الجنس البشري. إن استطعنا أن نسمي جرماً هذا الفعل ضد شخص عجوز صماء، خبيثة و عليلة، ربما ماتت بعد شهر حتف أنفها. علماً أن هذه الجرائم صعبة التحقيق بشكل رهيب، لأن الدوافع والأمارات جلية واضحة، وأن كثيراً من الأمور متروكة للصدفة، الأمر الذي يفضح المجرم دائماً، كل هذا يجعل المجرم يعزف عن مشروعه. وينقضي شهر بين الجريمة وبين الكارثة النهائية. القاتل غير متهم أبداً، ولا يمكن أن يكون. وهنا يتضح تطور الجريمة النفساني: قضايا عصية وغير متوقعة توجع قلبه. العدالة الإلهية وشرعة الناس تأخذ حقها ويكره أخيراً على الذهاب إلى حيث يشيء بنفسه. لم يمت في المنفى، بل عاد ليعيش بين الناس. إن ما يعذبه هو يقظة الحس الإنساني في ضلوعه بعد أن أنجز جريمته. إن قانون العدالة والطبيعة البشرية أخذا حقهما. فالمجرم نفسه يقرر قبول العذاب ليكفر عن خطيئته.

ISBN 978-1-7732218-4-7

9 781773 221847

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain_L
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين